المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

جى. إم. بلاوت

نموذج المستعمر للعالم

الانتشار الجغرافى وتاريخ المركزية الأوروبية



ترجمة: هبة الشايب

مراجعة: فيصل يونس

1410

يتناول هذا العمل المرجعى المهم ما يطلق عليه "المركزية الأوروبية"، ذلك المصطلح الذى يشير إلى كل المعتقدات التى تسلم بفكرة تفوق الأوروبيين على غير الأوروبيين (وعلى الأقليات من ذوى الأصول غير الأوروبية)، كما أنه جزء مهم من التيار النقدى الجارف، الذى يضع هذه المركزية الأوروبية موضع المساءلة على ضوء حقائق التاريخ والجغرافيا والعلوم الاجتماعية".

تصميم الغلاف: هند سمير

نموذج المستعمر للعالم

الانتشار الجغرافى وتاريخ المركزية الأوروبية

المركز القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد : 1410
- نموذج المستعمر للعالم
- چى . إم . بلاوت
- هبة الشايب
- فيصل يونس
- الطبعة الأولى 2010

هذه ترجمة كتاب :

The Colonizer's Model of the World:

Geographical Diffusionism and Eurocentric History

by : J. M. Blaut

Published by arrangement With The Guilford Press

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة . ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo
e.mail:egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 - 27354526 Fax: 27354554

نموذج المستعمر للعالم

(الانتشار الجغرافى وتاريخ المركزية الأوروبية)

تأليف : چي . إم . بلاوت

ترجمة : هبة الشايب

مراجعة : فيصل يونس

2010

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

بلاوت . چى . إم .
نموذج المستعمر للعالم: الانتشار الجغرافى وتاريخ المركزية الأوروبية /
تأليف: چى. إم. بلاوت؛ ترجمة: هبة الشايب؛ مراجعة: فيصل يونس
ط١- القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٠
٣٣٦ ص ، ٢٤ سم
١ - العنوان ٣٢٥.٣٢
(أ) الشايب ، هبة (مترجم)
(ب) يونس ، فيصل (مراجع)

رقم الإيداع ٢٠٠٩/١١٨١٨
الترقيم الدولى 978-977-479-404-9
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

إلـى ميـكـا وچيـنـى وأمـى

المحتويات

اعتراف بالفضل

أسهم الكثيرون إسهامًا كبيرًا فى هذا الكتاب. أعطانى بيتر تايلور وويلبر زيلنسكى التشجيع الكبير والنصيحة الحكيمة التى لم أكن دائمًا ألتفت إليها خلال سنوات انشغالى بالقضايا والأفكار المناقشة هنا. ومن بين الكثيرين الذين أسهموا فى هذا الكتاب وأعترف لهم بالجميل من حيث الأفكار الجيدة - لا الأخطاء - التى احتواها هذا الكتاب، أود أن أخص بالذكر عبد الكلمات وسمير أمين ووليم دنقان ولويدا فيجروا وأندريه جندر فرانك ووليم لورن كاتز وخوزيه لوبيز وكانت ماثيوسن وأنطونيو ريوس بستامنت وأميريكا سورنتينى دوبلاوت ، وبن وزنر. على مدار السنين حثنى الكثير من الناس على التفكير فى المشاكل التى يناقشها الكتاب، كما أعطونى الإجابة على بعضٍ منها. من بين هؤلاء الأصدقاء والمعلمين والطلاب أحب أن أذكر: تشاو لى تشى وغازى فلاح وفريد هاردى وفريد نيفن وچوان مارى برا وفرانسيس مارك وسيدنى مينتز ونج هونج ودوريس بيسارو وراندولف رولنز وآنسليم ريمى ووالدو رودريجز وديجنا سانشيز وهاورد ستانتن وداڤيد شتى ولاكشمن يابا. كما قام كل من بيتر ويسوكر وأنا براكيت بمراجعة هذا الكتاب بصبر ومهارة. أُخذت فقرتان فى الفصل الثالث والرابع وفقرة فى الفصل الثانى من مقالة لى نشرت فى الدورية العلمية "الجغرافيا السياسية" عام ١٩٩٢(Blaut 1992 b) وأعيد نشرها هنا بعد موافقة الناشر بترورث هاينامن.

الفصل الأول

التاريخ من الداخل والخارج

المجـــــادلة

يهدف هذا الكتاب إلى زعزعة الثقة فى واحد من أكثر المعتقدات المعاصرة قوة فيما يختص بتاريخ العالم وجغرافيته. ويتمثل هذا المعتقد فى الافتراض السائد بأن الحضارة الأوروبية أو الغرب قد تمتع ببعض المزايا التاريخية الفريدة وبعض الصفات الخاصة فى العرق أو الثقافة أو البيئة أو العقل أو الروح مما أعطى هذا المجتمع الإنسانى تفوقًا دائمًا على ما عداه من مجتمعات فى الماضى وحتى فى وقتنا الحاضر.

هذا معتقد تاريخى كما أنه جغرافى فى آن. إذ ينظر إلى الأوروبيين على أنهم صناع التاريخ. إذ تتقدم أوروبا وتتطور وتسير نحو التحديث دائمًا وأبدًا، بينما يتقدم باقى العالم ببطء ويتجمد ويُنظر إليه على أنه مجتمع تقليدى. ولذا يمكن القول إن العالم لديه مركز جغرافى دائم وطرف خارجى دائم. وفى قول آخر لديه جزء داخلى وجزء خارجى، وبينما يقود الداخل فإن الخارج دائمًا ما يتبع. الداخل يبدع أما الخارج فيقلد.

ويمثل هذا المعتقد نظرية الانتشار(*) أو على نحو أكثر دقة انتشار المركزية الأوروبية(**). إنه نظرية عن الطريقة التى تتحرك بها العمليات الثقافية على سطح

(*) يستخدم هذا المصطلح للإشارة إلى انتشار جوانب الثقافة من أفكار وديانات وتكنولوجيا ... إلخ بين الأفراد سواء من ثقافة واحدة أو ثقافات مختلفة.

(**) يشير هذا المصطلح إلى رؤية العالم من وجهة نظر أوروبية مع الاعتقاد سواء بوعى أو بدون وعى بتفوق أوروبا والثقافة الغربية على حساب غيرها.

العالم ككل، حيث تنبع هذه العمليات من القطاع الأوروبى باتجاه غير الأوروبى. إن هذا هو المسار الطبيعى والمنطقى والأخلاقى للثقافة وللإبداع وللعلية الإنسانية. أوروبا دائمًا وأبدًا هى الداخل أو المركز أما غيرها فهو الخارج أو الطرف. أوروبا هى مصدر كل انتشار أما غيرها فهو المستقبل لهذ الانتشار(١) .

وتقع نظرية الانتشار فى صلب الدراسات الأكاديمية التاريخية والجغرافية. وفى السنوات الأخيرة حدث قدر من التشكك فى بعض جوانب هذا المعتقد، ولكن مبادئه الأساسية بقيت لا يعتورها الشك كما لم يتزعزع هذا المعتقد ككل أو حتى يضعف فى الحقل الأكاديمى الحديث.

تعد نظرية " النهضة العصامية لأوروبا "أهم مبادئ نظرية الانتشار التى يطلق عليها بنوع من الفخر فكرة "المعجزة الأوروبية". إنها فكرة كيف كانت أوروبا قبل عام ١٤٩٢ (أى قبل فترة الاستعمار، أو الفترة التى اتصلت أوروبا بغيرها من الأقاليم بعلاقات قوية) أكثر تقدمًا وتطورًا من غيرها. ولو سلمنا بحقيقة هذه الفرضية – مع العلم بأن معظم الأكاديميين يسلمون بها – سيتبع هذا تسليم آخر بأن التحديث الاجتماعى والاقتصادى فى أوروبا جاء نتيجة صفات داخلية لأوروبا، وليس نتيجة تفاعل بينها وبين مجتمعات أخرى مثل أفريقيا وآسيا وأمريكا فيما بعد ١٤٩٢ .

وعلى هذا فإن أسس العصر الحديث ينبغى أن تكون أوروبية. وعليه أيضًا فإن الاستعمار لم يكن مهمًا لدخول أوروبا العصر الحديث. ويترتب على هذا أيضًا أن الاستعمار يجب ألا يعنى للأفارقة والآسيويين والأمريكيين السلب والهدم الثقافى، بل على العكس فهو تلقى الحضارة الأوروبية أو استقبال الحداثة والعصر الحديث عن طريق نظرية الانتشار من أوروبا.

يحلل هذا الكتاب وينقد نظرية انتشار المركزية الأوروبية كمجموعة من الأفكار وسيحاول زعزعة الثقة فى النظرية القائلة بالنهضة العصامية لأوروبا. يناقش الفصل الأول طبيعة نظرية الانتشار وتاريخها. أما الفصل الثانى فيحلل نظرية النهضة

العصامية لأوروبا على أساس أنها مجموعة من الافتراضات عن تفوق أوروبا وتميزها وعن المعجزة الأوروبية، ثم يحاول دحض هذه الافتراضات واحدة تلو الأخرى. أما الفصل الثالث فيناقش تاريخ العالم والجغرافيا التاريخية فيما قبل ١٤٩٢، محاولاً توضيح كيف أن أوروبا لم تكن أفضل من الحضارات والأقاليم الأخرى في هذا الوقت. ويدعى الفصل الرابع أن الاستعمار هو العملية الأساسية بعد ١٤٩٢ التى أدت إلى نهضة أوروبا الاختيارية، أى تحديث أو تطوير أوروبا مع توضيح المناطق المتأثرة بالثقافة الأوروبية مثل الولايات المتحدة. وكذلك أيضًا تخلف آسيا، وأفريقيا وأمريكا اللاتينية. كما يدعى الفصل الرابع أيضًا أن غزو أمريكا وما ترتب عليه من انتشار الاستعمار الأوروبى لا يمكن تفسيره فى ضوء الصفات الداخلية لأوروبا، بل على النقيض من ذلك يعكس الظروف الطبيعية للموقع، وتمثل سلسلة الادعاءات التى تقدمها الفصول الثانى والثالث والرابع ككل محاولة لتوضيح كيف أن أوروبا لم تمتلك أى تفوق أو أولوية – أو أى تميز تاريخى – على ما نسميه حاليًا بالعالم الثالث.

قد يبدو هذا على أنه مشروعٌ طموح بالنسبة لكتاب واحد صغير. وفى واقع الأمر أنا أقدم ادعاءً واحدًا. حيث أؤكد على أن هناك خطأ واضحًا وأساسيًا فى تفكيرنا السابق عن الجغرافيا والتاريخ، ونتيجة لهذا الخطأ فقد تم تشويه الكثير فى مجالات الأفكار والأعمال. سوف أقدم الأدلة الكافية التى توضح أن المعتقد القائل بانتشار المركزية الأوروبية وتميز أو تفوق أوروبا التاريخى غير مقنع، ولا يستند إلى أساس قوى من حقائق فى التاريخ والجغرافيا، رغم رسوخه فى الحضارة الغربية حتى كاد أن يكون فلكلورًا.

نفق الزمن

لو كنت قد ذهبت إلى المدرسة فى أوروبا أو أمريكا الإنجليزية منذ ١٥٠ سنة سابقة فى منتصف القرن التاسع عشر، لكنت قد درست نوعًا غريبًا من التاريخ. أو كنت قد

تعلمت أن أى شيء عظيم حدث للإنسانية قد حدث فى جزء واحد من العالم؛ هو الإقليم الذى سنطلق عليه " أوروبا الكبرى " بمعنى قارة أوروبا الجغرافية، بالإضافة إلى (فى الأزمنة القديمة فقط) جزء من الجنوب الشرقى لها وهو ما يعرف بأرض الإنجيل من شمال أفريقيا إلى بلاد ما بين النهرين بالإضافة إلى (فى الأوقات الحديثة فقط) بلدان المستوطنات الأوروبية فيما وراء البحار. ربما تكون قد تعلمت أن الله قد خلق الإنسان فى هذا الإقليم: فقد ذكرت جنات عدن على أنها نقطة البداية للتاريخ الإنسانى فى كتب التاريخ فى هذه الفترة. وفى هذه الكتب نجد عدن فى مناطق متعددة بين شواطئ البحر المتوسط وجبال آسيا الداخلية.

ويمكن أن يدعى بعض مدرسيك أن الناس فى هذا الإقليم هم البشر الحقيقيون. فقد خلق الله الناس فى أماكن أخرى على أنهم أنواع مختلفة غير إنسانية أو بالأحرى دون مستوى البشر. وقد يجتمع مدرسو العلوم مع مدرسى التاريخ على أن غير الأوروبيين ليسوا على نفس الدرجة من ذكاء وشرف وشجاعة الأوروبيين. لقد خلقهم الله على درجة أقل. ولو سألت مدرسيك عن سبب أن الأوروبيين أكثر إنسانية وذكاء من غيرهم لعوقبت بشدة على سؤالٍ مثل هذا، ولربما تكون قد أُخبرت بأن إله المسيحية قد خلق العالم ويديره الآن، وعليه فيكون من الحماقة بل والكفر أن تقترح أنه يمكن لهذا الإله أن يُعطى نفس الأولوية لغير الأوروبيين، غير المسيحيين، كالتى يُعطيها لهؤلاء الذين يعبدون الله الحق ويقدمون القرابين الملائمة.

إذا كنت تدرس الجغرافيا والتاريخ فى منتصف القرن التاسع عشر لكنت قد تعلمت شيئًا عن العالم غير الأوروبى. ولكان قد تم تصوير شعوب أفريقيا وآسيا على أنهم ليسوا فقط أقل ولكنهم، بمعنىً ما، أشرار. إنهم الذين رفضوا نعمة الله ومن ثم سقطوا من تفضيله. فالأفارقة إذًا همج قُساة وعليه يكون الأفضل لهم أن يُستَخدموا فى العمل النافع ويُنصَّروا. وقد تمكن الصينيون والهنود لسببٍ غير معروف من بناء حضارات بربرية ولكن لكونهم غير أوروبيين وغير مسيحين بدأت حضاراتهم ومنذ فترةٍ

طويلةٍ فى الركــود والتــراجع. وبالرغم من روعــة تلك الحــضــارات فــهـــى لم تكن حضارات حقيقية، كانت استبداداً شرقياً قاسياً. لقد عرف الأوروبيون وحدهم الحرية الحقيقية.

ويطبيعة الحال تتغير الأفكار. ولو كنت قد ذهبت إلى المدرسة بعد خمسين عامًا أخرى فى بداية القرن لكنت قد تعلمت شكلاً أكثر علمانية للتاريخ. ولكان له طابع تطورى ليس داروينيًا بعد (نسبة إلى دارون صاحب نظرية النشوء والارتقاء). ولربما تكون قد تعلمت أن الأرض قديمة جدًا والحياة كذلك، وأن نوعنا البشرى كان موجوداً منذ وقت بعيد. كما أن كل الأحداث المهمة حدثت فى أوروبا أو أوروبا الكبرى. الإنسان الحقيقى الأول (كرو – ماجنون) عاش فى أوروبا، واخترعت الزراعة فى أوروبا الكبرى، ربما فى القارة نفسها، أو فى أرض الإنجيل؛ فى المهد الثقافى الذى تدعيه أوروبا لنفسها. وربما تكون قد أُخبرت فى درس عن تاريخ العالمِ أن الإرهاصات البربرية الأولى للحضارة حدثت فى أرض الإنجيل. ففى هذه الأرض ظهر شعبان من شعوب القوقاز هما من صنع التاريخ. وإذ اخترع الساميون المدن والإمبراطوريات وأعطونا التوحيد والمسيحية، ولكنهم توقفوا عند هذا الحد، بل غرقوا فى تدهور شرقى. وبالرغم من كون الآريين أو الإندو – أوروبيين شعبًا متخلفًا فإنهم محبون للحرية، وقد تمكنوا من البناء على هذه الأسس بعد أن هاجروا مـن المناطـق الجنـوبية الشـرقية لأوروبا أو غرب آسيا لأوروبا صانعين مجتمعًا متحضراً حقيقيًا، ألا وهو مجتمع اليونان القديمة. وأخذ الرومان بيد الحضارة إلى مستوى أعلى، ومن هذا الحين فصاعداً تقدم تاريخ العالم بقوة نحو الشمال الغربى. لو كانت مدرستك فى إنجلترا، لربما تكون قد أُخبرت أن التاريخ تقدم من الشرق (أرض الإنجيل) إلى أثينا، إلى روما، إلى فرنسا الإقطاعية، وأخيراً إلى إنجلترا الحديثة. كأنه قطار الشرق السريع يسير باتجاه الغرب.

ثم بدأت تُقدم فى المدارس الأوروبية صورة علمانية للجغرافيا عن المناطق غير الأوروبية. فالأفارقة مازالوا الهمج والشعوب الشرقية منحلون وطغاة. ولكن حدثت تغيرات مهمة فى العلاقة بين أوروبا وغيرها خلال القرن التاسع عشر، ومع عام ١٩٥٥ رسخت نظرية معينة عن هذه العلاقة فى هذا السياق وأصبحت تدرس فى المدارس على أنها جغرافيا العالم الطبيعية. إنها النظرية (المشروحة لاحقًا فى هذا الفصل) التى بمؤداها يمكن لغير الأوروبيين أن ينهضوا لمستوى الحضارة وربما يتساوون مع أو على الأقل يقاربون الأوروبيين، ولكن تحت الوصاية الأوروبية أى تحت السيطرة الاستعمارية الأوروبية.

لنفترض أننا تقدمنا للأمام نصف قرن آخر، للتاريخ والجغرافيا التى تدرس إبان الحرب العالمية الثانية. لا يوجد تغير يذكر. الرجل الأول الحقيقى مازال كرو - ماجنون الأوروبى. اخترعت الزراعة فى أرض الإنجيل وكذلك بدايات الحضارة. الحضارة الحقيقية لا تزال تتقدم من أثينا إلى روما إلى باريس إلى لندن وربما تتجه باتجاه نيويورك. ولا يسهم غير الأوروبيين كثيرًا فى تاريخ العالم بالرغم من كونهم بدأوا فى هذا نتيجة للتأثير الأوروبى. (تتعلم الشعوب المستعمرة من معلميها واليابان تقلد بنجاح وهكذا ...) مازال الأوروبيون أذكى ، أفضل وأجرأ من الآخرين[٢] .

ويمكن أن نلخص هذا كله بصورة سوف تكون مفيدة فى هذا الكتاب. إنها فكرة أن العالم له داخل وخارج. وقد كان تاريخ العالم ومازال هو تاريخ الداخل. ويبقى الخارج غير متصل بالموضوع. ولذا فيمكن القول إن التاريخ والجغرافيا التاريخية كما كانت تدرس وتكتب ويفكر الأوروبيون بها حتى الحرب العالمية الثانية ومازالت فى مناحى كثيرة إلى يومنا هذا تقع فى نفق للزمن. ومجازًا يمكن القول إن جدران هذا النفق هى الحدود المكانية لأوروبا الكبرى. إن التاريخ هو محاولة النظر للوراء من خلال نفق الزمن الأوروبى ومحاولة الفصل فى ماذا حدث وأين ومتى ولماذا. يستدعى السؤال لماذا علاقات بين أحداث تاريخية، ولكنها بين تلك الأحداث التى

تقع فى النفق الأوروبى. يبدو كل شىء خارج هذا النفق وكأنه تقليد جامد وراكد وأزلى. سأسمى طريقة التفكير هذه "الرؤية النفقية للتاريخ" أو على نحو أبسط هذا "التاريخ النفقى".

فى التاريخ النفقى تم تجاهل الشكل القديم للعالم غير الأوروبى، فقد خصصت المقررات الدراسية والأطالس صفحات قليلة للمناطق خارج أوروبا الكبرى (أى أوروبا، والمستوطنات الأوروبية فيما وراء البحار والشرق الأدنى فى حالة التاريخ القديم للحملات الصليبية) حتى نأتى لعام ١٤٩٢ . وتمتعت المناطق غير الأوروبية (أفريقيا، المناطق الآسيوية الواقعة شرق أرض الإنجيل، أمريكا اللاتينية وجزر المحيط الهادى) باهتمام ملحوظ وذلك لكونها مسرحًا للنشاطات الاستعمارية الأوروبية فقط. وكان معظم ما قيل عن هذه المناطق هو فى الأساس تاريخ الإمبراطورية(٣) . فى هذه المقررات الدراسية القديمة والأطالس التاريخية لم يكن الاهتمام الأكبر منصبًّا على أوروبا الكبرى فقط، بل إن تاريخ العالم كان يوصف على أنه يتدفق بانتظام مع مرور الزمن ناحية الغرب من أرض الإنجيل إلى شرق أوروبا المتوسطى وإلى شمال غرب أوروبا. ويمكن على الفور إدراك هذا النمط لو لاحظنا بروز الأماكن التى ذكرت فى هذه المصادر، أى معدل تكرار أسماء أماكن لأقاليم مختلفة وفى فترات مختلفة. فى أكثر الفترات تبكيرًا يتركز ذكر أسماء الأماكن فى أرض الإنجيل والمناطق الشرقية المتطرفة من البحر المتوسط. وفى الفترات اللاحقة ينتقل تركز ذكر أسماء الأماكن إلى مناطق أقرب للغرب والشمال الغربى وفى النهاية يتمركز فى الشمال الغربى لأوروبا فى الفترة مابعد حوالى ١٠٠٠ قبل الميلاد. إن هذا هو نمط قطار الشرق السريع الذى أشرنا إليه سابقًا.

ولكن بعد الحرب العالمية الثانية، بدأت المقررات الدراسية فى عرض شكل آخر أكثر كياسة للتاريخ النفقى. فقد أُدخل العالم غير الأوروبى بقوة داخل الوعى الأوروبى،

أثناء تبعات الحرب مع اليابان وفى خضم الكفاح الشديد ضد الاستعمار، وفى حركة الحقوق المدنية فى الولايات المتحدة وما شابه ذلك. وأسهبت الكثير من المقررات الدراسية الجديدة فى مناقشة التاريخ غير الأوروبى وذُكرت أشياء عن الإنجازات التاريخية للثقافات غير الأوروبية. كما أضفت معظم المقررات مسحة تطورية على التاريخ غير الأوروبى مبتعدة عن النمط القديم الذى عزل هذه المجتمعات لركودها وجمودها. توصف المجتمعات الآسيوية الآن بأنها تمتلك حركة تطورية ولكنها أبطأ من التطور فى أوروبا. ومازالت أفريقيا قبيل الحقبة الاستعمارية توصف بأنها جامدة وبلا تاريخ. وقد أُعطى الاهتمام الأكبر لآسيا. وعلى أى حال فقد حظيت أفريقيا والجزء الغربى من الكرة الأرضية بالقليل من الاهتمام فى الفترات ما قبل ١٤٩٢ . كما أن نمط ذكر أسماء الأماكن فى معظم - وليس كل - الكتب والأطالس يوحى باتجاة ما نحو الغرب والشمال الغربى من الشرق الأدنى إلى أوروبا الغربية. وقد سيطرت نظرية التاريخ النفقى على معظم المقررات الدراسية فى أهم الأمور قاطبة: السؤال عن "لماذا؟" أو عن التفسير. إذ إن التطور التاريخى قد حدث لأن أوروبا اخترعت أو كانت لها المبادرة الأولى فى الإبداعات المهمة التى انتشرت فى بقية أنحاء العالم فيما بعد. وقدمت المقررات الدراسية صورة لعالم وجدت فيه الأسباب التاريخية فى نفق الزمن الأوروبى بالرغم من إمكانية رؤية النتائج التاريخية فى كل مكان آخر[٤] .

تعتبر المقررات الدراسية نافذة مهمة على الثقافة أكثر من الكتب. إذ تمثل صياغة شبه رسمية لما تريد الصفوة المكونة للرأى فى ثقافة ما للشباب المتعلم من أبنائها أن يؤمن بصحته عن العالم الماضى والحاضر[٥] . وكما رأينا فإن مقررات التاريخ الأوروبى أو الأمريكى - الإنجليزى أكدت أن معظم أسباب التطور التاريخى حدثت أو نشأت فى القطاع الأوروبى من العالم. واتجهت المقررات الدراسية فى بداية ومنتصف القرن التاسع عشر لإعطاء أرضية دينية للتاريخ النفقى للمركزية الأوروبية. وفى

مقررات دراسية لاحقة لم يعد الإنجيل مصدرًا للحقيقة التاريخية. ويبدو أن العلية كانت قد تعمقت فى صورة نظرية ضمنية تجمع بين الإيمان بأن الشعوب المسيحية تصنع التاريخ مع إيمان آخر بأن الشعوب البيضاء تصنع التاريخ. ومع بعضهما يكونان النظرية القائلة بأنه من الطبيعى للأوروبيين أن يبدعوا ويتقدموا ولغير الأوروبيين أن يبقوا جامدين تقليديين إلى أن يوقظهم الأمير من نومهم مثل الجميلة النائمة (فى الرواية الكلاسيكية فى قصص الأطفال). ومازال هذا الرأى سائدًا بالرغم من رفض العنصرية ورفض فكرة أن غير الأوربيين كانوا دائمًا جامدين وتقليدين.

تتأخر المدارس دائمًا فى تدريس المواضيع والأفكار الجديدة. كم كنت أتمنى القول بأن أفكار الماضى عن الداخل والخارج ما هى إلا مجرد أشياء اصطناعية ظاهرية زائفة، وهى تُدرس فى بعض المدارس بسبب الفارق الزمنى بين البحث والتدريس، ولكنها نبذت من جانب الباحثين الحقيقيين الذين يتابعون البحث التاريخى ويكتبون الكتب المهمة والمؤثرة فى تاريخ العالم. ولكن ليس هذا هو الواقع. إن الجانب الذى يخصنا نحن هو تفسير التدفقات الكبيرة فى تاريخ العالم، والآراء التى يطرحها الباحثون التاريخيون اليوم تميل لأن تكون متسقة تمامًا مع النظريات المعروضة فى المقررات الدراسية. ويمكن أن نطرح جانبًا حقيقة أن معظم المقررات الدراسية الواسعة الاستخدام اليوم - كما فى الماضى - كتبها باحثون تاريخيون بارزون. إن هناك العديد من الأسباب الثقافية المعقدة لالتزام البحث الأكاديمى التاريخى بتفسيرات المركزية الأوروبية لمعظم التطورات المهمة فى تاريخ العالم. سوف نقوم بشرح بعض هذه الأسباب لاحقًا فى هذا الفصل، ونعود إليه فى مواضع مختلفة من الكتاب. ويكفينا هنا أن نلاحظ إشكالية غريبة: فقد امتلك المؤرخون سجلاً عظيمًا من التميز البحثى، وقلما نجد أى تحيز أو تشويه متعمد فى أعمالهم. كذلك فحكمهم على العلية التاريخية ملتزم بنفس صرامة مناهج البحث التى نجدها فى أى حقل آخر من البحث الأكاديمى.

إنه فقط عندما نأتى إلى تناول مواضيع العلية الكبيرة ومجالات تفسير التطور التاريخى على مدار فترات طويلة وأقاليم كبيرة، وشرح الثورات المؤثرة فى التاريخ حينها فقط نجد أن المركزية الأوروبية تفرض تأثيرها على الخطاب، ويؤدى هذا غالبًا، وكما سنرى لاحقًا إلى قبول نظريات ضعيفة بالرغم من عدم وجود الأدلة المؤيدة لها.

لا يزال معظم المؤرخين الأوربيين يتبنون فكرة أن معظم الأحداث التاريخية المهمة - أو تلك التى غيرت مجرى التاريخ - حدثت فى أوروبا أو بسبب قوة دافعة من أوروبا (مازالت أوروبا بالنسبة لهم تعنى أوروبا الكبرى). ولكى نوضح هذه الحقيقة سأقوم بتقديم قائمة مرتبة تاريخيًا لسلسسة من الادعاءات المهمة والمتمركزة حول أوروبا، وكلها تقبلها أغلبية، وفى بعض الحالات الأغلبية العظمى من الباحثين التاريخيين الأوروبيين. بعض هذه الادعاءات حقيقى. ولكن ليست هذه هى القضية، بل هى أن نوضح كيف أن التفكير التاريخى مازال يركز على أوروبا الكبرى باعتبارها المنبع الثابت للتاريخ:

١ - ثورة العصر الحجرى الجديد - اختراع الزراعة وبداية الحياة المستقرة للإنسانية - حدثت فى الشرق الأوسط (أو أرض الإنجيل). لم يعارض هذا الرأى قبل ١٩٣٠ ومازال يمثل رأى الأغلبية.

٢ - إن الخطوة المهمة الثانية فى التطور الثقافى تجاه الحضارة الحديثة هى ظهور الدول القديمة والمدن والديانات المنظمة ونظم الكتابة وتقسيم العمل وما شابه ذلك، كله حدث فى الشرق الأوسط.

٣ - بدأ عصر المعادن فى الشرق الأوسط واستخدمت أعمال الحديد فى الشرق الأوسط أو شرق أوروبا، وظهر عصر الحديد أولاً فى أوروبا.

٤ - ظهرت الوحدانية أولاً فى الشرق الأوسط.

٥ – اخترعت الديمقرطية فى أوروبا (فى اليونان القديمة).

٦ – وكذا معظم العلوم البحتة، الحساب، الفلسفة، التاريخ والجغرافيا.

٧ – ظهر المجتمع الطبقى وكفاح الطبقات أولاً فى الحقبة والأقاليم اليونانية – الرومانية(٦).

٨ – كانت الإمبراطورية الرومانية أول دولة إمبراطورية عظمى. اخترع الرومان البيروقراطية والقانون وهكذا ...

٩ – حدثت الخطوة التالية الكبرى فى التطور الاجتماعى، وهى الإقطاع، فى أوروبا تحت لواء الفرنسيين(٧).

١٠ – اخترع الأوروبيون مجموعة من الخصائص التكنولوجية فى العصور الوسطى، الأمر الذى منحهم التفوق على غيرهم من غير الأوروبيين (هناك آراء مختلفة حيال هذا الأمر).

١١ – اخترع الأوروبيون الدولة الحديثة.

١٢ – اخترع الأوروبيون الرأسمالية.

١٣ – لتفرد الأوروبيين بصفة المغامرة، نجد منهم المكتشفين والمستكشفين العظماء.

١٤ – اخترع الأوربيون الصناعة وصنعوا الثورة الصناعية.

وهكذا حتى الوقت الراهن.

كل هذه الادعاءات فى هذه القائمة هى مبادئ تحظى بقبول واسع من قبل الباحثين التاريخيين الأوروبيين اليوم بالرغم (كما سنرى) من وجود خلاف أكاديمى حول بعض منها. كل هذا يعنى أننا (أنت وأنا) تعلمنا هذه الأشياء ربما فى المدرسة

الابتدائية وربما فى الجامعة وربما فى الكتب والجرائد. تعلمنا أن كل هذا هو الحقيقة، ولكن هل هو كذلك؟ بعض هذه الادعاءات صحيح، وبعضها صحيح مع بعض التحفظات. ولكن البعض الآخر كما سأجادل فى هذا الكتاب ليس صحيحًا على الإطلاق. إنها أشياء زائفة ومصطنعة فى التاريخ النفقى القديم الذى لا يلعب فيه الخارج دورًا حيويًا بينما يحظى الداخل بكل ما هو مهم وكل ما هو فعال ومؤثر.

نظرية انتشار المركزية الأوروبية

نظرية المركزية الأوروبية

ما نتحدث عنه بصفة عامة هنا هو ما يطلق عليه "المركزية الأوروبية"(٨) . وتشير هذه العبارة إلى كل المعتقدات التى تسلم بفكرة تفوق الأوروبيين على غير الأوروبيين (وعلى الأقليات من ذوى الأصول غير الأوروبية). تتعرض المركزية الأوروبية لتيار نقدى قوى فى كل مجالات الفكر الاجتماعى ويعد هذا الكتاب جزءًا من هذا التيار.

إلا أن هناك مشكلة مع هذه الكلمة. إذ يُنظر إلى المركزية الأوروبية فى معظم الخطاب على أنها نوع من التحيز، سلوك ما ولذا فهى شىء يمكن استبعاده من الفكر الحديث المستنير بنفس الطريقة التى نستبعد بها اتجاهات أخرى بالية مثل العنصرية، والتحيز الجنسى والتعصب الدينى الأعمى. ولكن الجانب المهم من المركزية الأوروبية ليس هو هذه السلوكيات التى تأخذ شكل القيم والانحيازات؛ بل هو بالأحرى علم ودراسة أكاديمية ورأىٌ خبير مطلع. ولكى نكون أكثر دقة، تنطوى المركزية الأوروبية على مجموعة من المعتقدات هى بمنزلة قضايا تدور حول الحقيقة العلمية. وهى قضايا مقبولة من قبل أوروبيين متعلمين وعادةً غير متحيزين على أنها افتراضات تدعمها الحقائق. على سبيل المثال، فلتأخذ بعين الاعتبار الادعاءات الـ ١٤ عن تفوق أوروبا فى

التجديد التاريخى التى سردناها سالفًا. إن المؤرخين الذين يقولون بصحة هذه الادعاءات سيغضبهم وصفك لتلك الادعاءات بأنها "معتقدات متمركزة أوروبيًا". فكل مؤرخ فى هذا المجال سوف ينفى بقوة فكرة أن لديه أى تحيزات مركزية أوروبية والواقع أن قليلاً منهم هم من يمكن وصفهم بهذه الصفة: الانحياز. فهم عندما يؤكدون أن الأوربيين هم من اخترعوا الديمقراطية والعلم والإقطاع والرأسمالية والدولة الحديثة وهكذا، فذلك لظنهم أنها حقائق.

ولذا تعد المركزية الأوروبية شيئًا بالغ التعقيد. يمكن أن نستبعد كل التحميلات القيمية لهذه الكلمة، وكل ما فيها من تحيز، ولكن تظل لدينا المركزية الأوروبية كمجموعة من المعتقدات الإمبيريقية.

هذه هى المشكلة الأساسية لهذا الكتاب. فنحن بصدد قضايا تعد حقائق علمية وتاريخية مسلمًا بها، وليست انحيازات، ونحاول أن نبرهن بمساعدة التاريخ والعلم على خطأ هذه المسلمات: إذ إن هذه القضايا خاطئة.

كيف يمكن إذًا للقضايا التاريخية للمركزية الأوروبية غير الصحيحة، أى لا تؤيدها الأدلة، بل فى بعض الأحيان تعارضها، كيف يمكن لها أن تحظى بالقبول فى الفكر التاريخى الأوروبى وتستمر بوصفها معتقدات مقبولة لا يعتورها الشك لأجيال، وربما لقرون؟ هذه مشكلة مهمة للتأريخ وتاريخ الأفكار. والتعامل معها بشكل مُرضٍ يتجاوز حدود هذا الكتاب حيث يكون أساس اهتماماته التاريخ الإمبيريقى والجغرافيا. ولكن لا يمكننا تجنب هذة المشكلة هنا. إذ تعج المكتبات بالدراسات الأكاديمية التى تساند مواقف المركزية الأوروبية التاريخية التى نرفضها وندحضها فى هذا الكتاب. وكم هذا العمل كله والاحترام الواجب للأكاديميين الذين قاموا بجمعه يجعل من الصعوبة بمكان دحض هذة المواقف بطريقة مقنعة بواسطة الحجج المبنية على الحقائق التى يمكن تقديمها فى كتاب واحد. وبالرغم من قوة إقناع هذه الحجج فإنه لا يمكن وضعها على كفة ميزان، إذا جاز التعبير، ونتوقع لها رجوح كفتها أمام الكتابات المتراكمة لأجيال

من الباحثين الأوروبيين وكتاب المقررات الدراسية والصحافيين وخبراء الشؤون العامة ... إلخ المتراكمة على كفة الميزان الأخرى.

وعلى هذا فإننا يجب فى هذا الكتاب أن نجادل على مستويين : المستوى الأساسى هو الجانب الإمبيريقي: ماذا حدث داخل أوروبا وخارجها فى العصور الوسطى وأوائل القرون الحديثة وما العلاقات التى نشأت بين الجانبين فى هذه الفترة؟ وعلى المستوى الثانى سوف ننظر إلى بعض الجوانب وثيقة الصلة بتاريخ أفكار المركزية الأوروبية والسياق الاجتماعى المحيط بهذه الأفكار. هذا هو ما سيتم تقديمه فى الفصل الحالى الذى يحلل طبيعة أفكار نظرية الانتشار وتاريخها. ويخلص إلى مناقشة عملية الترخيص الاجتماعى (social licensing) التى منحت هذه الأفكار التداول والهيمنة. وفى الفصل الثانى نختبر أكثر ادعاءات التفوق الأوروبى أهمية قبل عام ١٤٩٢ كما نناقش الأصل التاريخى لها.

إن الباحثين اليوم على دراية - بخلاف ما كان عليه أغلبيتهم منذ بضعة عقود سابقة - بأن المعتقدات الإمبيريقية والمتعلقة بالحقائق فى التاريخ والجغرافيا والعلوم الاجتماعية غالبًا ما تُقبل لأسباب لا علاقة لها بالأدلة. فالمعتقدات الأكاديمية مغروسة فى الثقافة التى - فى الوقت نفسه - تشكلها. وهذا يساعد فى تفسير إشكالية تغلغل المعتقدات التاريخية للمركزية الأوروبية، وأن الخرافات القديمة ما زالت تحظى بالإيمان والقبول، حتى بعد نسيان أو رفض الأساس المنطقى لها (مثل الادعاءات المبنية على الإيمان بالعهد القديم كتاريخ حرفى)، وأن المعتقدات الجديدة تلقى القبول دون أدلة داعمة لأنها تتماشى مع مبادئ المركزية الأوروبية الحقة، وهكذا تحتفظ المركزية الأوروبية بقوتها وقدرتها على الإقناع. ولكن ليس هذا كل شىء. إن المركزية الأوروبية كما سأجادل بشكل كبير فى هذا الكتاب هى مجموعة متفردة من المعتقدات التى تمتلك قوة فريدة، وتعد الأساس المنطقى والأكاديمى والفكرى لأكثر المصالح الاجتماعية نفوذًا لدى الصفوة الأوروبية. سوف أجادل ليس فقط كيف أن الاستعمار الأوروبى أعطى

إشارة البدء لتطور أوروبا (وتدهور غيرها) فى ١٤٩٢، بل كيف أنه منذ ذاك الزمن، كانت الثروة المأخوذة من المناطق غير الأوروبية من خلال الاستعمار التى أخذت أشكال عدة منها الأشكال الاستعمارية الحديثة، كانت هى الأساس الضرورى والمهم لتطور أوروبا المستمر، ولقوة طبقة الصفوة الأوروبية. ولهذا السبب فإن تطور مجموعة من المعتقدات التى تدور حول المركزية الأوروبية، والتى تبرر وتساعد نشاطات أوروبا الاستعمارية كانت ومازال ذات أهمية كبيرة. إن المركزية الأوروبية ببساطة هى نموذج المستعمر للعالم.

المركزية الأوروبية هى نموذج المستعمر للعالم بالمعنى الحرفى: إنها ليست مجرد مجموعة أو حزمة من المعتقدات. فهى قد تطورت على مر الزمن كنموذج منحوت بعناية، ككل له هيكل ثابت، فى الحقيقة نظرية كبرى شاملة؛ إذ هى إطار عام لنظريات كثيرة أصغر: تاريخية وجغرافية ونفسية واجتماعية وفلسفية. إن هذه هى النظرية العظيمة: نظرية الانتشار.

نظرية الانتشار

عندما يحدث تغير ثقافى فى أى مجتمع إنسانى فإن هذا التغير يمكن أن يكون نتيجة اختراع حدث فى هذا المجتمع. وقد يكون نتيجة عملية تأتى من خلالها الفكرة أو تأثيرها المادى (مثل آلة أو أسلوب فنى ... إلخ) إلى هذا المجتمع بالرغم من أنها نشأت فى مجتمع آخر فى جزء آخر من الأرض. يُدعى النوع الأول من الأحداث "الاختراع المستقل" ويدعى الآخر "الانتشار"[٩] . يحدث كلا النوعين من العمليات فى كل مكان . إلى هنا فكل شىء على ما يرام. ولكن يرى بعض الباحثين أن الاختراع المستقل غير شائع. ولذا فهو غير مهم فى التغير الثقافى على المدى القصير والتطور الثقافى على المدى الطويل. يعتقد هؤلاء الباحثون أن الناس فى معظمهم مقلدون وليسوا مخترعين. ولذا فالانتشار من وجهة نظرهم يعد الآلية الأساسية للتغيير.

يسمى أصحاب هذا الرأى "الانتشاريين Diffusionists". فأينما واجهوا أى ابتكار ثقافى فى إقليم معين، عادةً ما ينظرون بإمعانٍ باحثين عن عملية انتشار آتية من مكان آخر، مكان تكون فيه الصفة الجديدة هنا محل استخدام هناك. على سبيل المثال، استعمل بعض سكان أمريكا الأصليين وبعض شعوب العالم القديم سلاحًا يدعى مسدس النفخ Blow-gun. يفَسر الانتشاريون هذا على أنه نتيجة عملية انتشار من العالم القديم للعالم الجديد، وذلك لاعتقادهم أن شعوب العالم الجديد لم تقم بهذا الاختراع، لماذا؟ لاحتمالية افتقادهم لصفة الابتكار المطلوبة لمثل هذا العمل. وهناك شكل أكبر من ادعاءات الانتشاريين التى ترى أن الحضارات قبل الكولومبية فى الأمريكتين هى نتيجة انتشار تم عبر المحيط الهادى أو المحيط الأطلنطى لأن هذه الصفات الحضارية (الزراعة، عمارة المعابد، الكتابة، ... إلخ) وجدت قبل هذا فى العالم القديم. وذلك لاحتمالية أن سكان أمريكا الأصليين لم يصلوا لدرجة كافية من الابتكار والإبداع تؤهلهم للتفكير فى هذه الأشياء بأنفسهم[١٠] . و يعتقد بعض الباحثين ممن لقبوا "بالانتشاريين المتطرفين" أن الحضارة انتشرت من مكان واحد على الأرض. يظن بعضهم أن هذا المكان هو مصر القديمة وبعضهم يقول إنها آسيا الوسطى (على سبيل المثال إقليم القوقاز الذى طالما ظن الباحثون أنه الموطن الأصلى للجنس الأبيض أو القوقازى)[١١] .

إن المناظرة بين الانتشاريين ومعارضيهم التى استمرت لما يزيد على قرن فى الأنثروبولوجيا، والجغرافيا والتاريخ وكل المجالات اهتمت بالتطور الثقافى على نطاق واسع وعلى مدى طويل[١٢] . واتجه معارضو نظرية الانتشار وهم من يُطلق عليهم عادةً التطوريون أو أصحاب نظرية الاختراع المستقل لتوجيه تهمتين رئيسيتين ضد الانتشاريين:

١ – يحمل الانتشاريون وجهة نظر سلبية تجاه الإبداع الإنسانى. فالناس فى الحقيقة مبدعون وخلاقون، لذا فإمكانية ظهور صفات ثقافية جديدة نتيجة لعملية

الاختراع المستقل هى فى الحقيقة أكبر بكثير مما يعترف به الانتشاريون. ولذا يجب على الباحثين أن يأخذوا إمكانية الاختراع المستقل بعين الاعتبار فى أى حالة دون افتراض أن عملية الانتشار هى التى تفسر الموقف موضع النظر.

٢ - إن الانتشاريين هم الصفوة. كل انتشار ينبغى أن يبدأ فى مكان ما. ويحدث الاختراع فى مجتمع ما قبل أن يبدأ فى الانتشار فى غيره. ولو قبلنا الفرضية الأساسية أن كل المجتمعات الإنسانية هى إنسانية بحق فى أدواتهم الفكرية، فهم إذًا يتشابهون إلى حد كبير فى قدرتهم على الاختراع والإبداع. وتسمى هذه الفرضية "الوحدة النفسية للجنس البشرى": إنها صفة عجيبة استخدمت فى القرن التاسع عشر ومازالت تستخدم. لذا فمن الممكن أن نتوقع حدوث الاختراعات فى أى مكان على خريطة الجنس البشرى(١٢) . ومع ذلك يدعى الانتشاريون أن مجتمعات مختارة فقط هى التى لديها ملكة الإبداع والابتكار. بمعنى آخر، تتغير معظم المجتمعات نتيجة استقبال صفات جديدة عن طريق الانتشار، ولكن بعض الأماكن تعد مبتكرة وخلاقة بطبيعتها وهى المصادر الأصلية للصفات الجديدة. أناس تلك المجتمعات أكثر قدرة على الابتكار والإبداع من غيرهم فى مناطق أخرى. ولهذا تقابل فكرة الوحدة النفسية للجنس البشرى بالمعارضة، فبعض الناس أو الثقافات أكثر ذكاء من غيرهم. وهم المراكز الدائمة للإبداع.

هذه نخبوية مكانية، فلو قمنا برسم خريطة لهذا المنظر لوجدنا أن هناك مركزًا دائمًا وطرفًا دائمًا. وبالنسبة للانتشاريين المتطرفين يصور العالم كله على هذا النحو على الأقل فى حقبة ما قبل المسيحية. كان يعتقد أن المركز الدائم للاختراع والإبداع هو مصر أو "الموطن الآرى القديم" (وهو مكان خرافى يقع غرب آسيا أو جنوب شرق أوروبا) أو القوقاز أو أى نقطة وسطية أخرى فى العالم القديم. ولكن الادعاء الأعم الذى يتخيله الانتشاريون هو أن بعض الأماكن القليلة أو لنقل مكانًا واحدًا كان هو المصدر الأول الذى انتشرت منه الثقافة لباقى الأماكن الأخرى.

يجب أن يكون جليًا الآن أن نظرية الانتشار تناسب فكرة أن للعالم داخلاً وخارجًا. فى الحقيقة إن نظرية الانتشار هى الأساس المنطقى العلمى أو شبه العلمى لفكرة الداخل والخارج. إن هذه الفكرة كما رأينا تسلم بوجود مركز دائم للعالم، للأفكار الجديدة ويحدث التطور الثقافى فى كل مكان آخر نتيجة لتأثير انتشار هذه الأفكار الجديدة من هذا المركز الدائم. هذه هى خريطة العالم من وجهة نظر الانتشاريين.

نأتى الآن لأمر محير وعجيب. لقد فشل نقاد نظرية الانتشار فى القرن التاسع عشر وحتى فى القرن العشرين تمامًا فى فهم التبعات الكاملة لعملهم النقدى. فلم ينكر أحد منهم وجود داخل وخارج للعالم. فبينما انتقدوا الانتشاريين لرفضهم مبدأ الوحدة النفسية للجنس البشرى، فقد اعتقدوا بتمركز التطور الثقافى فى أوروبا وبذلك فهم يقبلون – سواء بصورة ظاهرة أو باطنة – فكرة أن الأوروبيين أكثر قدرة على الإبداع والابتكار ممن عداهم[١٤] . ويظهر هذا بوضوح عندما يكتبون عن القرون الحديثة وخاصة حين يناقشون التأثير التبشيرى الدينى والحداثى للاستعمار الأوروبى. كذلك نستشعره فى كتاباتهم عن الأزمنة القديمة. إن علماء الأنثربولوجيا هؤلاء وعلماء الحفريات وعلماء الجغرافيا والمؤرخين فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر والقرن العشرين لا يركزون على أرض الإنجيل، وكتاباتهم الأكاديمية لا تظهر أى قبول للافتراضات الدينية. ولكن تظهر فكرة الداخل والخارج بوضوح. فهم يكتبون عن الأصول الزراعية وعن المدنية فى الشرق الأدنى وهكذا ... وبسلاسة ينتقلون إلى المجادلات التى تناقش الأصول الأوروبية لباقى الحضارات.

إن مجادلتى الأساسية هى: إن البحث الأكاديمى كله يتبنى نظرية الانتشار لأنه يسلم بنموذج الداخل الخارج، وفكرة كيف أن للعالم مركزًا دائمًا تصدر منه الأفكار التى لديها القدرة على التغيير فى الثقافة وله جزء طرفى يتغير بتأثير عملية الانتشار من المركز. أنا لا أجادل فى أن النظرية الرسمية للانتشار – كما قدّمها الباحثون فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ودافعوا عنها – تشرح نموذج الداخل

والخارج أو أسطورة تفوق أوروبا الجغرافى الدائم. على العكس فقد تطورت تلك النظرية نتيجة لقوى اجتماعية كبيرة فى أوروبا ودخلت عالم البحث الأكاديمى من المجتمع الأوروبى. كان باحثو نظرية الانتشار يقومون بتوضيح وتنسيق هذه النظرية فى ميادين البحث الأكاديمى التى عملوا بها مثل الحفريات، وتاريخ العالم ، وهكذا.

قبل أن نمضى قدمًا يجب أن أقدم تحذيرًا بأن كلمة "انتشارى" يشوبها بعض الغموض ويجب ألا نسمح لهذا الغموض بإحداث نوع من الارتباك فى المناقشة الحالية. فى أى مناظرة عما إذا كانت صفة جديدة فى مكانٍ ما قد اخترعت بواسطة أفراد هذا المكان أو تم استقبالها بواسطة الانتشار، فإن الباحثين الذين يؤيدون الرأى الثانى هم مساندون لموقف الانتشاريين. أى أنهم يفضلون فرضية الانتشار ضد الاختراع المستقل. وهذا لا يعنى بالضرورة أن لديهم ميلاً لتفضيل الانتشار كصيغة علّيّة. فى بعض الأحيان قد يشكل هذا الموضوع مشكلة كبيرة. على سبيل المثال، يجادل بعض الباحثين أن هناك صفات ثقافية مهمة انتشرت من غرب أفريقيا عبر المحيط الأطلنطى وإلى أمريكا قبل ١٤٩٢ . بغض النظر عن صحة نظريتهم أو خطئها، فهم لا يناقشون أى شكل من أشكال انتشار المركزية الأوروبية كما أنهم ليسوا بالضرورة مفضلين نظرية الانتشار على حساب نظرية الاختراع المستقل فى سياقات أخرى. ولكن أغلب الباحثين الثابتين على نظرية الانتشار هم أيضًا أصحاب نظرية انتشار المركزية الأوروبية.

سأقوم الآن بشرح نظرية انتشار المركزية الأوروبية باستخدام مصطلحات رسمية باعتبارها نظرية علمية. لقد تغيرت هذه النظرية بمرور الزمن ولكن ظل هيكلها الأساسى كما هو. سأقوم بشرح ما يمكن أن نطلق عليه الشكل الكلاسيكى للنظرية (فى القرن التاسع عشر) وفى جزء لاحق من الفصل سأتطرق إلى مناقشة شكل حديث ليس مختلفًا كثيرًا عن الشكل الكلاسيكى .

تأسست نظرية الانتشار على مسلمتين: (١) معظم المجتمعات الإنسانية ليس لديها القدرة على الاختراع. (٢) مجتمعات إنسانية قليلة (أو أماكن أو ثقافات) هى التى لديها القدرة على الاختراع، ولذا تبقى هى المراكز الدائمة للتغير الثقافى والتقدم. ويعطينا هذا، على مستوى الكرة الأرضية، نموذجًا للعالم له مركز واحد هو بالتقريب أوروبا الكبرى وطرف واحد، أى داخل وخارج. هناك عدد من المتغيرات لهذا النموذج ذى القطاعين. ففى بعض الأحيان يعامل القطاعان على أنهما متمايزان تمامًا مع وجود حدود محددة بينهما. (هذاالشكل للنموذج هو الشكل المألوف ويطلق عليه فى بعض الأحيان "نموذج المركز - الطرف للعالم"). وهناك شكل آخر يرى العالم بصورة مختلفة، فهناك مركز واضح ومحدد ولكن يوجد تغير تدريجى خارجه انحدار تدريجى فى مستوى الحضارة والقدرة على التقدم والإبداع كلما تقدمنا باتجاه الطرف. شكل آخر يصور العالم على أنه منقسم لمناطق يمثل كلٌ منها مستوى من الحداثة والحضارة والتطور[١٥]. كان للتقسيم الكلاسيكى ثلاثة توصيفات عظيمة: "الحضارة" و"الهمجية"و"الوحشية".

إن النموذج الكلاسيكى لنظرية الانتشار يصور العالم على أنه مقسم لقطاعين رئيسيين، الأول هو أوروبا الكبرى أو الداخل الذى يخترع ويتقدم، والثانى هو غير الأوروبى أو الخارج الذى يستقبل الاختراعات التقدمية عن طريق الانتشار من الداخل. وعلى هذا الأساس تؤكد نظرية الانتشار على سبع ادعاءات أساسية عن هذين القطاعين والعلاقات بينهما:

١ - إن أوروبا بطبيعة الحال تتقدم وتتجدد. أى أن سير الأمور الطبيعى فى القطاع الأوروبى (الداخل) يقوده إلى أن يخترع ويبتكر ويغير الأشياء للأفضل. إن أوروبا تتغير، أوروبا تاريخية.

٢ – يبقى القطاع غير الأوروبى (الخارج) بطبيعة الحال راكدًا وتقليديًا ومتخلفًا. الاختراع والابتكار والتغيير ليست من طبائع الأمور وبالتالى لا يمكن توقع حدوثها فى البلاد غير الأوروبية. القطاع غير الأوروبى لا يتغير ولذا فهو غير تاريخى.

تشرح الافتراضات ٣ ، ٤ الفرق بين القطاعين.

٣ – هناك عامل فكرى أو روحى وراء تقدم أوروبا، إنه صفة "العقل الأوروبى"، "الروح الأوروبية"، "الإنسان الغربى" ... إلخ. إنه شىء يبعث على الخلق والخيال والاختراع والإبداع والرشد والشرف والأخلاق؛ إنها "القيم الأوروبية".

٤ – سبب عدم تقدم القطاع غير الأوروبى هو فقدان نفس هذا العامل الفكرى أو الروحى. هذا الافتراض يؤكد، فى جوهره أن طبيعة العالم غير الأوروبى خاوية من "الرشد" أى الأفكار والقيم الروحية السليمة. هناك عدد من التنويعات (فى نهاية القرن التاسع عشر) لهذه الفرضية فى نظرية الانتشار الكلاسيكية. اثنان منها على قدر من الأهمية:

(أ) لجزء كبير من العالم غير الأوروبى يؤكد هذا الافتراض فراغ هذا القطاع من مؤسسات ثقافية أساسية حتى قارب أن يكون فراغًا من الناس. يمكن أن نطلق على هذا خرافة الفراغ عند الانتشاريين التى ترتبط بعلاقات خاصة مع الاستعمار الاستيطانى (الانتقال المادى للأوروبيين إلى الأقاليم غير الأوروبية لاستبدال السكان الأصليين أو التخلص منهم). تقدم فرضية الفراغ هذه عددًا من الادعاءات تُبنى بعضها فوق بعض: (١) يعد الإقليم غير الأوروبى خاليًا من الناس (لهذا فإن استيطان الأوروبيين لا يعنى استبدال غير الأوروبيين). (٢) يخلو الإقليم من السكان المقيمين، فهم متنقلون وبدو رحل ولذا فإن الاستيطان الأوروبى لا ينتهك أى سيادة سياسية حيث لا يدّعى الرحل أى ملكية للأرض. (٣) لا تملك ثقافات هذا

الإقليم أى فهم للملكية الخاصة، ولهذا يعد الإقليم خاليًا من أى حقوق أو ادعاءات ملكية (وعليه فإن المستعمرين يمكنهم إعطاء المستوطنين الأرض لأنه لا أحد يملكها). تنطبق النقطة الأخيرة على كل القطاع الخارجي. إنها الفراغ الفكرى والإبداعى وغياب القيم الروحية الذى فى بعض الأحيان يصفه الأوروبيون (على سبيل المثال ماكس وبر) على أنه غياب صفة "الرشد"[١٦] .

(ب) تفترض صفة الرشد فى بعض الأقاليم غير الأوروبية فى بعض الحقب التاريخية بطرق معينة ولدرجة معينة. ولذا فعلى سبيل المثال كان الشرق الأوسط رشيدًا إبان الأزمنة الإنجيلية. كانت الصين إلى حد ما تتمتع بهذه الصفة لفترة محددة فى تاريخها[١٧] . بينما افتقدتها أقاليم أخرى مثل أفريقيا بشكل جازم.

تصف الافتراضات ٥ ، ٦ طرق التعامل بين الداخل والخارج.

٥ - الطريقة الطبيعية التى عن طريقها يتغير ويتجدد ويتقدم الجزء غير الأوروبى للأفضل هى انتشار الأفكار التقدمية والإبداعية من أوروبا مثلما يسرى الهواء فى الفراغ. قد يأخذ هذا الانتشار شكل أفكار أوروبية أو منتجات جديدة تتجسد فيها تلك الأفكار الأوروبية. وقد يكون انتشار (هجرة أو استيطان) للأوروبيين أنفسهم حاملى هذه الأفكار الجديدة والإبداعية.

كما سوف نلاحظ فإن الفرضية الخامسة هى تبرير بسيط للاستعمار الأوروبى. إنها تؤكد كيف أن الاستعمار بما فيه الاستعمار الاستيطانى يجلب الحضارة للعالم غير الأوروبى. إنه فى الحقيقة الطريقة الطبيعية للعالم غير الأوروبى ليتقدم خارجًا عن ركوده وتخلفه وتقليديته.

ولكن تحت نير الاستعمار تسلب الثروة من المستعمرات غير الأوروبية وتغنى المستعمرين الأوروبيين. وتعتبر هذه علاقة طبيعية بين الداخل والخارج لدى نظرية انتشار المركزية الأوروبية.

٦ - ولتعويض الأوروبيين جزئيًا لنشرهم الأفكار الحضارية فى العالم غير الأوروبى نجد الانتشار المضاد للثروة المادية من الجزء غير الأوروبى للأوروبى. ويحتوى هذا الانتشار على المنتجات الزراعية والمعادن والأعمال الفنية والعمالة وهكذا. لا شيء يمكن أن يعوض الأوروبيين مقابل هدية الحضارة التى تقدمها للمستعمرات وبهذا يُبرر استغلال هذه المستعمرات. (يعطى الاستعمار أكثر مما يأخذ).

لا يزال هناك شكل آخر للعلاقة بين الداخل والخارج. إنه عكس انتشار الأفكار الحضارية من أوروبا لغيرها (الفرضية الخامسة).

٧ - لأن أوروبا متطورة والعالم غير الأوروبى متخلف فإن أى أفكار تنتشر فى أوروبا بتأثير من القطاع غير الأوروبى هى بالضرورة أفكار قديمة وهمجية ورجعية وغير متحضرة وشريرة مثل السحر الأسود ومصاصى الدماء والأوبئة وما شابه ذلك(١٨) . ومرتبطة بهذه الفكرة خرافة الانتشاريين التى تسمى "نظرية أسلافنا المعاصرين". التى تؤكد أنه كلما ابتعدنا عن أوروبا المتحضرة قابلنا أناسًا هم على التتابع يعكسون حقبًا سابقة من التاريخ والثقافة. لذا فمن يطلق عليهم"أناس العصر الحجرى" فى الأجزاء الواقعة على الجهة المقابلة من الكرة الأرضية يتشابهون مع أوروبيى العصر الحجرى القديم. يبنى الادعاء هنا على أساس أن الانتشار يأتى على موجات متتابعة وينتشر خارجًا، فكلما اتجهنا باتجاه الخارج، أصبحنا أكثر تخلفًا من حيث التطور الحضارى. وبالعكس فإن هناك احتمالية أن هذه الصفات القديمة والرجعية ستنتقل فى الاتجاه المضاد راجعة إلى الجوهر المتحضر آخذة أشكالاً قديمة سحرية وشريرة مثل السحر الأسود ومصاص الدماء دراكولا.

يمكن أن تعرض الاختلافات الأساسية بين هذين القطاعين فى شكل جدول. المجموعات المتضادة الآتية هى نموذج لفكر الانتشاريين فى القرن التاسع عشر:

صفة المركز	صفة الطرف
القدرة على الاختراع	التقليد
الرشد ، الفكر	القصور الفكرى والعاطفة والغريزة
التفكير المجرد	التفكير المادى
التنظير	التفكير التجريبى، العملى
العقل	الجسم، المادة
النظام	التلقائية
بلوغ سن الرشد	الطفولة
سلامة العقل	الاختلال العقلى
العلم	الشعوذة
التقدم	الركود

كل ما وصفته إلى الآن هو صيغة مبسطة لنموذج العالم لدى الانتشاريين. ولسوف نضيف تعديلات كلما تقدمنا فى العرض وسنرى على وجه الخصوص كيف أن هناك اختلافات مهمة لنظرية الانتشار بين شكلها الكلاسيكى وشكلها الحديث.

أمضينا الكثير فى مناقشة ماهية نظرية الانتشار. وماذا تفعل هذه النظرية. سأعرض بالتفصيل فى هذا الكتاب كيف شكلت نظرية الانتشار آراءنا فى التاريخ الأوروبى وغير الأوروبى. فيما بعد فى هذا الفصل وفى الفصل الثانى سأعرض بعض التأثيرات الملموسة لهذه النظرية على نظريات أخرى بعضها فى علم النفس وبعضها فى الجغرافيا وبعضها فى الاقتصاد وبعضها فى علم الاجتماع.

وستكون هذه المناقشة ذات معنى بعد أن نواجه سؤالاً مختلفًا. إنه السؤال عن كيف ولماذا أصبحت نظرية الانتشار هي النظرية الأساسية في الفكر الغربي ؟ وهذا هو ماسنلتفت إليه الآن.

نموذج المستعمر

ربما يكون لكل الحضارات وجهة نظر عرقية مركزية فيما يتعلق بأبنائها أنفسهم وعلاقتهم بجيرانهم مما يجعلهم يعتقدون بأنهم أفضل، أذكى وأكثر جرأة من أى مجتمع إنسانى آخر. واضعين النظريات الإمبيريقية التى تشرح السبب وتبعد كل مايتسبب فى إحراجها. ولربما نجد بذور نظرية الانتشار فى هذه المعتقدات. إنها فكرة كيف أن التطور طبيعى ولا يستدعى أى شروحات فى مجتمعنا ولكنه غير طبيعى وغير مؤثر فى مجتمعاتهم. إنها فكرة كيف أن الغير يتطور بعد أن يستعير منا ويقلد أفكارنا وهكذا. ولكن هذا لا يقودنا إلى نظرية الانتشار كما أنه ليس مهماً لفهمنا هذه النظرية. إن هذه النظرية كما أناقشها هى نتاج الاستعمار الأوروبى الحديث. إنه نموذج المستعمر للعالم.

الأصول

أصبحت نظرية الانتشار نظرية علمية مكتملة التكوين خلال القرن التاسع عشر. وتعود أصول هذه النظرية إلى القرنين السادس عشر والسابع عشر فى غرب أوروبا حيث نشأ نظام عقائدى لخلق نوع من الترابط بين واقع التغيير الجديد داخل أوروبا والتوسع الاستعمارى خارجها. ظهرت بداية العالم ذى القطاعين، والتمييز القائم بين الداخل والخارج على أساس نظرية الانتشار من فكرة قديمة عن النصرانية والإرث الإمبراطورى الرومانى (الذى كان يعنى لمعظم غرب وجنوب أوروبا مصدر مشترك

لشرعية طبقة الصفوة السياسية والمالكة للأرض). وليس صحيحًا بالتأكيد أن الأوروبيين فى العصور الوسطى نظروا للنصرانية على أنها محددة المعالم وبطبيعة الحال فى صراع مع المجتمعات المحيطة. ولم يكن لدى مفكرى العصور الوسطى الأوروبيين تصورات عن القوة النسبية والثروة والبراعة التكنولوچية الفائقة للنصرانية عند مقارنتها بالحضارات الإسلامية والشرقية. ولكن بالتأكيد كانت لديهم فكرة ليست عن هويتهم الجماعية ولكن عن تمييز بين الأرض التى يقطنها المسيحيون والتى تحظى بالحماية الإلهية لهذا السبب وأرض غير المسيحيين. وبالرغم من هذا فلم يحدث إلا بعد ١٤٩٢ أن حصل الداخل على تعريف جغرافى واضح، وذلك بسبب الاستعمار فى الفترة الحديثة بدرجة أكبر من كونه بسبب الآراء السائدة فى العصور الوسطى.

الأفكار الأوروبية عن تقدم أوروبا وتطورها الحتمى تعتبر أفكار ما بعد العصور الوسطى. وقد كانت هذه الأفكار تناقش خلال القرون الوسطى. كما كان هناك بالتأكيد أمل وصلاة وكفاح من أجل الإصلاح، ولكن آثر أناس العصور الوسطى أن يروا مجتمعهم فى حالة توازن. كذلك تحدثت ديانتهم عن السقوط (الخطيئة(*))، وعن الحاجة لقبول الظروف (والقوانين) الموجودة، مع أن جموع الناس فى ذلك الوقت لم تدرك أن واقع الحياة (خاصة فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر) يسير باتجاه التقدم. وهذا على عكس مفكرى أوروبا فى القرنين السادس عشر والسابع عشر الذين كانوا بصدد تكوين فكرة أن التاريخ - تاريخهم - هو عملية تقدمية. إن التقدم الحقيقى (أو التغير المطرد) كان موجودًا فى المجتمعات المستعمرة من قبل هؤلاء المفكرين، وكان مناخ الأفكار يتغير بطريقة مركبة وعلى صلة وثيقة بالاستعمار وما أتاحه من تعدد الفرص للأفراد فى أقاليم عديدة وهكذا.

(*) الخطيئة أو سقوط آدم وحواء من تفضيل الله بعد أكلهما من الشجرة المحرمة وفيها إشارة إلى سقوط البشرية بعد أن فقدت براءتها .

هناك واحدة من أهم المشكلات التى واجهت هؤلاء المفكرين المحدثين على المستويين الدينى والمدنى وهى الحاجة لإنشاء نظام عقائدى؛ أيدولوچية يمكنها أن تقنع القطاعات المحافظة فى المجتمع الأوروبى بقبول فكرة حتمية التقدم، بل كيف أنه طبيعى ومحبذ وبالتالى قبول التغيرات فى النظام القانونى التى تسمح بتراكمات رأسمالية سريعة، وإقناع ملاك الأرض بالتعامل مع الأرض على أنها سلعة. كذلك تشجيعهم على استثمار ما فى حوزتهم فى مشاريع تستلزم روح المغامرة، وتقديم قوانين وممارسات تسمح باستخدام القوة العاملة فى أنشطة رأسمالية جديدة داخل البلاد وخارجها. وبشكل عام تتلخص هذه المشكلة فى إقناع الأوروبيين بقبول التغيرات المؤلمة المفروضة عليهم. وعلى نفس القدر من الأهمية كانت الحاجة إلى شرح التقدم بطرق تتماشى مع الدين. وقد قاموا بهذا عن طريق رؤية إرشاد الله فى تاريخ (أوروبا)، وتصوير الإبداعات التقدمية الجديدة على أنها نتاج الروح والعقل الأوروبى أى الروح المسيحية. (سوف نناقش هذه الموضوعات فى جزء قادم من هذا الكتاب).

وهكذا نشأت فكرة الداخل على أنه من طبائع الأمور أن يتطور (الافتراض الأول لنظرية الانتشار) ولهذه القدرة بسبب العوامل الروحية والفكرية أى "صفة الرشد فى الشخصية الأوروبية" (الافتراض الثالث). مع مجىء القرن الثامن عشر أصبح من الطبيعى فى الأوساط العلمية عندما تناقش العلّية فى التاريخ والفلسفة ألا يتم الرجوع إلى الله والكتاب المقدس، ولم يتغير التصور الأساسى للتقدم الأوروبى الطبيعى فى جوهره بل أصبح أكثر قوة ومناعة[١٩] . لم يوجد لدى هذا الفكر أى شك حقيقى فى أن الحضارات غير الأوروبية قد أسهمت فيما يتعلق بتطور أوروبا المسيحية فى العصور الوسطى أو فيما يتعلق بالتقدم الحديث (من القرن السادس عشر وحتى الثامن عشر) إلا من حيث الدور السلبى فى توفير العمالة والسلع والأرض للاستيطان وبطريقة هامشية فى بعض مناحى التكنولوچيا والفن. كذلك لم يكن هناك وعى بأن الاستعمار وما ترتب عليه – من تدفق رأس المال وازدياد حركة التجارة الداخلية والخارجية

لأوروبا، وزيادة فرص العمل فى المراكز التجارية والعالم المستعمر وما هو أكثر من هذا – كان سببًا مهمًا للتقدم الأوروبى. لقد أرجعت أوروبا ديناميكيتها لأسباب داخلية ودينية لا علاقة لها بالخارج . إن هذا الإغفال النسبى والدائم لأهمية الاستعمار تاريخيًا وحتى الوقت الحاضر ستسترعى انتباهنا فى مواضع مختلفة من الكتاب.

لقد سارت فكرة الخارج فى طريق أكثر تعقيدًا . كانت مناظرات القرن السادس عشر الأسبانية عن طبيعة هنود العالم الجديد: هل هم بشر؟ هل يمكنهم استقبال الديانة الحقة؟ وإذا كان كذلك هل يمكن استعبادهم؟– كانت جزءًا حيويًا من التكوين الأولى لنظرية الانتشار لأنه يشكل محاولة لفهم المجتمعات التى كانت تهزم وتستغل ثرواتها . كذلك شرح كيف كان من الطبيعى، والمحبذ، والمربح بالنسبة لهم الإذعان، بل إمداد أوروبا بالعمالة والأرض والمنتجات[٢٠] . تكونت الآراء الأوروبية عن شعوب العالم الجديد بشكل سريع وذلك لسرعة انتشار الاستعمار فى هذا الإقليم. كان المشروع مربحًا جدًا منذ البداية، من شحنات الذهب الأولى فى بداية القرن السادس عشر (انظر الفصل الرابع). سرعان ما هُزمت المقاومة فى المستعمرات الأسبانية وأُجبر من بقى من الأمريكيين على الخضوع للاستغلال الاستعمارى. (أشير هنا إلى المراكز الاستعمارية الرئيسية الأُولى مثل المكسيك الوسطى ، جزر الآنتليز العظمى والأنديز). أضافت الأرباح من المزارع القائمة على العبيد فى البرازيل وجزر الأنتليز فى القرن التالى وكذلك حقيقة أن العبيد الأفارقة يمكن إجبارهم على العمل بالرغم من مقاومتهم وبالتالى؛ توفير أرباح للأوروبيين، أضاف هذا أكثر لفكرة الخارج. فطبيعة هؤلاء الناس تضعهم فى رتبة أقل من الأوروبيين: أقل حبًا للحرية وأقل رشدًا إلخ واعتمد التطور بالنسبة لهم على قبول الهيمنة الأوروبية أى الانتشار. وتلخيصًا لهذا الجزء يمكن القول إن تجربة العالم الجديد مع السكان الأصلين الأمريكيين والأفارقة وأصحاب الأعراق المختلفة فى أسبانيا والمكسيك (Mestizos) وهؤلاء الذين هم نصف أفارقة ونصف قوقاز (Mulattos) فى مناطق التعدين والمناطق الزراعية الواسعة والمزارع التجارية كانت نواة

افتراضات نظرية الانتشار (٢،٤،٥) التى تؤكد اعتماد العالم غير الأوروبى فى تقدمه على أوروبا وهذا يعود إلى نقص فى الصفات الروحية والفكرية التى يمتلكها الأوروبيون. وقد أدى هذا إلى الافتراض السادس الذى بمؤاده يكون التوسع الأوروبى طبيعيًا وتنتقل الثروة من الخارج لأوروبا بطريقة طبيعية(*).

حدثت هذه الأنشطة فقط فى العالم الجديد وسواحل تجارة العبيد فى أفريقيا. وحضارات مثل حضارات السودان وجنوب وشرق أفريقيا لم يهزمهما الأوروبيون (فى معظم الحالات) حتى القرن التاسع عشر. فلم تكن الإمبراطورية العثمانية قوية خلال هذه الفترة فقط بل وسعت قبضتها لتضم مناطق فى جنوب شرق أوروبا فى نفس الوقت الذى كان فيه الأيبيريون يغزون العالم الجديد. وقبل القرن الثامن عشر لم تخضع الإمبراطوريات العظمى الأخرى للاستعمار. اتخذت الأنشطة الأوروبية فى كل من آسيا وأفريقيا الشكل التجارى والسيطرة على التجارة البحرية بعيدة المسافات وبعض المناطق الصغيرة هنا وهناك على بعض السواحل (انظر الفصل الرابع). وهكذا ففى القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر لم يكن ممكنًا تطبيق نموذج نظرية الانتشار عن الخارج على حضارات العالم القديم مثلما طبق على الأمريكيين والأفارقة المنقولين إلى أمريكا كعبيد.

بالنسبة لحضارات نصف الكرة الأرضية الشرقى فقد قُبل شكل محدود ومبدئى لنموذج نظرية الانتشار فى هذه الفترة. كانت هذه الحضارات غنية ومتقدمة تقنيًا مما لا يدع مجالاً للشك. وتجلت صفة الرشد فى صورة القدرة على الاختراع أو على الأقل كانت موجودة فى الماضى عندما ظهرت الابتكارات المثيرة للإعجاب (فى التكنولوچيا، العمارة ، البنوك وهكذا). ولكن افتقدت هذه الحضارات المحتوى الأخلاقى لصفة

(*) مصطلح إسبانى استخدم فى الإمبراطورية الإسبانية للإشارة إلى من لهم أصول أوروبية مختلطة ويعيشون فى أمريكا اللاتينية.

الرشد وهذا لكونهم غير مسيحيين فى الأساس. فقد كانت مجتمعات شرقية مستبدة وبطبيعة الحال كانت تتسم بالقسوة، كما لم يتمتع الأفراد العاديون بالحرية والحياة الكريمة (هذا فى الوقت الذى تمرغت فيه طبقة الصفوة فى الترف والخطيئة) إلخ. (نشرح هذا المفهوم بشيء من الإسهاب فى الفصل الثانى). وأدى هذا الفشل الأخلاقى بالضرورة إلى عدم قدرة تلك المجتمعات على التطور فى الوقت الحاضر - الوقت الذى كانت تتقدم فيه أوروبا - بينما كانوا حضارات مستنيرة ومتقدمة فى الماضى، وهو الأمر الذى لا ينكره الأوروبيون ولكنهم يجدونه محيراً. (فى بعض الأحيان كان يوجد حل هذا اللغز فى أنهم تقدموا فى فترة ما قبل المسيحية ولكنهم سقطوا من تفضيل فضل الله عندما رفضوا قبول المسيحية[٢١]). إنه فقط فى القرن التاسع عشر ومع الاستعمار السريع للهند وجنوب شرق آسيا وأفريقيا الداخلية والصين (كنوع من المستعمرة الجماعية) بدأت تُعمم افتراضات نظرية الانتشار عن الخارج وعن العلاقات الطبيعية بين الداخل والخارج على كل المناطق غير الأوروبية. كان فى هذه الفترة المتأخرة أن وصلت افتراضات نظرية الانتشار وفكرة الانتشار المضاد للشر والهمجية والمرض من الخارج إلى الداخل إلى مرحلة تبلورها وتطورها النهائى. فعلى سبيل المثال أتى "الغول"(من شعب المالاى فى أندونيسا) أى من الخارج. وكذلك جاء دراكولا الذى يقع موطنه على حدود آسيا[٢٢] .

نظرية الانتشار الكلاسيكية

كان القرن التاسع عشر هو الحقبة الكلاسيكية للاستعمار الذى اتخذت فيه نظرية الانتشار ما سوف أطلق عليه الشكل الكلاسيكى. فبعد الحروب النابوليونية توسع الاستعمار وتغلغل بسرعة مدهشة. ما بين ١٨١٠ و١٨٦٠ تمكن الأوروبيون من إخضاع معظم آسيا واستوطنوا معظم أمريكا الشمالية وكانوا قد شرعوا فى اختراق أفريقيا. مابين ١٨٦٠ وبداية الحرب العالمية الأولى كانت باقى آسيا وأفريقيا قد

استعمرت وبدأت تتراكم أرباح الاستعمار ورؤوس الأموال فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية كما توسعت مناطق الاستيطان الأوروبى مع ما جلبته هذه المناطق من ثروات هائلة. فى النصف الأخير من القرن زاد معدل نمو المشاريع الزراعية الاستعمارية وتفوقت على التطور الصناعى على مستوى العالم، كما ظهرت أهمية تعدين المعادن غير الثمينة لأول مرة على مستوى العالم(٢٣) . هناك اختلافات عميقة حيال أهمية كل هذا بالنسبة للتطور الفكرى والاجتماعى لأوروبا فى هذه الفترة. سأعرج إلى هذه المناظرة فى الفصل الرابع ولكن يكفى الآن أن نؤكد أن الأثر العام للتوسع الأوروبى من خلال الاستعمار بمعناه الضيق ومن خلال الاستيطان والهيمنة الاقتصادية شبه الاستعمارية كانت بالعمق الكافى لخلق نموذج فكرى كبير وهو الشكل الكلاسيكى لنظرية الانتشار.

فى حوالى ١٨٧٠ كان هناك اتفاق واسع بين المفكرين الأوروبيين عن الطبيعة الأساسية للعالم وديناميـاته. قليلون هم من شككوا فى أن التطور البيولوچى والاجتماعى - أى التقدم - كانا حقائق أساسية بالرغم من أن عمليات التطور كانت فى الغالب تفسر بصورة دينية أو ميتافيزيقية أكثر منها طبيعية كما فى نظرية دارون(٢٤) . وبدا واضحًا بل طبيعيًا أن يخوض الأوروبيون تجربة التطور الاجتماعى على أنه كان دائمًا خطة الله أو الطبيعة على مدار التاريخ. وصف بعض المفكرين التاريخيين تلك العملية مستخدمين مصطلحات كليّة مثل تطور المجتمع أو الدولة وبعضهم تعامل معه بطريقة أكثر اختزالية (reductionist) (بمعنى ما سيكولوچيةً) على أنه صعود فكرى؛ أو هو التطور الثابت للعقل الإنسانى، مع النظر إلى الاستعمار والصناعة وغيرها على أنها من منتجات العقل. ولكن الكثير من المفكرين (ومن بينهم هربرت سبنسر) لم يروا تعارضًا بين النماذج الاجتماعية والفكرية، وتعاملوا مع التقدم على أنه التيار المتدفق الذى حمل معه تطورًا للمجتمع والعقل معًا(٢٥) . كان كل هذا واضحًا فيما يتعلق بأوروبا والأوروبيين وبالطبع الأنجلو - أمريكيين. ولذا فمع حلول

سبعينيات القرن التاسع عشر على أكثر تقدير كانت فرضية الانتشار وفكرة التقدم الطبيعى والدائم والنابع من الداخل فى أوروبا (الغرب الأوروبى) كانت قد ترسخت، ولم تعد يناقش حقيقتها مفكرو الاتجاه السائد.

و كان هناك فى الوقت نفسه وجهات نظر متقاربة عن الطبيعة والديناميكية التاريخية للعالم غير الأوروبى. مع حلول منتصف القرن التاسع عشر كانت وجهة النظر الإنجيلية قد رُفضت (ولكن ليس فى كل المقررات الدراسية التاريخية) ولم يعد هناك ضرورة لمناقشة الفروق بين الأوروبيين والثقافات الأخرى فى آلاف قليلة من السنين إلا إذا اعتقدنا بوجود تلك الفروق منذ البداية، وإذا اعتبرنا كذلك أن أصحاب نظرية الأصول الإنسانية المختلفة كانوا على حق فى أن بعض المجموعات البشرية خُلقت ربما فى وقت ما قبل آدم وحواء وبشكل منفصل عنهما . لقد أفسح هذا المجال للكثير من التنظير عن طريقة تبلور الاختلافات الثقافية. ويتطابق مع هذا التغيير رفض عام للمعتقدات الإنجيلية عن طبيعة أصل المجتمع الإنسانى. ينظر إلى الثقافة الآن (بعد منتصف القرن) على أنها نتيجة تطور من بدايات بدائية جداً متمثلة فى "العصر الحجرى" البدائى. (وفقًا للعهد القديم امتلك البشر التكنولوچيا المتقدمة بما فيها الزراعة واستخدام المعادن منذ النشأة الأولى فى سفر التكوين.)

إن أسباب التبلور السريع للمعتقدات عن غير الأوروبيين معقدة ولكن السبب الأساسى والمهم هو التقدم الاستعمارى. أثمر هذا عن تأثيرين على وجه الخصوص. الأول هو كثرة المعلومات المتوفرة عن الناس والأماكن غير الأوروبية، حيث نجد وصفًا مترابطًا - بالرغم من كونه مشوهًا بدرجة كبيرة - لأول مرة فى الأدب الأوروبى عن غير الأوروبيين من حيث كونهم متحضرين "وهمجًا" معًا. أما السبب الثانى فكان اهتمام عملى وسياسى واقتصادى لإثبات صحة أشياء معينة وعدم صحة أشياء أخرى عن العالم غير الأوروبى الذى يعج بالبشر. كان لهاتين العمليتين ارتباط وثيق إحداهما بالأخرى .

كان الاستعمار بأشكاله المتنوعة ـ المباشرة وغير المباشرة – مشروعًا مربحًا بدرجة كبيرة، حيث كانت تستثمر مبالغ كبيرة من المال فى محاولة لمعرفة الكثير عن البشر والموارد فى الأقاليم المزمع غزوها أو السيطرة عليها بل ربما استيطانها، كذلك لمعرفة الكثير عن الأقاليم التى تم غزوها بالفعل وهذا لتيسير الإدارة والاستغلال الاقتصادى لهذه الأقاليم. كان القرن التاسع عشر هو عصر الاكتشاف العلمى كان دارون فى بيجل، وليڤينجستون فى أفريقيا، وباول فى جبال روكى وهكذا. ولكن كانت هناك مؤسسات تقف وراء هذه الجهود، وقد كان لهذه المؤسسات اهتمامات عملية فى الأقاليم محل الدراسة. وتوافق مع كل هذا تدفق النشاط التبشيرى الدينى الذى دعم بعض الاكتشافات (منها ما يخص ليڤينجستون) الذى أدى إلى جمع معلومات مهمة ومفصلة عن الإثنوجرافيا واللغات والجغرافيا بواسطة المبشرين الذى كرسوا أنفسهم لهذه القضية فى العالم غير الأوروبى. كذلك كان للتقارير المفصلة والدقيقة التى كان لابد للإداريين الاستعماريين أن يقدموها أهمية كبيرة حيث كانت توفر معلومات عن النظام القانونى الخاص بالدولة وقوانين النظام العقارى والإنتاج وغيرها الكثير.

جاء معظم ما عُرف عن غير الأوروبيين من هذه المصادر. ليس مهمًا بالنسبة لى أن أسهب فى حقيقة أن من قاموا بتوفير هذه المعلومات كانوا أوروبيين لهم وجهات نظر ثقافية وسياسية ودينية محددة جعلتهم يرون أصحاب الأرض الأصليين من خلال عدسات أجبرتهم على تشويه جانب كبير من الحقيقة. قد يمتلك المبشر حبًا عظيمًا واحتراما لمن عمل بينهم ولكنه من غير المتوقع لهذا المبشر أن يعتقد بالمساواة بين الأوروبيين المسيحيين وغير المسيحيين. كما أن الإدارى الاستعمارى لم يرتكب أخطاء ثقافية فحسب، بل كان يعمل باهتمامات اقتصادية ولصالح طبقات اجتماعية (المزارعين الأوروبيين وشركات التعدين وجامعى الضرائب وغيرهم) وقد كانت له وجهات نظر عن وعى أو غير وعى عن عامة الناس والموارد عكست انحيازًا واهتمامًا بطبقة الصفوة فى مجتمعه. وبشكل أكثر تحديدًا قام المبشرون والإداريون

الاستعماريون بنشر أوروبا فى العالم غير الأوروبى. ولذا فقد اتسمت كثير من المعلومات المجموعة بهذا الأسلوب بالكثير من التشوهات. وبالرغم من قيمة تلك المعلومات الكبيرة فإن النظريات المبنية عليها - وهذا يشمل أغلبية النظريات الأنثربولوچية والجغرافية والسياسية والاقتصادية فى القرن التاسع عشر عن غير الأوربيين - كانت تقدم معلومات مشوهة وبطريقة منظمة. هذه التشوهات خاصة بنظرية الانتشار.

أضاف الاهتمام الاستعمارى نوعًا آخر من التشويه وهو تشكيل المعرفة فى شكل نظريات تفيد الاستعمار. فقد تم وضع نظريات علمية وقانونية من قبل صانعى السياسات والمفكرين الذين كانوا هم أنفسهم صانعى سياسات أو كانوا قريبين من السياسة. (فى إنجلترا على سبيل المثال كانت نسبة كبيرة من المؤرخين المؤثرين والمنظرين الاجتماعيين وحتى الروائيين والشعراء لهم علاقات مباشرة مع شركة الهند الشرقية ووزارة المستعمرات ووكالات عامة وخاصة أخرى للإمبراطورية[٢٦]). لاحظ أننى أُضمن تحت مظلة كلمة "نظرية" عددًا كبيرًا من الادعاءات من بينها الأسس التاريخية الكبيرة.

وعلى نطاق واسع كان المفكرون يشكلون نظريات عن التطور الاجتماعى ولم تكن هذه النظريات فى جوهرها سوى تعبير مفاده أن بديهيات نظرية الانتشار هى قوانين طبيعية. وكما لاحظنا سابقًا، أن مناظرات القرن التاسع عشر بين أصحاب نظرية "الاختراع المستقل" والانتشاريين لم تكن إلا مناظرات بين نسختين لنظرية الانتشار. كانت هناك مجموعة كبيرة من النظريات فى كلا المعسكرين تهدف إلى مساندة النشاط الاستعمارى وتطوير وتقوية الاعتقاد بأن الاستعمار الأوروبى هو عملية طبيعية علميًا، بل هو أمر حتمى ينبع من القوانين الاجتماعية للتقدم البشرى (تقدم الأسرة والقانون والدولة ... إلخ). أيضًا على المستوى العام قدمت الأعمال الأولى المهمة فى منتصف القرن التاسع عشر ونهايته عن التاريخ القديم والحديث أفكارًا متنوعة دقيقة ومدروسة

بعناية عن نظرية الانتشار وبالتحديد عن أسباب تطور أوروبا وكيف كان طبيعيًا ودائمًا مقارنة بالشعوب المستعمَرة الآن. تعد هذه الأسس التاريخية من الأهمية بمكان فى دعم الأنشطة الاستعمارية بين الشعوب الأوروبية ولاحقًا حين كانت تصمم النظم التعليمية الاستعمارية لإقناع سكان البلاد الأصليين كيف أن الاستعمار هو عملية طبيعية وحتمية وتقدمية.

فى الفصل الثانى سأحاول أن أناقش عدداً من نظريات الانتشار التى أصبحت ملموسة فى القرن التاسع عشر وباتت فى علاقة متشابكة مع الاستعمار والبحث الأكاديمى، مركزًا على تلك النظريات التى تشكل أساس أسطورة التفوق التاريخى والثقافى الأوروبى. هنا سأحتاج لأن أعرض كيف أن نظرية الانتشار الكلاسيكية ظهرت على قدم المساواة مع الاستعمار الكلاسيكى ولتحقيق هذا الغرض سأركز على نظريتين تمثلان هذا التيار للتوضيح.

إحدى هذه النظريات هى التى تفترض أن غير الأوروبيين لم يطوروا مفاهيم الملكية الخاصة لمصادر مادية مهمة مثل الأرض. إن النظرية التى أكدت الملكية الخاصة ظهرت من جذور أوروبية قديمة، وعلى وجه التحديد قانون الأراضى الرومانى وبعض الصفات الجيرمانية المزعومة والمتعلقة بالفردية وهذا هو ما افتقدته الحضارات الأخرى تاريخيًا (وبالتالى فهى فاقدة للصفات العقلية والثقافية المرتبطة بتلك المفاهيم) ولذا بقيت الحضارات غير الأوروبية فى مرحلة من سلم التطور لم تمكنها من تصور الملكية الفردية الحقيقية. ولهذا احتاج هؤلاء الناس لفرض الرأسمالية عليهم. فى الحقيقة، تطورت النظرية أساسًا بواسطة محامين وإداريين فى المؤسسات الاستعمارية الأوروبية والمكاتب الاستعمارية، وكان لديها هدف واحد ملموس هو بناء الأساس القانونى لاستباحة الأرض من الشعوب المستعمرة متوهمين أن تلك الشعوب لم يكن لديها أى حقوق ملكية لهذه الأرض وذلك لأنهم لم يكن لديهم أى مفهوم عن ملكية الأرض[٢٧] . ومع ذلك تمكنت هذه النظرية من أن تصبح من المسلمات فى فكر القرن

التاسع عشر حتى إن كارل ماركس وافق عليها ولهذا أنتج نظرية كبيرة عن تطور الملكية الفردية - جزء كبير من نظريته عن أصول الرأسمالية - التى جادل من خلالها - أو بالأحرى افترض - أن هذا التطور هو ظاهرة أوروبية خاصة وأن الاستعمار مع كل بشاعته قد نشر الرأسمالية فى العالم غير الأوروبى، وهى العملية الضرورية بالرغم مما سببته من ألم لغير الأوروبيين. ولهذا فحتى الماركسية التى ربما نعتبرها الاعتقاد المضاد للنظام السائد فى أوروبا فى القرن التاسع عشر أسهمت نظرية الانتشار فى تشكيلها إسهامًا كبيرًا[٢٨] .

" أسطورة الفراغ" هى صورة مهمة من صور هذا الاعتقاد، وهى فكرة نظرية الانتشار بأن المناطق المستعمرة أو المؤهلة لذلك كانت خالية من السكان أو كان يقطنها بدو رحل، أناس بلا محل إقامة ثابت ولهذا فلا يملكون ادعاء أى حق فى الأرض. أو كانت أراضىَ بلا سيادة سياسية ولا ملكية اقتصادية ، لها وظائف استعمارية مشابهة وظهرت بنفس الطريقة. نجد نفس الشىء ينطبق على اعتقاد وثيق الصلة بالنظرية السابقة وهى نظرية "الاستبداد الشرقى" (وهى أقدم من حيث المنشأ ولكنها تطورت بشكل كامل فى فكر نظرية الانتشار فى القرن التاسع عشر) وتبعًا لهذه النظرية يفتقد غير الأوروبيين لمفهوم الحرية ولذا يعانون من حكومات استبدادية تكبل كل تطور حتى يأتى الأوروبيون بالحرية متمثلة فى شكل الاستعمار (الذى يعد نقيض الحرية). تلك النظريات وغيرها التى انبثقت عن نظرية الانتشار مازال يعتد بها اليوم لدعم خرافة تفوق وتميز أوروبا التاريخى والثقافى. سوف نناقش هذه النظريات فى الفصل الثانى الذى يهدف إلى دحض هذه الخرافة.

كانت حقبة نظرية الانتشار الكلاسيكية هى حقبة الاستعمار الكلاسيكى؛ الحقبة التى كان فيها التوسع الأوروبى سريعًا ومربحًا حتى بدا التفوق الأوروبى على أنه قانون من قوانين الطبيعة. وقد قامت نظرية الانتشار بتنظيم هذه الحقيقة الظاهرية فى شكل نظرية عامة عن التفوق التاريخى والثقافى والسيكولوجى الأوروبى وعن ضعة غير

الأوروبيين وعن الحتمية والصحة المطلقة لعملية انتشار الصفات الأوروبية لغير الأوروبيين. وتشعبت النظرية العامة للانتشار فى شكل معتقدات عملية عديدة فى كل مجالات العلوم الإنسانية وفى الفلسفة والفنون[٢٩] . كما طبقت هذه المعتقدات فى حالات معينة لتفسير وتبرير أعمال الغزو والقمع والاستغلال. كان كل هذا صحيحًا وعقلانيًا وطبيعيًا وفقًا لتلك النظرية.

نظرية الانتشار الحديثة

لقد كان القرن التاسع عشر، أو على وجه أكثر دقة الفترة الفاصلة بين هزيمة نابليون وبداية الحرب العالمية الأولى، فترة سلام وتقدم نسبى للأوروبيين. قام الاستعمار بدعم هذه العملية عن طريق توفير الموارد والأسواق والعمالة الرخيصة والأراضى لكى يستوطنها الأوروبيون. كما قام الاستعمار بحل كثير من المتناقضات الأوروبية الداخلية. إن فكرة تطور الحضارة الأوروبية والتوسع المكانى لها كانتا بعدين مختلفين لقوة تاريخية كانت سائدة فى هذا الوقت وكانت هذه هى الفكرة الأساسية لنظرية الانتشار.

ولكن تغير كل هذا فى أوائل القرن العشرين. فالعالم محدود من حيث الحجم ولذا فكان ينبغى أن ينتهى التوسع المكانى. وبحلول ١٩٠٠ كان كل العالم غير الأوروبى قد تحول إلى مستعمرات أو أماكن سيادة أو أماكن شبه مستعمرة ومناطق استيطان. أسفر هذا التغيير فى الظروف عن تغير فى التفكير: أصبحت المشكلة الأساسية الآن هى الاستغلال والمحافظة على السيادة فى وجه المقاومة الوطنية. وأصبح الأمر الآن لا يتعلق بالتوسع بقدر ما يتعلق بتحقيق التوازن. وفى نفس الوقت استمرت الصراعات بين القوى الأوروبية – صراعات على المستعمرات – وتصاعدت إلى حرب فيما بينهم. وسريعًا بعد الحرب العالمية الأولى نشهد فترة الكساد العظمى. ثم الحرب العالمية الثانية. فيما بين ١٩١٤ و١٩٤٥ لم تركز العقول الأوربية على فكرة التقدم والتوسع بل

على السؤال عن كيفية منع الكارثة وهو كيفية المحافظة والعودة إلى السلام والرخاء. كانت كلمة السر هى الاستتباب والاستقرار.

لم تتناسب الفكرة الأساسية لنظرية الانتشار مع هذه الحالة الفكرية. كانت المعتقدات السائدة فى هذه الفترة هى نظريات الثبات والتوازن وليس نظريات التوسع. ارتكزت أسس الاقتصاد على نظريات عالم الاقتصاد البريطانى كينز(*) القائمه على فكرة التوازن. أما فى مجال الجغرافية فقد ساد مبدأ "الإقليمية" وهو فكرة كيف أنه توجد أجزاء مختلفة من العالم مستقرة ومترابطة ولها حدود واضحة وتتجه إلى أن تبقى على هذا النحو. أما علم الأنثروبولوچيا فكان يركز على نظريتين للتوازن : الأولى هى "الوظائفية" وهى نموذج لنظم اجتماعية (وثقافات) تعد مستقرة وقادرة على تصحيح أخطائها. والثانية هى "النسبية الثقافية" وفى جوهرها تدعو إلى أن لكل ثقافة قيمتها الداخلية.

عمل علماء الأنثروبولوچيا بين الشعوب المستعمرة وكانت هاتان النظريتان مرتبطتين بالسياسة الاستعمارية على أساس أنها مصممة لمنع أية قلاقل وطنية بينما تسمح بالاستغلال الأوروبى للأرض والمعادن والعمالة[٢٠] . ولهذا انتشرت مبادئ التوازن وربما تمكنت من الفكر الأوروبى خلال معظم النصف الأول من القرن العشرين.

وبدا على نظرية الانتشار فى هذه الفترة الأفول الجزئى. مازالت المقررات الدراسية التاريخية والجغرافية يسودها مبادئ نظرية الانتشار بطريقة تفكير القرن

(*) Keynesian Economics : نظرية اقتصادية مبنية على أساس أراء وأفكار العالم البريطانى John Maynard Keynes تدعو إلى اقتصاد مختلط تلعب فيه الدولة والقطاع الخاص معًا دورًا مهمًا.

التاسع عشر مركزة على الانتشار المثمر للحضارة فى أفريقيا، آسيا وأمريكا اللاتينية (التى يأتى منها موزونًا(*)) وفكرة الغائية(**) فى الغرب وهكذا. إن المبادئ المتطرفة لنظرية الانتشار فى الفكر الاجتماعى وهى ما ناقشناه سابقًا كانت مازالت تتطور وتُناقش[٣١] . ولا يجب علينا أن نعتقد بأن تقهقر نظرية الانتشار كمبدأ للديناميكيات الثقافية يعد تراجعًا عن فكرة التحيز. فمفهوم أن غير الأوروبيين أقل رشدًا وأقل إبداعًا وما إلى ذلك كان ولا يزال قويًا ومؤثرًا وربما أكثر قوة حيث إن هذه الفترة كانت فترة النازية وما شابهها من معتقدات وحيث ظهرت العنصرية الوراثية فى هذه الحقبة على أنها علم وليست انحيازًا. سوف نعود إلى هذا الأمر فى الفصل الثانى.

اكتسب شكل حديث من نظرية الانتشار شهرة بعد نهاية الحرب العالمية الثانية فى فترة انهيار الإمبراطوريات الاستعمارية وظهور "عالم ثالث" من بلاد نامية ولكنها ذات سيادة قانونية. إن هذا المبدأ وهو ما يعرف عادة اليوم تحت عنوان "الحداثة" أو "انتشار الحداثة " ظهر فى أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات. فورًا عقب استسلام اليابان فى عام ١٩٤٥ بدا واضحًا أن عددًا من المستعمرات من الممكن أن تحصل على استقلالها حيث باتت قوات التحرير قوية جدًا ونتيجة للحرب العالمية أصبحت كل القوى الاستعمارية ماعدا الولايات المتحدة الامريكية ضعيفة. وكلها أرادت التمسك بمستعمراتها لكونها مصادر الربح الوفير فى الماضى وبافتراض ما سيكون عليه المستقبل. استعملت كل قوة استعمارية أسلوب المراوغة بطريقتها الخاصة للتمسك بمستعمراتها لاجئة فى بعض الأحيان لاستخدام القوة لقمع حركات الاستقلال وفى أحيان أخرى مانحة الاستقلال السياسى سلميًا ولكن على مضض فى المناطق التى غدا فيها التحكم الاستعمارى مستحيلاً[٣٢] .

(*) فى إشارة إلى أهمية تلك المناطق حيث تتوافر فيها موارد طائلة مهمة لأوروبا .

(**) Teleology الغائية : وهى استخدام الغاية لشرح أى ظاهرة طبيعية.

تشبعت كل المستعمرات خلال الحقبة الاستعمارية الكلاسيكية برسالة أيديولوچية مفادها أن التقدم الاقتصادى والاجتماعى للشعوب المستعمرة يجب أن يأتى من خلال انتشار " الحداثة " من القوة المستعمرة. وتعنى الحداثة انتشار الاقتصاد الحديث (من المؤسسات الكبرى التى يملكها المستعمر) وانتشار نظام إدارى عام وحديث (الهيكل السياسى الاستعمارى) وكذلك انتشار بنية أساسية تكنولوچية حديثة (كبارى وسدود وما شابهها تبنى بواسطة المستعمر) وهكذا.

أسمى هذا رسالة أيديولوچية ولكن فى الحقيقة آمن بها المستعمرون الذين شعروا أن مهمتهم كانت حقًا تتمثل فى نشر حضارتهم لدى الشعوب الواقعة تحت وصايتهم الاستعمارية. والحقيقة أن مهمتهم تلك جلبت الثروات لبلادهم وهى منطقية جدًا بالنسبة لهم (تذكر الفرضية السادسة لنظرية الانتشار). فى الوضع الجديد اضطر المستعمرون إلى إقناع الشعوب المستعمرة أن رسالة " الحداثة " ماتزال شرعية وسارية المفعول. ولتحقيق هذا ربما أقنعوا الشعوب المستعمَرة بأن يتنازلوا بإرادتهم عن مثالية الاستقلال السياسى مفضلين عليها مثالية نفعية أخرى وهى التطور الاقتصادى والاجتماعى تحت الحكم الاستعمارى الحكيم والخبير. أما فى حالة إصرارهم على الاستقلال فإن بمقدور هذه الأيديولوچية أن تقنع الشعب الذى يحصل على حريته أن الطريق الوحيد للتطور الاجتماعى والاقتصادى هو الإبقاء على الاقتصاد الاستعمارى، أى السماح للمؤسسات الاستعمارية والبنوك بالاستمرار فى عملهم (المربح) فى ظل النظام الجديد. النظام الذى يسمى اليوم "الاستعمار الجديد".

بدأت كل القوى الاستعمارية الآن حملة كبرى لتركيز عملية التطور الاقتصادى الاستعمارى[٣٣]. ولا ينبغى أن ننظر لهذا التفكير على أنه تفكير كلبى (cynical) انتهازى أو منافق: تذكر كيف عرفت نظرية الانتشار العملية الاستعمارية على أنها مربحة للمستعمِر والمستعمَر معًا وأن العناصر الفنية والبشرية المرتبطة بالأنشطة

التطورية الاستعمارية اقتنعت بأنها تعمل لتنمية الشعب المستعمَر. وفى الوقت نفسه طُورت حملة موازية لترسيخ والشكل نفسه للتطور الاقتصادى فى البلاد المستقلة، من جهة من خلال وكلاء للأمم المتحدة، ومن جهة أخرى من خلال اتفاقيات مساعدة ثنائية[٣٤] . تعد الولايات المتحدة الآن هى القوة الاقتصادية الرائدة وقد بدأت فى إنشاء برامجها المساعدة فى بلدان العالم النامى. مرةً أخرى لا ينبغى أن نطرح هذا الرأى جانبًا لكونه انتهازيًا أو منافقًا. كانت هناك فى هذه الفترة أيديولوچية متفائلة جداً رأت نهاية الحرب العالمية على أنها بداية عصر التطور، عصر تعمل فيه الأمم المتقدمة على نشر الرخاء والتنمية فى الأمم الفقيرة.

انتشرت السياسة المضادة للاستعمار ورفضت حركات تحرير كثيرة وبلدان مستقلة حديثة قبول خيار الاستعمار الجديد إما بإخراج المؤسسات الأجنبية (مثلما فعلت أندونيسيا) أو اختيار مجتمع اشتراكى. أعطى هذا دفعة جديدة لمشروع انتشار الحداثة. تركزت الجهود المطالبة بالتطور من خلال الانتشار أملاً فى أن يؤدى نجاحها إلى رفض البلاد الخيارات المعادية للأجانب والمعادية للرأسمالية. ولكن اختيار أى من هذين الخيارين بدا وكأنه ينطوى على تحزب مع الاتحاد السوفيتى والصين ومن هنا جاءت أهمية مشروع انتشار الحداثة كشأن من شؤون السياسة الخارجية فى الحرب الباردة. فى عام ١٩٥٩ أعطى انتصار الثورة الكوبية أولوية كبيرة للمشروع لدى الولايات المتحدة التى بالتالى أعطت أولوية كبيرة للتطور الاقتصادى والحداثة وبالتحديد فى أمريكا اللاتينية داعيةً إلى جذب استثمارات كبيرة[٣٥] .

نظرية الانتشار الحديثة هى مجموعة الأفكار التى شكلت ومازالت تشكل الأوضاع فى العالم الثالث. إن عملية انتشار الحداثة كما ينفذها صانعو السياسة العامة والمؤسسات الخاصة وكما نظر لها المفكرون (على الأقل فى الدول العظمى المستعمرة سابقًا) تعتبر عملية تحقق بلدان العالم الثالث من خلالها الرخاء عن طرق الموافقة على الانتشار المستمر والمتنامى للعائدات الاقتصادية

والتكنولوچيا من الدول الاستعمارية سابقًا؛ العملية التى تعد الآن كما كانت فى الماضى مربحة جداً للطرف الثانى. إن نظام معتقدات نظرية الانتشار يشير إلى أن هذه العملية مربحة للكل ويعتقد فى صحتها وعقلانيتها وطبيعيتها كما كانت فى القرن الماضى.

إن الأفكار السائدة عام ١٩٩٣ تختلف كثيراً، بالطبع، عما كان سائداً عام ١٨٩٣، ولهذا فمن الخطأ الظن بأن نظرية الانتشار الحديثة هى نفسها نظرية الانتشار الكلاسيكية. لم تعد العنصرية البيولوچية جزءًا من النموذج (كما سنرى فى الفصل الثانى) ولا يعتقد إلا القلة من المفكرين الأوروبيين أن غير الأوروبيين لا يمتلكون الملكة الداخلية للتطور وبالتالى الوصول فى النهاية إلى مستوى الأوروبيين. غابت المرجعيات الدينية كما أن مفهوم أن هناك إلهًا مسيحيًا هو الذى بدأ كل شىء مع الأسلاف المزعومين للأوروبيين فى أرض الإنجيل وهو الذى قادهم إلى التفوق المتواصل على غيرهم لم يعد شائعًا. أصبحت العظمة التاريخية لبعض الحضارات غير الأوروبية أمراً مسلمًا به (ولكن مع شرط حيوى واحد وهو أن هذه الحضارات هى أقل رشداً وأقل إبداعًا من الحضارة الأوروبية، سنتعامل مع هذا فى الفصل الثانى). بعد حوالى ربع قرن من الإيمان الأعمى بأن انتشار الحداثة سيجلب التطور الاقتصادى فى كل مكان، نجد الخبراء الأوروبيين والباحثين الأكاديميين يعدلون من آرائهم فى هذا الشأن ويتراجعون على وجه الخصوص عن إيمانهم الساذج السابق بفكرة أن انتشار التكنولوچيا الحديثة وخاصةً فى مجال الزراعة هى مفتاح التطور الاقتصادى؛ مفتاح ما اصطلح على تسميته "انطلاق نحو النماء المستديم".

ولكن بالرغم من كل هذا فإن الافتراضات الأساسية لنظرية الانتشار لا تزال قائمة. لا يزال الأوروبيون يؤمنون أن للداخل طبيعة ثقافية أساسية واحدة وللخارج طبيعة أخرى ولكن مع قبول اليابان الآن فى قطاع الداخل. مازالوا يؤمنون أن الأوروبيين فى الماضى أظهروا قدرة على التقدم لم توجد فى حضارات أخرى ماعدا

مكانًا واحـداً أو مكانين في وقت أو اثنين فى التـاريخ. بالرغم من أن البـاحـثـين الأكاديميين الأوروبيين لم يعودوا يصرون على أن الفرق الرئيسى بين الداخل المتقدم والخارج الراكد سوف يستمر ويبقى فى المستقبل اللانهائى، إلا أن معظمـهم يكتب ويتحدث عن الحاضر والمستقبل على أن هذه الديناميكية الأساسية سوف تستمر (معدلين الصورة مرةً أخرى بقبول اليابان وربما بعض مجتمعات شرق آسيا الصغيرة فى الداخل الحيوى). ولكن اليوم وكما سنرى فى الفصل التالى هناك مجموعة صغيرة ولكن متنامية من الباحثين الأكاديميين الأوروبيين التى تستجيب للأفكار الجديدة التى تنبثق من البحث الأكاديمى غير الأوروبى فى مجتمعات ما بعد الاستعمار، وتشكك هذه الأفكار فى نموذج الانتشار وتنكر تصوراته التاريخية عن تفوق الداخل على الخارج.

نماذج العالم والاهتمامات العالمية

نظرية الانتشار نظرية ضعيفة. وهى، كما أناقش فى هذا الكتاب لا تمثل تاريخًا جيداً ولا جغرافيا جيدة. إلا أن لها تأثيراً هائلاً على مجال البحث الأكاديمى ولفترة طويلة من الزمن. كيف نفسر حقيقة أن يؤمن الناس بصحة نظرية سيئة ولمدة طويلة من الوقت؟ يجب أن نلتفت قليلاً إلى هذا السؤال قبل أن ننتقل من مناقشة طبيعة وتطور الانتشار كنظرية إلى مناقشة تاريخها الإمبيريقى الذى هو موضوع الفصول الأخيرة. إن من الأهمية بمكان فهم كيف أن هذه النظرية (وكل نظرية) تتداخل مع أفكار اخرى وتستجيب للمصالح الاجتماعية.

إثنوجرافيا المعتقدات

فى هذه المناقشة سوف ننظر إلى الأفكار على أنها حقائق ثقافية. سوف ننظر إليها من وجهة نظر إثنوجرافيه، بوصفها معتقدات يعتنقها الناس الذين ينتمون إلى

أنواع معينة من المجتمعات والفئات. سنرى كيف تختلف دراسة الأفكار كمعتقدات عن التساؤل عن مدى صدق أو صحة الأفكار، وأن دراسة الأفكار كمعتقدات هى فى بعض الحالات أكثر أهمية وأساسية من بين نوعى الاستفسار. سنرى إضافة إلى ذلك أن المعتقدات العلمية ترتب نفسها فى تراكيب كبيرة فى نظم معتقدات وهذه النظم مثل الانتشار لها علاقات حيوية من التوافق فيما بينها والامتثال مع قيم واهتمامات مجموعات البشر التى تعتنقها لصدقها. عندما نتابع هذا الكشف الإثنوجرافى لطبيعة الأفكار كمعتقدات سنكتشف كما أظن لماذا كان لنظرية الانتشار تاريخ حياة يمكن تفسيره بوضوح من خلال تاريخ حياة المجتمع الأوروبى، وعلى وجه الخصوص الاستعمار الأوروبى، بأفضل من استخدام عمليات فكرية أو اجتماعية داخل المجتمع الأكاديمى.

يمكن للأفكار العلمية والأفكار الإمبيريقية على وجه العموم أن تُختبر بطريقتين. الأولى سهلة وتقليدية. فهى تنظر إلى الأفكار من خلال معناها: هل هى منطقية؟ أى هل تعكس حججًا متماسكة داخليًا؟ هل هى صحيحة من حيث إن ما تؤكده عن العالم الحقيقى يبدو وكأنه مدعم بالأدلة؟ هذا المزج بين المنطق وهيكل المجادلة والأدلة الأساسية هو ما نحاول البحث عنه عندما نقيم الأفكار العلمية؛ كل الأفكار التى تتعلق بالحقيقة الإمبيريقية. أما الطريقة الثانية فى النظر إلى الأفكار فهى تتطلب تساؤلات عن الناس الذين يؤمنون بفكرة ما، الذين ينقلونها لغيرهم كمعتقد، وعن الناس الذين يسمعون وبالتالى يقبلون الفكرة كمعتقد. إن السؤال عما إذا كان شخص يؤمن بصدق فكرة ليس هو نفس السؤال عن صدق هذه الفكرة. الأسئلة عن منزلة المعتقد هى أمور تخص الإثنوجرافيا: لنرى لماذا يعتنق أناس معينون أفكارًا بعينها، وكيف يرفض أو يقبل هؤلاء الناس معتقدات بعينها، وكيف أن معتقدات معينة تكون مرتبطة فى عقول معتنقيها بمعتقدات أخرى لديهم، وكيف أن معتقدات أخرى جديدة مرشحة تقيّم ثم تقبل أو ترفض، وكيف أن المعتقدات بهذه الطريقة تعد مرتبطة بأجزاء أخرى للثقافة بما

فيها من قيم ونظام اجتماعى ونظام طبقى وسياسة وهكذا. وما يجعل هذا النوع من الاستفسار يشكل تهديداً هو حقيقة أنه يمكن أن يمثل دليلاً مستقلاً ويمكن الوثوق به فى أن مجموعة ما من الناس تعتنق فكرة ما على أنها حقيقية لأسباب لا تتعلق كثيراً بالمنطق، ولكنها لأسباب نابعة من الثقافة.

والجدير بالاهتمام أننا لا نشعر بعدم الراحة أو بالتهديد حين نقرأ تقريراً كتبه عالم أنثروبولوچى أو جغرافى ثقافى عن المعتقدات والقيم والخرافات وما شابهه المجتمع صغير ومغمور فى ركن بعيد من الأرض. حقيقة نحن نتوقع من الأنثروبولوچى أن يخبرنا عن الأسباب الثقافية والاجتماعية التى تجعل" السكان الأصليين"يتمسكون بهذه الآراء أكثر من التحقق من صدق تلك الأفكار. من الطبيعى فى هذا النوع من السياق أن يكون لدينا وصف للأفكار يميز ما بين مسألة الأساس المنطقى والمثبت بالقرائن ومسألة ارتباطها بالثقافة. ولكن عندما يطبق هذا المنهج الإثنوجرافى على ما نسميه بالأفكار "الغربية" فى ميادين العلم والتاريخ وما شابهها تأتى النتائج مقلقة والمشروع نفسه يبدو غير لائق على نحو ما.

إن الأفكار، إذا جاز التعبير، محاطة بالثقافة ويمكن أن نختبر الأشياء المحيطة والطريقة التى تغرس بها الأفكار فى هذه الأشياء المحيطة. هذه هى الدراسة الإثنوجرافية للأفكار. هناك إجماع فى مجال الأنثروبولوچيا فيما يتعلق بالمصطلحات بأن تلحق بادئة "إثنو" بكلمة دالة على مجال معين من مجالات المعرفة مثل الطب والنبات والجغرافيا وما شابه، عندما يكون هدفنا هو دراسة هذا المجال المعرفى من منظور إثنوجرافى. إن دراسة "الطب" على سبيل المثال تختلف عن دراسة "الطب الإثنوجرافى". فالثانى هو مجال من مجالات الإثنوجرافيا يسأل عن المعتقدات الطبية فى ثقافة ما، كيف تتصل هذه المعتقدات بغيرها فى هذه الثقافة وكيف يمكن لنا تعميم تلك المعتقدات الطبية بين الثقافات أو بين بعضها. عندما نضع بجانب الطب الإثنوجرافى كل المجالات العلمية الأخرى مسبوقة بالبادئة "إثنو" فإننا نحصل على

العلم الإثنوجرافى بمعنى الدراسة الإثنوجرافية لكل العلوم وبشكل أوسع كل العلوم الإمبيريقية. يعد التاريخ الإثنوجرافى جزءًا من هذه المجموعة(٣٦) . وكذلك أيضًا الجغرافيا الإثنوجرافية.

إن مادة الدراسة لدى العلم الإثنوجرافى هى المعتقدات. وعادة ننظر إلى المعتقدات وهى مصاغة على شكل قضايا إمبيريقية تؤكد صفات معينة لموضوع ما. إن وحدة الدراسة الأساسية - بالرغم من كونها ليست الأصغر - فى العلم الإثنوجرافى هى قضية المعتقد والشخص أو المجموعة التى تصنعها وتتمسك بها. لكل قضية إمبيريقية فى العلم الاجتماعى هناك سؤال إثنوجرافى علمى عن منزلة المعتقد وهناك سؤال آخر مختلف وعميق عن صحته. لا يبقى السؤالان منفصلين للأبد ولكنهما يرتبطان معًا فى خاتمة تحليلية طويلة. هذا التحليل يشرح فى النهاية خطأ الكثير من قضايا الانتشاريين من وجهة نظر المؤرخين والجغرافيين.

إن دراسة المعتقدات هى دراسة المجموعات المعتنقة لهذه المعتقدات. وهناك نقاط مهمة ينبغى إبرازهما عن تلك المجموعات: إن مجموعة ما معتنقة لمعتقدات معينة يمكن أن تكون مجموعة من أى نوع. ولكن من بين الأنواع المتعددة نجد الأكثر أهمية هى الثقافات والطبقات والتراكيب التى يمكن أن نفكر فيها على أنها طبقات إثنوجرافية. هذه الأنواع ليست مجردة إلا فيما يتعلق بتعريف الوحدات والحدود. تتنوع الثقافات من مكان إلى مكان ومن شخص لشخص ولكن الوحدة التحليلية نفسها حقيقة ملموسة، وأفرادها حقيقة ملموسة. ليست هناك أحجية فلسفية عن الكل الثقافى مقابل الأفراد (البشر) المكونين لهذا الكل فيما نناقشه الآن. لذا هناك علم إثنوجرافى لكل فرد من البشر وهناك علم إثنوجرافى للمجموعات كجموع كليه. أما الطبقات الاجتماعية فبها إشكالية أكبر. ولكن معظم الناس يقبلون الفكرة العامة بأنه يوجد تقسيم أساسى بين طبقتين اجتماعيتين. واحدة هى الطبقة العاملة والأخرى هى مجتمع الصفوة أو النخبة التى تنشر القوة السياسية وتتراكم لديها الثروة. وسأعتبر

أن معظم المجتمعات تتبع نفس التقسيم فى هذا القرن والقرن الذى سبقه، بل سأقر بأنه ليس من الممكن دائمًا أن نعرف ما إذا كانت مجموعة ما فى مجتمع ما تنتمى للطبقة العاملة (المنتجة) أو إلى طبقة الصفوة أو إلى طبقة أخرى غامضة غير محددة لعدم انتمائها لأى من الطبقتين السابقتين. جزء من الإشكالية المرتبطة بالقضايا المناقشة هنا فى هذا الكتاب هم الأساتذه المشغولون بالدراسة والكتابة عن المجتمع والبيئة. فهم ليسوا أعضاء فى طبقة الصفوة، المراكمة للثروة، ولكنهم باحثون أكاديميون وكتاب، هم فى معظم الأحوال (ليس كلها) مرتبطون بهذه الطبقة، ولفكرهم الثاقب ونظامهم وأمانتهم فهم يميلون للتفكير والقول والكتابة لأفكار هى مفيدة لطبقة الصفوة. إن هذا يعد صحيحًا بشكل خاص فيما يتعلق بأفكار نظرية الانتشار.

تتقاطع الثقافة والطبقة الاجتماعية فى المجتمعات الطبقية العرقية. إن هذا الكتاب يستخدم مفهوم الطبقية العرقية بشكل مهم. سأجادل بقوة بأن تجمعات الصفوة فى البلدان الأوروبية فى مجموعها بالرغم من اختلافها الثقافى (والقومى) هى مجموعات أساسية ودائمة ومتمسكة بمعتقداتها وتشكل هذه المعتقدات إلى حد كبير علمًا إثنوجرافيًا واحدًا وجغرافيا إثنوجرافيا واحدة. هذا يعكس حقيقة فى الفترة التى هى مركز اهتمامنا وهى القرنان التاسع عشر والعشرون. تلك الحقيقة تتمثل فى أنه كان لدى هؤلاء الصفوة مجموعة مشتركة من الاهتمامات فيما يتعلق بالطبقات العاملة فى بلدانهم وغيرها من العالم غير الأوروبى. وقد قاموا مجتمعين بالاتفاق على إنتاج نظام معتقدات مترابط عن العالم الأوروبى، والعالم غير الأوروبى والعلاقات المتشابكة بينهما. إن أكثر الفرضيات أهمية فى هذا الكتاب هى فى الحقيقة التأكيد على أن أفكار الانتشاريين هى فى قلب نظام المعتقدات الذى تكون تحت تأثير، ولتحقيق أهداف، الصفوة الأوروبية. ورغم أنه لا ينبغى الاعتقاد بأن العلم والتاريخ اللذين أُنتجا بدافع تأثير هذه الطبقة يعتبران "منحازين"، سوف نرى أن الأفكار فى الجغرافيا والتاريخ والعلم الاجتماعى تأثرت، وبقوة، بحماية تلك الطبقة. وبوجه عام ومن خلال

تدفق الأفكار على مدى القرنين فإن النتيجة هى مجموعة من معتقدات نظرية الانتشار التى تصر وتستمر فى التأثير على الممارسة الاجتماعية بالرغم من عدم علميتها.

تنتظم المعتقدات فى هيئة نظم معتقدات. الفرق ليس تحديداً فرقٌ فى درجة التعقيد النسبى، فمعظم المعتقدات البسيطة هى تلك الأفكار التى يمكن التعبير عنها بجمل إيضاحية (بعضها من خلال قصيدة أو لوحة) ويعبر الناس عنها بوصفها تأكيدات على درجة كبيرة أو صغيرة من الثقة فى صحتها. نحن مهتمون هنا بثلاثة أشياء متعلقة بجمل المعتقدات هذه والمواقف التى تعبر عنها. فهى إمبيريقية (ليست منطقية ولا تقيمية خالصة)، ويعبِّر عنها على أنها صحيحة أو من الممكن أن تكون صحيحة. كما أن المتمسكين بهذه المعتقدات يعتقدون أنها كل معرفى أو تمييزى حيث يمكن أن يطلق عليها مبدئيًا "أفكار" أو "مفاهيم". وما يجعل هذه الوحدات - الصعبة فى تحديد دقتها - مهمة هو أن أفراد البشر لا يفكرون فى هذه الأفكار أو المفاهيم من الفرا غ أو من وحى تجربة إدراكية آنية. إذ تُكون وحدات المعتقدات هذه شخصيتها كمعتقدات خلال فترات طويلة من الزمن، فى الغالب عبر أجيال ومن خلال أعداد هائلة من الناس. ونجد مزيدا من التركيب فى نظام معتقدات ما يتكون من سلاسل من القضايا المرتبطة بعضها ببعض بواسطة مقتضيات (لأن ...). وسأطلق على هذا النوع من نظم المعتقدات - ولن أكون صاحب السبق فى هذا - "مجادلة". والجدير بالملاحظة هنا أن سلسلة القضايا فى مجادلة ما قد تتطور من البسيط إلى المعقد وقد لا يحدث هذا. كذلك نجد تركيبًا أكثر إحكامًا فى تلك النظم التى يطلق عليها نظريات. إذ يتم تجميع المعتقدات البسيطة بطرق متنوعة فى بنى معتقدية، أو نظم معتقدات. ويتجمع كل نظام اعتقادى بدوره (نفسيًا) فى أشكال متنوعة من نظم أعلى.

وأعلى مستوى يتضمن كل المعتقدات الإمبيريقية التى تعتنقها مجموعة، ما بما فيها تلك المعتقدات التى تناقض بعضها بعضًا، هو العلم الإثنولوچى (Ethnoscience) (لفرد ما) أو لمجموعة ما فى شكل كلى. ويتضمن هذا الكل جميع المعتقدات، سواء

الحقيقية أو التى يعتقد بصحتها عن العالم الخارجى الطبيعى والاجتماعى؛ معتقدات عن النفس أو الشخص ومعتقدات عن التقنيات أى عن قدرة الفرد على التعامل والتأثير على العالم. على نحو ما من يعد العلم الإثنوجرافى موسوعة.

كيف يسمح لمعتقد جديد بالدخول إلى نظام معتقدات ما؟ ليس هذا سؤالاً حول مصدر الأفكار الجديدة ولكنه سؤال عن مشروعيتها وصحتها، أى عملية الترخيص الاجتماعى التى ترتقى بها إلى مرتبة المعتقد. المعتقد الذى يُقبل على الأقل على أنه فرضية يمكن دعمها، أى "فكرة معقولة"، وعلى أكثر تقدير مقبولة لكونها حقيقة. فى عملية منح الرخصة الاجتماعية هذه هناك ثلاث أحكام بارزة - أعتقد أيضًا أنها إجراءات بارزة - . الأول هو الحكم الخاص بالتوافق والثانى هو الخاص بالتحقق من الصحة (الأمر المتعلق بالإثبات الإمبيريقى). أما الثالث فيتعلق بالامتثال. ومع ذلك فإن الغرور الاكاديمى على العكس يجعل التحقق من الصحة هى الأقل أهمية بين الأحكام الثلاث.

كل نظم المعتقدات التى تعتنقها مجموعة ما متشابكة فيما بينها بطريقة أو بأخرى؛ ويرتبط بعضها ببعض بطريقة قوية. على سبيل المثال، قد تنبع نظرية ما من نظرية أخرى وعادةً ما تكون العلاقة أكثر تفككًا من هذا. ولكن لكل نظم المعتقدات علاقة واحدة أساسية ومشتركة مع غيرها من نظم المعتقدات الأخرى لجماعة ما. فهى متوافقة أى يمكنها التواجد بسلام مع غيرها فى نفس العلم الإثنولوچى، لأنها ليست متنافرة معرفيًا أو ثقافيًا. وبالرغم من تعارض المعتقدات بعضها مع بعض فى بعض الأحيان، لا يمكن التسليم بعدم وجود علاقة مباشرة أو غير مباشرة. فكل المعتقدات لدى مجموعة ما أو فرد ما ترتبط بعضها ببعض وفى الغالب سنجد نوعًا من التوافق فيما بينها. عادةً ما تعضد نظم المعتقدات بعضها بعضًا : إذا كان "أ" صحيحًا فمن المعقول أن نفترض أن "ب" أيضًا صحيح. أو إذا كان "أ" صحيحًا فيتبع ذلك بالضرورة

أن "ب" صحيح. ما يخصنا هنا هو - لأن هذا السيناريو هو سيناريو إثنوجرافى - حقيقة الحكم بالتوافق على نظم المعتقدات. هذا الحكم بالتوافق ليس تعريفًا أو تأكيدًا على الوضع الذى تتمسك فيه مجموعة ما باثنين أو أكثر من المعتقدات فى نفس الوقت حيث يعد هذا دليلاً على "توافقهم". هذا "التوافق" هو نتاج عملية اجتماعية مهمة. تتضح هذه العملية بجلاء حينما يتم تقديم معتقدات جديدة : فعندما تظهر فرضية جديدة لدى مجموعة ما يجب أن تسعى للحصول على القبول أو الترخيص الاجتماعى. واحد من أهم الاختبارات التى عليها اجتيازها هو توافقها مع المعتقدات الموجودة بالفعل.

تعد علاقة التوافق هذه من أكثر العلاقات مطاطية من غيرها بين النظريات والمعتقدات فى العلم الإثنولوچى. التوافق هو الجسر الذى يجب بناؤه فوق الفجوات فى الفكر. لدينا نوعٌ واضح من الفجوات وهو نقصان المعرفة. أما النوع الآخر - وهو ليس على نفس درجة الوضوح ولكنه على درجة كبيرة من الأهمية بالنسبة للمجادلة فى هذا الكتاب - فهو الفجوة بين النظريات (والمعتقدات الأخرى) التى عادةً ما تملأ ولكن ليس عن طريق المجادلة. بلغة عادية يبدو معقولاً أن نفترض أن نظرية ما تساند غيرها أو أن يفسر معتقد تاريخى ما بواسطة غيره. مسألة "المعقولية" هذه يجب أن تخضع للاختبار لأنها شكل من أشكال التوافق يسمح لأفكار عبثية غير معقولة أن تمرر على أنها مجادلة علمية مكتملة البناء وصحيحة.

وعمومًا هناك طريقتان مهمتان لعبور تلك الفجوات حينما نضع "فكرة المعقولية" مكان مجادلة واضحة يمكن الدفاع عنها، محاولين إخفاء عدم وجود مثل تلك المجادلة. تستدعى الطريقة الأولى إدخال قضايا قيمية محل قضايا المعتقدات، وسنستكشف هذه الطريقة فى الجزء التالى. أما الطريقة الأخرى فتكمن فى نظام المعتقد نفسه. حيث تقوم باستبدال مجادلة واضحة بأخرى ضمنية. ولكى نوضح كيف تعمل يجب أن نميز بين المعتقدات الواضحة وتلك الضمنية.

إن المعتقدت الضمنية هى أمور واضحة للعيان لدرجة أنه لا داعى لذكرها، لا تستدعى التفكير بها أو أنها واضحة بدرجة جلية أو مسلم بها. إنها معتقدات عادية ونظريات قد لا تظهر فى السياق. لا يوجد شىء غامض فى معظم المعتقدات الضمنية فهى ليست مدفونة بطريقة ما فى اللاشعور، أو ممنوعة من الظهور عن عمد. يفكر الناس فى بعض المعتقدات بطريقة واعية وموصوفة لفظيًا أكثر من غيرها وهذا لأسباب عديدة مختلفة. إن المعتقدات الموصوفة لفظيًا هى المعتقدت الصريحة أما غيرها فهى المعتقدات الضمنية. فى حالة كهذه ليس هناك خطوط فاصلة للتعبير غير الرسمى عن المعتقد.

ولكن يتضح مثل هذه الخطوط الفاصلة فى حالة العرض الرسمى والمكتوب والمنشور للمعتقد. عادةً لا يكتب عن المعتقدات الضمنية. حتى إنها إذا ما ظهرت مكتوبة فهى تأخذ شكل افتراضات واضحة أو بديهيات. وما يظهر هنا هو الاستنتاج الناجم عن مجادلة ضمنية وليس المجادلة نفسها. فمن النادر أن نجد محاولة للخداع أو التشويش. يسلم الكاتب بداهةً أن القارئ يحمل نفس مجموعة المعتقدات الضمنية ومستعد لقبول "معقولية" الافتراضات غير المؤيدة بالأدلة. فالاثنان يشتركان فى نفس العلم الإثنولوچى ونفس نظام القيم.

المعتقدات الضمنية، كما سنرى، هى أضعف الحلقات فى نموذج نظرية الانتشار للعالم. فى سياق هذا الكتاب سنواجه نظريات الانتشار معلقة فى الهواء غير مدعومة بالحجج أو الأدلة. فى الحقيقة سنجد فى أجزاء كبيرة من نموذج العالم من وجهة نظر نظرية الانتشار أن الافتراضات التى تجعل هذه المعتقدات مترابطة وصحيحة هى فى حقيقة الأمر مفقودة. وفى قول آخر القليل نسبيًا من هذه المعتقدات هو الواضح والمسنَد. وهذا القليل غير مترابط، لذا فالنسيج ككل غير مكتمل. فهو يظهر كاملاً فقط لدى هؤلاء المستعدين للتسليم بالكثير وملء الفجوات بمعتقدات ضمنية.

التحقق من الصحة هو أمر يتعلق باختبار معتقد ما لنرى ما إذا كان يتواءم مع الحقائق. هناك أنواع متعددة من الاختبارات وهناك خلافات حول طبيعة عملية التحقق من الصحة ولكن يجب ألا تعطلنا هذه الأسئلة. يتضمن النوع العادى من هذه العملية بحثًا عن الأدلة التى تساند أو تعارض الفرضية الجديدة، أى المعتقد المرشح. إن العملية دائمًا غير مكتملة، فكل فرد فى كل ثقافة أو مجتمع يجب أن يتم إرضاؤه بواسطة تأكيد جزئى (وعدم تأكيد) للمعتقدات الإمبيريقية. بالنسبة لنا فإن النقطة المهمة المتعلقة بالتحقق من الصحة هى أن هذه العملية لا تمثل دعمًا كافيًا لتحويل فرضية إلى معتقد مقبول. كما أنها ليست ضرورية كذلك.

إن الحكم بالتوافق هو أكثر حيوية من ذلك المتعلق بالتحقق من الصحة. ويعد هذا صحيحًا بين علماء الاجتماع كما هو بين مجموعات الأفراد. جزء من عملية التحقق من الصحة هو فى حد ذاته أمر متعلق بالحكم بالتوافق. حيث إن الكلمات والإجراءات المتخذة فى عملية التحقق من الصحة، والمعايير التى على أساسها تتم إجازة اختبار ما وغيرها تعد مأخوذة من المعتقدات الموجودة بالفعل. واختبار المعتقدات الجديدة يعد جزئيًا أمرًا متعلقًا بالمواجهة المباشرة مع الأدلة الجديدة. ولكن ليست هذه هى النقطة الأساسية. فأى فكرة جديدة لدى أى مجموعة معتنقة لمعتقدات يتم الحكم عليها على أساس الطريقة التى تتوافق بها مع نظام المعتقدات الموجود أكثر من اعتمادها على أساس معناها المفهوم مباشرةً.

يحدث الشىء نفسه فى المجال الأكاديمى. هناك بديهية تقول إن المعتقدات العلمية تدافع عن نفسها فى وجه الافتراضات الجديدة التى تشكك فيها، وعادةً ما يكون هذا الدفاع عنيفًا ولاذعًا ومتعنتًا. (أطلق وايتهد على العلماء " القادة المتعنتون: يسمح بالتقدم فى التفاصيل بينما توضع فيه العراقيل أمام التجديد الجوهرى ")[٣٧] . هذه البديهية شاعت على يد توماس كون من خلال سيناريو درامى، هو ما أُطلق عليه نظرية الثورات العلمية. وفى جوهر هذه النظرية أن المعتقدات العلمية المهمة تتخذ

موقف الإقطاعية؛ ويكتسب مؤيدوها قوة الأكاديمية، وهكذا تترسخ هذه المعتقدات وتسيطر لفترة طويلة من الزمن حتى بعد تراكم الأدلة المضادة لها. وتدريجيًا يحدث انفصال تاريخى، "ثورة علمية" تطرح أرضًا النظرية الحالية أو النموذج القائم وترسى آخر مكانه وهو بدوره يسيطر لفترة من الزمن[٣٨] . ولكن مرجعية كون (فى بناء الثورات العلمية) كانت العلم الفيزيائى، ولقد أُخبرنا القليل عن العملية المهمة التى عن طريقها تكتسب وتحتفظ المعتقدات بالسطوة فى العلم الاجتماعى بما فيه التاريخ والجغرافيا الثقافية. فى هذه المجالات تختلف العملية من الأساس. فمن ناحية تسيطر المعتقدات لأسباب تعكس بشكل مباشر اهتمامات الصفوة من خارج مجال البحث الأكاديمى، واستبدال نظرية محل أخرى يعكس هذه الاهتمامات الخارجية. أى أنها ليست ثورة فكرية على طريقة كون فى مجتمع البحث الأكاديمى. ومن ناحية ثانية يعد الهجوم على النظريات القديمة باستخدام أدلة جديدة ليس سهلاً وذلك بسبب عدم دقة المناهج العلمية. ولسبب آخر هو أن تجميع الأدلة يتم تحت إشراف - وفى بعض الأحيان تحكم - المعتقدات الموجودة. لذا نجد أن تراكيب المعتقدات الكبيرة مثل نظرية الانتشار تستمر لأجيال لا تعكر صفوها "الثورات العلمية".

يوجد لدى الناس توجه ضعيف أحيانًا وأحيانًا أخرى قوى، لتصديق ما يريدون أن يصدقوه. وبعبارة أخرى تتأثر المعتقدات بالقيم أو أن المعرفة تتفاعل مع التقييم لإنتاج ما يطلق عليه تولمان ببراعة "مصفوفة المعتقد - القيمة"[٣٩] . إن المفهوم الواضح (أو على الأقل البسيط) "للقيم" يعتبرها أحكام تفضيل، تأكيدات لما هو جيد أو سيئ، صواب أو خطأ، محبب أو غير محبب لدى الأفراد والجماعات. إن القيم مثل المعتقدات تتجمع فى شكل نظم. ولكن نظم القيم تختلف كثيرًا عن نظم المعتقدات الإمبيريقية. فالأخيرة تؤكد بشكل عام أن أشياء ما صحيحة (أو غير صحيحة) عن العالم؛ أما السابقة فتؤكد مدى تفضيل الأشياء (من عدمه) ولذا فهى تعمل على الأشياء غير المدعمة بالمعتقدات، وقد كان جون ديوى محقًا عندما وصف هذه التأكيدات على أنها

"جدول أعمال"[٤٠] . عندما ينظر إليه بهذه الطريقة فإن ميدان القيم لا يعتبر مستقلاً ومبهمًا. إنه فى الأساس مرحلة انتقالية بين المعتقد والممارسة. إن القيم هى الاهتمامات.

تتفاعل القيم مع المعتقدات فى مصفوفة المعتقد - القيمة. نستطيع أن نجد درجة ما من الاتساق بين نظام معتقد ما ونظام قيم ما خلال فترات محدودة (ماعدا فترات التغير الاجتماعى السريع جداً). سأسمى هذه العلاقة المنتظمة نوعًا ما ونظام ما بين النظامين امتثالا حيث إنها تعمل فى اتجاهين. لا تصبح القضايا معتقدات صحيحة بدون أن تتماثل مع القيم وبالتالى مع اهتمامات الجماعة. ولكن الأحكام القيمية تشير إلى تفضيل عمل مستقبلى وقد يرفض حكم ما من قبل مجموعة ما فى أى وقت لو كان هذا العمل الذى تنادى به غير عملى، هذا فى حالة عدم نجاح ذلك العمل مع الأخذ بعين الاعتبار طبيعة العالم كما هى مصورة فى نظام المعتقدات. بالطبع إن الأمور أكثر تعقيداً من هذا كما أن قدرتنا على التنبؤ بها محدودة. على أى الأحوال يجب على نظام المعتقدات الغالب لدى أى مجموعة أن يتماثل مع نظام القيم على المدى الطويل وحينما يفشل الاثنان فى الوصول لدرجة التماثل هذه فيجب على أى منهما أن يجبر على التغيير. وحيث أن القيم هى تعبير عن الإهتمامات الدنيوية المادية سيكون نظام المعتقدات مستعداً فى الأوقات العادية أن يميل نحو نظام القيم ونحو الاهتمامات الدنيوية أكثر من العكس.

الحكم بالتوافق مع القيم هو جزء مهم فى الترابط بين المعتقد والثقافة. فمن المعروف أن المعتقدات مرتبطة بالثقافة ولكن فكرة أن هذه الفرضية تنطبق كليًا على نظم المعتقدات لدى الباحثين الأكاديميين لا تقبل إلا بطريقة عامة ومجردة، ولذا فإن هذا عادةً لا يسمح بتحليل الأسلوب الذى تؤثر فية قيم باحث معين على قضاياه الإمبيريقية. أما أكثر الفرضيات قوة فهى المنادية بأن الأفكار الجديدة فى العلم الاجتماعى تقيَّم تبعًا لدرجة تماثلها مع القيم وبالتحديد مع نظام القيم الخاص بطبقة

الصفوة بالمجتمع – الذى ليس بالضرورة نظام القيم الخاص بالباحثين الأكاديميين – وعادةً ما تؤدى عملية التحقق من الصحة هذه إلى قبول وإرساء أفكار غير علمية فى الغالب ما يتم التغاضى عنها بالرغم من كونها مبدءًا عاديًا فى العلم الإثنولوچى (عادى على الأقل حينما يطبق على أفراد بخلاف أنفسنا).

ولكن هناك فرضية أكثر قوة وهى التى سأدافع عنها فى هذا الكتاب مستخدمًا حججًا ملموسة وأدلة. تقوم هذه الفرضية على أساس أن النماذج المفسرة للعالم وكثير من نظرياتنا الخاصة والبديهيات تُقبل أساسًا – وفى بعض الحالات "فقط" – لأنها متوافقة مع قيم طبقة الصفوة الأوروبية.، وأن هذا كان هو الوضع منذ بداية القرن التاسع عشر وحتى اليوم. الكثير من هذه المعتقدات التى من السهل إثبات خطئها مبنية على نماذج للعالم وفقًا لنظرية الانتشار، وهذا لكون تلك النظرية هى المبدأ الفكرى المركزى الذى يفسر ويسوّغ أعمال واهتمام الاستعمار الأوروبى وما بعده.

إن التوافق أو الاتساق هو الجزء المهم من التحقق من الصحة. وليس الأمر مجرد أن يكف النظام أو "المؤسسة القائمة حرية التعبير (بالرغم من تكرار حدوث هذه العملية). إن الحكم بالتوافق أو الامتثال هو عملية معقدة وملزمة. فى جميع الأوقات نجد لدى المجموعة المسيطرة (طبقة أو طبقة إثنوجرافية) مجموعة محددة من الاهتمامات الدنيوية الملموسة. بعضها يتعارض مع البعض الآخر ولكن جميعها يتجه للمحافظة على قوة ووضع طبقة الصفوة. ولما لهذه المجموعة من قدرة على منح المكافأة والقدرة على العقاب والتحكم بشكل عام، تنجح فى إقناع معظم الناس بما فيهم معظم الباحثين الأكاديميين بأن اهتماماتها هى اهتمامات الجميع. هذه الاهتمامات هى جداول أعمال اجتماعية واقتصادية وسياسية وهى تغيير بسيط لإدخال كلمة "يجب" وتحويلها إلى قيم. وحين النظر بطريقة ثابتة نجد الاهتمامات واضحة جداً والقيم

المأخوذة عنها تتجمع فى نظام قيمى ثابت يعكس بدوره هذه الاهتمامات بطريقة أو أخرى. ولذا نجد لدينا فى كل الأوقات نوعًا من البيئة لتلك القيم يحيط ويؤثر فى عملية التحقق من الصحة فى مجال البحث الأكاديمى.

الطريقة التى يمارس بها هذا التأثير تعتبر معقدة جدًا فى مجتمعنا اليوم بعكس ما كانت عليه من بساطة ووضوح فى القرن الماضى عندما كانت ترسم الخطوط العريضة لنظرية الانتشار وغيرها من المعتقدات المرتبطة بالاستعمار. فى تلك الأيام لم يكن صحيحاً فقط أن الأفكار الحاكمة هى أفكار الطبقة الحاكمة كما قال ماركس، ولكنه كان من الصواب كذلك أنه لم يكن لدى أحد ما عدا الطبقة الحاكمة ومعاونيها الفرصة لجعل تلك الأفكار مؤثرة بعد نشرها وإلقائها فى المحاضرات فى مدارس وجامعات ذات شأن ومشاركتها فى تشكيل السياسة وتنفيذها. كان التماثل أو الاتساق فى تلك الأوقات وتلك الأماكن يتم بطريقة كبيرة من خلال عملية المعالجة الاجتماعية بواسطة هؤلاء المتمسكين بنظام القيم السائدة والذين هم فى موقف جيد لتقديم فرضيات هى على وشك أن تصبح معتقدات. لا أعتقد أن هذه العملية تختلف كثيرا اليوم ولكنها ستأخذنا بعيدًا إذا نوقشت هنا بالتفصيل. يمكن ببساطة أن نسجل ملاحظات عن خلفية معظم الأساتذة (القليلون منهم هم أولاد عائلات أقلية فقيرة). أسلوب المكافئة فى الجامعات والجهات الاستشارية وعناصر أخرى مجتمعة تؤدى إلى هذه النتيجة : قليل من العلماء الاجتماعيين الأكفاء هم من يريدون تقديم معتقدات غير متماثلة أو مختلفة. هذا يفسر لماذا، بالرغم من التمسك الصارم بالمنهج العلمى وقوانين البحث الأكاديمى، تظل نظرياتنا متماثلة مع النسق العام.

وباختصار تستمر عملية منح المشروعية فى إخضاع أى معتقد جديد لثلاث اختبارات هى التوافق، والتحقق من الصحة ، والتماثل أو الاتساق مع نظام القيم. من بين الثلاثة ربما يكون التماثل هو الأكثر أهمية (فى أوقات الهدوء النسبى). يمكن التغاضى عن عملية التحقق من الصحة فى بعض المناسبات هذا إذا ما كانت الفرضية

متماثلة مع الاهتمامات ومتسقة مع المعتقدات السائدة التى قد تكون نظريات واضحة أو معتقدات ضمنية تظهر على شكل إفتراضات معلنة أو ضمنية. فى كل الأحوال نجد من الصعوبة أن نقابل عملية التحقق من الصحة فى العلوم الاجتماعية (حقيقة منهجية غالبًا ما يعتقد بأنها حقيقة معرفية). فى هذه المجالات عادة ما يمنح الحكم بالتوافق – إذا لم يكن للمعتقد الجديد فللشخص الذى يقدمه – ويعد غريبًا بالنسبة لفرضية أو نظرية جديدة أن تقبل كمعتقد فى حالة تعارضها مع مجموعة المعتقدات المقبولة فى نفس المجال. ولكن الحال دائمًا هو أن المجتمع وطبقة الصفوة تحتاج أن تجد الإجابة عن الأسئلة الملحة التى تواجهها. ولذا فهناك تيار مضاد مهم. الفرضيات الجديدة التى تستطيع حل مشكلة قائمة بالفعل تُشجّع بل تُكافأ. إنها يجب أن تتوافق ولكن ليس بدرجة كاملة.

ببساطة ليست هناك طريقة يستطيع من خلالها الباحث الأكاديمى المحترف أن يمنع القيم المتماثلة (أو المتفق عليها اجتماعيًا) من التسلل إلى عمله. هذا بالرغم من حقيقة أن كلهم أمناء، وحذرون وأكفاء. أما السبب الذى يظهر مجادلتى – خطأ – على أنها هجوم على البحث الأكاديمى هى أن المشكلة دائمًا ما تُرى فى ضوء المعتقدات الواضحة والاتجاهات التى يتمسك بها الناس عن وعى. إن المجالات التى تدرس المجتمع الإنسانى هى غرس ضعيف للنظرية الواضحة داخل جسد المعتقد الذى يعد ضمنيًا لدرجة كبيرة. يمنعنا المنهج العلمى من قبول مجادلات النظرية الواضحة لأننا فقط نريد ذلك. ولكن الأساس الرئيسى لمثل هذه النظرية هو اتساقها مع المعتقدات الأخرى فى النظام والتعبير عنها فى نطاق من "المعقولية". من المعقول قبول افتراضات معينة (تعكس معتقدات ضمنية معينة) وليس غيرها. تبدو نظرية ما معقولة أو مقبولة وذلك لأنها متسقة مع نظرية أخرى مقبولة بالرغم من عدم وجود صلة ربط واضحة. معظم حلقات الربط مدفونة فى عالم الضمنيات. أخيرًا يبدو معقولاً السعى للتحقق من صحة فرضية ما باستخدام ملاحظات معينة وليس غيرها.

يجب أن نضيف أن العمل المنضبط للعلماء الاجتماعيين عادة ما يمنعهم من إثبات صحة نظرية ما معتمدين على فطنتهم على أساس امتثال النظرية مع نظام القيم. إن المشكلة - وهى مشكلة خطيرة - هى التفكير بأن المعتقدات الواضحة لم يثبت صحتها باستخدام حكم الامتثال مع القيم حيث ندع هذا الحكم يتحكم فى معتقداتنا الضمنية. تلك المعتقدات التى بعد ذلك تمثل جسراً بين الفجوات فى النظريات الواضحة الأمر الذى يجعلها متوافقة أو داعمة للفرضيات التى تمثل نقطة البداية لنظريات واضحة جديدة رسمية وغير رسمية. المنهج العلمى والأكاديمى يتطلب صرامة فقط فيما يتعلق بالنظريات الواضحة.

نظرية الانتشار كنظام معتقدات

صُممت المناقشة حتى الآن لوضع الأساس لفهم ثلاث جوانب من نظام المعتقدات لنظرية الانتشار: تركيبه، وإلزامه لمجموعات معينة فى مجتمعات معينة، وتطوره. هذا الجانب الأخير يحتوى على الأسئلة المهمة الخاصة بأسباب انتشار واستمرار نظرية الانتشار. لن يكون نوعًا من التبسيط أن نقول إن نظرية الانتشار تطورت كنظام معتقدى متناسب مع اهتمام أوروبى قوى ودائم وهو الاستعمار. لقد كانت الثروات المجلوبة لأوروبا - بمعنى أوروبا الكبرى - من العالم غير الأوروبى، منذ ١٤٩٢ وحتى الآن، مورداً مهمًا لطبقات الصفوة فى أوروبا وذلك للإبقاء على مكانتهم داخل مجتمعاتهم وكذلك لتقدمهم. هناك مواضيع أخرى لن أناقشها وهى ما إذا كان يمكن تعميم هذا الرأى ليشمل كل الطبقات داخل المجتمع الأوروبى. أو ما إذا كان الاستعمار يشكل اهتماماً بالنسبة للطبقات التى لا تنتمى للصفوة فى أوروبا فى معظم الأوقات والأماكن. أنا ببساطة أوكد بأن:(١) اعتمدت طبقة الصفوة فى أوروبا على الاستعمار. (٢) كان لطبقة الصفوة تأثير هائل فى تطور الأفكار الأوروبية وعلى وجه التحديد البحث الأكاديمى الأوروبى. (٣) كان لدى طبقة الصفوة فى أوروبا اهتمام

اجتماعى دائم بخلق وتطوير نظام معتقدات متوافق؛ فكر يُسوِّغ ويبرر، والأكثر أهمية من ذلك يساعد، المشروع الاستعمارى. فكلما تطور هذا المشروع وتغير حدث الشيء نفسه بالنسبة لأفكار نظرية الانتشار.

معظم هذا الكتاب مخصص لعرض ونقد معتقدات نظرية الانتشار ولذا لست بحاجة أن أراجع طبيعة نظام المعتقدات هنا. يكفى القول إن المبدأ يغطى معظم مستويات الحقيقة من جغرافيا العالم وتاريخه إلى أفكار عن نوعية الأفراد الأوروبيين وغيرهم ووصف وشرح لأحداث محلية خاصة. يتضمن مجال معتقدات نظرية الانتشار نصيبًا لا بأس به من العلم الإثنولوچى الأوروبى. أى أننا نجد أن نصيبًا لا بأس به من قضايا المعتقدات المرخصة اجتماعيًا فى العلم الإثنولوچى الأوروبى مستخدمًا داخل تركيب معتقدات نظرية الانتشار بالرغم من استخدامها فى تراكيب أخرى. (سنناقش بعض الأمثلة فى الفصل التالى ومنها: معتقدات عن السلوك الديموغرافى، وعن الذكاء، وعن أصول الحضارة، وعن خصوبة التربة الاستوائية) تتراوح هذه التصريحات من التأكيدات المعتدلة ذات الحقائق الدلالية إلى نظريات مفصلة ومعقدة رسمية وغير رسمية. تدخل هذه المعتقدات قانون نظرية الانتشار من خلال كل إجراءات الترخيص لقبول هذه المعتقدات والمناقشة سابقًا. بمرور الوقت تمر جميعها فى عملية الغربلة لمدى الامتثال مع قيم واهتمامات الاستعمار. أو تمر خلال عملية غربلة غير مباشرة تمنحها الحكم بالامتثال مع المعتقدات الأخرى التى تتصف هى الأخرى بالامتثال. ومع مرور الوقت يراكم نظام المعتقدات معتقدات جديدة لنظرية الانتشار، ويتخلص من تلك التى تتعارض مع القانون أو التى فقدت صلتها به فى عالم متغير. حيث إن الاستعمار وأشكاله المختلفة مثل الاستعمار الجديد هوس اهتمام طبقة الصفوة وحيث إن المعتقدات الضمنية عادة ما تكون غير ملاحظَة وغير منتقدة؛ فإن عملية إضافة وحذف وتعديل معتقدات نظرية الانتشار مستمرة حتى

الوقت الحاضر. وإذا لم تكن هذه هى الحالة لكان مجموع المعتقدات عن تاريخ المركزية الأوروبية الذى يسترعى انتباهنا فى هذا الكتاب قد حذف منذ زمن بعيد.

معتقدات نظرية الانتشار على نطاق الزمن - المكان الذى يتضمن العالم كله والتاريخ كله تتجه لتشكيل نظرية محكمة البناء كما رأينا مسبقًا فى هذا الفصل. إن النظرية باختصار تصف عمليات أساسية تحدث فى "داخل" الذى هو فى الأساس والجوهر الأوروبى للعالم، وتصف تلك العمليات التى تحدث فى "خارج" وهو القطاع غير الأوروبى، كما تصف أيضًا صيغ التفاعل بين القطاعين وأهمها على الإطلاق انتشار الأفكار الخلاقة، والناس والسلع من الداخل إلى الخارج.

نستطيع أن نصف تلك النظرية العالمية ذات البعدين: الزمانى والمكانى على أنها "نموذج العالم لدى نظرية الانتشار" إنها نموذج المستعمر للعالم.

وهنا يظهر السؤال الواضح: كيف يكون شكل العالم فى حالة عدم وجود نظرية الانتشار؟ سيكون عالمًا تتزامن فيه العمليات مع بعضها فى القطاعات المختلفة. وبالأحرى يقوم هذا النموذج على أساس مفهوم القدرات المتساوية للبشر، أى الوحدة السيكولوجية فى كل الثقافات والأقاليم، وتتطلب هذه المجادلة شرح أى فروق مكانية فيما يتعلق بالتطور الثقافى وبالتحديد التطور الاقتصادى. وبطريقة أخرى تعتبر المساواة هى الظرف الطبيعى أما الاختلافات فيجب أن تُشرح. نظرية الانتشار على العكس تتوقع عدم مساواة أساسية بين الداخل والخارج فى العالم وفى البشرية. إن مبدأ الوحدة الإنسانية Uniformitarianism(*) ليس مبدأ الوحدة uniformity، إنه مبدأ المساواة الإنسانية.

(*) Uniformitarianism : هذه نظرية فى الفلسفة العلمية تشير إلى مبدأ أن نفس العمليات التى شكلت العالم تحدث الآن كما حدثت فى الماضى وأن نفس قوانين الفيزياء تنطبق على جميع أجزاء الكون المعروفة.

على نطاقات الزمان - المكان الأصغر من هذا العالم نجد أن نظام المعتقدات لنظرية الانتشار شديد التوزع، أجزاء منه تترابط بعضها مع بعض فى شكل نظريات رسمية رائعة، وأجزاء أخرى سابحة تبدو متوافقة معًا ولكنها معتقدات مفككة. سيكون هذا خارج نطاق هذا الكتاب إذا حاولنا أن نصف كل الأجزاء والمستويات والأنظمة الفرعية فى نموذج نظرية الانتشار ككل متدرجين من النموذج العالمى وإلى مستوى أحداث على نطاق الزمان والمكان. ولكن نستطيع أن نبدأ.

هوامش

(١) فى هذا الكتاب، كلمة "أوروبا" تشير إلى قارة أوروبا والأقاليم التى تسيطر عليها الثقافة الأوروبية مثل الولايات المتحدة وكندا.

(٢) هذه الدراسة السريعة لمائة وخمسين عامًا أو ما يقرب للمقررات الدراسية عن تاريخ العالم هى بالطبع تقريبية. لذا يمكننا تقديم بعض التعليقات على المقررات الدراسية فى الفترة حوالى ١٨٥٠ (قبل أو بعد عقد من هذا التاريخ) كان الموطن الأصلى للإنسان هو جنة عدن التى تم تحديد موقعها لدى كُتاب مقررات دراسية مختلفة لتكون فى أجزاء مختلفة من غرب آسيا. على سبيل المثال، فى مكان ما شرق كنعان وبالقرب من بلاد ما بين النهرين (Robbins, The World Displayed in its History and Geography, 1832, p. 13)؛ وفى مكان ما فى الجبال "ذات الفوائد الصحية" بين بحر قزوين وكشمير أو التبت (Müller, The History of the World to 1783, 1842, pp. 27, 43-44) وربما بالقرب من حدود البحر الأبيض المتوسط (Tytler, Universal history, From the Creation to the beginning of the Eighteeth Century, vol. 1, 1844, p. 17)؛ وفى وادى كشمير (Willard, Universal History in Perspective, 1845, p. 34)؛ وفى مكانٍ ما بين جبال القوقاز والهملايا (Keightley, Outlines of History, 1849)؛ وفى الهملايا (Weber, Outlines of Universal History, 1853, p. 6)؛ وفى أرمينيا (Collier, Outlines of General History, 1868). ويبدو أن هناك موقعًا وسيطًا لعدن بالقرب من جبال القوقاز التى هى أيضًا بدون أى صدفة المكان المفترض لأصل "الجنس القوقازى". بدأ نوح بالطبع التاريخ لفترة ما بعد الفيضان على جبل أراراط فى أرمينيا (وأيضا بالتقريب فى إقليم القوقاز). من المفترض أن نوحًا قد هاجر لأوروبا (Whelpley, A Compound of History, From the Earliest Times, vol. 1, 1844, p. 10)، أو بلاد ما بين النهرين (Robbins, 1832, p. 20)، أو فلسطين أو جزء آخر من أراضى الإنجيل. من المفترض كذلك أن أولاد نوح الثلاثة تفرقوا وكونوا فروع البشرية فيما بعد أول عملية انتشار كبيرة. معظم المقررات لتاريخ تلك الفترة تتجه ناحية الغرب، بعض المقررات تقدم مفهوم هيجل بأن التاريخ يتقدم بقوة ناحية الغرب متتبعًا الشمس مع الفكرة الضمينة بأن الولايات المتحدة فى أقصى الغرب تحل محل أوروبا فى أن تكون المركز التالى لحضارات العالم.

من المعتقد عاليًا فى تلك الفترة أن غير البيض لم يكونوا من البشر. تزعم نسخة من هذه النظرية وهى مفهوم "الاضطراب الجينى" بأن الله قد خلق البشر الحقيقيين فى جنة عدن والأجناس الأخرى – أو على

الأقل "الجنس الأسود" - في أزمنة أخرى. تساءلت تلك النظرية بخصوص الفهم النموذجي للعهد القديم (أن الكل أحفاد آدم وحواء) ولذا فهي لا ترقى لمرتبة الحقيقة من بين المقررات التي رجعت إليها وهذا ليس مستغربًا. (لم أرجع إلى كتب تستخدم في الجنوب فيما قبل الحرب وقد كانت نظرية "الاضطراب الچيني" معروفة في الأقاليم التي كثر فيها استخدام العبيد كأساس أيديولوچي للتعامل مع السود على أساس أنهم أشياء وليسوا بشرًا). بالرغم من هذا كانت نظرية الاضطراب الچيني مهمة حيث إنها ذُكرت ثم رُفضت - مفضلين الرأي بأن كل البشر هم أبناء آدم وحواء - في بعض الكتب الدراسية حتى نهاية القرن (انظر على سبيل المثال، Dew, A Digest of the Laws, Customs, Manners, and Institusions of the Ancient and Modern Nations, 1853; Fisher, Outlines of Universal History, 1885; Duruy and Grosvenor, A General History of the World, 1901). ولكن لم تكن هناك حاجة لنظرية الاضطراب الچيني، والاعتقاد بأن غير البيض هم أقل شأنًا من البيض يعد مؤكدًا بطريقة أو أخرى في الكتب التي رجعت إليها. وقد قامت نظرية "التدهور" بنفس عمل نظرية الاضطراب الچيني. كانت هي فكرة أن أحفاد حام أو شعوب إنجيلية أخرى هاجروا من أرض الإنجيل متجهين شرقًا وجنوبًا ثم تدهوروا حضاريًا باتجاه الهمجية وقد حدث هذا لأنهم لم يقبلوا المسيح أو أنهم قد هاجروا لبيئات أقل أو لأي سبب آخر.

(انظر على سبيل المثال، Keightley, 1849, 5-6 : "إن الهمجية هي تدهور من الحياة المتحضرة" والأفارقة قريبون من القردة). وقد تم التأكيد على نظرية التدهور هذه في بعض الكتب الدراسية وفي معظمها ذكرت حقيقة تفوق الجنس الأبيض وتركت بدون شرح. إن تاريخ العالم بوجه عام هو تاريخ الجنس الأبيض أو الشعوب الآرية والسامية (انظر أدناه) . في أوقات ما بعد الحقبة الرومانية نادرًا ما كانت تناقش المناطق غير الأوروبية فيما عدا استخدامها كخلفية لمناقشات الحروب الصليبية، وبناء الإمبراطوريات الاستعمارية وما شابه. (انظر Harris, The Rise Anthropological Theory, 1968, لمناقشة ممتازة لنظريتي الاضطراب الچيني والتدهور.)

تقريبًا كل الكتب عن الفترة حوالي ١٩٠٠ (بزيادة أو نقصان سنوات قليلة) قبلت بالنظريات العملية الجديدة عن عمر الأرض وحقيقة الارتقاء البيولوچي (وليست نظرية الارتقاء لدى دارون). وقد احتفظ بوجهة النظر الإنجيلية للتاريخ الإنساني في عديد من الكتب بالرغم من أن القليل هو الذي قبل بتسلسل الأحداث الطبيعي كما ورد في العهد القديم (على سبيل المثال، أن الأشياء بدأت في ٤٠٠٤ قبل الميلاد). واتجهت الكتب عن هذه الفترة أن تقدم ما يطلق عليه "النظرية الآرية" وهي نظرية مأخوذة من الفيلولوچيا ولكنها اتخذت شكل نظرية عن التاريخ الثقافي. لقد عرف علماء فقه اللغة الأوائل العائلة اللغوية "الإندو-أوروبية" أو "الآرية" وكذلك العائلة السامية (التي ربطها كثير من السلطات بما فيها كتاب المقررات الدراسية بأولاد نوح يافث وسام) يتكون الجنس الأبيض من هذين الشعبين. فرع من الآريين من المفترض أنه هاجر غربًا لأوروبا (من "البيت الآري" المزعوم، في مكان ما جنوب غرب أو جنوب شرق القوقاز). وكان هؤلاء الناس متقدمين، مفعمين بالنشاط وهم الذين أسسوا الحضارة الأوروبية بالتحديد بعد أن اعتنقوا

المسيحية من الساميين الذين اخترعوا الحضارات البربرية الأولى والتوحيد ولكنهم توقفوا عند ثقافة حالمة، فاسدة، غير طموحة وبالتالي لم يستطيعوا التقدم حضاريًا. لم تكن هناك أي ثقافة أخرى خارج لها مكانة تاريخية بخلاف هاتين الثقافتين (طبقًا Freeman, General Sketch of History, 1872, p. 2، التاريخ "في معناه الحقيقي هو تاريخ الشعوب الآرية في أوروبا" انظر أيضًا Collier, 1868; Swinton, Outlines of the World's History, 1874; Gilman, Firs Steps in Generarl Histor, 1874; Anderson, New Manual of General History, 1882; Steele and Steele, A Brief History of Ancient, Medieval, and Modern Peoples, 1883; Fisher, 1896; Quackenbos, Illustrated School History of the World, 1889; Thalheimer, Outline of General History for the Use of Schools, 1883; Sanderson, History of the World from the Earliest Time to the Year 1898; Duruy and Grosvenor, 1901 قـــدم بلوتز وتيلـجناسـت هذه النظرية في (Epitome of Ancient, Medieval, and Modem History) الذي نشر أولاً في ١٨٨٣ وفي طبعاته العديدة حتى ١٩٢٥ وصولاً إلى طبعه قدم لها بارنز حيث تم استبعاد هذه النظرية تمامًا). انظر (1987,1991) Bernal's BlirckAthena لمناقشة فطنه للنظرية الآرية ومواضيع مرتبطة بها في تاريخ الفكر الأوروبي.

لأن العهد القديم تحدث عن الزراعة – عرف قابيل الفلاحة كما ربى إبراهيم الحيوانات الأليفة – اتجهت الكتب الدراسية التاريخية ألا تناقش مشكلة مكان اختراع الزراعة حتى وقت متأخر في القرن التاسع عشر، الفترة التي بدأ فيها العلم في مناقشة هذه المشكلة. بعض العلماء وكتاب المقررات الدراسية بدءوا في التفكير أنه قد تكون الزراعة قديمه في قارة أوروبا كما كانت في غرب أسيا ومصر. (من وجهة النظر العملية، انظر (Joly, Man Before Metals, 1897. ولكن فكرة أن الزراعة ظهرت في أرض الإنجيل ظلت مسيطرة بالرغم من النظر إليها الآن (من قبل الكثيرين) على أنها اختراع وليست عملية خلق زائفة. الحقيقة الأثنوجرافية أن بعض شعوب القبائل (على سبيل المثال أستراليا) لم يمارسوا الزراعة تم شرحها في كتب أوائل القرن التاسع عشر في ضوء نظرية التدهور: لقد فقد أحفادهم هذا الفن بطريقة ما. في وقت متأخر من القرن أصبح من الشائع استخدام مفهوم نظرية الانتشار أن الزراعة قد اخترعت بواسطة شعوب غرب أسيوية أو أوروبية، ثم انتشرت إلى باقي العالم والثقافات التي لم تمارسها في العصور الحديثة لم تكن قد اكتسبتها ببساطة إما بسبب عزلتها أو بسبب غبائهم في اكتسابها.

كان قطار الشرق السريع قطارًا مشهورًا بين غرب أوروبا وغرب أسيا. وبالرغم من أن مساراته المختلفة استخدمت في حقب مختلفة فإن الخط الأساسي سار من القسطنطينية (إسطانبول) عابرًا اليونان إلى شمال إيطاليا والمجر ثم إلى فرنسا و(عبر أوستند في بلچيكا) إلى إنجلترا. معظم كتاب المقررات الدراسية يكتبون عن تاريخ العالم على كونه سار باتجاه الشمال الغربي مثل قطار الشرق المتجه غربا ذو المحطات (إذا جاز التعبير) في أثينا، روما، باريس ولندن. (انظر الفصل الثاني لمناقشة مطولة عن نموذج قطار الشرق.)

(٣) فى المقررات الدراسية عن تاريخ العالم فى القرن التاسع عشر كانت تركيا تعطى بعض الاهتمام لضلوعها السياسى فى الشئون الأوروبية. جغرافيا العالم على عكس تاريخ العالم طالما غطت العالم كله والمقررات الدراسية بالإضافة إلى الأعمال الجغرافية الوصفية العظيمة المتعددة الأجزاء (مثل Reclus's c1assic 19 volume Nouvelle Géographie Universelle, published between 1876 and 1894) أعطت اهتمامًا كبيرًا لآسيا، أفريقيا وأمريكا اللاتينية. لا ينبغى أن يضللنا هذا. أحد المهام الرئيسية للجغرافيا فى تلك الفترة هو تدريس الأطفال الأوروبيين ما احتاجوا أن يعرفوه عن العالم غير الأوروبى حتى يتسنى لهم المشاركة فى أنشطة بلادهم الإمبريالية والتجارية فى تلك الأقاليم انظر Hudson, "The new Geograghy and the new Imperialism: 1870-1918" (1977) and McKay, "Colon-ialisim in the French Geograpgical Movmenet" (1943) عن العلاقة القوية بين الجغرافيا والأنشطة الاستعمارية.

(٤) إن أسلوب المنهج الجديد يمكن أن يُرى لو نظرنا إلى اثنين من المقررات الدراسية الجماعية المعروفة الأول كتبه W.H.McNeill بجامعة شيكاجو (A World History, 3rd ed., 1979)، والثانى كتبه J.M.Roberts بجامعة أكسفورد (The Hutchinson History of the World, 2d ed., 1987; نشر فى الولايات فى المتحدة تحت عنوان The Penguin History of the World). بالنسبة لتاريخ العالم فى الحقبة ما قبل المسيحية أكثر من ثلاثة أرباع أسماء الأماكن فى كلا الكتابين هى لأماكن فى أوروبا والشرق الأوسط (بما فيه شمال أفريقيا)؛ أقل من ربع أسماء الأماكن هى لأجزاء أخرى من العالم وحوالى ١٪ فقط فى أفريقيا. فى الحقبة المسيحية إلى ١٤٩١ بعد الميلاد هناك تباعد مهم بين الكتابين. فى كتاب Roberts تكون الأماكن الأوروبية والشرق أوسطية حوالى ٨٥٪ من الأماكن المذكورة. فى كتاب McNeill تشكل الأماكن الأوروبية والشرق أوسطية ٦٠٪ فقط من الأماكن المذكورة. هناك ابتعاد عن التقليد القديم بالرغم من أنه لا يزال لا يتناسب مع حجم ذلك الإقليم من حيث المساحة وتعداد السكان. (ذكرت المناطق جنوب الصحارى الأفريقية ٢٪ فقط من الأماكن المذكورة فى فترة ١٩٤١-١ بعد الميلاد) . لذا ففى كلا الكتابين ما أطلق عليه "أوروبا الكبرى" لا يعد ذا أهمية كبيرة بالنسبة لتاريخ ما قبل ١٤٩٢ على غير الحال فى مقررات أقدم من تاريخ العالم. أما الشرح فكلا الكاتبين يحتفظان بالمنظور التقليدى. لا يعطى روبرتس أى دور سببى لثقافات وأقاليم العالم ماعدا أوروبا والشرق الأوسط (بما فيها شمال أفريقيا) لأى فترة قبل ١٤٩٢. يقيم McNeill وزنًا لشرق أسيا وبعض جنوب أسيا لفترات تاريخية محددة ولكن كل القوى الصانعة للتاريخ تنبع من أوروبا، غرب آسيا، وشمال أفريقيا فى الفترة ما قبل ١٤٩٢ . (الاستثناء هو الموت الأسود وفقًا لـ McNeill اكتسح غربًا فى تلك الأقاليم فى أقاصى أسيا. فى هذا الأمر انظر أيضا كتاب McNeill Plagues and Peoples, 1976). سأقدم أمثلة لتفسيرات المركزية الأوروبية مقدمة من قبل المؤلفين فى الفصل الثانى من هذا الكتاب.

على أية حال ليس كافيًا أن ننظر فقط إلى المقررات الدراسية اليوم التى تعرف بأنها مقررات عن "تاريخ العالم". كثيرًا ما تناقش المقررات الدراسية الجامعية تاريخ العالم مستخدمة كتبًا بعناوين مثل "تاريخ الحضارة الغربية". (انظر على سبيل المثال Lerner, et al., Western Civilizations: Their

History and Their Culture, 1988; Kagan, et al., The Western Heritage, 1987; Chambers, et al., The Western Experience, 1987). لو مثل هذا الكتاب يتجاهل العالم غير الغربى فليس هناك شكوى لكونه مضللاً. إن العنوان يحدد بوضوح "الغرب" وليس "العالم". ولكن إذا كان المقرر الدراسى مخصصًا "لتاريخ العالم" والكتاب يختص "بالتاريخ الغربى"فدليلنا مشكلة إذ قد يكون السيناريو الأسوأ هو الذى يستمر فيه تدريس تاريخ العالم ليكون تاريخ المركزية الأوروبية متنكراً. لا أعرف أى بحث يختبر الفرضية الآتية: من تسليمنا اليوم فإن المؤرخين لديهم حساسية تجاه الحاجة لتجنب التميز المركزى الأوروبى فى تدريس تاريخ العالم هل يقوم البعض منهم ببساطة بتغيير العنوان إلى "غربى" حتى تصبح المركزية الأوروبية جائزة؟ وثانيا: هل من الممكن أن يكون هناك اتجاه بعيد عن تدريس تاريخ "العالم" وباتجاه التاريخ "الغربى" ويعكس هذا الاتجاه رد فعل (أو تكيف) مع متطلبات العصر الحالى من "العدل" ومن أفكار مضادة للمركزية الأوروبية؟

(٥) الكتاب المدرسى يعد بحق وثيقة اجتماعية مهمة، نوع من اللوح الإرشادى الحديث. فى حالة نموذجية يصبح الكتاب مقبولاً كمقرر دراسى للمدرسة الثانوية (أو سنة دراسية أقل) بعد أن تتم مراجعته جيداً من قبل الناشر، ومجلس المدرسة، والإداريين كل منهم على درجة عالية من الوعى بالنسبة لنشر المبدأ المقبول فهم مهتمون بالتأكد من أن التلاميذ سيقرأون الحقائق فقط فى كتابهم الذى يعتبر مقبولاً من وجهة نظر طبقة الصفوة المكونة للرأى فى الثقافة. والنتيجة هى كتاب أقل من أن يكون كتاب مؤلف عادى أكثر منه تصريحًا اجتماعيًا منفتحًا يحتوى على ما يعد صحيحًا ومقبولاً للدخول فى عقل الطفل. لهذا السبب فالبحث فى المقررات الدراسية (بما فيها كتب الكليات التى تمر بنفس العملية ولكن بطريقة أكثر ضمنية) هو فى الحقيقة بحث إثنوجرافى. فهذا يخبرنا الكثير عن نظام المعتقدات لطبقة الصفوة المشكلة للرأى الثقافى ككل. لذا فالمقررات الجغرافية فى الولايات المتحدة هى فى الواقع وثائق إثنوجغرافية. وبالمثل كتب التاريخ هى فى الواقع وثائق إثنوتاريخية. فهى مفيدة مثلها مثل الآثار الثقافية الزائفة مثل أى قطعة خزف مكسورة أو نقش. انظر القسم الأخير من هذا الفصل.

(٦) يعطى الماركسيون من أنصار المركزية الأوروبية ثقلاً لهذه المجادلة حيث إن صراع الطبقات لديهم هو القوة الأساسية فى التطور التاريخى.

(٧) تم الاعتراف بأنه قد تطور شكل من الإقطاع السياسى على يد الصينيين ولكن أغلبية الباحثين الأوروبيين بما فيهم معظم الماركسين يعتقدون أن الإقطاعية الأوروبية كانت فريدة فى تقديم شكل للمجتمع كان مهماً وحيويًا ونقطة الانطلاق نحو الحداثة. انظر الفصل الثالث.

(٨) انظر كتاب سمير أمين (1988) Eurocentrism لمناقشة ممتازة لهذا المفهوم. كلمة "المركزية الأوروبية" من الواضح أنها صيغت حديثًا حتى تجمع "المركزية العرقية الأوروبية" فى كلمة واحدة. على أية حال فاننا (مثل أمين) لا أنظر إلى المركزية الأوروبية على أنها فقط من فصائل المركزية العرقية كما ستوضح الفقرات الآتية.

(٩) استخدام كلمة مجتمع "community" للإشارة إلى وحدة اجتماعية في أى حجم. في هذه المناقشة وللتبسيط سننظر إلى المجتمعات "communities" على أنها قرى منتشرة فى طبيعة ريفية. أتجاهل هنا الحالات التى نتج فيها التغير الثقافى عن الاختراع المستقل مع الانتشار. انظر أعمال لى مثل:

"Two Views of Diffusion" (1977) and "Diffusionism: A Uniformitarian Critique" (1987a).

(١٠) انظر Jett, "Further Information on the Geography of the Blowgun and Its Implications for Transoceanic Contact" (1991); also see Carter, Man and the Land (1968), and Edmonson, "Neolithic Diffusion Rates" (1961).

(١١) انظر على سبيل المثال Eliot Smith, The Diffusion of Culture (1933), Perry, The Primordial Ocean (1935), and Taylor, Environment and Nation (1945). يؤكد إليوت سميث على أن عملية الانتشار القديمة النابعة من مصر وفينيقيا في الأساس "استمرت لقرون عديدة في أن تلعب دوراً في ساحل المحيط الهادى لأمريكا حيث كانت مسئولة عن ... الحضارات ما قبل الكلولمبية الرائعة" (مقتبسة من Zwernemann, Culture History and African Anthropology, 1983, p. 15).

(١٢) فى هذا الشأن انظر Harris, The Rise of Anthropological Theory (1968) and Steward, Theory of Culture Change: The Methodology of Multilinear Evolution (1955) .

(١٣) انظر Koepping, Adolf Bastian and the Psychic Unity of Mankind (1983), Stocking Race, Culture, and Evolution (1968), and Harris, The Rise of Anthropological Theory (1968) .

(١٤) غالباً ما يسمى الفريق المضاد لنظرية الانتشار "التطوريون الثقافيون" والمناظرة ككل تسمى "الانتشار ضد التطور" . ولكن كما أجادل هنا كان التطوريون إلى حد ما انتشاريين وكان الانتشاريون إلى حد ما تطوريين. بالإضافة إلى هذا فإننى أريد أن استخدم مصطلح "التطور الثقافى" فى هذا الكتاب بمعنى أوسع وأقل إشكالية أى إنه يشير ببساطة إلى البحث عن تفسير للأسئلة الكبيرة عن التغير الثقافى والتاريخى. تصبح المشكلة "التاريخية" مشكلة "تطور ثقافى" عندما نسأل السؤال الأشمل "لماذا؟" بعض الباحثين ليسوا على وفاق بالطبع مع هذا الاستخدام لعبارة " التطور الثقافى" للبعض هو يحمل محصلة الحتمية الاقتصادية أو الحتمية البيئية أو الحتمية التكنولوجية أو أنها تدل على مفهوم تتابع ثابت لمراحل ثقافية تمر خلالها كل المجموعات البشرية، ولكنى لا أعنى أياً من هذا. معظم الجغرافيين الثقافيين يستخدمون عبارة " التطور الثقافى" مثلما أستخدمها هنا.

(١٥) قد يجتمع الشكلان أحيانًا: على سبيل المثال في القرن التاسع عشر كان شمال غرب أوروبا يعتبر (من وجهة نظر قاطنيه) متحضرا وأفريقيا مميزة متحضرة وكل المناطق الأخرى (في نصف الكرة الأرضية الشرقي) في مكان ما في المنتصف. نناقش تلك الأمور فيما بعد في الكتاب.

(١٦) مفهوم ماكس ويبر "العقلانية الأوروبية" يناقش في الفصل الثاني.

(١٧) المفاهيم المختلفة عن الصين والهند أيضًا على أنها شبه رشيدة أو رشيدة على فترات أو رشيدة في نواحي معينة وليست غيرها، تناقش في الفصلين الثاني والثالث.

(١٨) مصطلح "الرجل الغول "bogeyman" يشير إلى البوجينيز Buginese وهم شعب من شعوب الملايا قاتلوا بضراوة ضد الأوروبيين ولذا تم وصمهم بتلك الطريقة. أتى مصاص الدماء الخيالي الشهير الكونت دراكولا إلى إنجلترا من الخارج (إقليم جبلي بربري على حدود الإمبراطورية التركية).

(١٩) في تاريخ فكرة التقدم في الفكر الأوروبي انظر على سبيل المثال G. H. Mead, Movements of Thought in the Nineteenth Century (1936), Toulmin and Goodfield, The Discovery of Time (1965), Nisbet, History of the Idea of Progress (1980) and Bowler, The Invention of Progress (1989). صحيح أن فكرة أن التقدم طبيعي كان يشك فيها بعض المفكرين أثناء القرن التاسع عشر (وكانوا معارضين على وجه الخصوص لفكرة التطور البيولوجي) ولكن كان هذا تيارًا تحتيًا ضعيفًا متقطعًا. انظر Stocking, Race, Culture, and Evolution (1987) and Bowler, The Invention of Progress (1989) .

(٢٠) انظر Huddleston, Origins of the American Indians: European Concepts, 1492-1729 (1967), Williams, The American Indian in Western Legal Thought (1990); Hulme, Colonial Encounters: Europe and the Native Caribbean 1492-1797 (1992); Gossett, Race: The History of an Idea in America (1963)

(٢١) في بعض الأوقات كان هناك مفهوم بأن تلك الحضارات كانت قد تبلورت بعض الشيء فيما قبل الفيضان ولم يتم اكتساحها (انظر على سبيل المثال Keighrley, Outlines of History, 1849)، (Haskel, Chronology and Universal History, 1848, p. 9) يرى أن نوحًا هاجر إلى الصين حيث أرسى هو وأحفاده أسس الملكية الصينية "التقدم الأول والشرق يبدو أنه يفضل هذه الفكرة".

(٢٢) منذ منتصف القرن التاسع عشر وربما قبل ذلك اتجه الأدب فيما يتعلق بالتنجيم والسحر والأشباح والوحوش وما شابه بأن يركز على الأصول أو المصادر غير الأوروبية للساحرات، والوحوش، والشياطين، والأموات، والمومياوات السائرة، واللعنات، ("السحر الأسود") ، والأشياء ذات القوى الخارقة للطبيعية، وهكذا كل هذا لديه توجه للانتشار داخل أوروبا كنوع من الانتشار المضاد، كتيار تحتي قوى للتوسع الأوروبي انظر Brantlinger, Rule of Darkness: British Literature and Imperialism (1988) .

(٢٣) انظر W. A. Lewis, ed., Tropical development, 1880-1913 (1970).

(٢٤) انظر Bowler, The Invention of Progress (1989), Stocking, Viet Anthropology (1987), Mandelbaum, History, Man and Reason (1971) .

(٢٥) Spencer, The Man Versus the State (1969). التفاعل المركب بين النظريات الفردية والكلية للتقدم التاريخي خلال القرن التاسع عشر يناقش في G. H. Mead, Movements of Thought in the Nineteenth Century (1936) and Mandelbaum, History, Man and Reason (1971). أحاول أن أوضح في Blaut, The National Question: Decolonizing the Theory of Nationalism (1987b) كيف أن معظم نظريات الرشد والتطور العقلاني ظهرت من أحد التيارين الفكريين الأول هو كانتي نفسي والثاني رومانسي هيجلي .

(٢٦) من بينهم: Malthus, J. S. Mill, T. Macauley, and Thackeray. انظر Branrlinger, Rule of Darkness: British Literature and Imperialism, 1830-1914 (1987). وانظر أيضًا Williams, British Historians and the West Indies (1966) and Said, Orientaeism (1979) .

(٢٧) انظر Thapar, Ancient Indian Social History: Some Interpretations (1978) and B. "Ideology and the Interpretation of Early Indian History" (1982), and B. Chandra "Karl Marx, His Theories of Asian Societies, and Colonial Rule" (1981). نعود لهذا الموضوع في الفصل الثاني.

(٢٨) انظر بالتحديد مقال ماركس "الحكم البريطاني في الهند" (١٩٧٩) في عمل متأخر تبنى ماركس وإنجلز رأى أكثر سلبية عن الاستعمار مطورين إلى حد ما فكرة التأخر الاستعماري: انظر Blaut, The National Question: Decolonizing the Theory of Nationalism (1987b) for a discussion..

(٢٩) انظر الفصل الثاني.

(٣٠) انظر Asad, Anthropology and the Colonial Encounter (1975), and Temu an Swai, Historians and Africanist History (1981) .

(٣١) أمثلة مهمة هي Eliot Smith The Diffusion of Culture (1933), Perry, The Primordial Ocean (1935), Schmidt, The Culture Historical Method of Ethnology (1935), Griffith Taylor, Environment and Nation (1945). انظر النقد The Method and Theory of Ethnology (1965), Lowie, The History of Ethnological Theory (1937), and Harris The Rise of Anthropological Theory (1968) .

(٣٢) أنا هنا بالطبع أرفض الرأى الشائع بين الباحثين الأوروبين بأن المستعمرات هُجرت طواعيةً. وقد تم رفض هذا الرأى من قبل كل الباحثين فى العالم الاستعمارى السابق. قد يكون صحيحًا بالنسبة لبعض الجزر الصغيرة التى لم تعد تتدفق منها الأرباح للدولة المستعمرة ولكن حتى تلك الأسباب تعد جدلية. من الجدير بالملاحظة أن الولايات المتحدة لم تمنح الاستقلال لأى من المستعمرات فى نهاية الحرب العالمية الثانية، ولم تعترف بحق تقرير المصير (بما فيه الاستقلال) لبورتوريكو، جزر فيرچن، الماريناز إلخ. أما القوى الاستعمارية الأخرى فمن المفترض أنها اتخذت نفس الموقف إذا ما كانت لديها القدرة لأن تفعل ذلك فى وجه القوة الموالية للاستقلال ففى مثل تلك الحالات مثل جزر الأنديز الشرقية الهولندية، إندوتشينا الفرنسية، كينيا، أنجولا، موزمبيق وغيرها حاول المستعمرون التمسك بممتلكاتهم باستخدام قوة السلاح وفشلوا. إن رأيى مقدم فى Blaut, The National Question (1987b), chap. 4, and Blaut and Figueroa, Aspectos de la cuestion nacional en Puerto Rico (1988).

(٣٣) أمثلة موضحة هى "عملية البادئ" فى بورتوريكو، والتطور الاستعمارى وبرامج الرخاء فى أجزاء من الإمبراطورية البريطانية، وزيادة التمويل لإدارات الصحة والزراعية الاستعمارية، وإنشاء جامعات استعمارية وهكذا. هذه البرامج بغض النظر عن أهدافها السياسية (غالبًا ما تخفى على العمالة الفنية فيها) كانت مدهشة.

(٣٤) غالبًا كان هذا العمل امتدادًا مباشرًا للعمل الفنى الاستعمارى مع نفس العمالة والآن "الخبير الأجنبى" أو "خبير الأمم المتحدة" وليس "الموظف الفنى الاستعمارى".

(٣٥) ولذا كان التحالف للتقدم مؤسسات السلام، ارتفاع التمويل للوكالات الفنية والاقتصادية للإدارة فى الولايات المتحدة وما شابه.

(٣٦) عن العلم الإثنولوچى انظر على سبيل المثال Conklin, "Lexicographical Treatment of Folk Taxonomies" (1969), Frake, "The Ethnographic Study of Cognitive Systems" (1969), Blaut, "Some Principles of Ethnogeography" (1978), and Spradley and McCurdy, Anthropology: A Cultural Perspective (1975). فى رأى لا يمكن تمييز تصنيفات "التاريخ" و"العلم" وجوديًا بالرغم من أن الكرونولوچيا هى بالكاد علم محدد.

(٣٧) Whitehead, Science and Philosophy (1948), p. 129.

(٣٨) Kuhn, The Structure of Scientific Revolutions (1970). More relevant is Fleck's Genesis and Development of a Scientific Fact (1979).

(٣٩) Tolman, "A Psychological Model" (1951).

(٤٠) Dewey, "The Logic of Judgements of Practice," in his Essays in Experimental Logic (1916)

الفصل الثانى

خرافة المعجزة الأوروبية

يعتقد معظم المؤرخين الأوربيين فى نظرية "المعجزة الأوروبية". إنها تلك النظرية التى تدعى أسبقية أوروبا فى صياغة حضارتها قبل جميع الحضارات الأخرى، وقد حدث هذا منذ زمن قديم أى فيما قبل العصور الوسطى القديمة، مما منحها صفة التميز، كما يفسر تاريخ وجغرافيا العالم بعد ١٤٩٢ الذى يتلخص فى تحديث أوروبا، وظهور الاستعمار وهزيمة العالم. لا يرى معظم المؤرخين أى إعجاز فى هذه العملية ولكن مقولة "المعجزة الأوروبية" أصبحت فى ثمانينات هذا القرن شعارًا معروفًا لجميع النظريات التى تفترض النهوض الفريد لأوروبا قبل ١٤٩٢ . اكتسبت المقولة شعبية جديدة من كتاب للكاتب إيريك ل. چونز الذى ظهر عام ١٩٨١ تحت عنوان المعجزة الأوروبية(١) .

لا يتفق المؤرخون فيما بينهم على السؤال: لماذا حدثت المعجزة؟ لماذا تكونت أوروبا بهذا الشكل الذى ربما يكون معجزًا ؟ هل لأن الأوروبيين متميزون بالوراثة؟ هل هم متميزون ثقافيًا؟ يعيشون فى بيئة متميزة؟ هل حدث فى أوروبا أو للأوروبيين شىء رائع فى لحظة تاريخية خاصة أعطتهم بالتالى ميزة قاطعة على غيرهم من المجتمعات؟

كما لا يتفق المؤرخون على وقت حدوث المعجزة أو بدايتها. هل حدثت فى عصور ما قبل التاريخ التى مازال البعض يسميها "الآرية" أو الثقافة الإندو - أوروبية؟ هل فى عصور ما قبل التاريخ المتأخرة "العصر الحديدى الأوروبى"؟ هل بدأ مع اليونان؟ مع الرومان؟ فى أوائل العصور الوسطى؟ فى أواخر العصور الوسطى؟ هل كانت عملية

مستمرة خلال التاريخ أو كانت سلسلة من المعجزات كل واحدة منها تدفع أوروبا قدمًا شيئًا فشيئًا لتسبق باقى البشرية؟

يناقش المؤرخون هذه الأمور وهى الأسئلة عن الأسباب والأوقات ولكن لا يسألون عما إذا كانت هذه المعجزة قد حدثت أم لا. أو لنكون أكثر دقة فهم لا يأخذون فى اعتبارهم إمكانية أن نهضة أوروبا على ما عداها من حضارات لم تبدأ حتى عام ١٤٩٢، وأنها لم تكن نتيجة للتميز الأوروبى من ناحية العقل والثقافة والبيئة ولكن بسبب الثروات والغنائم التى حصلت عليها من انتصاراتها واستغلالها الاستعمارى لأمريكا ثم أفريقيا وآسيا فيما بعد. لا تناقَش هذه الاحتمالية على الإطلاق مع أن فئة قليلة من المؤرخين (على وجه التحديد چانيت أبو لغد، سمير أمين، اندريه جندر فرانك، إيمانويل والر ستاين) قد أقدموا على ذلك فى السنوات الأخيرة(٢) .

إن مهمتى فى هذا الفصل وفى الفصل الثالث ("قبل ١٤٩٢") هو عرض كيف أن الأوروبيين لم يكونوا متميزين على غيرهم فى أى وقت قبل ١٤٩٢ . لم يكونوا أكثر تقدمًا، ولا أكثر حداثة أو تطورًا. ثم فى الفصل الرابع ("بعد ١٤٩٢") سأعرض كيف أن الثروات الاستعمارية هى التى أدت إلى نهضة أوروبا وهمينتها الحتمية على العالم، موضحًا كيف أن صفات أوروبا الداخلية لا تفسر ١٤٩٢ وبالتالى لا تفسر أصول الاستعمار.

هناك طريقتان أساسيتان لندفع بخطأ المعجزة الأوروبية وأن أوروبا لم تسبق غيرها من حضارات العالم قبل ١٤٩٢ . إن أحسن طريق هى بالنظر إلى حقائق التاريخ وتوضيح كيف أن العمليات التطورية التى حدثت فى أوروبا أثناء العصور الوسطى وقبلها كانت مثل تلك العمليات التى كانت تحدث فى أماكن أخرى من العالم من حيث اتجاه ومعدل التطور. سأحاول عرض هذا بشكل دقيق فى الفصل الثالث الذى يقارن المشهد فى العصور الوسطى فى أوروبا وأفريقيا وآسيا وكيف أنه كان

هناك تحول من النظام الإقطاعى إلى الاستعمارى فى أجزاء عديدة من النصف الشرقى للكرة الأرضية قبل ١٤٩٢ .

تعتبر خرافة نهضة أوروبا الفريدة ومعجزتها مغروسة بعمق فى التفكير التاريخى الأوروبى لدرجة أننا لو قدمنا مجادلة عادية مبنية على الحقائق ربما لا تكون مقنعة. كما رأينا فى الفصل الأول، دافعت أجيال من المؤرخين عن النظرية المسيطرة بدون أى نظرية معارضة، كما أنها مدعمة بالكثير من الأفكار التى ترقى لمرتبة الحقيقة فى الثقافة الأوروبية، وهى بذلك تتسق مع اهتمامات الدول الأوروبية (والمؤسسات الكبرى) وتدعمها فى تعاملاتها مع العالم غير الأوروبى. لهذه الأسباب قررت أن أستخدم نوع آخر من المجادلة وهو عرض المغالطات أو الاستدلالات الزائفة فى النظرية الأساسية لإرساء الأساس لتقديم الحجج الإمبيريقية.

فى الفصل الحالى سأختبر المحاولات المعروفة والمستخدمة من قبل المؤرخين اليوم لدعم نظرية المعجزة الأوروبية، وسوف أحاول أن عرض كيف أنها غير مقنعة. تعتبر هذه المهمة معقدة نوعًا ما بالنسبة لكتاب صغير مثل هذا الكتاب بسبب عدد المجادلات المختلفة والمتداولة وعدد المؤرخين الذين يكتبون الكتب والمقالات عن نظرية المعجزة الأوروبية وكيفية دعمها . كيف نبدأ العمل إذًا؟ سأتقدم على مراحل. أولاً: سأقدم مناقشة مختصرة عن الطرق التى بواسطتها يجادل المؤرخون لصالح المعجزة الأوروبية فى العقود الحديثة وسأعرض أن وجهة نظر مهمة معدله قد بدأت فى الظهور. ثانيًا: سأستعرض فى شكل قائمة أو تصنيف أهم المجادلات التى تدعم هذه الخرافة التى تقدم اليوم، وسأحاول توضيح عدم إقناع أى من هذه المجادلات. وفى المرحلة الثالثة سألخص المجادلة الإمبيريقية المضادة لنظرية "المعجزة" فى جزئين (الموضوعات فى الفصلين الثالث والرابع على التوالى): الدليل على أن أوروبا لم تسبق أفريقيا وأسيا (على نطاق قارى) قبل ١٤٩٢، ثم الدليل على أن الاستعمار بعد ١٤٩٢ كان سبب نهضة أوروبا الانتقائية.

صانعو الخرافة والنقاد

كانت فكرة تقدم أوروبا وتطورها أكثر من غيرها من الحضارات قبل ١٤٩٢ هى الفكرة الأساسية لنظرية انتشار المركزية الأوروبية الكلاسيكية كما رأينا فى الفصل الأول. ولذا لن نأخذ فى اعتبارنا مصادر نظرية المعجزة الأوروبية، حيث إنها إرثنا من الأزمنة القديمة. وعلى أية حال فبعد الحرب العالمية الثانية اتخذ هذا المبدأ شكلاً حديثًا واضحًا. فأولاً: رفضت الادعاءات العنصرية بصوره قاطعة، ولا نجد هناك أصواتًا تنادى بوضاعة شأن غير الأوروبيين وراثيًا بالنسبة للأوروبيين وأن هذا النقص هو الذى يفسر تأخرهم تاريخيًا. كذلك نجد المؤرخين الآن يقبلون فكرة أن الميزات التاريخية لأوروبا عكست حقائق ووقائع حدثت فى أزمنة سابقة. كان التميز الأوروبى بسبب وصول أوروبا مسبقًا لمرحلة من التقدم التى يطمح باقى الناس فى الوصول إليها فى المستقبل. إنها أولوية أو أسبقية وليست ميزة فطرية. ثانيًا: كان هناك تزايد سريع فى مجال البحث الأكاديمى التاريخى بالنسبة للعالم غير الأوروبى بعد ١٩٤٥ مبنى على اهتمامات سياسية واقتصادية نفعية ونابع جزئيًا من برامج ترعاها الحكومات والمؤسسات التى تختص بتقديم دراسات عن المناطق الخارجية الأجنبية. ولكن أضافت هذه الأبحاث الكثير من المعلومات المتوفرة فى البلاد الغربية عن التاريخ غير الغربى. واستخدمت المعلومات الجديدة استخدامًا محدودًا. تم استبعاد الحكايات الغريبة ولكن الأفكار الأساسية عن العالم غير الغربى لم تتغير. ثالثًا وهو الأهم: جاء عالم ما بعد الحرب ليتبنى النظرية الجديدة المهمة " التحديث " وهى المنادية بأن انتشار الأفكار والتأثير الأوروبى هو الذى يؤدى إلى التقدم الاقتصادى للعالم غير الغربى فى عصر التطور الجديد. وقد كان لهذه النظرية الكثير من الأثر فى كتابة التاريخ.

التحديث كتاريخ

تعاملت نظرية " التحديث " مع الوقت الحالى والمستقبل ولكنها كانت فى الأساس تاريخية. إن مبدأها الأساسى هو التصور بأن ما أدى إلى تفوق أوروبا فى الماضى يمكن نشره الآن فى العالم غير الأوروبى لمساعدته على اللحاق بها. وكما رأينا فى الفصل السابق، مر هذا المبدأ الجديد خلال مرحلتين تطوريتين: الأولى هى ما بعد الحرب العالمية الثانية والفترة المضادة للاستعمار، والثانية هى تكثيف لجهودات الانتشار بعد نهضة البلدان الاشتراكية فى العالم الثالث وبالأخص بعد انتصار الثورة الكوبية عام ١٩٥٩ .

ظهر عدد من الأعمال التاريخية فى الستينيات من هذا القرن كجزء من هذه العملية الفكرية. كان هدفها الأساسى هو عرض النموذج الأوروبى فى التطور - بما فيه تطور الرأسمالية على وجه الخصوص - على أنه المنحى الطبيعى للتطور البشرى. وانتهت كثير من هذه الأعمال إلى النتيجة الأيديولوچية بأن المنحى الطبيعى والمناسب للتقدم المستقبلى يكمن فى تبعية العالم الثالث للنموذج الأوروبى (ليس على شكل طاعة عمياء بالطبع). أكثر هذه الأعمال تاثيراً كان للكاتب روستو "مراحل النمو الاقتصادى: بيان غير شيوعى"، عام ١٩٦٠ . كان هذا الكتاب تاكيداً واضحًا أن صيغة أوروبا السابقة للتطور وحتى الاستعمار هى الصيغة الوحيدة العملية بالنسبة للتطور المستقبلى لغير أوروبا. زاوج روستو بين تاريخ العالم وتطور العالم فى مجادلة واحدة مبنية على نظرية الانتشار(٣) .

ولكن كانت هناك مشكلة. وبالتحديد ما هو الدافع وراء النهضة الفريدة لأوروبا؟ الآن يجب أن نعود للحظة لفترة نظرية الانتشار الكلاسيكية. أجمع المؤرخون الأوروبيون (على ما أظن) فى القرن الماضى على قبولهم الفكرة الأساسية أن أوروبا كانت بطبيعتها الفريدة متطورة. ولم يناقش الكثيرون منهم الدافع الأساسى وراء تلك العملية: استند بعضهم على إيمانهم الدينى والبعض الآخر على أفكار ميتافيزيقية (مثل

"الروح" المتطورة لدى هيجل). وبعضهم اعتمد على فكرة سميث أو فكرة النفعية للنشاط والهدف الإنسانى الفردى. وأوعز البعض هذا إلى البيئة أو السلوك الديموغرافى أو صراع الطبقات أو أى شيء آخر. ولكنى أعتقد بأن كل هذه الأسباب كونت مفهومًا مشتركًا للدافع لهذا التطور، فهو قوة موجهة مثل الريح الشمسية كانت بالنسبة لها الحقائق الجزئية (اقتصادية، نفسية، بيئية ... وهكذا) ظاهرة ثانوية أو عرضية. بعد الحرب العالمية الثانية أصبح هناك مجموعة مختلفة من المعتقدات. وينظر إلى مشكلة تفسير نهضة أوروبا الآن على أنها مشكلة كلية. أى أن كل الظواهر بما فيها ديناميكياتها الأساسية تحتاج إلى الشرح. أو بقول آخر يجب أن توضع فى نموذج واضح تُعرف فيه المتغيرات الواضحة أو "العوامل". وكان هناك بلا شك أسباب عدة وراء هذا الأسلوب الجديد من بينها نضج منهج التاريخ نفسه، وفقدان الإيمان (فى عصر الفوضى) بفكرة التقدم الحتمى، وعلمانية الفكر الأوروبى وتطور مناهج العلوم الاجتماعية(٤) . أيًا ما كان التفسير فإن ما ظهر كان مجموعة من النماذج التاريخية ومجموعة أخرى (مثل نظريات ڤيبر) متجددة حاولت بوضوح شرح "المعجزة الأوروبية" فى ضوء عوامل سببية محددة. كان هذا هو الشكل الجديد لنظرية الانتشار. إن تأثير وجهة نظر التحديث لم يكن مسيطرًا بأى شكل فى البحث الأكاديمى التاريخى، ولكنه كان كذلك فى الكتابات التى سعت إلى شرح التحولات الكبيرة فى التاريخ الأوروبى وبخاصة مشكلة شرح تغييرات العصور الوسطى التى أدت إلى نهضة الرأسمالية والتحديث أى "المعجزة الأوروبية"(٥) . سنراجع كثيرًا من هذه الافتراضات التفسيرية فيما بعد فى هذا الفصل.

النقـــد

تعرض منهج التحديث للهجوم حيث إنه لم يعط أى دور للمناطق غير الأوروبية سواء فى الماضى أو فى الحاضر ما عدا دور المستقبل السلبى للانتشار الآتى

من أوروبا. ادعى هذا المنهج أن العمليات التطورية المهمة حدثت فى أوروبا العظمى فى فترة ما قبل ١٤٩٢ . وللفترة منذ ١٤٩٢ إلى الحرب العالمية الثانية ادعى استمرارية العمليات التطورية وازدهارها فى أوروبا وكيف أن الاستعمار هو الذى جلب ثمار هذا التقدم إلى المناطق غير الأوروبية. أما بالنسبة للحاضر والمستقبل فالتقدم بالنسبة للمناطق غير الأوروبية (العالم الثالث) يعنى الإبداع المستمر للابتكارات من خلال الآليات الموروثة من الحقبة الاستعمارية. لم تحظ هذه الافتراضات بالرواج بين مفكرى العالم الثالث، كما أدى التطور المطرد فى مجال البحث الأكاديمى فى العالم الثالث فى فترة ما بعد الاستعمار إلى ظهور فكر نقدى رافض لتلك المزاعم بما فيه من تأريخ جديد.

تقدم منحنى الفكر الأساسى كالتالى: بالنسبة لفترة ما قبل الاستعمار كان ضروريًا بعث الحياة فى تاريخ كل منطقة لمعرفة كيفية إسهامها فى تاريخ العالم ككل (طرح التاريخ الاستعمارى جانبًا تاريخ ما قبل الاستعمار بالنسبة لبعض المستعمرات بل وشُوه تاريخ البعض الآخر. لذا وكما قال إميلكار كابرال بسخرية عميقة: عندما تحصل المستعمرات على استقلالها فإنها تدخل التاريخ مرة أخرى)[٦] . أما بالنسبة للفترة الاستعمارية فالمعتقد القائل بأن الاستعمار نفسه كان مصدر كل تقدم يعتبر غير صحيح وعليه فيجب إعادة كتابة التاريخ لتوضيح كيف أدى الاستعمار إلى الفقر لا التقدم. على نطاق العالم كان لابد لنماذج أخرى أن تتطور لتوضيح كيف أن الاستعمار - بعيدًا عن فكرة نشر التحديث فى المجتمعات غير الأوروبية - نشر خليطًا من الابتكارات الجيدة والسيئة التى أدت إلى عملية تخلف لا تطور فى أنحاء كثيرة من العالم[٧] . وعرف هذا الفكر فى أفريقيا وآسيا فيما بعد "بنظرية التخلف" وفى أمريكا اللاتينية عرف "بنظرية التبعية". التى نبع منها أول نقد جاد فى تاريخ المركزية الأوروبية.

نستطيع أن نقتفى أثر أسس هذا النقد فى الكتابات الأولى لعدد قليل من المؤرخين معظمهم من رعايا الاستعمار الذين غالبًا ما كتبوا فى المنفى.

كان موضوعهم الأساسى هو توثيق الآثار السلبية للاستعمار على مكان وشعب معين. قـام بعض الكتـاب: دوبوا، بالم دت، بانيكار، روى، فـان لور، چامـز، چورچ بـادمـور، وإيريك ويليامز بتطوير مجادلات عن العمليات الاستعمارية على نطاق العالم وعن دور الاستعمار فى فترة ما بعد العصور الوسطى والنهضة الحديثة للرأسمالية وأوروبا. أوضح چامز أن عبيد جزر الكاريبى لعبوا دورًا فى تقدم الرأسمالية ليس مختلفًا عن الدور الذى لعبته الطبقة العاملة فى أوروبا. أما عمل ويليامز فكان له الأثر الأقوى فى تاريخ المركزية الأوروبية. حيث أوضح أن الثروة من العبودية والزراعة القائمة على العبيد كانت العامل الأساسى فى تراكم رأس المال الذى بدوره مهد الطريق للثورة الصناعية فى إنجلترا. كانت تلك المجادلة هى العرض الأول الذى يوضح الدور المركزى للعالم غير الأوروبى فى عملية التحديث نفسها ومن ثم تجمعت لدينا أعمال لمؤرخين أوروبيين محاولين تفنيد الأطروحة المعروفة بـ "أطروحة ويليامز"(٨) . أثناء وبعد الفترة المضادة للاستعمار توسعت هذه الأعمال التاريخية المهمة وبدأ عدد كبير من الباحثين فى شن هجوم مباشر على تاريخ نظرية الانتشار فى الفترة الاستعمارية.

ستناقش معظم هذه الأعمال فى فصول لاحقة. لكنى هنا أريد أن أقدم عددًا من النقاط الملموسة عن هذا النقد. أولاً: انضم عدد من المؤرخين من العالم الأوروبى (برنل، فرانك، والرستاين وغيرهم) لمؤرخى العالم الثالث كشخصيات مركزية فى هذه الحركة. ثانيًا: بينما ركز النقد جزءًا كبيرًا من اهتمامه على فترة ما قبل ١٤٩٢ موضحًا أن التطور حدث فى العالم غير الأوروبى، على سبيل المثال وثق شارما وحبيب تطور المجتمع الإقطاعى وما بعد الإقطاعى فى الهند إبان العصور الوسطى. وفى الوقت الذى نجد فيه اهتمامًا أكاديميًا قليلاً فى مجال الحركة النقدية بفترة ما قبل ١٤٩٢ فى أوروبا. العمل الرئيسى الذى تعامل مع هذه الإشكالية من وجهة نظر غير أوروبية كان "التراكم على نطاق العالم" لأمين فى العمل الصادر عام ١٩٧٤(٩) . يعد هذا مفهومًا حيث إن المؤرخين البارزين كانوا من العالم الثالث ولم يكونوا من أوروبا،

وبالتالى لم يحظ التاريخ الأوروبى باهتمامهم. وبالرغم من ذلك فإن هذا يعد غريبًا. إن جوهر مبدأ التحديث فى التاريخ كان الادعاء بأن أوروبا بدأت التحديث قبل الأقاليم الأخرى وقبل أن تمسك بقبضتها الاستعمارية على الأقاليم الأخرى. ولندحض تلك الأطروحة يجب أن نعرض (كما أحاول الآن فى هذا الكتاب) أن أوروبا لم تكن متفردة فى تطورها قبل ١٤٩٢ . يحتوى جزء من هذا الادعاء بالطبع على توضيح كيف كانت الأقاليم الأخرى متطورة. ولكن يجب أن يحتوى جزء منها أيضًا على دحض الافتراضات المبنية على فكرة "المعجزة" التى تدعى امتلاك أوروبا لنزعة تقدمية منذ القدم أو منذ أوروبا العصور الوسطى.

هناك مجانبة أخرى للصواب فى غياب الاهتمام بأوروبا قبل ١٤٩٢ من قبل المؤرخين فى الاتجاه التقليدى الذى ربط بين نظرية التخلف أو التبعية ونقد الاستعمار. وهو ما يتعلق بالعلاقة اللافتة للنظر بين مجال البحث الأكاديمى فى العالم الثالث الذى هو فى الأساس ماركسى والبحث الأكاديميى الماركسى فى أوروبا. كان الماركسيون الأوروبيون بين النقاد الأساسيين للاستعمار وبين المساهمين الأساسيين لنظرية التبعية – التخلف. كما ورثت النظرية الماركسية منذ أوقات قديمة طابع قوى مضاد للاستعمار وشكٌ عميق فيما يتعلق بالنظريات المقدمة من قبل مؤرخى التيار السائد فى أوروبا فى القرن التاسع عشر(١٠) . ولكن ويا للغرابة اتجهت معظم كتابات المؤرخين الماركسيين الأوروبيين عن فترة أوروبا ما قبل ١٤٩٢ لتجادل لصالح مبدأ تفرد أوروبا.

أسهم مؤرخو التيار السائد الأوروبيون فى نقد المبدأ الأساسى للمركزية الأوروبية وهذا ليس غريبًا حيث يحاول الباحثون الأكاديميون متابعة الحقيقة وقبولها إذا ما كانت تتفق مع توجهاتهم الأيديولوجية أو الثقافية أم لا. وهم ينجحون إلى حد ما. ولذا نجد عددًا من الباحثين الأكاديميين الأوروبيين المتخصصين فى العالم غير الأوروبى وقد أماطوا اللثام عن بعض الأدلة المهمة ضد نموذج المركزية الأوروبية فى

تاريخ العالم قبل ١٤٩٢ . عمل المؤرخ الهولندى ڤان لور فى الثلاثينيات من هذا القرن والمتعلق بتاريخ جنوب وجنوب شرق آسيا يعد مثال كلاسيكى لهذا النظام المضاد فى مجال البحث الأكاديمى[١١] . لدينا مثال آخر متعلق بتاريخ الصين؛ منذ نصف قرن قام ديڤنداك بالكشف عن حقائق مهمة تتعلق بالرحلات الصينية بعيدة المدى فى العصور الوسطى. حديثًا، أنتج نيدهام ومساعدوه سلسلة من الدراسات عن تاريخ العلم الصينى والتكنولوچيا الصينية لها أثر عميق على نموذج المركزية الأوروبية و(كما سنرى لاحقًا) أجبر مؤرخو المركزية الأوروبية على ترك جزء كبير من ادعاءاتهم الخاصة بالتقدم المزعوم للتكنولوچيا الأوروبية فى العصور الوسطى. أما الباحثون الآخرون من أمثال وتيلى وإلڤن الذين تعمقوا فى التاريخ الإمبيريقى للصين مع عدم الالتفات إلى الأسئلة الأيديولوچية قاموا بتقديم نوعية أخرى من الأدلة على نزعة الصين التقدمية منذ القدم وفى العصور الوسطى[١٢] . كل هذا يهدم نظرية المعجزة بالرغم من أننا سنرى لاحقًا فى هذا الفصل كيف وجد مؤرخو المركزية الأوروبية طرقًا لإصلاح معظم هذا التدمير.

يعد نقد تاريخ المركزية الأوروبية موضوعًا كبيرًا، وهدفنا فى هذا الجزء؛ وهو جزء واحد فقط، هو نقد نظريات المعجزة الأوروبية عن العالم قبل ١٤٩٢ والنظريات المتعلقة بها التى تتعامل مع تاريخ العالم الحديث على أساس أن العالم غير الأوروبى والاستعمار كانا هامشيين فى عمليات التطور. لم يتطور النقد فى هذه الموضوعات كثيرًا. سأعطى أمثلة قليلة لإسهامات جديدة مهمة والبعض الآخر سأستشهد به فى هذا الكتاب. أحدث كتب چانيت أبولغد قبل الهيمنة الأوروبية: نظام العالم من ١٢٥٠- ١٣٥٠ قبل الميلاد والصادر عام (١٩٨٩) يعد دراسة مهمة تعرض (بشكل حاسم على ما أظن) كيف أن أوروبا لم تكن أكثر تقدمًا وتطورًا عن بقية الحضارات الأخرى فى ١٣٥٠ قبل الميلاد. بعد تقديم هذا الطرح تقدم أبولغد تفسيرًا جزئيًا ومبدئيًا للنهضة الانتقائية لأوروبا وتدهور الشرق بعد ١٣٥٠ . فهى تقترح أن التباعد حدث

بين ١٣٥٠ و١٤٩٢ . (أناقش فى هذا الكتاب أن التباعد حدث فقط بعد ١٤٩٢ مع بدايات التراكمات الضخمة فى نصف الكرة الأرضية الغربى، فهذا الكسب المفاجئ لم ينتقل إلى الحضارات غير الأوروبية فى النصف الشرقى للكرة الأرضية وبالتالى أعطى للأوروبيين أول مزاياهم وأكثرها حسمًا على غيرهم من الحضارات. انظر الفصل الرابع). جادل سمير أمين فى أعمال حديثة عديدة أن أوروبا لم تكن أكثر تقدمًا من أفريقيا وآسيا فى نهاية العصور الوسطى ولكنها كانت غير مستقرة وذلك بسبب موقعها الهامشى على حافة النطاق الحضارى للكرة الأرضية. لم يكن المجتمع الطبقى فى العصور الوسطى فى أوروبا راسخ الجذور ومستقرًا وقويًا مثلما كان الوضع فى المناطق الأخرى، وبالتالى بدأت أوروبا تتغير ناحية الرأسمالية باستعداد أكثر[١٣] . إن هذه المجادلة بالرغم من أنها لا تمنح أى صفة "إعجازية" لأوروبا ما قبل ١٤٩٢ فهى تسمح ببقاء واحد من المعتقدات القديمة وهو أن أوروبا كانت أكثر ديناميكية من غيرها خلال العصور الوسطى. كتاب مارتن برنال الجديد آثينا السوداء له علاقة بسيطة بموضوع هذا الكتاب ومجادلاته تعتبر مرتبطة ببعضها بالفعل. يوضح برنال كيف خلق المؤرخون الأوروبيون خرافة عن أوروبا القديمة على أساسها تم استبعاد الأصول والابتكارات الأفريقية والآسيوية من التاريخ بالرغم من أن آلهة آثينا كانت أفريقية مثلاً. كشف عمل برنال عن النظريات الشائعة عن التفرد المزعوم لأوروبا القديمة وهذا أيضًا يكشف الجذور العرقية المركزية والأيديولوچية للكثير من البحث الأكاديمى الأوروبى الذى يشكل الأساس لنموذج نظرية الانتشار الكلاسيكية[١٤] . أما كتاب إدوار سعيد "الاستشراق" **Orientalism** الجزء الصادر عام ١٩٧٩ يعد نقدًا أساسيًا للعملية التى من خلالها سيطرت المركزية الأوروبية والأيديولوچية المحافظة على البحث الأكاديمى الأوروبى عن الشرق الأدنى وآسيا، وهو أيضًا على درجة كبيرة من الأهمية كما أنه مرتبط بالمجادلة هنا فى هذا الكتاب. سنشير إلى أعمال أخرى مماثلة كلما تقدمنا[١٥] .

النقد المضاد

فى الآونة الأخيرة كان هناك سيل فى الكتابات التى تدافع بشدة عن وجهة نظر المركزية الأوروبية التقليدية مع تعزيز هذه الكتابات لنظرية المعجزة الأوروبية فى بعض أشكالها المتعددة. نناقش الكثير من هذه الكتابات فى هذا الفصل. فى نفس تيار هذه الكتابات نجد هناك هجمات مضادة ضد أكثر النظريات تحديداً التى تتساءل بشأن الآراء الأوروبية التقليدية عن العبودية، والاستعمار وما شابه (انظر الفصل الرابع) وهى الآراء التى ترى أن هذه العمليات والأحداث كانت هامشية فى عملية التطور الاجتماعى. كما سنقدم ونناقش نظريات جديدة (أو أشكال معدلة لنظريات قديمة) عن السبب المحدد وراء تفرد أوروبا. لدى إحساس أن هذه هى حركة بحثية أكاديمية تتواءم مع الاتجاهات السياسية فيما يخص العالم الثالث. وعلى أية حال فقد شهد عقد الثمانينيات عدداً من الكتابات من هذا النوع الذى يبدو أنه يجسد هجوماً مضاداً واعياً ضد التاريخ النقدى المناقَش سابقًا(١٦) .

بعض الكتاب فى الأعمال الجديدة مشغولون فى مثل هذا الهجوم المضاد عن وعى. بعضهم ماركسيون ويصرون على أن المبدأ الماركسى الصحيح، والأصلى والحقيقى هو الذى يعترف بأسبقية أوروبا فى الماضى والحاضر. يجادل روبرت برنر بجرأة أنه تم اختراع الرأسمالية بواسطة أوروبيين من الشمال الغربى وبدون مساعدة من أحد ولذا (بعد ٦٠٠ سنة) يجب أن نعترف باستمرار بأسبقية أوروبا. عدد أخر من الماركسيين مثل بيرى أندرسون وبيل وارن لهم مواقف مشابهة(١٧) . من بين التيار السائد للمؤرخين نجد أكثر الأحداث درامية هو ظهور كتاب المعجزة الأوروبية عام ١٩٨١ لإيريك جونز. يعد هذا الكتاب سرداً استثنائيًا لنصيب ضخم من أفكار الحقبة الاستعمارية عن أسبقية أوروبا وتخلف وافتقار غيرها للرشد. والأكثر استثنائية هو استقبال الكثير من الباحثين الأكاديميين الإيجابى لهذا الكتاب كما لو كانت هذه المبادئ القديمة لم يثبت بطلانها منذ زمن بعيد.

هناك حركة فى الوقت الحالى تتبنى محاولة لإيجاد صفات فى الثقافة الأوروبية القديمة وفى العصور الوسطى وغائبة فى غيرها من الثقافات الأخرى وتعتبر أسباباً وراء تطور أوروبا. صفات فى الأسرة الأوروبية، و النظام السياسى الأوروبى، والعقل الأوربى وهكذا. تبعث هذه الحركة بنشاط الحياة فى آراء ماكس ڤيبر على رأس القرن عن "رشد" أوروبا المزعوم وغيره. حقًا معظم (وليس كل) هؤلاء الباحثين يمكن تلقيبهم "بالڤيبريين" نسبة إلى "ڤيبر" والعديد منهم يعرفون أنفسهم بهذه الطريقة ومن بين هؤلاء مايكل مان وچون هول. . سأناقش آراء ڤيبر فيما بعد فى الجزء التالى من هذا الفصل وسأحاول استخلاص الآراء الجديدة المهمة التى تنادى بالإعجاز الأوروبى قبل ١٤٩٢ وسأحاول توضيح خطأ هذه الآراء.

الخرافة

ترتكز خرافة المعجزة الأوروبية على فكرة أن نهضة أوروبا نتجت من قوى تاريخية تكونت داخل أوروبا نفسها. كما أن نهضة أوروبا على غيرها من الحضارات من حيث مستوى التقدم أو معدله أو كليهما معًا كانت قد بدأت قبل فجر العصر الحديث، قبل ١٤٩٢ . أى أن الحداثة فى أوروبا فيما بعد ١٤٩٢ جاءت بسبب هذه القوى الداخلية القديمة وليس بسبب تدفق الثروة والابتكارات من العالم غير الأوروبى. بالإضافة إلى أن تاريخ ما بعد ١٤٩٢ بالنسبة للعالم غير الأوروبى (المستعمَر) كان مبنيًا على أساس تدفق الحداثة من أوروبا. إن جوهر هذه الخرافة هو مجموعة من الادعاءات عن أوروبا القديمة وأوروبا فى العصور الوسطى التى تتلخص فى الادعاء بأن أوروبا فى ١٤٩٢ كانت أكثر حداثة أو كانت تتقدم بصورة أسرع من باقى العالم.

تعتبر هذه خرافة بالمعنى الكلاسيكى للكلمة: إنها قصة نهضة ثقافة يؤمن بها أبناؤها. إنها أيضًا خرافة لأنها تنطوى على فكر خاطئ. فى المناقشة التالية سأحلل نسيج هذه الخرافة وأوضح كيف أن الخيوط التى تكونها تعد ضعيفة للغاية .

أعرف بالتأكيد أن عدد قضايا المعتقدات التى تكون هذه الخرافة لا يعد ولا يحصى. واحد من الأسباب العديدة لثبات هذه الخرافة ومتانتها هو أن هناك مجموعة متنوعة من المعتقدات الفردية التى تدعمها والتى يستطيع مؤرخو حقبة بعينها إثبات بطلان أجزاء فيها، وبالرغم من ذلك فإن مؤيدى هذه الخرافة لا يلتفتون إلى تلك الجوانب بل ينتقلون لمعتقدات أخرى لتأسيسها.

هناك مشكلة أساسية أخرى وهى التى تتعلق بالطريقة التى عن طريقها تمنح المعتقدات الترخيص الاجتماعى. حيث تُقبل تلك المعتقدات فى حالة مساندتها للخرافة. أما إذا لم تساندها فهى تُرفض وتُمنع. جزء من مشكلة منح الترخيص للمعتقد (أو إعادة الترخيص أو سحبه .. إلخ) تضع عقبة خطيرة أمام محاولات نقد نظرية المعجزة. كثير من المعتقدات التى تدعم هذه النظرية تعد ضمنية غير واضحة أى أنها لا تدخل نطاق السياق الأكاديمى للمؤرخين وفى بعض الأحيان لا تدخل حتى السياق الواعى بشكل عام. (تذكر المناقشة عن المعتقدات الضمنية فى الفصل الأول). نتعلم كثيراً من هذه المعتقدات ونحن أطفال. ويبدو البعض الآخر منها "معقولاً" بداهة وذلك لأنه يتسق مع القيم العميقة للثقافة أو مع معتقدات أخرى مقبولة (تاريخية، عملية، دينية، وهكذا). ولذا فإن القناعة التامة بأن أوروبا القديمة وأوروبا العصور الوسطى كانت أكثر تقدماً من الحضارات الأخرى تعد مدعومة بالمعتقدات الواضحة الموجودة فى مصفوفة مع المعتقدات الضمنية – عادة هى غير ملاحظة ولا يتم التساؤل بشأنها – الخاصة بالأوروبيين التقدميين " الذين كانوا أسلافنا". وبالعكس تحتوى مصفوفة المعتقدات الضمنية عن المناطق غير الأوروبية على أفكار مثل الغرابة والوحشية والقسوة وأكل لحوم البشر والخداع والغباء والجشع والوقاحة والقذارة والمرض ... وهكذا. وهى المصفوفة التى تدعم المعتقد العام بأن العالم غير الأوروبى لم يستطع أن يكون إلا متخلفًا. ستظهر أمثلة هذه الأنواع من المعتقدات الضمنية الإيجابية والسلبية كلما تقدمنا.

لن يناقش هنا بالتفصيل نوع واحد من المعتقدات الواضحة عن تميز أوروبا. وهو الخطاب الدينى الصريح القائم على أساس الإيمان بأن هناك إلهًا مسيحيًا سينهض بشعبه فوق الآخرين. وبالرغم من أننا سنشير إلى هذا الرأى فى سياقات متعددة فهو ليس ذلك النوع من المجادلات التى يمكن إخضاعها للتحليل والنقد وذلك لأنه مبنى على إيمان لا يمكن اختباره إمبيريقيًا، يعتقد به البعض بينما لا يعتقد به الآخرون وهذا هو أقصى ما يمكن بلوغه فى هذا الشأن. ويكفى أن نقول الآن إن المجادلة الدينية كانت مقبولة عالميًا تقريبًا حتى القرن التاسع عشر حتى إن المجادلات الأخرى لم تكن ضرورية بالنسبة للمفكرين الأوربيين. حقًا لماذا نسأل عن أسباب تميز الأوروبيين المسحيين بينما نعرف أن غير المؤمنين لن يذهبوا إلى الجنة كما أنهم لن ينعموا بفضل الله فى الحياة الدنيا؟ ومن الطبيعى أن يوصف غير المؤمنين بأنهم أقل ذكاءً، وأقل حظًا وهكذا. وما دام الباحثون الأكاديميون والمتعلمون من الناس يؤمنون أن الدين يشكل الأساس لكل الأشياء بما فيها العلم وأن الله يتدخل للتحكم فى الشؤون الإنسانية فإنه من البساطة أن نفترض أن الأوروبيين متميزون لأن هذه هى إرادة الله. إنه ما يمكن أن تتوقع أن يفعله إله مسيحى للمسيحيين وبالتحديد لهؤلاء المسيحيين الذين يعبدونه بالطريقة الصحيحة. فى منتصف القرن التاسع عشر عندما كانت نظرية انتشار المركزية الأوروبية فى أوجها وحينما كان الأوروبيون لا يشكُّون فى تميزهم على غيرهم بالرغم من أن المجادلات الدينية الصريحة كانت فى طريقها للاختفاء من سياق البحث الأكاديمى فإنها كانت لا تزال موجودة بطريقة ضمنية كمعتقدات ضمنية. أشك أن الجزء الأكبر من مجادلات تميز الأوروبيين كانت مبينة على أساس الإيمان الدينى. إذا كانت البيئة الأوروبية متميزة فهذا لأن الله جعلها كذلك. إذا كان الجنس الأبيض متميزًا، فهذا لأن الله خلقه هكذا. إذا كان الأوروبيون أكثر رشدًا من غيرهم مع عدم وجود تفسير واضح لذلك، نستطيع أن نستنتج أن هذا من صنع الله وهكذا. لا أعلم إلى أى مدى مازال هذا النوع من التوسل الضمنى للألوهية موجودًا – ولكن بشكل ضمنى – فى تفكير باحثى المركزية الأوروبية المعاصرين، ولكنى متأكد أنه فى الغالب

هكذا. سنقوم من وقت لآخر بمناقشة أفكار الباحثين (مثل لين وايت الإبن وڤرنر) الذين يربطون بوضوح بين آرائهم عن التاريخ ومعتقداتهم الدينية. سنلاحظ اتجاه المجادلات العلّيّة لدى مثل هؤلاء المفكرين ولكنه لن يُدان. ففى بعض الأحيان يقوم باحث أكاديمى ما بتقديم هذه المجادلة ولكن بدون وعى وبطريقة ضمنية. إن الحالات المقلقة حقًا هى التى تبدى رياءً واعيًا متعمدًا.

البيولوچيا

لدينا فى الأساس نوعان من الحجج التى تُستخدم لتفسير تفرد وتميز أوروبا والأوروبيين. نوع يستند إلى قوة أو عامل غير ثقافى بوصفه السبب الأساسى والثانى يجد هذا السبب فى الثقافة نفسها. إذا نحينا جانبًا مبدأ التدخل الإلهى (الذى يمكن أن نفكر فيه بشكل عام على أنه سبب خارج عن الثقافة الإنسانية بالرغم من أن هذه النقطة بالغة التعقيد من الناحية اللاهوتية) نجد نوعين من العلّيّة الخارجية غير الثقافية هما الأكثر شيوعًا. الأول هو التركيب البيولوچى للإنسان والثانى هو البيئة الطبيعية.

السلالة

تؤكد الادعاءات البيولوچية بوجه عام أن الأوروبيين متميزون بيولوچيًا على غيرهم. العنصرية البيولوچية هى الشكل الكلاسيكى والنمطى لهذا الادعاء. إنها فكرة أن الأوروبيين لديهم صفات وراثية متميزة وبالتالى فقد ولدوا بقدرات أعظم من تلك لدى غيرهم. الأوروبيون أذكى وأفضل وأكثر جرأة من غيرهم بسبب صفاتهم الوراثية. وبشكل عام، فإن التوصيف الفئوى المستخدم لم يكن "أوروبيون" ولكن "أعضاء السلالة البيضاء" ولكن الفرق بينهما لم يكن مهمًا عادة. أما غير الأوروبيين الذين كانوا

يصنفون على أنهم أعضاء فى السلالة البيضاء (التى تسمى هكذا) كانوا بالرغم من هذا يظن أنهم أقل درجة وذلك لأنهم ينتمون لسلالات فرعية تحتل مرتبة ثانية. فى بعض الأحيان كان الأوروبيون أنفسهم ينقسمون إلى من هو متميز ومن هو فى مرتبة أقل لأنهم سلالات فرعية. فى أوائل القرن التاسع عشر كان من المعروف أن البيض لم يكونوا من نفس الأنواع البيولوچية للسلالات الأخرى. تدعى نظرية "التعدد الوراثى" بأن لديها من الدليل ما هو علمى ودينى خاص بالإنجيل[١٩] . تكمن أهميتها الأساسية فى استخدامها كمسوغ للعبودية: إذا لم يكن الأفارقة بشرًا بالمعنى الحقيقى، فلماذا يكون استعبادهم عملاً شريراً. أخذت هذه النظرية فى الأفول خلال القرن التاسع عشر، وذلك لإساءتها للفكر الحديث الليبرالى المناهض للعبودية. وما حل محلها لم يكن أفضل؛ فهو المبدأ الذى نطلق عليه العنصرية الكلاسيكية. وهو الاعتقاد بأن السلالات الإنسانية المختلفة لديها ملكات مختلفة. تمامًا مثل الاختلافات بين السلالات المختلفة للحيوانات الأليفة - اختلافات فى الذكاء والعدوانية والشجاعة وهكذا- وتعتبر هذه الملكات المختلفة نتيجة الوراثة البيولوچية. كان هناك من يدعى بأن الأفارقة مُنحوا ذكاءً أقل من الأوروبيين ولذا كان من الطبيعى والأخلاقى من قبل الأوروبيين أن يقوموا باستعمار أفريقيا ويتخذوا كل القرارات نيابة عن الأفارقة الذين لم يمتلكوا القدرة الفطرية لاتخاذ مثل هذه القرارات لحكم أنفسهم. أو لكونهم أقل ذكاء من الأوروبيين تحتم وجود فترة من الوصاية الأوروبية التى كانت ضرورية كى يتسنى لهؤلاء الأفارقة بطيئى التفكير أن يتعلموا كيف يحكمون أنفسهم. وباختصار كانت المهمة الأساسية للعنصرية هى تبرير الاستعمار وجميع أشكال الاضطهاد الأخرى الممارَسة على غير الأوروبيين بمن فيهم من فئات الأقليات فى دول مثل الولايات المتحدة.

وباقتراب نهاية القرن التاسع عشر كانت العنصرية قد اكتسبت هالة شبه علمية للحقيقة الظاهرية. ادعى العلماء امتلاكهم أدلة على الاختلافات بين الأجناس من حيث درجة الذكاء على وجه الخصوص. كما أنهم قد تسلحوا الآن بقوانين مندل الوراثية

ولذا بدا من المعقول بالنسبة للعلماء الذين كانوا هم أنفسهم عنصريين أن يؤكدوا على امتلاكهم الدليل على صحة النظريات العنصرية التى كانوا يؤمنون بها. وقد أُميط اللثام عن هذه الأدلة المزعومة على أنها شبه علمية فى عملية بطيئة استمرت حتى الحرب العالمية الثانية. حقًا، حتى اليوم ما زلنا نجد بعضًا ممن يطلق عليهم "العلماء العنصريون". ما نحتاج أن نلاحظه عن العنصرية العلمية هو أنها وفرت طريقة جديدة لتبرير شيء كان الأوروبيون يعتقدون بأنه صحيح فى العالم كله. ويعنى هذا من جانب واحد أنها لم تساعد كثيرًا فى تكثيف العنصرية، التى كانت فى الحقيقة قد وصلت إلى ذروة الأهمية الأكاديمية والفكرية مع بداية القرن وذلك لأسباب اجتماعية متعلقة بتعاظم أهمية الاستعمار. ومن جانب آخر إن بطلان العنصرية العلمية لم يكن متعلقًا بأفول شعبية العنصرية فى القرن الحالى. لقد نبعت العنصرية من جذور قبل علمية وتمكنت من البقاء لفترة طويلة وذلك لأنها كانت مفيدة سواء مع دعم العلم أو بدونه.

هذا لا يجعلنا ننكر كيف أعطت العنصرية العلمية دافعًا قويًا للمعتقدات العنصرية فى المجتمع. فى وقت كان قد اكتسب فيه العلم مكانة عظيمة ونفوذًا كانت الحجج العلمية على درجة كبيرة من الأهمية[٢٠] . وقد ساعدت العنصرية العلمية بطرق خاصة. لدينا مثال مهم هنا يتعلق بالاختلافات المفترضة فى الملكات بين الأجناس الفرعية المفترضة أيضًا داخل ما يطلق عليه الجنس الأبيض. اتجاهات العداء للسامية بجانب تلك المعادية للإسلام والمتعلقة بالاستعمار فى الشرق الأوسط أدت إلى تزايد أعداد النظريات عن نقص الجنس الفرعى الذى يطلق عليه "السامى" (تشير "سامى" بالطبع إلى الشخص الذى يتحدث بلغة سامية مثل العبرية أو العربية). هذا الأساس العنصرى للعداء للسامية أصبح فى غاية الأهمية للمجادلات العامة عن تميز الأوروبيين فى التاريخ على غيرهم من غير الأوروبيين[٢١] . كانت الشعوب السامية تعرف بانتمائها للجنس الأبيض. والآن يمكن الادعاء بأن الأوربيين هم فقط من ينتمون إلى الجنس الفرعى الحقيقى والمتميز للبيض. كان الساميون فى درجه أقل. وكذا الشعوب

غير السامية فى غرب آسيا (الإيرانيون، الأتراك وهكذا). وقد كان هناك ادعاء فى مواقف معينة بأن العنصرية العلمية أثبتت نقص الأوروبيين من المناطق الشرقية أو الجنوبية، فقد كانت السلالة الشمالية البريطانية والألمانية هى أكثر تميزًا على الإيطالية والسلافية وغيرها. يوجد مثال شهير على هذا النوع من الادعاءات وهو سلسلة الشهادات شبه العلمية التى قُدمت أمام الكونجرس الأمريكى فى الوقت الذى كانت تناقش فيه أول التشريعات المهمة الخاصة بالهجرة فى العشرينيات، حيث قام العلماء بالتأكيد أمام الكونجرس أن الأوروبيين الجنوبيين كانوا أناسًا فى مدنية أقل ولذا يجب أن يستبعدوا من الهجرة الحرة إلى الولايات المتحدة حتى يتمكنوا من المحافظة على نوعية سلالة عالية للجنس الأمريكى[٢٢] .

اليوم يعتقد القليلون من الأوروبيين المتعلمين بأن هناك اختلافات جينية موروثة بين الأجناس فيما يتعلق بالذكاء أو أى صفة قد تسرع أو تعرقل التقدم الاجتماعى. بالرغم من أن القليل من الناس يعتقدون فى مبدأ العنصرية الكلاسيكية فالكثير منهم حريص على الاحتفاظ بهذه الآراء لأنفسهم للرفض الموجه لهذا المبدأ اليوم والمقابل بالكثير من الكراهية. لو كان هذا الكتاب كتابًا عن تاريخ الأفكار، لبدأنا تفسيرًا لهذا التحول؛ أى أفول وسقوط العنصرية الكلاسيكيه على مدار فترة لا تتعدى جيلين من الباحثين الأكاديميين. خلال العشرينيات كان الاعتقاد بالأثر الكبير أو القليل للاختلافات الموروثة أو العنصرية منتشراً. بعد ١٩٤٥ كان نادرًا أن نجد من يدافع عن النظرية. ربما كان العامل الأساسى هو النازية. أقام النازيون إيديولوچيتهم على هذا المعتقد مدعين أن أصحاب القامات الفارعة والعيون الزرقاء والشعر الأصفر كانوا جنسًا متميزًا (السيد) ولذا استحقت الأنواع الأقل رتبة من الأوروبيين أى من يطلق عليهم السلالات البيضاء الفرعية ذات المرتبة الثانية – مثل الجنس السامى وغيرهم – أن تُحكم بواسطة الجنس السيد. إضافة لذلك كان لهذا الجنس السيد الحق فى أن يتخلص من السلالات الفرعية ذات المرتبة الثانية عن طريق ألإبادة الجماعية. ولذا كان

ينظر ولا يزال إلى العنصرية على أنها مكون مرعب للإيديولوچية النازية. صحيحٌ أنه لا يزال يوجد مجموعة صغيرة متعصبة مازالت تدعو للعنصرية الكلاسيكية وأن عدداً صغيراً جداً من الأكاديميين لا يزال ينادى بصلاحيتها. لذا لم تنته الحاجة لمحاربة هذا المبدأ كليًا. ولكن لا يعد هذا الأمر مهمًا حينما نتحدث عن انحيازات المركزية الأوروبية وذلك بسبب وجود مبدأ آخر حل محل العنصرية الكلاسيكية ويؤدى نفس المهمة وقد لا نجد جذوره فى علم الچينات ولكن فى الثقافة. يمكن أن نقول إن هذا المبدأ هو العنصرية الثقافية(٢٣) .

كانت العنصرية الكلاسيكية منتشرة حتى العشرينيات، الفتره التى أُرسيت فيها الأسس الواضحة والضمنية لمعظم الادعاءات المنادية بتفوق الأوروبيين. كما لو كان لدى الباحثين الأكاديميين إجابة مسبقة على السؤال عن نهضة أوروبية بخلاف غيرها. والإجابة هى أن الأوروبيين بدؤوا ولديهم ميزة چينية، صغيرة كانت أو كبيرة، ثم وعلى مر التاريخ كانوا دائمًا - لدرجة كبيرة أو صغيرة أيضًا - متأثرين بذلك التفوق الچينى فى الأمور المتعلقة بالفكر مما أهلهم لاتخاذ القرارات بقدرة فائقة أو خلاقة. هنا يكمن سبب مهم: لماذا لم يبدُ مهمًا فى ذلك الوقت السؤال بلماذا؟ كانت الإجابة تعتبر جلية بديهيًا. وحتى العنصريين المعتدلين مثل ماكس ڤيبر (الذى نختبر آراءه فيما بعد) كانوا يفترضون أن التفوق الأوروبى كان بسبب الخلفية الچينية للأوروبيين مما جعلهم دائمًا "أكثر رشداً" (كلمة ڤيبر المفضلة) نوعًا ما، ولذا أكثر تقدمًا على نحوٍ ما. أيضًا من المثير للاهتمام أن الباحثين الأكاديميين الجُدد مازالوا يحتفظون بمفهوم التفوق العقلى لأوروبا؛ المفهوم النابع من ڤيبر ومن خلاله إلى الفكر الاجتماعى فى القرن التاسع عشر. ولكنهم ينكرون بقوة أن التفوق العنصرى هو مصدر ذلك "الرشد". إن الالتواء الفكرى الذى يجب أن يخوضوا فيه حتى يحتفظوا بواحد وليس الآخر سيستدعى انتباهنا عندما نناقش هذا الأمر.

من بين المؤرخين الذين تحظى نظرياتهم عن "المعجزة الأوروبية" بالدعم فى أنحاء عدة يعد ماكس ڤيبر الوحيد الذى يستخدم المجادلة العنصرية الكلاسيكية بطريقة واضحة وعلنية. ولكن ڤيبر كان يكتب فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين عندما كانت العنصرية الكلاسيكية تحظى بقبول غالبية الأكاديميين الأوروبيين. تعد مجادلات ڤيبر شكلاً معتدلاً من العنصرية. لقد كتب بالفعل عن "الهستيريا الوراثية لدى الهنود" وكان أساس مجادلته أن الديانة الهندية عرقلت الهنود عن التطور[٢٤] . لقد اعتبر الأفارقة غير قادرين على العمل فى المصانع لأسباب جينية[٢٥] . أما الصينيون فلديهم "بطء حينما يتعرضون لمثير (فكرى) غير عادى" لديهم "سذاجة" أو "خضوع" وهو ما يجعل ڤيبر يظن أنها بشكل كلى أو جزئى صفات وراثية[٢٦] . أما رشد أوروبا فله أساس وراثى محدد[٢٧]. ولكن تبقى حقيقة أن ڤيبر أعطى ثقلاً كبيراً للعوامل اللاعنصرية. ويعتبر ڤيبر بالنسبة لزمنه عنصريًا معتدلاً.

تعد العنصرية المعتدلة مشكلة أكثر خطورة من العنصرية الكلاسيكية لدى الدراسين الأكاديميين وذلك لكونها نظرية ضمنيــة. لقد لا حظــنا أن ڤيبر اعتقــد فى أهمية الاختلافات العنصرية ولكنه نادراً ما أشار إلى هذا الأمر. ولكن يبدو أنها كانت جزءًا ضمنيًا غير مصرح به فى كثير من مجادلاته عن التطور الاجتماعى بشكل عام، والتطور المقارن بين أوروبا وغيرها على وجه الخصوص. يعد هذا نموذجًا لما كان عليه مجال البحث الأكاديمى فى أوائل القرن العشرين، وعليه فقد كانت العنصرية فى ذلك المجال البحثى صعبة التحديد كما لم تظهر المجادلات المقدمة من قبل هؤلاء الباحثين على أنها عنصرية، وذلك لأنها لم تذكر العنصرية صراحة على أنها عامل. ولكن الأكثر خطورة هو التأثير الباقى لما أطلق عليه العنصريه المعتدله جداً. وقد كان عدد كبير وربما الأغلبية فى التيار الرئيسى للباحثين فى فترة العشرينيات يعتقد أن الاختلافات العنصرية كانت بسيطة جداً وأن قدرات الفرد وإمكانياته الكامنة لا يسهل

التنبؤ بها من جنسه، وأن تأثير الإختلافات بين الأجناس لا يظهر إلا فى الإحصاءات للمجموعات الكبيرة: على سبيل المثال "معامل الذكاء" أعلى نوعًا ما لدى البيض عن السود. وكان هذا الاعتقاد متسقًا مع المعارضة الشديدة للتمييز العنصرى. ولكنه لم يكن أفضل من العنصرية الكلاسيكية عندما تطبق على أسئلة خاصة بالتطور الاجتماعى والمقارنة بين تاريخ الأوربيين وغيرهم. هذا لأن المجادلات التاريخية لم تتطلب افتراض اختلافات عنصرية كبيرة. لو كان البيض فى المتوسط لديهم ميزة بسيطة بعكس غيرهم لنقل فى القدرة الابتكارية فنجد أن هذه الميزة البسيطة تستطيع أن تؤثر على مدار السنين وتخول الأوروبيين بناء حضارة عظيمة بعكس غيرهم. كانت هذه العنصرية المعتدلة أكثر خطورة من العنصرية المعتادة وذلك لسماحها للباحثين باتخاذ مواقف متحررة فى وجه التمييز العنصرى الصريح فى حال أنها مازالت تؤمن بتفوق البيض وراثيًا على غيرهم وذلك فى المجالات البحثية المختلفة لديهم: الأنثروبولوجيا والجغرافيا والتاريخ وهكذا. لقد قلصت من دور الجنس وجعلته "عاملاً" واحداً من بين العديد من العوامل ولكنها لم تنح جانبًا التفسيرات العنصرية فيما يتعلق بتفوق أوروبا المزعوم[٢٨] .

ربما يكون من غير الضرورى هنا القول بأنه لا يوجد دليل يمكن تصديقه يدعم فكرة أن الأجناس تختلف من حيث الموروث الجينى فيما عدا أموراً بسيطة مثل لون الجلد. حتى فكرة العرق أو "الجنس" نفسها تعد تجريداً غامضًا وغير مفيد. لذا لتحقيق أهدافنا هنا يكون التعميم المهم هو: الاختلافات العنصرية لا تفسر شيئًا فيما يتعلق بالثقافة والتطور الثقافى[٢٩] .

الديموغرافيا

يعد السلوك الديموغرافى ثانى أهم عامل بيولوچى فى تفسير المعجزة الأوروبية. ولكن العلّيّة هنا يعتورها الشك. شكل النظرية المحدد الذى حظى بالاهتمام هو الذى

يدعى أن الأوروبيين تحكموا فى نموهم السكانى بينما لم تفعل الشعوب الأخرى ذلك ولذا لم تعان أوروبا الزيادة السكانية ولم تواجه ما يطلق عليه الكثير من المؤرخين "كوارث مالتوس" التى من المفترض أنها تعيق التقدم فى المجتمع غير الأوروبى. تفترض نظرية مالتوس فى جوهرها أن عامة الناس لا يتحكمون فى رغباتهم الجنسية ولذا نجد لديهم العديد من الأطفال؛ الوضع الذى يتفاقم مؤدياً إلى كارثة من نوع ما مثل المجاعات والأوبئة أو الحروب التى تقلل عدد السكان، ثم تدور الدورة من جديد حيث ينجب الناس أطفالاً أكثر مما ينبغى لهم وتستمر هذه الحلقة المفرغة. اعتبر مالتوس الرغبات الجنسية غير المحكومة عامة بين البشر بالرغم من قدرة الطبقات المتعلمة على التحكم فى نفسها إلى حد ما. تُعدل التفسيرات الجديدة للمعجزة الأوروبية من هذه النظرية فى نقطة مهمة؛ فهى تؤكد أن الأوروبيين كان لديهم نموذج ثقافى للحد من عدد الذرية بينما افتقر غيرهم لهذا النموذج، وبالتالى حافظوا على تعداد السكان على مر التاريخ متناسباً تقريباً على المدى البعيد مع مصادرهم. هذا بالرغم من كوارث مالتوس المتكررة: الكوارث التى تعد مهمة فى تفسير حقائق متعددة فى التاريخ الأوروبى ولكنها كانت أقل أهمية بشكل أكبر من قوة عوامل مالتوس المزعومة والدائمة – نقص التحكم الديموغرافى والزيادة السكانية السنوية والبؤس – فى المجتمعات غير الأوروبية. بالإضافة إلى أنه بالنسبة لهؤلاء المؤرخين أينما وُجد التقدم التكنولوچى أو أى ظرف آخر سعيد أدى إلى ارتفاع مستويات المعيشة لم يسمح الأوروبيون، على عكس غيرهم، للتعداد السكانى بالزيادة وما يترتب على ذلك من القضاء على ثمار التقدم. نحتاج أن نلاحظ أن هذه المجادلة لا تركز على الإنجاب من الناحية البيولوچية ولكن على الرشد. فهم يدّعون أو يفترضون أن الأوروبيين يفكرون فى مشكلة السكان بخلاف غيرهم. ولذا فالمجادلات الديموغرافية عن تميز أوروبا دائماً ما تعود إلى الثقافة أو الجنس. فالأوروبيون أكثر رشداً إما لتفوقهم وراثياً أو ثقافياً. إذا لم يكن غير الأوروبيين لديهم القدرة على التحكم فى رغباتهم الجنسية وإذا ما كانوا يتصرفون كالوحوش فى الغابات فهذا يعد دليلاً على أنهم فى مرتبة أقل من الناحية الوراثية أو

لديهم اعوجاج ثقافى ما. فى المجادلات التى عادة ما تواجهنا اليوم إما يتم أن استحضار الثقافة أو يُترك الأمر ملتبسًا علينا. ولكن هناك إشكالية؛ الكثير من المؤرخين يعتقدون أن الديموغرافيا تعد عاملاً سببيًا مستقلاً. يرتكز هذا المعتقد على المجادلة شبه البيولوجية وهى أن عامة الناس ينجحون نجاحًا جزئيًا فى التحكم فى رغباتهم الجنسية ونجاحًا جزئيًا أو فشلاً تامًا فى التحكم والتباعد الزمنى فى فترات إنجاب الأطفال[٣٠] . لذا يدعى كثير من الداعمين لخرافة المعجزة أن الأوروبيين لديهم فرصة نجاح كبيرة بالرغم من كونه نجاحًا جزئيًا فى التحكم فى سلوكهم على عكس غيرهم. على سبيل المثال يدعى إيريك چونز أن هذا هو ما يطلق عليه "النوعية الأوروبية":

> **لم تبدد أوروبا عطايا بيئتها سريعًا بنفس معدل الحصول عليها فى صورة مضاعفة هوجاء للحياة العامة (بمعنى زيادة البشر)[٣١] .**

فى قول آخر، لا ينجب الأوروبيون بدون تفكير كما يفعل غيرهم. يثبت چونز النقطة نفسها بطرق مختلفة عديدة، فهو يقول على سبيل المثال إن الفلاحين الصينيين يفضلون إنجاب أطفال على تحسين ظروفهم الاقتصاديه والسياسية[٣٢]، كما نجد لچون هول الرأى نفسه:

> **إن توسع الاقتصاد الأوروبى لم يحدث (عن طريق الفدادين المزروعة) كما فى الصين التقليدية المتأخرة، وذلك لأن النمو السكانى لم يكن يلتهم الإنتاج. بقيت النسبة بين السكان والفدادين (المزروعة) جيدة وذلك بسبب العفة النسبية للأسرة الأوروبية[٣٣] .**

فالأوروبيون "متعففون" جنسيًا. ولذا فهم لا يعانون الزيادة السكانية.

نقطة أخرى تستحق الملاحظة وهى أن المؤرخين لا يجدون أية صعوبة فى استحضار النمو السكانى كعامل إيجابى فى التاريخ الأوروبى يشير إلى التقدم. على سبيل المثال، يُرى النمو السكانى فى أوروبا منذ القرن الحادى عشر على أنه دليل على أن أوروبا العصور الوسطى كانت تتقدم بطريقة صحية. على عكس النمو السكانى فى المجتمعات غير الأوروبية حيث كان يُرى بصورة سلبية كنتائج قوانين مالتوس فى "الزيادة السكانية". سنواجه أمثلة من هذا النوع من المجادلات أحادية الجانب كلما تقدمنا.

يوجد الآن أدلة وفيرة على أن كل المجتمعات تمارس التنظيم السكانى[٣٤] . ويبدو أنهم يفعلون هذا بكفاءة على المستوى العام. بالرغم من أن الأسر الفردية قد تنجح أو تفشل فى التحكم فى حدوث الحمل - وذلك بسبب أن وسائل تنظيم الحمل قد تفلح وقد تخطئ - فعلى ما يبدو أن المجتمع كله قادر على تشجيع النمو السكانى أو الحد منه بنجاح ملحوظ[٣٥] . إنه من غير المحتمل أن يحدث النمو السكانى فى حالة معاناة المجتمع منه فى المستقبل. ولنحدد الأمر بدقة أكثر، يغير أفراد المجتمع سلوكهم الديموغرافى فى ظرف جيلين عندما يصبح واضحًا لديهم ويلاحظون التغيرات حولهم فى احتمالات بقاء الأطفال الرضع على قيد الحياة ووصولهم لسن الرشد، وهكذا يصبح هذا التغير محبذًا لديهم. وقد ظهر حديثًا أن هذا بالفعل هو الوضع[٣٦] . ولكن الأدلة المتراكمة تسحب البساط من تحت أقدام نظريات مالتوس قديمًا وحديثًا سواء للأوروبيين أو غيرهم. إن المجادلة بأن النمو السكانى هو عملية أتوماتيكية بيولوجية تحدث سواء كان هناك طعام يكفى لسد أفواه إضافية أم لا تعد ببساطة خطأ[٣٧] .

عندما تراكمت الأدلة التى تثبت أن الأوروبيين القدماء استخدموا وسائل تنظيم النسل، قرر بعض الباحثين أن نماذج نظرية مالتوس القديمة لا تفسر الوضع فى

أوروبا. لقد كان حجم الأسرة صغيراً، كما استخدمت وسائل تنظيم النسل وما إلى ذلك في العصور الوسطى. أدى هذا إلى رفض نظرية تقليدية وهي فكرة أن هناك نموذجًا ما يمكن أن يطلق عليهم المجتمعات قبل الصناعية (أو مجتمعات تقليدية أو مجتمعات قروية) بها معدلات عالية لتعداد السكان والأسر الكبيرة إلخ)، ولذا وجدنا اتجاهًا مالتوسيًا نحو الزيادة السكانية. معظم المؤرخين اليوم يبدو أنهم ما زالوا مرتبطين بنظرية مالتوس ومازالوا يعتقدون أن تغير أوروبا الاجتماعي في العصور الوسطى كان في الأساس أو على الأقل جزئيًا قد ظهر نتيجة دورات الزيادة السكانية لدى مالتوس[٣٨] . ولكن يرفض بعض المؤرخين الآن وجهة النظر هذه حيث إنهم ينظرون إلى التعداد السكاني على أنه متغير تابع وليس متغيراً مستقلاً.

ولكنه في أوروبا فقط أخذت هذه النظرية الجديدة المضادة لنظرية مالتوس شكلاً جديداً لتفسير "المعجزة" الأوروبية. كان مؤكداً تاريخيًا أن الشعب الأوروبي تحكم في تعداد سكانه؛ فقد تمكن الأوروبيون من الاحتفاظ بفائض من الطعام والسلع والثروات المتراكمة وذلك بسبب وضع التعداد السكاني تحت السيطرة. كما قال المؤرخون أيضًا إن هذا النموذج كان نموذجًا أوروبيًا فريداً، وكان سببًا مهمًا مكّن الأوروبيين من تراكم الثروة وبالتالي أدى إلى التحديث والرأسمالية. أما غير الأوروبيين فقد استمروا في نموذجهم التقليدي غير الحديث بينما اكتسحت الزيادة السكانية كل ثمار التقدم. أغفل مؤرخو المركزية الأوربية هؤلاء - وبنفس أسلوب نظرية تاريخ النفق - أن مجال البحث الأكاديمي الجديد في الديموغرافيا وبعضه في الديموغرافيا التاريخية - وفي مناطق عديدة غير أوروبية من العالم من الهند إلى بربادوس - كان متجهًا لإسقاط مفاهيم نظرية مالتوس لأنها تنطبق على المناطق غير الأوروبية تمامًا كما كان الوضع منذ عقد من الزمان في مجال البحث الأكاديمي الأوروبي[٣٩] .

سنناقش أمرًا مرتبطًا بما سبق وهو النظريات عن تفرد الأسرة الأوروبية ولكن في آخر هذا الفصل. أما الآن فيكفي أن نقول ببساطة إن الادعاءات الديموغرافية التي

تدعم المعجزة الأوروبية تعد غير مقنعة نهائيًا. وهذا يعد صحيحًا بالنسبة للنظريات المبنية على الاعتقاد بقوى مالتوس الهدّامة وتلك التى تؤكد كيف أن الأوروبيين، منفردين، عرفوا كيفية تجنب تلك القوى.

البيئة

الحتمية البيئية: النظرية الداعية إلى أن البيئة الطبيعية تؤثر بقوة على الشىء وأن البشرية والتاريخ البشرى أصبحت لا تلقى شعبية الآن، ومع ذلك فما زالت تُستخدم بانتظام فى تفسيرات "المعجزة" الأوروبية. ولكن يجب أن نجرى تعديلاً على هذه النقطة، فالحتمية البيئية فى شكلها المستخدم فى تلك المجادلات اليوم هى "حتمية" فى نطاق محدود فقط. هى لا تدعى أن البيئة تفسر كل شىء أو أنها أهم عامل. فهى حتمية بمعنى أنها تعامل البيئة كسبب أو "عامل" بسيط ومنفصل غير متصل بالثقافة. أى أنها شىء خارج عن الثقافة ويؤثر فيها من الخارج. ونجد أن كل مؤرخ للمركزية الأوروبية يضيف واحدًا أو أكثر من المجادلات البيئية أو العوامل لهذه التوليفة التى تفسر تفوق أوروبا ككل. حتى المؤرخين الذين يريدون بناء مواقفهم على أسس اجتماعية أو سياسية أو فكرية فقط يتمكنون (أعرف استثناءات قليلة جدًا) من إضافة واحد أو أكثر من المجادلات البيئية داخل الإناء ليعطوه نكهةً أو قوامًا.

يمكن تصنيف المجادلات البيئية فى مجموعتين؛ الأولى: تحتوى على مجموعة من الادعاءات عن الصفات المتميزة للبيئة الأوروبية وكيف تساعد فى شرح نهضة أوربا. والثانية: تحتوى على المجادلات التى تناقش البيئات السيئة للمناطق الأخرى وكيف عرقلت التطور هناك. هذان النوعان من المجادلات - ربما ويا للغرابة - مختلفان جدًا من حيث الشكل. دعونا نبدأ بالثانية.

هناك نظريتان كلاسيكيتان عن البيئة تستخدمان دائمًا وحتى الآن وذلك لشرح التخلف (المزعوم) لأفريقيا وآسيا. النظرية الأولى ترى أن الأقاليم الاستوائية فى مرتبة أقل بطبيعتها من الأقاليم الباردة. تستخدم هذه النظرية فى الجزء الأكبر لاستبعاد أفريقيا. أما الثانية فترى أن شعوب الأقاليم القاحلة تعد محرومة من التقدم لأن الجفاف يتطلب الرى الذى بدوره ومع صفات أخرى للحياة فى وادى النهر الذى تم ريه يؤدى أيضًا بالضرورة إلى نوع من الحضارة يمكن اعتباره راكدًا تاريخيًا. وتستبعد هذه النظرية الحضارات الآسيوية بالإضافة إلى مصر. (معظم آسيا هو فى الحقيقة غير مجدب). سأناقش هاتين النظريتين وبطريقة أكثر اختصارًا قليلاً من التفسيرات البيئية لتخلف أفريقيا وآسيا.

أفريقيا الاستوائية الكريهة

تعد فكرة أن المناخات الاستوائية سيئة كما أنها تعيق سير الحضارة قدمًا قديمة جدًا فى الفكر الأوروبى(٤٠). انتشر استخدام هذا المفهوم خلال القرن التاسع عشر وذلك لتوضيح (الزعم) بأن أفريقيا بقيت غير متحضرة وبالتالى فمن الطبيعى أن تقبل التحكم الاستعمارى. كانت تلك واحدة من النظريات الجوهرية لنظرية الانتشار الكلاسيكية(٤١). كما كانت دائمًا مرتبطة بنظريات عن تفرد أوروبا والمعجزة الأوروبية هذا بالرغم من أن المؤرخين لم يعيروا فكرة الأسباب وراء عدم نهضة أفريقيا اهتمامًا يُذكَر. كان الأمر واضحًا فى حد ذاته وكانت الجهود مركزة على السؤال الأكثر أهمية: وهو لماذا لم تنهض آسيا (وشمال أفريقيا)؟. ومازالت نظرية المناخ الاستوائى السيئ تُستخدم فى مجادلات المؤرخين. على سبيل المثال، نجدها مهمة فى مجادلة چونز عن المعجزة الأوروبية. كما تعد مهمة أيضًا فى ميدان خاص وهو المناظرات بين المؤرخين عن العبودية الأفريقية، وتجارة العبيد ونظام الزراعة القائم على العبيد. وبالعكس، فإن الجغرافيين الذين لديهم معلومات عن البيئة الطبيعية قد احتدم الصراع بينهم وبين

نظريات الحتمية البيئية طويلاً ولم يتعاملوا مع نظرية المناخ الاستوائى السيئ بجدية[٤٢] .

تحتوى نظرية المناخ الاستوائى السيئ على ثلاث اتجاهات فرعية متمايزة. فالأول متعلق بزعم الأثر السيئ للمناخات الاستوائية الحارة الرطبة على العقل والجسم الإنسانى. أما الثانى فمتعلق بالمرتبة الثانية التى تحتلها المناخات الاستوائية من حيث إنتاج الغذاء. والثالث يتعلق بالزعم بانتشار الأمراض فى تلك الأقاليم. حتى الأربعينيات وما حولها كان هناك بعض الازدواجية بين الأوروبيين حيال أطروحة أن البشر لا يستطيعون العمل بكفاءة فى المناخ الاستوائى الرطب كما فى المناخات الأخرى. كان رأى الأغلبية هو أن الأفارقة يستطيعون العمل تحت الشمس الحارة وهو - تبرير مناسب للزراعة القائمة على العبيد - ولكن لا توجد لدى الأوروبيين القدرة نفسها وذلك بالرغم من وجود بعض مجادلات نظرية الانتشار المبنية على فكرة أن الظروف الاستوائية تبعث على الكسل، والخمول ... إلخ لدى الجميع. ولذا نبعت الحاجة للتحكم عن بعد من الحضارات ذات المناخ المعتدل. شيئًا فشيئًا أصبح من الواضح من خلال مصادر كثيرة من البراهين بما فيها الدراسات الفسيولوچية أن جسم الإنسان بكل ألوانه يستطيع العمل بكفاءة فى المناطق الاستوائية كما فى غيرها. هذا إذا ما أعطيت تلك الأجسام الوقت الكافى للتكيف مع تلك الظروف الاستوائية[٤٣] . بالإضافة إلى الزعم القائل بأن الناس فى الأقاليم الاستوائية الرطبة لا يستطيعون التفكير بنفس درجة الكفاءة لدى أولئك فى الأقاليم المعتدلة - الشمس الاستوائية "تسيح العقل[*]" - ذلك الزعم الذى قابله الأوروبيون باستحسان فى القرن الماضى وترابط مع بعض النظريات المعروفة عن تفوق الحضارة الأوروبية (على سبيل المثال لدى هنتنجتون وماركام) فى النصف الأول من القرن العشرين. ولكن قوبلت هذه النظرية

(*) تسيح العقل : تعبير مجازى يشير إلى حرارة الشمس الهائلة وتأثيرها على قدرة الجسم البشرى على العمل والتفكير .

الآن بالرفض لأنها غير مثبتة بالبراهين. إيريك جونز واحد من المؤرخين الأوروبيين المعاصرين الذين لا يعرفون أن نظرية "الطاقة المناخية" (كما كانت تُسمى قديمًا) قد تم دحضها.

إن جونز لا يقبل فقط بصحة هذه النظرية ولكنه يعطيها أهمية كبرى فهو يقول:

> **نشأت الحضارات وسقطت فى المناطق الدافئة لخطوط العرض منذ أزمان بعيدة وذلك بالرغم من أنها تظهر وكأنها تتحرك دومًا باتجاه الشمال أكثر وأكثر. إن تفسير ذلك كما تعرضه الدراسات السابقة يعد مناخيًا بالدرجة الأولى. (جيلفيلان ١٩٢٠؛ لامبرت ١٩٧١). فمن ناحية فهو يربط بين متوسط درجة الحرارة ومعدل إنتاج الطاقة البشرية، ومن ناحية أخرى يدعى أن الإنسان فى المناطق الدافئة كان عرضة للعدوى بالطفيليات، الأمرالذى أدى بهذه المجتمعات للوصول إلى حالة من التوقف عن النمو وبالتالى الركود[٤٤] .**

الجدير بالملاحظة هنا أن " الدراسات السابقة" لا تدعم أيًا من هذا. دائمًا ما ترفض الدراسات الأكاديمية نظرية "الطاقة المناخية" التى لم يُدافع عنها بجدية منذ الخمسينيات. تعتبر الحتمية المناخية ككل خطابًا منتهيًا. لم يحدث للحضارة أى "انتقال" (وقعت الحضارات القديمة على خط عرض ٤٥ من خط الاستواء). إن فكرة امتلاء الأقاليم الاستوائية بالطفيليات مما يؤدى إلى ركود الثقافة تعد فكرة خاطئة (ستسترعى هذه الفكرة اهتمامنا فيما بعد). إن اعتقاد جونز العام بأن المناخات الحارة هى مناخات تبعث على "الخمول والضعف" لا يحظى بدعم أكاديمى كبير. وبالتالى لا يدعم فكرة أن مناخ أوروبا قد أدى إلى المعجزه الأوروبية[٤٥] . ليس لدينا أى أساس كى نجادل بأن مناخات خطوط العرض المتوسط تعد أفضل من المناخات الاستوائية فيما يتعلق بالآثار النفسية والجسمانية على البشر.

ناقش فكرة فائدة البيئات الاستوائية فى القرن التاسع عشر الباحثون الأكاديميون الأوروبيون. جادل بعضهم بأن الأقاليم الاستوائية معشبة وغنية. ولكن استخدموا هذا المقترح ليس كأساس للتأكيد على إمكانية التطور الهائل ولكن العكس، وهو كيف أن البيئات الاستوائية كانت غنية لدرجة أنها لا تثير ما كان يمكن أن يطلق عليه أرنولد توينبى التحدى الكامن للإنسانية. ولذا لم يحدث التطور إلا تحت الوصاية الاستعمارية. سنتعامل مع هذه الأطروحة فيما بعد فى هذا الفصل. إن اهتمامنا هنا ينصب على الأطروحة المعاكسة تماماً. التى تؤكد ببساطة على أن البيئات الاستوائية مدقعة فى فقر إمكانياتها الزراعية، وهذا هو ما يمنع تلك الأقاليم من التطور. (إن مصطلح "الأقاليم الاستوائية " أو "الأقاليم الاستوائية الرطبة" يشير إلى الأقاليم التى لا يوجد بها فصل بارد وبها معدل سقوط أمطار متوسط إلى مرتفع بالتقريب ٧٥٠ ملم من الأمطار سنوياً. تقع معظم المناطق شبه الصحراوية الأفريقية داخل الأقاليم الاستوائية الرطبة. كذلك المناطق الجنوبية والجنوبية الشرقية من آسيا ومعظم جنوب ووسط أمريكا). وطبقًا لهذه الأطروحة، لا يمكن إنتاج الكثير من الطعام من قطعة أرض معينة فى هذه المناطق الاستوائية الرطبة.

من الصعوبة دعم هذه الأطروحة الآن – إنتاج زراعى قليل فى المناطق الاستوائية – بناء على الأدلة، حيث إن الكثافة السكانية فى المناطق الاستوائية الرطبة تتراوح ما بين منخفضة جداً (فى حوض نهر الأمازون على سبيل المثال) إلى مرتفعة (فى جاوا، وبنجلاديش، والسلفادور، وبربادوس، ورواندا وأقاليم أخرى كثيرة). تعتمد هذه المجادلة على نظرية عن طبيعة التربة فى المناطق الاستوائية. ولكى نضع الأمور فى نصابها، إن الدراسة العلمية لتربة المناطق الاستوائية تعد مجالاً بحثيًا جديداً جداً، حيث يوجد لدينا إسهامات قليلة ذات نتائج محدودة ترجع إلى ما قبل الحرب العالمية الثانية، هذا إذا ما استبعدنا الدراسات الخاصة عن التربة المستخدمة فى المحاصيل الزراعية وخاصة قصب السكر[٤٦] . إن المعلومات المهمة المتعلقة بإثبات أو عدم إثبات النظريات

التقليدية كان قد تم الحصول عليها عن طريق البحث فى عدد من المراكز البحثية فى نهاية الأربعينيات وما بعدها، ثم انتشرت شيئًا فشيئًا فى المجتمع الأكاديمى. والنتيجة هى أن بعض المؤرخين (من بينهم بعض الكتاب الحاليين عن "المعجزة") يستطيعون إلى الآن أن يستخدموا النظريات الرائعة عن الطبيعة السيئة المزعومة للتربة الاستوائية. دُحضت بعض هذه النظريات حديثًا وبعضها اقترب الآن من مرحلة الرفض والبعض الآخر مازال حصنًا منيعًا ولا يزال موجودًا فى مجال الدراسات الأكاديمية لأنه لم يُفند بعد. هذا يتطلب منا التعليق الفنى المختصر على هذه النظريات فى هذه النقطة من المناقشة.

إن النظرية التقليدية القديمة عن التربة الاستوائية تقول بأنه بسبب الحرارة المرتفعة والأمطار الوفيرة فى المناطق الاستوائية الرطبة لا تستطيع التربة أن تراكم الطبقة السطحية العضوية وذلك لتحلل المواد العضوية بسرعة التى تُصفّى سريعًا لتخلل مياه الأمطار فيها. ولذلك فالتربة الاستوائية تعد فقيرة من حيث العناصر الغذائية. كما أنها عرضة لعوامل التعرية القاسية؛ من ناحية بسبب انحدار الأرض فى المناطق الاستوائية، ومن ناحية أخرى بسبب هطول الأمطار بغزارة، الأمر الذى يؤثر على التربة مما يؤدى إلى تعرية السطح.

هاتان الفرضيتان الأساسيتان عن خصوبة التربة والتعرية كان قد تم التزاوج بينهما وبين فرضية ثقافية من خلال المجادلة القادمة. بسبب قلة الخصوبة وتعرض التربة الاستوائية للتعرية، يجب على المزارعين أن يمارسوا ما يعرف بـ "الانتقال الزراعى". (نظام زراعى يتم فيه تجهيز الحقل عن طريق إخلاء قطعة من الغابة بإحراقها ثم بعد مرور عام أو عامين من الزراعة، تُترك هذه الأرض ويتم الاتجاه إلى إخلاء قطعة أخرى وهكذا فى عملية مستمرة من الانتقال بين الحقول). إن النظرية التقليدية (كما قدمت قبل الخمسينيات وما حولها) تقدم سلسلة من التعميمات عن التأثيرات المجتمعة لتربة استوائية غير خصبة تعرضت لعوامل التعرية والزراعة

المتنقلة. رُغم أن المزارعين لا يستطيعون العودة إلى قطعة الأرض الأصلية بعد أن تركت بوراً لبعض الوقت وذلك لأن التربة فقيرة جداً مما يقلل من إمكانية تجددها وذلك لأن حرق قطعة الأرض يؤدى إلى تدمير التربة نهائيا. حتى فى البيئات الوفيرة التى يستطيع المزارعون العودة إليها وإعادة استخدامها، سنلاحظ أن الإنتاج يقل شيئًا فشيئًا مع استمرار مسلسل الزراعة والإخلاء والانتقال، وستصبح التربة فقيرة حتى تصل إلى مرحلة عدم صلاحيتها للاستخدام. كل هذا أدى إلى أن المجتمعات القروية لن يكون لديها القدرة على البقاء فى إقليم واحد دائمًا، وأن تلك القرى نفسها ستنتقل إلى أماكن أخرى كلما استخدمت مساحات كبيرة من الغابات ثم تترك للبحث عن مناطق بكر يمكن استصلاحها للزراعة. وبذلك تكون النتيجة مدمرة. سيوجد لدينا تجمعات سكانية متفرقة تعتمد على الترحال مع فرصة ضئيلة تكاد تكون معدومة لتطوير تجارة على نطاق واسع بين المدن والبلاد المستقرة.

عند هذا الحد تم إقحام تلك المجادلة على تاريخ وجغرافيا العالم. معظم المناطق الأفريقية شبه الصحراوية استوائية. ولذا يجب استخدام الزراعة المتنقلة وبذلك لن يكون هناك تطور. حتى لو أن حضارة ما تمكنت من الظهور، فإنها ستنهار عاجلاً أم آجلاً. (انهيار حضارة المايا الكلاسيكية ذات الأرض المنخفضة، كان دائمًا ما يستخدم كدليل على هذه النتيجة التاريخية ومازال يستخدمه إلى الآن بعض الباحثين).

وقد عدل هذا النموذج التقليدى للتربة الاستوائية والزراعة المتنقلة تدريجيًا كلما توفرت معلومات أكثر للباحثين فى مجال التربة والزراعة الاستوائية. بحلول الستينيات كان قد أصبح معروفًا للمجتمع المتخصص (بالرغم من أنه لم يكن كذلك بالنسبة لغالبية المؤرخين والعلماء الاجتماعيين) أن الزراعة المتنقلة لا تدمر التربة فى ظل ظروف طبيعية نموذجية ومنتشرة[٤٧] . لا ينقل المزارعون المعتمدون على الزراعة المتنقلة قراهم بسبب هلاك التربة. (أصبح معروفًا أن الزراعة المتنقلة انتشرت لقرون عدة فى أوروبا

وهناك لم يظهر أى ضرر منها على البيئة). ومن هنا ظهر فكر ثقافى آخر، وهو إذا كانت الكثافة السكانية منخفضة حتى إن المزارعين يستطيعون ترك الحقول لعدد من السنوات المحددة والمطلوبة كى تستطيع التربة أن تتجدد مرة أخرى، إذاً ستبقى الزراعة المتنقلة نظاماً زراعياً يحقق التوازن وبالتالى لن يكون هناك تدهور بيئى على المدى البعيد.

حتى هذا التعديل لن يغير من الحكم التاريخى على أفريقيا وبعض الأقاليم الاستوائية الأخرى: فلا يزال هناك من بين المؤرخين من لازال يعتقد أن أى حضارة تنهض فى مثل هذه المنطقة الاستوائية لا تستطيع أن تصل إلى أى درجة من الرقى فى ظل ظروف عادية، وذلك بسبب أن قلة عدد السكان من منتجى الغذاء لا يبدو أنها توفر الأساس لبناء حضارة مؤثرة، وما يترتب على هذا من وجود مراكز حضرية ومراكز دينية ودول وما شابه. (كما فى حالة حضارة المايا ذات الأرض المنخفضة يستمر بعض المؤرخين فى الزعم بأن الزراعة المتنقلة كانت السبب وراء تدمير أسباب البقاء لهذه الحضارة، بينما يدعى آخرون أن انهيار وهجرة مراكز ثقافية مثل تيكال(*) كان بسبب عمليات أخرى). على أية حال، إن سيادة وجهة نظر مالتوس عن الفلاحين أدت إلى الافتراض العام بأن التعداد السكانى قد ينمو خارج نطاق التحكم وأن أقاليم الزراعة المتنقلة الاستوائية قد لا تزدهر فى مناطق مثل أفريقيا.

إن النموذج بهذه الصورة مازال موجوداً بين المؤرخين، ويعد شائعاً فى أدبيات المعجزة الأوروبية، كأساس بيئى للادعاء بأن أفريقيا لا يمكن أن "تنهض" بنفس طريقة أوروبا. نجد هذا واضحاً فى أعمال بعض المؤرخين غير الأفارقة المتخصصين فى الشئون الإفريقية(٤٨).

(*) تيكال: مدينة قديمة كانت مركزاً ثقافياً فى حضارة المايا " جواتيمالا الحالية" .

لدينا الآن الدليل الذى يساعدنا على تفنيد تلك النظرية؛ القائمة على مفهوم أن التربة الاستوائية سيئة للزراعة ولذا فهى تعيق التقدم البشرى بأكملها. أولاً، نعرف الآن أن التربة الاستوائية ليست فى مرتبة أقل. فهى مختلفة بسبب المعدل المرتفع للعوامل الجوية والكيميائية تحت الظروف الاستوائية الرطبة. إنتاج التربة من الصخور التحتية يعد أسرع منه فى المناخات الباردة. ولذا تحتفظ التربة بخصوبتها بدرجة كبيرة من ذوبان المعادن وبدرجة أقل من تراكم المواد العضوية. تتجه عوامل التعرية لتكون أكثر خطورة ولكن قدرة التربة الاستوائية على التجدد سريعة. إن التربة الاستوائية التى تكونت على الصخور الغنية بالمعادن المغذية للنبات تعد خصبة للغاية. أما تلك التى تكونت على صخور غير غنية بالمواد المغذية تعد غير خصبه. لا يوجد أساس للمقارنة بين "المعدلات" الاستوائية والمعتدلة. فليست إحداهما أفضل من الأخرى، فهما مختلفتان.

لدينا أيضًا الدليل الذى يساعدنا على رفض الرأى القديم الخاص بالزراعة المتنقلة. حيث يمارسها المزارعون فى التربة الفقيرة مع اتخاذهم الحيطة فى وضع النيران تحت السيطرة. فهم يستعملون عددًا كبيرًا من التقنيات بما فيها من سماد حيوانى ونباتى لمساعدة الحياة النباتية الطبيعية على التجدد ولزيادة خصوبة التربة فى الحقول المزروعة. وعندما يكون هناك نقص فى الأرض يتم تقصير دورة الانتقال باستخدام تقنيات عديدة مثل الربوات، أو المصاطب مع استخدام العمالة الزائدة فى أعمال مثل إزالة الأعشاب الضارة واستعمال محاصيل مختلفة وغيرها الكثير[٤٩] . إن الارتباط بين الزراعة المتنقلة والكثافة السكانية المنخفضة يرجع لأسباب تاريخية وليست إيكولوچية. يعكس هذا فى الأمريكتين فى جزء منه نقصًا فى تعداد السكان فيما بعد كولومبس. (حوض الأمازون الذى يبلغ عدد سكانه اليوم حوالى مليون واحد لربما كان يبلغ سبعة أضعاف هذا الرقم فى ١٤٩٢)[٥٠] . وفى جزء آخر هو يعكس الحقيقة المُغفَلَة وهى أن المزارعين، فى معظم الأقاليم فى المزارع الأمريكية الاستوائية

الكبيرة للماشية، دُفعوا بعيداً عن الأرض الجيدة مما أعطى الفرصة لظهور إحصائيات تعكس كثافة سكانية منخفضة: لقد حلّت الماشية محل الناس[٥١] . حدثت العملية نفسها فى الأقاليم التى استقر فيها البيض فى أفريقيا الجنوبية. فى مناطق أخرى من أفريقيا الاستوائية يمارس معظم المزارعين أشكالاً من الزراعة يجب ألا توصف على أنها زراعة متنقلة فيما عدا الأقاليم الهامشية مثل جوانب الجبال، والأراضى شبه المقفرة[٥٢] . فهى عادة نظم زراعية مقيمة أو شبه مقيمة بما فيها من أشياء مثل روابى البطاطا الحلوة شبه الدائمة وزراعة محاصيل الأشجار أو الزراعة بالرى أو الزراعة المختلطة، أو أنها أنظمة تتجاوز فيها فترة الزراعة فترة البوار، كما يُحتفظ بالخصوبة فيها عن طريق عدة ممارسات مختلفة منها استخدام السماد الحيوانى والنباتى. ولكن التعميم الأكثر أهمية هو هذا البسيط: أينما وُجد تآكل التربة والجوع والزراعة الفقيرة فهذا يعكس أسباباً ثقافية فى التاريخ الحديث أو التاريخ الاستعمارى، وهو لا يعكس أوجه قصور دفينة فى الزراعة الاستوائية، كما أنه لا يعكس جهلاً تكنولوجياً من جانب المزارعين.

يستحضر بعض المؤرخين بعض النظريات المتنوعة عن احتمالية نقص إنتاج الغذاء فى المناطق الاستوائية الرطبة بوجه عام وأفريقيا بوجه خاص. يزعم بعضهم أن الأفارقة كانوا غير قادرين حتى على الزراعة فى الأقاليم الأفريقية الاستوائية الرطبة إلى أن اخترعت التكنولوچيا من قبل غير الأفارقة وانتشرت فى قارتهم. شكل من أشكال هذه المجادلة يزعم أن أعمال الحديد جُلبت إلى أفريقيا منذ أكثر من ٢٠٠٠ سنة بقليل، ربما عن طريق الرومان، وحينها فقط أصبح الأفارقة قادرين على معالجة الغابات الاستوائية[٥٣] . وحيث إن الزراعة المتنقلة قد مورست فى أوروبا القديمة بأدوات حجرية، وحيث إن أعمال الحديد ظهرت فى أفريقيا – ربما بعد اختراع مستقل – حوالى سنة ٨٠٠ قبل الميلاد أو قبلها، تعد هذه النظرية باطلة.

لدينا نظرية أكثر غرابة مبنية على حقيقة أن بعض المحاصيل الجنوبية الشرقية الآسيوية كانت قد انتشرت داخل شرق أفريقيا منذ ألفى سنة. يؤكد بعض المؤرخين على استحياء أن الأفارقة لم يستطيعوا الزراعة فى الغابات الاستوائية إلى أن تم تعديل لتلك المحاصيل الاستوائية على يد غير الأفارقة حتى تصبح صالحة للزراعة فى الغابات الأفريقية[٥٤] . من المعروف منذ فترة طويلة من الوقت أن الأفارقة قاموا بتعديل عدد كبير من المحاصيل للأقاليم الاستوائية الرطبة وبالتحديد أنواع متعددة من البطاطا الحلوة، التى تعتبر السلعة الغذائية الرئيسية هناك[٥٥] . تبدو هاتان الخرافتان لنظرية الانتشار وكأنهما مرتبطتان بمعتقد استعمارى مهم يعد مبررًا مهمًا لنظام التفرقة العنصرية فى جنوب أفريقيا. يعتبر المعتقد أن الثقافات الأفريقية المتطورة بجانب الزراعة، والتجارة والدول توسعت جنوبًا داخل القارة معتقد قديمٌ تاريخيًا، وذلك بسبب الطبيعة الوعرة للجانب الاستوائى من القارة الذى أخّر من التحرك باتجاه الجنوب. طبقًا لخرافة الفراغ هذه (انظر الفصل الأول) لم يتم الوصول إلى (معظم) جنوب أفريقيا فى حين أحكم الأوروبيون قبضتهم على هذا الإقليم، ويزعم مؤيدو فكرة التفوق الأبيض فى جنوب أفريقيا على أساس أسبقية البيض فى الوصول إلى هذا الإقليم بأن البيض لديهم الحقوق السياسية والاقتصادية لامتلاك أرض جنوب أفريقيا[٥٦] . فى الحقيقة توسعت الشعوب الزراعية فى أفريقيا منذ آلاف السنين، حيث أظهرت الحفريات الحديثة أن أقاليم الغابات المطيرة كانت قد استوطنها المزارعون من ثلاثة آلاف سنة على الأقل وعليه فإن البيض لم يصلوا أولاً إلى جنوب أفريقيا.

هناك تنويعة أخرى على خرافة الطبيعة الاستوائية السيئة كما تنطبق على أفريقيا. وهى المفهوم بأن تباين معدلات سقوط الأمطار فى أفريقيا الاستوائية مرتفع جدًا بصورة مدمرة، حتى إنه لم يكن من الممكن ممارسة الزراعة، فى أوقات معينة قبل الفترة الاستعمارية، بشكل مستقر، كما انتشرت المجاعات. ويؤدى هذا إلى مجموعة

متنوعة من المجادلات عن تخلف أفريقيا. ويرى بعض المؤرخين، (من بينهم فيليب كرتن) كان هناك توجه أساسى نحو الحراك السكانى والتجارة الداخلية للعبيد. بالنسبة لآخرين (أكثرهم جهراً بهذا جوزيف ميلر) كانت هناك وحشية وكذلك آكلو لحوم البشر[٥٧]. ينتمى هؤلاء المؤرخون لمن أطلق عليهم أصحاب "المدرسة المطلقة" فى تاريخ المركزية الأوروبية الأفريقى الذى يعفى الأوروبيين من معظم مسئولياتهم عن العبودية ومشاكل أفريقيا الحديثة، وذلك عن طريق إيجاد تفسيرات لمثل هذه الأمور داخل أفريقيا نفسها وغالباً ما تكون فى البيئة الأفريقية. يستخدم مؤرخو المعجزة الأوروبية تلك المجادلات بانتظام لأغراض مقارنة. فها هى حالة تغير معدل سقوط الأمطار التى تعد مشكلة خطيرة فى كل الأقاليم شبه القاحلة بما فيها نطاق الساحل جنوب الصحارى فى أفريقيا وأيضاً السهول العظمى فى وسط الولايات المتحدة ومنطقة الاستبس فى روسيا وهكذا. أفريقيا ليست فريدة. إن المناطق الأكثر رطوبة فى تلك القارة ليس لديها مشكلة خاصة من الاضطراب المناخى. إنها خرافة المؤرخين وهى تقليدية وقد تم إحياؤها من جديد بعد مجاعات السودان والساحل الحديثة. فالأخيره لم تعكس اتجاهاً لدى الإقليم للجفاف. وإنما عكست مشاكل إنسانية معظمها موروث من الفترة الاستعمارية التى أصبحت كوارث حينما كانت تمر دورات سقوط الأمطار بمراحلها الجافة[٥٨].

ينطبق نفس نوع المجادلات على أجزاء أخرى من المناطق الاستوائية. فى آسيا الجنوبية والجنوبية الشرقية نجد زراعة دائمة ومستقرة فى الأراضى ذات الخصوبة المرتفعة والزراعة المتنقلة وحتى محاصيل الأشجار نجدها فى الأراضى ذات الخصوبة المنخفضة. لقد شوهت تجربة الاستعمار خلال القرنين السابقين الصورة بعض الشيء حيث كانت هناك تحركات سكانية وزيادات سكانية عالية فى بعض المناطق، هذا بالإضافة إلى تشويه الأنظمة الزراعية نتيجة لنقص الأرض وضغوط غير بيئية

أخرى. ولكن لا يزال لدينا هذا التعميم بالنسبة للبيئة: وهـو أن الظـروف الاسـتوائية لا تعنى طاقات زراعية ضعيفة(٥٩) .

مـاذا عن النظرية المضادة وهى أن المناطق الاستوائية تعد خصبة ووفيرة؟ كانت هذه النظرية مقبولة على نطاق واسع حتى منتصف القرن التاسع عشر. كذلك هذه النتيجة الطبيعية: بما أن ثمار الأرض يمكن الحصول عليها بسهولة فى المناخات الاستوائية، فليس على البشر بذل الجهد للحصول على لقمة العيش، ولذا هم بالتالى لا يتقدمون. ونُسجت هذه المجادلة مع غيرها من النظريات المختلفة. وكان باكل هو الذى وضع مثل هذه النظرية(٦٠) . أما ماركس فقد وضع غيرها التى تعد أكثر إحكامًا فى حاشية فى الجزء الأول من رأس المال مؤكدًا بما لا يدع مجالاً للمناقشة أن الأقاليم الاستوائية لا تتطور باتجاه الرأسمالية وذلك لأن "الطبيعة هنا سخية ... فهى لا تفرض على الإنسان أى ضرورة لتطوير نفسه"(٦١) . يبدو أن هذا التعليق المختصر هو المناسبة الأولى التى وضح فيها ماركس السؤال لماذا لم تتطور الأقاليم الاستوائية الرطبة بما فيها أفريقيا مثلما فعلت أوروبا.

مازالت نظرية المناطق الاستوائية الوفيرة تستعمل حتى اليوم فى بعض النظريات التى تحاول أن تشرح النهضة الفريدة لأوروبا. أظن أن كل طفل أوروبى فى زماننا قد شاهد نسخة ما من الرسوم المتحركة التى تظهر السكان الأصليين جالسين تحت شجرة جوز الهند منتظرين بصبر سقوط الطعام فى أيديهم. إن هذا ليس أثرًا من أفكار الأوقات الغابرة أو نظرية ضمنية. يستخدم إيريك چونز نظرية المناطق الاستوائية الوفيرة فى المعجزة الأوروبية. (فى غرب أفريقيا "كانت الحياة سهلة"(٦٢)) كما يستخدمها چون هول(٦٣) . كما أنها تستخدم أحيانًا بواسطة الماركسيين الموافقين على خطاب ماركس فى تعليقه المقتبس سابقًا(٦٤) . ربما لا تكون هناك حاجة لشرح عدم قبول نظرية الأقاليم الاستوائية الوفيرة حيث قدم هذا – كما رأينا – مرارًا باحثون يصرون على فقر الأقاليم الاستوائية، فهى بالنسبة لهم سيئة وقاحلة. لا نرى معنى فى

الرأى الأول أو الثانى ولاحظ أن كليهما مستخدم لنفس الهدف: وهو إظهار أن الأقاليم الاستوائية تأتى فى مرتبة أقل تاريخيًا.

أخيرًا، نأتى إلى النظرية التى تدعى انتشار الأمراض فى البيئات الاستوائية مما يبطئ عملية التطور التاريخى أو يوقفها ويمنعها. لقد طور بعض المؤرخين هذه المجادلة بعد أخذ أفريقيا على وجه الخصوص بعين الاعتبار. أما الآخرون فيطبقونها على كل الأقاليم الاستوائية. بالنسبة لإيريك جونز إنها سبب أساسى وراء استمرار التخلف فى آسيا وأفريقيا بالمقارنة بأوروبا. فمثل نظرية الأقاليم الاستوائية السيئة التى نوقشت سابقًا تعد هذه النظرية تقليدية فى الفكر الأوروبى، وهى حقيقة مهمة جدًا كى يتسنى لنا فهم سبب استمرار هذه النظرية حتى الوقت الحالى واستخدامها فى نموذج المعجزة الأوروبية.

إحدى القواعد البديهية لنظرية الانتشار الكلاسيكية كما رأينا فى الفصل الأول هو فكرة أن الأمراض والأشياء الشريرة الأخرى عادة ما تنتشر بطريقة عكسية فى أوروبا من المناطق غير الأوروبية. ولذا افترض الكثير من الباحثين (فيما بينهم باكل على سبيل المثال) أن المناطق غير الأوروبية هى المصدر والموطن الطبيعى للعديد من الأمراض الأكثر خطورة(٦٥) . هذا المعتقد البديهى مازال قائمًا بيننا. إن الأوبئة من الموت الأسود وإلى الإيدز ما زالت تفترض - حيث إن هذا يعد دائمًا افتراضًا سواء دُعم بالدليل أم لا - أن تأتى من العالم غير الأوروبى(٦٦) .

لقد دعمت تقارير الرحالة الأوروبيين من الطبقة العليا عن المجتمعات القذرة خارج أوروبا التى تثير اشمئزازهم هذا المعتقد الأساسى خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وقد كانت هذه ظاهرة طبقية وثقافية معًا: تبدو طرق الحياة الغريبة بالضرورة غير صحية. ولكن اكتسبت هذه المعتقدات دعمًا كبيرًا خلال القرن التاسع عشر عندما نمت الثروة وعمليات التحديث فى أوروبا (أجزاء كبيرة منها) وأدت إلى تحسن كبير فى الظروف الصحية عكس تحسنًا كبيرًا فى الظروف المعيشية والصحة العامة وأخيرًا

التقدم فى الطب. ولذا بدت أوروبا على أنها معافاة صحيًا بعكس غيرها. ومازال هذا الخطأ منتشرًا. فالدول النامية فقيرة. حيث يأتى الفقر مع الصحة المعتلة. ولكن يُعتقد خطأ أن اعتلال الصحة ينبع من البيئات الطبيعية لتلك الأقاليم أو من ثقافات سكانها وليس من الفقر. حقًا انتشرت الأمراض فى الهند وأفريقيا والصين .. وغيرها فى هذه الفترة، ولكن أوروبا نفسها كانت مليئة بالأمراض منذ قرن أو أكثر (إنها حقيقة معروفة جزئيًا من خلال الحقائق الديموغرافية عن متوسط عمر الأوروبيين العاديين حتى القرن الثامن عشر).

فى نفس تلك الفترة كانت المناطق الاستعمارية تتوسع وبدا واضحًا أن الاوروبيين الذين يعيشون فى المستعمرات يمكن أن يقعوا فريسة أنواع مختلفة من الأمراض الغريبة عليهم. كانت الحالة الأكثر تطرفًا هى غرب أفريقيا التى كان يطلق عليها فى ذلك الوقت "مقبرة الرجل الأبيض". فهناك لم تتمتع المستوطنات الساحلية الصغيرة بالأمان – وهى المناطق الاستعمارية فى الأقاليم الأفريقية شبه الصحراوية حيث إنها لم تتوسع إلا فى نهاية القرن التاسع عشر – بالإضافة إلى الآثار الكبيرة لحركة العبيد (الكثير منهم فى هذه المستوطنات) حيث أنتج كل هذا ظروفًا غير صحية بالرغم من اعتقاد الأوروبيين أن مصدر المشكلة هو الطبيعة غير الصحية لأفريقيا نفسها.

معظم الأمراض المهمة التى تصيب البشر والحيوانات الأليفة ليست بالتحديد استوائية: الجدرى، التيفويد، الالتهاب الرئوى، الديفتريا، الحصبة، الطاعون الرملى، الجمرة الخبيثه وغيرها من الأمراض الأخرى التى توجد فى بيئات عديدة وتختلف شدتها من تعداد سكانى لآخر، تعكس ظروفًا إنسانية مثل الفقر والازدحام وما شابه أكثر من أى شىء آخر. يعد هذا صحيحًا إلى حد ما حتى مع ما يسمى "بالأمراض الاستوائية" مثل الملاريا (التى استخدمت فى الحقيقة لتجتاح مناطق خارج المنطقة الاستوائية بما فيها نيويورك). ترتبط بعض أشكال الملاريا بالمياه الراكدة ومن ثم بالزراعة بالرى فى نطاق واسع من المناخات. وترتبط أشكال أخرى بما فيها أكثرها

خطورة بظروف الغابات الاستوائية مثل البعوض الحامل للمرض الذى يتكاثر مع نمو نبات البروملايد على الأشجار. صحيحٌ أن تلك الأشكال من الملاريا ترتبط بالزراعة المتنقلة فى المناطق الاستوائية الرطبة على وجه الخصوص. ولكن يقضى المزارعون وقتًا قليلاً نسبيًا فى الغابة هذا إذا ما كانت هناك غابة حقًا. ثم إنهم يطورون نوعًا من المناعة لا تستطيع معه الملايا إفساد مجتماعتهم (كما تدمر مجتمعات الأجانب مثل التجار، والأفراد العاملين فى العسكرية الاستعمارية وهكذا).

بعد أخذ كل هذه الأمور بعين الاعتبار يبقى السؤال هو: هل هناك بعد هذا ما يمكن أن نسميه "الطبيعة غير الصحية للأقاليم الاستوائية"؟ ربما تكون الإجابة لا .

بالرغم من قبول هذا التعميم على نطاق واسع، نجد بعض المؤرخين متعلقين بضراوة بفكرة أن أفريقيا دائمًا وأبدًا هى مكان موبوء. يعتبر هذا سببًا للادعاء بهامشية دور أفريقيا فى تاريخ العالم أو على الأقل فى تاريخ العالم الحديث. طبقًا لوليم ماكنيل إن المرض "أكثر من أى شىء آخر هو السبب وراء بقاء أفريقيا متخلفة فى ركب الحضارة عند مقارنتها بمناطق أخرى معتدلة"[٦٧] . فى رأى المؤرخين أصحاب هذا الرأى – وعلى وجه الخصوص كرتن – إن غرب أفريقيا ووسطها المليئة بالأمراض فى القرن السادس عشر وما بعده هى الجزء المهم فى تفسير الحقائق، وكيف أصبح هذا الإقليم مصدرًا للعبيد فى الاقتصاد الزراعى الأطلنطى، وكيف بدلاً من أن "ينهض" مع نمو الاقتصاد الأطلنطى بقى متخلفًا. من الأهمية بمكان وضع هذه النظرية فى نصابها بالنسبة للمواجهة المذكورة فى بداية هذا الفصل بين المؤرخين الأوروبيين التقليديين ومدرسة العالم الثالث المراجِعة. يزعم الباحثون التقليديون (على الأقل أصحاب مدرسة المطلق) أن أفريقيا فى القرن السادس عشر كان تعداد سكانها قليلاً ومتنقلاً كما لم يكن متطورًا حضاريًا، بالإضافة إلى انتشار ممارسات مثل الإغارة على العبيد وتجارة العبيد كملامح مهمة لهذا المجتمع. لم تنهض أفريقيا فوق هذا المستوى المتدنى من الحضارة وذلك فى الأساس بسبب تفشى الأمراض التى

تصيب الإنسان والحيوان بجانب عوامل بيئية أخرى من النوع الذى نوقش سابقًا. ولذا فمن الطبيعى أن تصبح أفريقيا المصدر الأساسى للزراعة القائمة على العبيد ومن الطبيعى أيضًا أن تجارة العبيد لم تغير من واقع الحياة الأفريقية.

يذهب مؤرخو العالم الثالث إلى تفنيد كل ذلك. كان التعداد السكانى فى أفريقيا كثيفًا قبل تجارة العبيد التى قضت على القارة نهائيًا، مدمرةً دولاً وحضارات، ومتسببةً فى خلو الكثير من الأقاليم من السكان مؤدية بالتالى إلى تخلف مأساوى. عكست تجارة العبيد فى الأساس قوة أوروبا مقارنةً بالمجتمعات الأفريقية الساحلية فى القرن السابع عشر وما بعده وذلك كنتيجة للمزارع الأمريكية المربحة – كما سنناقش فى الفصل الرابع – وحقيقة أن دول غرب أفريقيا القوية عسكريًا وتجاريًا كانت معظمها واقعة على بعد مسافة من الساحل. ازداد المرض شراسة بسبب الدمار الذى سببته تجارة العبيد وهجر مناطق كبيرة كانت فى الأصل مزروعة (تحولت الآن لغابات وأشجار منخفضة) والحروب والانهيار الاقتصادى ... إلخ. مثال مهم على هذا الدمار متعلق بذبابة التسى تسى ومرض النوم الأفريقى. يدعى الباحثون التقليديون أن عدوى الإصابة بذبابة التسى تسى منعت الأفارقة من تطوير تربية الماشية قديمًا، وأسهمت فى كثير من الأحيان فى الركود التاريخى. والجواب أن مرض النوام مثل الجمرة هو مرض ينتقل عن طريق حامل ثديبى لهذا المرض. وأدت هجرة السكان إلى انتشار الأرض الخربة ومجموعات كثيرة من الحيوانات الثديية التى يمكن أن تحمل المرض. وهذا بدوره أدى إلى انتشار الظروف التى تنتعش فيها ذبابة التسى تسى. الأمر الذى أدى إلى تحول مرض النوم، من مرض متوطن يتعرض له الناس والماشية ولذا طوروا نوعًا من المناعة ضده وأصبح بالتالى تحت الملاحظة مع إعمار الأرض، إلى مرض فتاك منذ نهاية القرن الماضى، الأمر الذى عرقل تطور الزراعة فى بعض المناطق فى أفريقيا. هناك براهين كثيرة على أن التوسع فى مناطق الشجيرات أدى إلى التوسع فى الإصابة بعدوى ذبابة التسى تسى وبالتالى إلى بؤس اجتماعى واقتصادى[٦٨] . هناك

دليل ضعيف خلاف هذا عن تاريخ الظروف الصحية فى أفريقيا وفيما بين الأفارقة (وليس الزوار المستعمرين)، وهناك العديد من الأسباب التى تدفعنا للشك فى انحيازات الافتراضات الموروثة لنظرية الانتشار فى هذا الأمر. على أية حال لا يمكن القول بأن المرض كان هو القوة المستقلة التى "عرقلت" التطور فى المناطق الأفريقية شبه الصحراوية.

آسيا المجدبة المستبدة

تعتبر آسيا منطقة كبيرة ذات تنوع شديد فى بيئاتها. هناك قائمة طويلة ومتنوعة من المجادلات البيئية التقليدية التى تختص فى أغلبها بجزء واحد من آسيا ولا تنطبق على أجزاء أخرى. ساد فى القرن التاسع عشر شكل دينى للحتمية البيئية فى الجغرافيا، وبدا معقولاً استحضار تفسير واحد لكل هذه التنويعات: وهو أن الله وضع معوقات طبيعية مختلفة فى طريق الشعوب الآسيوية المختلفة، الحرارة فى مكان، البرودة فى آخر والجفاف فى ثالث. نجد اليوم من الشائع بين المؤرخين الكتابة عن "المعجزة الأوروبية" ليس على أنها قائمة لعيوب آسيا البيئية ولكن على أنها مجموعة من الأحكام المقارنة المنفصلة كل منها مرتكز على أوروبا، وكل منها يعود إلى فترة محددة فى التاريخ الأوروبى. إن أوروبا أو جزءاً من أوروبا فى وقت معين كانت متفوقة على كل آسيا فى الصفات البيئية "أ" و"ب" و"ج". أو بطريقة أكثر تمثيلاً لمثل هذا النوع من المجادلات، نجد معوقات بيئية فى إقليم آسيوى ما، ومعوقات سياسية فى آخر ومعوقات دينية فى إقليم ثالث وهكذا فى نوع من المجادلة الشاملة.

لهذه الأسباب لن أراجع كل النظريات البيئية المختصة بالزعم بتخلف آسيا مقارنة بأوروبا. سأتعامل مع الأحكام المقارنة عن المناخ وأشكال الأرض وغيرها واحدة تلو الأخرى فى الجزء المقبل من هذا الفصل ("أوروبا المعتدلة").

ولكن على أية حال يوجد هناك نظرية واحدة مترابطة يكثر استخدامها اليوم كما كان الحال فى القرن الماضى وهى التى تتعامل مع آسيا ككل من خلال حكم كلى وجارف بالدونية. اتخذت هذه النظرية أشكالاً متنوعة عُرفت بأسماء مختلفة من بينها "أسلوب الإنتاج الآسيوى"و "المجتمع الهيدروليكى" و"الاستبداد الشرقى". عادة لا ينظر إلى هذه النظرية على أنها مثال للحتمية البيئية حيث إنها تبدأ مجادلتها بالتكنولوچيا مدعية أن المجتمعات المبنية على الرى ("الهيدروليكية") لديها صفات محددة ومميزة تعيق التطور التاريخى. ولكن أحد جذور تلك المجادلة بيئى. إنه الزعم أن الجدب فى آسيا جعل الرى ضرورياً. ولذا فربما نتساءل كيف يمكن لنظرية من هذا النوع أن تطبق على مناطق ليست مجدبة على الإطلاق فى آسيا. (يُستدعى هذا كتفسير للستالينية فى روسيا الباردة الرطبة[٦٩])، لنفهم هذا التناقض ولنفهم بالتالى لماذا تعد هذه النظرية واهية فى كل أشكالها وتنويعاتها، يجب أن نلقى نظرة على تاريخ المعتقد باختصار.

اتجه الكتاب الأوروبيون فى نصف الألفية الماضى للنظر إلى آسيا كمجتمع لا تتوافر فيه القدرة على التغيير كما أن شعوبه مقيدة. سنذهب بعيداً إذا ما بحثنا فى تطور هذا المعتقد، ولكن مع القرن الثامن عشر أصبح هذا الرأى جزءاً مهماً من نظرية الانتشار[٧٠] . قُبل هذا المعتقد على أنه حقيقة بديهية نادراً ما يتم التساؤل بشأنها وبذلت الجهود لتفسير هذا "الاستبداد الشرقى" الذاتى كما أطلق عليه فى جوانب عديدة من الدين، و العرق، والبيئة. يبدو أن هذا المعتقد طبق فى الأساس على الإمبراطورية العثمانية التى كانت تشكل تهديداً سياسياً وعسكرياً لبعض المجتمعات الأوروبية فى تلك الفترة، كما كانت تشكل تهديداً تجارياً لغيرها، وقد أسبغ اتساع الاستعمار الأوروبى المباشر فى الهند وجنوب شرق آسيا فى نهاية القرن الثامن عشر مهاماً جديدة لهذا المبدأ . لم يكن مفهوم الاستبداد الشرقى مفيداً كمبرر ومسوغ للتوسع الاستعمارى فقط، ولكنه أصبح الأساس لمبادئ قانونية استعمارية كانت

تُصطنع فى ذلك الوقت. وقد اتخذ قرار فى آسيا بمنع الملكية الخاصة للأرض وذلك بسبب امتلاك الحاكم الاستبدادى لكل شىء. ولذا حينما نعزل نحن الأوروبيين الحاكم، فنحن نملك كل شىء. وحينما نستولى على دولة مستبدة فإننا نكتسب حقوق الحكم الاستبدادى على أناس كانوا فى الأساس غير أحرار. (ولكن الحكم الأوروبى - بالرغم من عدم وجود ديمقراطية فى المستعمرات الاستبدادية - كان يوصف على أنه واهب "للحرية").

غالبًا ما ارتبط الشكل الحديث للاستبداد الشرقى "بالشرق" الإنجيلى. حينما كانت المجتمعات الآسيوية توصف "بالركود" وبدا من العدل التأكيد على أنهم احتفظوا بشخصيتهم كما فى العهد القديم (نتذكر العهد القديم الذى تحدث عن وجود مدن عظيمة وإمبراطوريات وزراعة ... إلخ). بينما كان ضروريًا تفسير عجائب حديثة مثل تاج محل ودول آسيا الحديثة، لم يكن صعبًا النظر إليها على أنها تقدم بسيط على الحضارة الإنجيلية الأصلية وإيجاد تفسيرات ثانوية للحقيقة الواضحة أن الحضارات الآسيوية تطورت نوعًا ما ولكنها توقفت عن هذا التطور منذ وقت بعيد وبالتالى بقيت إنجليلية وراكدة[٧١] .

أظن أنه من المحتمل أن العلاقة الجغرافية بين الجدب "والشرق" تعود فى جانب منها إلى الصور التى قدمها الإنجيل للأقاليم المجدبة مثل بلاد ما بين النهرين ومصر. وفى جانب آخر لا شك فيه من حقيقة أنه منذ بدايات أوروبا الحديثة وحتى منتصف القرن الثامن عشر ساد الاعتقاد بأن "الشرق" هو أقاليم غرب آسيا الجافة والعالم العثمانى والإقليم الإيرانى الداخلى فى آسيا. وذلك لأن الشرق الأقصى من الهند لليابان كان لا يزال بعيداً عن الاهتمام الأوروبى. وعلى أية حال فإن الجغرافيين فى أوائل القرن التاسع عشر من أمثال كارل ريتر كانوا يصفون نوعًا معينًا من النظام الجغرافى الثقافى وهو ذلك المرتبط بالحضارات الآسيوية فى أودية الأنهار العظمى فى آسيا المجدبة وشمال شرق أفريقيا وبالتحديد النيل ودجلة والفرات والإندو، وأودية

أصغر لها نفس السمة ويسبغون الصفات الآسيوية التقليدية الاستبدادية على الأقاليم من هذا النوع. ويبدا أنهم قد وسعوا هذا النموذج نوعًا ما ليشمل أودية الأنهار فى أكثر المناطق رطوبة فى آسيا من خلال قفزة منطقية من فكرة حضارات وادى النهر المعتمد على الرى فى الأقاليم المجدبة إلى حضارات وادى النهر المعتمد على الرى فى آسيا ككل.

لقد كان الارتباط بين الاستبداد الشرقى وحضارات وادى النهر من مصر إلى الصين شائعًا فى القرن التاسع عشر[٧٢] . أخذ ماركس وإنجلز بيد هذه الفكرة خطوة محددة قدمًا وذلك من خلال تقديم نظرية تأسست فيها فكرة الاستبداد الشرقى على افتراضات عن الجدب والرى[٧٣] . قام ماركس وإنجلز فى خمسينيات القرن السابع عشر وللمرة الأولى بمواجهة السؤال عن كيفية تطبيق نظريتهما الأساسية عن التطور التاريخى على نطاق العالم. ويجب أن يقال أولاً إنهما ربما كانا أكثر المفكرين الأوروبيين شكًا بالنسبة لزمانهما فيما يتعلق بكل النظريات الاجتماعية التقليدية والمتعلقة بطبقة الصفوة (كما أصرا) التى كانت سائدة حينذاك. ولكن كان لشكهم حدود حتمية حيث إنهما كانا نتاج التعليم الألمانى الراقى، وحيث إنهما لم يعرفا شيئًا عن العالم خارج أوروبا بخلاف ما عرفوه من خلال الصحافة والكتب والأوراق الرسمية التى تقدم وجهة النظر الاستعمارية بكل تحيزاتها. وبالتالى لم يتساءل ماركس وإنجلز بجدية بشأن المبدأ السائد حينذاك بأن الشرق كان استبداديًا وقد كان لدرجة ما راكدًا تاريخيًا وغير متقدم. ولكن شكهم فى النظرية الاجتماعية الأوروبية بأسسها الطبقية حصنتهم ضد التفسيرات المعتادة باستبداد وركود آسيا. لم يكن الآسيويون أقل رشدًا من الأوروبيين أو أقل رغبة فى الكفاح ضد الاستغلال الاقتصادى. أدى هذا التفكير بماركس وإنجلز أن يظنا أن سبب الاستبداد وعدم التقدم الآسيوى لم يكن المجتمع الإنسانى ولكن البيئة الطبيعية. فى آسيا لم يؤد التطور الاجتماعى إلى الملكية الفردية

للأرض: امتلك الحاكم الأرض باستبداد، فيما عدا الأوقاف التى كانت ملكية مشتركة. ولذا نجد إنجلز يقول:

> **إن غياب ملكية الأرض يعد بحق مفتاح الشرق كله. فهنا يكمن تاريخه السياسي والديني. ولكن كيف حدث أن الشرقيين لم يصلوا إلى ملكية الأرض حتى فى شكلها الإقطاعى؟ أعتقد أن هذا فى الأساس راجع إلى المناخ مع ارتباطه بطبيعة التربة، خاصة مع المساحات الصحراوية التى تمتد من الصحراء فى المنطقة العربية والإيرانية والهند وتارتارى وحتى أعلى سهول آسيا. الرى الاصطناعى هنا هو الشرط الأول للزراعة ... لم يكن فى الحكومة الشرقية أكثر من ثلاث إدارات: الاقتصاد (سلب داخلى)، الحرب (سلب داخلى وخارجى) والأعمال العامة[٧٤] .**

قدمت هذه النظرية بشكل مبدئى بواسطة ماركس وإنجلز وتم تعديلها فى كتابات لاحقة حيث يظهر رفض إنجلز لها كلية فى كتاباته الأخيرة[٧٥] . وما نهتم به حقًا هو حقيقة استمرار تأثير المكون البيئى اليوم حتى مع وضوح خطأ ماركس وإنجلز فى مفهومهما عن جدب آسيا. ومع ذلك كان لهذه النظرية أثرٌ على المناقشات الماركسية الحديثة عن نهضة الرأسمالية فى أوروبا، والادعاء بعدم نهضتها فى آسيا[٧٦] . والأكثر أهمية هو إدخال هذا الفكر فى النسيج العام لأدب المعجزة الأوروبية فى تحول فكرى مثير للإعجاب.

وربما اعتبر كل من ماكس ڤيبر فى بداية هذا القرن وكارل ڤيتفوجل فى منتصفه نموذجين مهمين فى تحويل هذا المبدأ العتيق إلى مجادلة بيئية حديثة للمعجزة الأوروبية. لم يكن لدى ڤيبر الكثير ليقوله عن البيئة الطبيعية فى حد ذاتها. معتمداً على بعض الأفكار البحثية المتنوعة التى كانت متداولة فى بداية القرن فى أوروبا بما فيها

الأفكار الماركسية، ادعى ڤيبر أن تطور الملكية الفردية فى العصور الأوروبية القديمة والعصور الوسطى كان بحق أحد الملامح الأساسية للتطور باتجاه الرأسمالية. أكد كذلك أن ما رآه على أنه الاختلاف الأساسى بين نهضة الملكية الإقطاعية (النظام الاجتماعى الاقتصادى فى العصور الوسطى وأوائل الفترة الحديثة) والذى كان قريبا من ومتجهًا إلى الملكية الفردية الكاملة، وبين شكل آخر مضاد ربطه بحضارات وادى الأنهار الآسيوية (ومصر القديمة). رأى أن هذا الشكل الاجتماعى يرتبطُ ارتباطًا وثيقًا بالحاجة للرى فى تلك البيئات وبالتالى مرتبط بطريقة استدلالية بالبيئة. كانت تلك المجتمعات ، كما قال، استبدادية، كما لم تكن الأرض كاملة فى أيدى المسئولين، بل معارَة لهم عن طريق انتفاع ملكية مؤقت مقابل الخدمة كوسيلة لتوفير دخلاً ماديًا من خلال الإيجار ورجال للتجنيد العسكرى الإجبارى وهكذا. تطلب الرى تخصيص عمالة جماعية تحت الحكم الاستبدادى وذلك للقيام بأعمال المياه وصيانة القنوات. أما فى غابات أوروبا فلم تكن هناك حاجة لمثل هذا الحكم الاستبدادى على الفلاحين(٧٧) .

ولذا أصبح صغار الملاك من المزارعين والأفراد فى اليونان وفى أى مكان آخر فى أوروبا علامة مميزة للمجتمع الريفى. وبدلاً من أن تصبح المدن مقرًا للقوة الاستبدادية أصبحت بحق مدنية. ولذا وبشكل عام كان هناك مسار غربى خاص باتجاه المدنية الحديثة والمجتمع الرأسمالى:

> **كان العامل الأساسى الذى أدى إلى اختلاف تطور الشرق الأدنى عنه فى (اليونان) هو الحاجة إلى نظم رى. ونتيجة لذلك أصبحت المدن مرتبطة ببعضها عن طريق بناء القنوات والتنظيم المستمر للمياه والأنهار وتطلب كل هذا وجود البيروقراطية الموحدة. كانت هناك شخصية واحدة لا غنى عنها للتطور وارتبطت بها عملية تسخير الفرد. فى اليونان على الجانب الآخر**

انهار وضع الملكية وبدأت عملية التطور التى انتهت بوجود جيش من المزارعين صغار الملاك الذين وفروا أسلحتهم بأنفسهم، وبالتالى انتقلت القوة السياسية بالضرورة لتلك الطبقة، وبذلك بدأت حضارة مدنية فى الظهور ميزت المجتمع اليونانى وتسببت فى اختلاف التطور الرأسمالى فى اليونان عنه فى الشرق الأدنى(٧٨) .

أصبح منهج ڤيبر فى التمييز ما بين المجتمعات الشرقية والغربية أحد الادعاءات الأساسية لنظرية المعجزة كما قُدمت فى وقتنا. ولكن ڤيبر عند بنائه هذا الصرح الفكرى أغفل موضوعًا مهمًا فى مكانه، وهو لماذا اكتسبت المجتمعات المعتمدة على الرى تلك الصفات الخاصة بها وهى الاستبداد والركود، والأكثر من ذلك فقدان الملكية الفردية والتطور المدنى الكامل وهكذا. قُدمت هذه الإضافة الفنية والبيئية المهمة للنظرية فى ١٩٥٥ على يد كارل ويتفوجل فى كتابه الاستبداد الشرقى.

بدأ ويتفوجل وهو ماركسى سابق مجادلته بالافتراض الماركسى الذى ناقشناه سابقًا محاولاً توضيح أن المجتمعات القائمة على الرى "المجتمعات الهيدروليكية" كما أسماها تعد استبدادية بالضرورة ولديها الصفات الاجتماعية والسياسية التى ربطها الكتاب الأوائل بالاستبدادية الشرقية. وينطبق نفس الشىء على المجتمعات التى اكتسبت صفات المجتمعات الهيدروليكية عن طريق الانتشار. (ولذا فطبقًا لويتفوجل أصبحت روسيا السوفيتية غير الهيدروليكية استبدادية). اتبع ويتفوجل المنهج البيئى ولكنه كان على قدر أكبر من المعرفة بالجغرافيا الطبيعية من ماركس وڤيبر ومع ذلك يعد هذا القدر ساذجًا إلى حد كبير. اعتقد ويتفوجل أن رى قطعة من الأرض يزيد بالتأكيد من إنتاجيتها. وتختار بعض المجتمعات أن تتبنى الزراعة القائمة على الرى وبهذا أصبحت أودية الأنهار الكبرى فى آسيا مأهولة بالسكان. ولكن طبقًا لويتفوجل يتطلب الرى أعمالاً مائية عمومية لإقامة وصيانة القنوات وبالتالى يتطلب هذا هيكلاً

سياسيًا قائمًا على نظام الأمر – ويقول إن هذا هو أصل الدولة كشكل سياسى – ويتولى هذا الهيكل التنظيمى التحكم فى توزيع المياه.

لذا تعد المجتمعات الهيدروليكية استبدادية بالضرورة. هناك عدد من المغالطات فى هذه المجادلة كما أوضح العديد من الباحثين. ثلاث من هذه المغالطات تتعلق بالافتراض البيئى وهى فكرة أن الرى بالضرورة يزيد الإنتاج زيادة هائلة وبالتالى يؤدى إلى تطور تركيب اجتماعى طبقى معقد وإلى تكون الدولة وهكذا. المغالطة الأولى: يزيد الرى من الإنتاج بوفرة فقط عندما يكون العامل البيئى الذى يعيق زيادة إنتاج المحصول هو نقص المياه. ولكن غالبًا – فى آسيا كما فى غيرها – ليست تلك هى الحالة. وهذا يعنى أن تطوير نظم رى كبيرة لا يعد هو الاستجابة الطبيعية للبيئة. بالأحرى يستطيع نظام رى على نطاق صغير فى وادى نهر ما أن يأخذ شكل نظامٍ كبير، ويحدث هذا كأثر وليس سببًا للتفرقة الاجتماعية والسياسية. الضغط لتسليم الفائض يدفع بالعملية، ويوسع شبكة الرى ويؤدى منطقيًا لتفرقة كبيرة. وبطريقة أخرى، يسبق نظم الرى الكبيرة أو يفسرها الاستبداد القائم أو التعقيد الاجتماعى وليس فرض الظرف البيئى. (يجادل ويتفوجل فى الاتجاه المعاكس: الحاجة للرى فى إقليم جاف تؤدى بالمجتمع أن يطور هياكل آمرة وقهرية وذلك حتى يتسنى له إدارة نظام الرى، وبالتالى يؤدى إلى الاضطهاد الطبقى والدولة والحضارات الشرقية الاستبدادية). التعميم البيئى هنا هو الارتباط بين إنتاج الأرض وتعداد وكثافة السكان التى تعد أساس تطوير الهياكل الهرمية الاجتماعية وأشياء مثل المراكز الاحتفالية الدينية والدول. لكن لا يملك الرى عصا سحرية لجعل الأرض منتجة. فبعض الأراضى منتجة بدونه. ففى حالات بلاد بين النهرين ونهر النيل نحن لا نعرف ما إذا كانت الطبقات الحاكمة قد أجبرت الزيادة فى الإنتاج مما أدى إلى وجود نظم رى كبيرة أو أن العملية سارت بالاتجاه العكسى. المغالطة الثانية هى الاعتقاد أن رى أودية الأنهار الجافة رفع من معدل إنتاجية تلك الأودية بصورة كبيرة. أتاح الرى فرصة أن تمارس

الزراعة فى أراضٍ صحراوية، ولكن كان هناك عجز فى إمداد المياه كما نعرف القليل جداً عن عائد المحصول. أما ما نعرفه فهو أن الإنتاجية العالية والكيانات المجتمعية الكبيرة (فيما يتعلق بتعداد وكثافة السكان) وُجدت فى الأقاليم الرطبة وخصوصًا الأقاليم التى تزرع الأرز حيث لم تكن هناك ضرورة لوجود نظم الرى متطورة للزراعة (وفى بعض الأحيان كانت مياه الأمطار وحدها تملأ الحقول كما فى سهل نهر إيراوادى وجزء من شمال لوزون). المغالطة الثالثة: هناك سبب جيد للاعتقاد أن بعض الحضارات القديمة قامت ليس على الرى، ولكن على مياه الصرف، وهو عمل بيئى لا يتطلب عادة أعمال مائية على نطاق واسع. سبقت نظم مياه الصرف نظم الرى فى الحضارة الميزوأمريكية الأولى. من الممكن أن نظم الرى الأولى فى النصف الشرقى من الكرة الأرضية فى أماكن مثل النيل ودجلة والفرات والإندو والواى والأصفر والنيچر ... إلخ، كانت فى الأساس نظم صرف تفتح المجال لأقاليم مستنقعات نهرية وربما تكون قد طورت حكومات قبل أن تصبح المجتمعات ملتزمة بإقامة أعمال هندسية كبيرة وبالتالى تصبح "هيدروليكية"[٧٩] .

تعد أفكار مجادلة ويتفوجل البيئية من الأهمية بمكان فى وقتنا الراهن حيث تحيى الأفكار القديمة لماركس وإنجلز عن الجدب والرى والاستبداد والركود وذلك لمقارنتها بمجادلات ڤيبر عن الاستبداد الشرقى، وهى بهذا تعتبر الأساس لمؤرخى المعجزة الأوروبية اليوم بالرغم من قيام الكثير منهم بإجراء تعديلات مهمة عليها. المفهوم الأساسى هو فكرة النظر - سواء بصورة واضحة أو ضمنية - إلى المجتمع الهيدروليكى على أنه نتاج طبيعى لأودية الأنهار المجدبة فى آسيا (والنيل). تقود طريقة التفكير هذه إلى مجادلات نظرية "المعجزة" فى كتابات مؤرخين مثل إيريك چونز ومايكل مان وچون هول التى تتطلب منا وقفة متأنية.

يؤكد إيريك چونز فى المعجزة الأوروبية على ما يعتقد أنه الفرق الأساسى بين المجتمعات الزراعية القائمة على مياه الأمطار فى أوروبا، ومجتمعات الرى فى آسيا.

يقول إن ويتفوجل كان محقًا. لقد عانت مجتمعات الري "التبعات السياسية لمجتمع به جموع كبيرة من الفلاحين المُسيطر عليهم":

> **استطاع المجتمع الزراعي الأوروبي أن يتجنب تاريخًا مماثلاً من المذهب السلطوي - نوع من الطفولية السياسية - بفضل بيئه منتجة من أرض الغابات وزراعة قائمة على مياه الأمطار(٨٠) .**

يضيف چونز إلى هذا كله نظريته بأن المزارعين الذين يعملون في مياه راكدة دافئة يصبحون عرضة للأمراض وهي مغالطة كما رأينا سابقًا تخلط ما بين تبعات الفقر وتبعات المواقع البيئية.

وسنتناول بعد قليل القصة الخيالية (لأنها كذلك) التي تربط بين التبعات الاجتماعية الرائعة و"الزراعة القائمة على مياه الأمطار". ولكن علينا هنا أن نلاحظ أن كل الآثار الرهيبة المزعومة من قبل چونز - مثل ويتفوجل قبله - عن المجتمعات القائمة على الري هي في الحقيقة الصفات الطبيعية للمجتمع الطبقي القديم والحضارة القديمة. أي أنه عندما ظهرت تلك الحضارات فإننا نجد - كجزء من العملية - نقصًا في حرية الفلاحين وتجنيد أعداد هائلة من الناس لأغراض مختلفة وهكذا. الصورة الرومانسية للفلاحين الأحرار هي صورة مستوحاة من أوقات ما قبل العبودية وما قبل نظام الإقطاع. بعد الاستعمار الفرنسي الروماني قُيدت حرية الفلاحين الأوروبيين مثلهم مثل أي فلاحين في أودية الأنهار الآسيوية أو أي مكان آخر. وبالطبع كانت الزراعة القائمة على مياه الأمطار بجانب تخوم الغابات كانت من خصائص مناطق كثيرة في آسيا.

يريد چون هول في كتابه " القوى والحريات: الأسباب والنتائج لنهضة الغرب" أن يبعد نفسه عن "وهم" ويتفوجل (كما يسميه) عن الفطرة الاستبدادية للمجتمع الشرقي.

ثم يدمج بدقة جزءًا جيدًا من نظرية ويتفوجل داخل تركيبته عن أسباب "المعجزة" الأوروبية. يحاول هول - مثله مثل معظم مؤرخي المعجزة - أن يستخدم أوسع مجال ممكن من المجادلات التقليدية للمعجزة ثم يدفع مجادلات بعينها قدمًا بزعم أنها الأكثر أهمية. فهو يظن أن القوى السياسية وقوى مالتوس الديموغرافية هي الأكثر أهمية، بالرغم من أنه يرى مفهوم ڤيبر عن "الرشد" الأوروبي عاملاً أكثر عمقًا. لا يقبل هول بالصيغة التي تقود إلى تعميم الاستبداد على كل الدول الشرقية. لا، فقد كانت كما يقول تعسفية وقاسية وغير راغبة وغير قادرة على تشجيع التقدم الاقتصادي، وأدت إلى ركود المجتمع الشرقي (أو أنها كانت تسير في حلقات مكررة) ولكنها لم تكن استبدادية. وهو بهذا يعني أن الدول الشرقية لم تكن قوية على الرغم مما كان يظهر على السطح. سنرى فيما بعد كيف يقول أن الدول الأوروبية في العصور الوسطى كان لديها نوع من القوة الداخلية كصفة عضوية، مع تغير تقدمي صيغت ملامحه في العصور الوسطى. ولذا طبقًا لهول كان هناك استبداد شرقي ولكن كان المستبدون ضعفاء[٨١] . يقدم هول الري بعد ذلك على أنه عامل آخر مستقل:

> **(في أوروبا) لم تكن هناك حاجة للري، فمن المحتمل أن يكون قد شجع هذا أو على الأقل سمح لحضارة زراعية غير مركزية قائمة على المبادرة الفردية[٨٢] .**

ولذا "فالحاجة" إلى الري في آسيا كانت حاجة بيئية. ومن ثم نخلص إلى النتيجة وهي معادلة ويتفوجل القديمة بأن الري يساوي الاستبداد (على عكس "المبادرة الفردية"). ثم ينتقل هول إلى عوامل أخرى في قائمته الطويلة.

مايكل مان هو مُنظِّر معاصر آخر من مُنظِّري "المعجزة الأوروبية" وهو أيضًا لديه قائمة طويلة بالعوامل التي يظن أنها أسهمت في المعجزة[٨٣] . فهو يتجه إلى التأكيد على أهمية القوة السياسية وخاصة القوة العسكرية لدى أوروبا القديمة. يبذل مان جهدًا كبيرًا لإبعاد نفسه عن ويتفوجل ولكنه في النهاية يُضمن معظم نموذج ويتفوجل

– ربما يجب أن أسميه نموذج ماركس – ڤيبر – ويتفوجل – فى نظريته. مثل ماركس وڤيبر وويتفوجل وچونز وهول هو يقبل تشخيص المجتمعات الشرقية القديمة (من مصر إلى الصين) على أنها مقيدة وغير متطورة ولكنه يشير إلى أن هذا الاستبداد لم يتطور ليأخذ شكل قوة سياسية عسكرية على نطاق واسع. وبالرغم من أن الحضارات الشرقية القديمة كانت مرتكزة على الزراعة القائمة على الرى، فقد استخدمت كذلك أشكالاً أخرى من الموارد فى مناطق متاخمة لأودية الأنهار. ولهذه الأسباب يدعى مان أن ويتفوجل "أطنب فى نموذجه بشكل زائد"(٨٤) . لقد كانت المجتمعات القديمة القائمة على الرى استبدادية ولكنها لم تكن قوية، وهذا بالنسبة لمان هو المهم. ثم يعيد مان صياغة نموذجه ويضعه كاملاً ضمن نظريته. إن الفارق المهم هو ما بين المجتمعات الزراعية القائمة على "الرى" وتلك القائمة على "مياه الأمطار". تُصنف المجتمعات الآسيوية على أنها السابقة والأوروبية على أنها اللاحقة. بالنسبة لمان حقيقة أن المزارعين الأوروبيين منذ اليونانيين القدماء استخدموا المحراث الحديدى وزرعوا أراضى ليس بنظام الرى ولكن معتمدين على "مياه الأمطار" هى أهم الأسباب التى دفعت بأوروبا أمام آسيا وأفريقيا الشمالية. كانت تلك هى المعجزة الكبرى الأولى. حيث دفعت بأوروبا قدمًا أمام غيرها من المناطق وبقيت كذلك حتى اليوم.

هنا باختصار مجادلة مان. نبدأ بحضارات الشرق الأدنى القائمة على الرى. بالتسليم جدلاً أن الرى كان هو الابتكار الذى أدى إلى ارتقاء هذه الحضارات للمصاف الأولى، يجادل مان أن هذا الأساس، إلى حد ما، أدى إلى سجن السكان فى "قفص". كان هدف تلك الصورة البلاغية هو توضيح فكرة كيف كان الناس سجناء ومكبلين مما يعيقهم من تحقيق أى تقدم اجتماعى. (إنها صورة بلاغية وليست مجادلة). حوالى ١٨٠٠ قبل الميلاد يقول مان "إن الإمبراطوريات المهيمنة فى الشرق الأوسط اهتزت بسبب تحديين هائلين ... من الشمال" من الغزاة الإندو – أوروبيين – يبدو هذا أنه نسخة من النظرية الضعيفة "الهجرات الآرية" – الذين جلبوا معهم ثورتين

هما: استخدام العربة ذات العجلات فى الحرب واستخدام الأدوات الحديدية وبالأخص المحراث الحديدى. "انتقل ميزان القوة شمالاً".[٨٥] . يسلم مان أن تلك الشعوب الشمالية لم تخترع العربة الحربية وأعمال الحديد (التى ربما جاءت من الأناضول) ولكنه يمر بدون توقف (أو منطق) على أطروحة أن شعوب الشمال الإندو - أوروبية كانت لها السيطرة بالمعايير السياسية العسكرية والمعايير الإنتاجية. ومن تلك النقطة فصاعداً، يقارن مان بين حضارتين ليبين أوجه الاختلاف: "القائمة على الرى" فى الشرق الأوسط وتلك التى تستخدم المحراث الحديدى والمعتمدة على مياه الأمطار فى الشمال: اليونان وبشكل أوسع أوروبا. ولأن الأوروبيين قاموا باستخدام المحراث واعتمدوا على مياه الأمطار فى الزراعة، فقد وصلوا بداية باليونان للحضارة الحديثة بما فيها من الديمقراطية والطبقات والملكية الفردية (بشكل كبير أو صغير) والعلم واحترام العقل الإنسانى[٨٦] . لماذا؟ إن جوهر هذا النموذج هو صورة الأسرة المستقلة المشتغلة بالزراعة. ينزل إليها الماء من السماء وليس عن طريق نظام رى محكوم بطريقة استبدادية. يقول مان إن الحديد وفير ولذا لا يعتمد الفلاح على المدن أو الشبكات التجارية البعيدة المدى للحصول عليه لصناعة المحاريث والفؤوس. هذا الفلاح المستقل والمزارع ذو الملكية الصغيرة (كما أسماه ڤيبر) هو نموذج الأوروبى الديمقراطى والمتحضر والملىء بالطاقة والمتجه إلى الأمام.

كل هذا غير معقول. أولاً فمن العبث الجغرافى أن نتخيل أن الشرق الأوسط كان إقليماً لم يعرف الزراعة بالمحراث حيث اعتمد سكانه على الزراعة القائمة على الرى فى أودية الأنهار. استخدمت المحاريث فى الزراعة القائمة على الرى. كذلك كانت الزراعة المعتمدة على مياه الأمطار منتشرة ليس فى مصر أو بلاد ما بين النهرين ، ولكن فى معظم بلاد الشام والأناضول وإيران وبالطبع المناطق المتطرفة شرقًا من آسيا وكذلك فى أفريقيا. لم تخترع أعمال الحديد بواسطة الأوروبيين وكان يستخدم عن طريق الأوروبيين وغيرهم على حد سواء. نفس الشىء يعد صحيحًا بالنسبة للمحراث

الحديدى الذى كان مهمًا فى الصين القديمة على سبيل المثال كما كان كذلك فى أوروبا القديمة[٨٧] .(إنها خرافة قديمة أن متحدثى الإندو - أوروبيه، الآريين هم الذين نشروا استخدام المحراث فى الأقاليم التى استوطنوها أو قاموا بهزيمتها). إن ترسبات خام الحديد القابل للتشغيل ليست بتلك الوفرة التى يظنها مان (ماعدا فى أقاليم معينة بها تربة غنية بالحديد والألومنيوم فى المناطق الرطبة).

ولكن أكثر أجزاء أطروحة مان سذاجة هى الحتمية البيئية. لدينا صورة إقليم قاحل لا يصلح لشىء إلا للزراعة القائمة على الرى التى من المفترض أنها عائق أمام تقدم الحضارة. لدينا صورة لإقليم آخر مفتوح به التربة الجيدة، المليئة بالغابات، ينتج فيه المزارعون بوفرة لا مثيل لها، كما يكتسبون من بيئتهم شكلاً ديمقراطيًا وجريئًا وذكيًا للمجتمع الذى يتقدم للأمام باتجاه الحداثة. دعونى فقط أضيف القليل على هاتين الصورتين:

يعتبر الرى فى أعين الكثير من منظرى المعجزة غير منتج على نحو ما. حيث يؤكد جونز ومان وغيرهم أن الأرض المعتمدة على مياه الأمطار تنتج غذاء أكثر بالنسبة لعدد من يعملون بها. هذا ليس صحيحًا. فقد طُور الرى فى الواقع لكى يزيد من إنتاج الغذاء سواء كان مصدر هذه العملية هو طموحات سكان القرية أنفسهم أو متطلبات بنية دينية أو سياسية فوقية. عندما تصل مقاطعة معتمدة على الرى مرحلة النقص الخطير فى الأرض، وهذا يحدث متأخرًا فى سياق تطورها الجغرافى والاجتماعى (على مسار واحد للتطور)، فإن إنتاجية الفرد تنخفض فى تلك الحالة. هذا واضح،. ويعنى أولاً أن عمال المزارع يقضون وقتًا كبيرًا خلال السنة فى الإنتاج الزراعى ووقتًا أقل فى الأنشطة غير الزراعية بما فيها الحياة الثقافية فى القرية والعمل على أشياء مثل بناء النصب التذكارية. ويؤدى هذا الموقف، شيئًا فشيئًا، إلى انهيار النظام الزراعى مع زيادة نسبة الملوحة فى التربة، بل ربما يؤدى إلى التضور جوعًا. لنقارن هذا مع الزراعة التى لا تعتمد على الرى. من الطبيعى أن تكون التربة

فقيرة بالفيتامينات (يجلب الرى المعادن والفيتامينات المذابة فى الماء، كما أن التربة الغرينية تتمتع بمعدل عالٍ من الفيتامينات والمعادن). ومن الطبيعى أيضًا أن يكون هناك نقص فى نسبة الرطوبة مع الاعتماد على الأمطار التى لا يمكن التنبؤ بها. ولذا فإن نسبة الخصوبة تعد منخفضة فى الأرض التى لا تعتمد على الرى مع تساوى باقى العناصر الأخرى (التى فى الغالب ما تكون غير ذلك). صحيح الآن أن مزارعى العصر الحديدى الأول كانوا يزيلون الغابات ويقيمون المزارع الجديدة محققين إنتاجية عالية لهذه الأرض البكر، ولكن كانت تلك ظاهرة وقتية ولم يكن لها أى تأثير فى الأودية شبه القاحلة فى اليونان. اتجه المزارعون الأوروبيون الأوائل للاستقرار فى الأرض الغرينية والمنخفضات واستخدموا الرى والصرف وذلك لأنها زادت من معدل الإنتاج.

جزء آخر من الخرافة هو مفهوم أن الزراعة الأوروبية كانت تساعد إلى حد ما على الحياة المستقلة على عكس تخالف الزراعة الآسيوية. لم يكن المزارعون الأوروبيون الأوائل كما صورهم مان يعيشون فى عزلة بعضهم عن بعض محاطين بالغابة. فى الحالات التى عاشوا فيها بهذه الطريقة كانت ظاهرة حدودية فى آسيا كما فى أوروبا. عاش الفلاحون غالبًا فى تجمعات، قرى كبيرة أو صغيرة مدمجة أو طولية وذلك تبعًا للظروف. ليس هناك سبب للشك أن المجتمعات الزراعية فى المناطق المرتفعة فى آسيا كانت تشبه مثيلتها فى أوروبا. سنعود إلى هذا الأمر فى نفس الفصل عندما نناقش خرافة تفرد الأسرة الأوروبية. أما الآن فسوف أصنف فكرة أن المجتمعات الزراعية الأوروبية الأولى كانت فردية، معتمدة على ذاتها وأكثر تقدمًا من المجتمعات فى أماكن أخرى على أنها خرافة.

إن الخطأ الأساسى الذى وقع فيه مفكرو القرن التاسع عشر وڤيبر الذى يكرر الآن بطريقة آلية من قبل المؤرخين أمثال چونز وهول ومان هو أن نعتقد أو نفترض أن نوعًا واحدًا من البيئة ينتج نوعًا معينًا من المجتمع وهو الذى يستمر على مدار التاريخ. لا نستطيع ببساطة أن نقارن بين الحضارات القديمة القائمة على الرى فى آسيا

وشمال أفريقيا مع تلك التى لا تعتمد فيها الزراعة على الرى مثل الحضارات الأوروبية - أوبالأحرى آسيا - و نفترض وجود نوعين مختلفين من الحضارات يستمران هكذا على مدار التاريخ. تتغير الثقافة. وينتقل المزارعون من بيئة لأخرى. يمارس الزارعون فى أماكن كثيرة الزراعة المعتمدة على الرى وتلك التى لا تعتمد عليه، وذلك على أنواع مختلفة من التربة عندما تتوفر لديهم الأرض المناسبة[٨٨] . لذا فالنظرية التى تؤكد أن الحضارات الزراعية فى آسيا المجدبة تنتج شكلاً من المجتمعات الراكدة الاستبدادية التى لن تتطور باتجاه الحداثة؛ هذه النظرية تعد فى جوهرها خرافة.

أوروبا المعتدلة

لقد رأينا سابقًا كيف أسس المؤرخون نموذجًا خرافيًا للمجتمع الأوروبى الذى اعتمدت فيه الزراعة على مياه الأمطار مفترضين أن مياه الأمطار تجلب فوائد لا توجد فى المجتمعات التى تعتمد فيها الزراعة على الرى. وكيف أن الأوروبيين وحدهم هم فقط من مارسوا الزراعة المعتمدة على مياه الأمطار. قام مؤرخون مثل مان وجونز وهول بتطوير تلك المجادلة. فاعتماد أوروبا فى الزراعة على مياه الأمطار، بالإضافة إلى الزعم بجودة وخصوبة التربة فيها، أدى لإنتاج زراعى غير ملموس فى مكان آخر. وبالرغم من أن هؤلاء المؤرخين يعطون الأولوية للزعم بتفرد العقل الأوروبى من حيث كونه رشيدًا وخلاقًا، فهم يوعزون بجزء كبير من هذه الأولوية لبيئة أوروبا الطبيعية.

على سبيل المثال، يرسم مان صورة للتحرك باتجاه الشمال الغربى فى التاريخ الأوروبى وهو ما قمنا بوصفه فى الفصل الأول على أنه نموذج قطار الشرق السريع الذى يقل هذا المجتمع القروى فى العصور الوسطى، والذى كان فرديًا وخلاقًا ومعتدًا بنفسه ويتجه به ناحية ناحية الشمال الغربى، وقد ظهر هذا النموذج فى العصر الحديدى نتيجة المزج الأوروبى الفريد بين الزراعة والحديد والأرض التى تروى بمياه

الأمطار. يعد نموذجه عن تطور المجتمع الأوروبى "معجزته" أكثر تعقيداً من هذه الصورة، ولكن جزءاً أساسياً من هذا النموذج هو التحرك الجغرافى الثابت والمثابر والمفعم بالأحداث التاريخية. إنه ما يطلق عليه "تيار" الشمال الغربى وهو ذو جبهة متجهة دوماً ناحية الشمال الغربى. بتجنب الحتمية الفلسفية، هو مع هذا يعطى العملية كلها طابعاً هيجيلياً ونمائياً[٨٩] . أحد السببين الرئيسيين لهذه الحركة ناحية الشمال الغربى هو البيئة الراقيه لشمال غرب أوروبا. وسبب هذا الرقى البيئى هو "تربتها الخصبة الرطبة والعميقة"[٩٠] .

مثل مان يمجد جون هول "التربة الطينية فى شمال أوروبا"[٩١] بالإضافة إلى أن التربة أيضاً فى شمال غرب أوروبا "طينية ومنتجة ومعتمدة على مياه الأمطار" (لم يكن هناك داع للرى)[٩٢] . يزعم إيريك جونز فى المعجزة الأوروبية نفس الزعم، ولكن بتعديل بسيط. فهو يكتب عن "بيئة أوروبا المنتجة والقائمة على أرض الغابات والزراعة المعتمدة على مياه الأمطار"[٩٣] و"عن صيف أوروبا الجيد والمطير"[٩٤] . يعترف جونز (بخلاف مان وهول) بحقيقة أن أرض أسيا يعتمد عليها تعداد سكانى كبير يعمل بالزراعة، مع التلميح بأن الأرض قد تكون أكثر إنتاجاً، وهو يلاحظ كذلك أن أرض أوروبا المنتجة هى أقاليم منفصلة وصغيرة، ثم نجده يقدم بعد ذلك واحدة من خرافات الاستبداد الشرقى:

> **أعطت الزراعة الهيدروليكية غير العملية هامشاً من الحرية لطاقات الأوروبين لتُستخدم فى أغراض أخرى. قد يكون عدد مزارعى أوروبا أقل من عدد مزارعى الصين والهند ولكنهم يقضون فى أعمال الزراعة وقتاً أقل مما يقضيه نظراؤهم فى الهند والصين فى أعمال التحكم فى المياه[٩٥] .**

والإشارة هنا إلى أن المزارعين الأوروبيين لم يكونوا فى حاجة إلى قضاء وقت كبير فى العمل الزراعى لسد احتياجاتهم وتلبية حصة الفائض، بينما اضطر

الآسيويون للعمل من أجل النتيجة نفسها. يعد هذا عبثًا، إلا إذا تخلينا عن المنهج التاريخي وحاولنا أن نعقد مقارنة غير عادلة بين الفلاحين الآسيويين فى ظل الظروف الحديثة من نقص فى الأرض وبين المزارعين فى أوروبا فى ظل الظروف الحدودية، أو المزارعين الأوروبيين ذوى رؤوس الأموال فى العصر الحديث. وبطريقة أخرى فهذا لا معنى له فى ظل التقنية الزراعية - يهدف الرى إلى زيادة إنتاجية العامل ويحقق ذلك - وفى ظل أى نموذج للفلاح الأوروبى القديم والفقير والمقهور الذى يتحمل ما لا طاقة له به.

إن "التربة الرطبة" التى تحدث عنها هؤلاء المؤرخون ترتفع فيها نسبة الرطوبة والأحماض مما يصعب العمل بها لقلة خصوبتها إلا بعد تسميدها. "إن الصيف الجيد والمطير" هو فى الواقع مناخ رطب يؤدى إلى الحد من الطاقة الشمسية، كما أن محاصيل الحبوب قد لا تؤتى ما هو متوقع منها (تذكر كيف كان مهمًا تقديم البطاطس فيما بعد ١٤٩٢)، كذلك لا تجف التربة إلا فى وقت متأخر من الربيع، هذا إن جفت. أنا لا أريد أن أقلل من شأن الموقف أو أسفهه. فالتربة فى شمال غرب أوروبا على تنوعها لا تعد أكثر تميزاً من التربة فى أقاليم أخرى. وإذا استخدمنا مصطلحات بيئية يمكن القول بأن الأقاليم الدافئة الجافة التى تسقط بها الأمطار أو التى تعتمد على الرى أو الصرف تتجة لأن تكون عالية فى إنتاجها. إن نقطتى أكثر تحديداً. لا يوجد شىء بخصوص بيئة أوروبا الزراعية يمكن ان يفسر ما يسمى بالمعجزة، أو يؤدى بنا أن نعتقد (كما يعتقد المؤلفون الذين نقلت عنهم) أن التاريخ الأوروبى على مداه كان أفضل من التاريخ الآسيوى بسبب البيئة الأوروبية الزراعية.

إن الزعم بتميز البيئة الأوروبية محدود فى نطاق الزراعة. سأختم مناقشتنا عن البيئة بتعليق مختصر على أربعة من الأحكام المقارنة قدمها مؤرخون معاصرون عن "المعجزة" الأوروبية.

الأول: وهو مجادلة "الرؤوس(شبه الجزر) والخلجان" الكلاسيكية والمعروفة لدى معظم أطفال المدارس الأوروبيين والأنجلو - أمريكيين. لنفرض جدلاً أن تكوين شبه

الجزر والخلجان فى أوروبا، بالإضافة لأنهارها القابلة للملاحة وفر لهذه القارة الظروف الطبيعية للاتصال والتجارة، الوضع الذى لم يكن متاحًا لغيرها. مما أدى إلى نهضة الأسواق وبالتالى إلى الرأسمالية فى أوروبا(٩٦) . جانب من هذه المجادلة يظهر خطؤه مثله فى ذلك مثل ملابس الإمبراطور فى القصة الشهيرة لهانز أندرسون(*)، بالنظر المباشر إليه.

على سبيل المثال، فى العصور الوسطى كان الوصول عن طريق البحر إلى مناطق كثيرة فى آسيا على امتداد شواطئ المحيط الهندى وجزء كبير من بحر الصين الجنوبى أسهل بكثير منه فى أوروبا الأطلنطية. (إذا كانت الرياح الموسمية تمثل مشكلة فى المحيط الهندى فإن العواصف كانت مشكلة أكبر فى شمال المحيط الأطلنطى).

انتشرت المدن التجارية على طول الساحل الهندى، وكانت السفن التجارية تجوب شواطئ هذا الساحل إلى أندونيسيا وشبه جزيرة العرب محملةً بسلع كثيرة مثل الأرز والحديد بالإضافة إلى بضائع ذات قيمة عالية، هذا قبل أن تفتح القادسات الإيطالية تجارة السلع المنتظمة بين البحر المتوسط وشمال غرب الأطلنطى. أنا لا أقلل هنا من شأن الخبرة الملاحية لصيادى المحيط الأطلنطى أو تجار أيسلندا أو رابطة الهانز Han-seatic league(**) عندما ألاحظ أن أقاليمًا أخرى استخدمت البحر بنفس الكفاءة الأوروبية فى أوقات مقاربة.

أما الأنهار القابلة للملاحة التى تعد هبة لأوروبا فهى مثيرة للإعجاب ولكنها ليست متفردة. فهى ليست أحسن من أنهار الصين أو الهند. كانت الملاحة فى جزر آسيا

(*) ملابس الإمبراطور : إشارة إلى قصة ملابس الإمبراطور الجديدة التى كتبها الكاتب الدنماركى هانز أندرسون وهى تحكى قصة إمبراطور أحمق يؤجر محتالين وعداه بحياكة أجمل وأقيم حُلة من أفخر أنواع الأقمشة .

(**) Hanseatic league: تحالف فيدرالى فى العصور الوسطى بين مدن شرق ألمانيا والدول المجاورة.

الجنوبية الشرقية أسهل بكثير من الملاحة فى نهر مثل الراين أو الدانوب. إنه أمر يتعلق بالنزول إلى أرض الواقع والتخلى عن المقارنات. يتبع أخطاء مجادلة "الرؤوس والخلجان" خطأ آخر: وهو فكرة أن أوروبا منذ القدم كانت متميزةً على غيرها من الحضارات التى اضطرت إلى نقل السلع براً. يكرر العديد من مؤرخى "المعجزة" نظرية غلاء المواصلات البرية أكثر من المواصلات البحرية. هناك فى الحقيقة عدد وفير من المقارنات. وعندما يستشهد مان وغيره بالأفكار القديمة عن الحيوانات المستخدمة فى جر الأثقال التى تأكل العلف فى مساحات محدودة (يقول البعض إنها فى حدود ١٠٠ إلى ١٥٠ كم)، فهم يتجاهلون حقيقة أن تلك الحيوانات ترعى فى الطريق وهنا نفهم ببساطة طريق الحرير فى آسيا والقوافل السودانية(٩٧) . كانت القنوات فى الصين أكثر كفاءة من طرق الشحن الدائرية الساحلية فى أوروبا. كما لم تتمتع المواصلات المائية - وخاصة مع الرياح وفى أعالى الأنهار - بمزايا على المواصلات البرية منذ حوالى ١٠٠٠ سنة.

يدعى إيريك جونز فى المعجزة الأوروبية أن آسيا عانت أكثر من أوروبا بسبب الكوارث الطبيعية بكافة أنواعها، الأمر الذى كان له أثر سلبى على عملية التطور فى آسيا(٩٨) . ويسير بالمجادلة إلى النقطة التى يزعم فيها أن خطر الكوارث الطبيعية كان عظيمًا لدرجة أنه أرهب البشر العاديين؛ مما أثر على سلوكهم الديموغرافى حيث لم يتوسعوا فى تجارتهم. إذا نحينا جانبًا حقيقة البيانات التاريخية القليلة عن هذا الموضوع، فإن أكبر خطأ هو المقياس. إن "أوروبا" لدى جونز هى غرب ووسط أوروبا. هذا الإقليم هو بحجم شبه القارة الهندية تقريبًا وربما ربع حجم المساحة المأهولة بالسكان فى آسيا. ولذا فمن المحتمل أن يتعرض إلى ربع الكوارث الطبيعية مع الأخذ فى الاعتبار تساوى كافة الظروف الأخرى.

إنها حقيقة أن الفيضانات هى أكثر خطورة فى الأقاليم التى يزرع فيها الناس أودية الأنهار، ولكن يقوم السكان بعمل تعديلات للتقليل من حجم هذا الخطر مما لا

يعوق أو يؤثر بالسلب على التقدم فى المدى البعيد. وأظن أن مخاطر طقس الشتاء فى أوروبا الريفية كانت فى حجم مخاطر الفيضان فى آسيا بالنسبة للفرد. ليست الأعاصير بأسوأ من عواصف شمال المحيط الأطلنطى فى الشتاء. والواقع أنه لا توجد أدلة تستند إليها تلك النظرية، كما تخلو من المصداقية كمجادلة تؤكد على "المعجزة الأوروبية".

يشير مؤرخو المعجزة مراراً للتمايز البيئى الأوروبى زاعمين أن هذا يقود إلى إمكانيات أوروبا الفريدة التى تؤهلها للتجارة الداخلية وبالتالى للرأسمالية(٩٩) . نحتاج فقط أن نلاحظ كيف أن أوروبا لا تمتلك تنوعًا واسعًا من البيئات والمنتجات الطبيعية بالمقارنة مع أقاليم أخرى بنفس الحجم. فالصين على سبيل المثال لديها نفس التنوع البيئى فى خطوط العرض المتوسطة بالإضافة إلى ساحل جنوبى استوائى.

أما الخرافة البيئية الأخيرة التى نناقشها هنا فهى الزعم بأن تمايز أوروبا الطبوغرافى بتعدد "الأقاليم الرئيسية" فيها التى تفصل بينها الجبال والغابات، قد أدى إلى تميز المجتمع الأوروبى القديم وفى العصور الوسطى بعدد من الملامح المفترضة مثل: تطور نظام تجارى فريد وقيام دول ذات حجم متوسط وما يترتب على ذلك من فوائد مزعومة. لارتباط هذا الأمر بأجزاء من أدب "المعجزة" التى تزعم تفرد أوروبا فى تطورها الاقتصادى والسياسى، سوف أؤجل مناقشته من الناحية الجغرافية حتى نهاية هذا الفصل. يكفى الآن القول إن فكرة "الجوهر" خرافة، وفى حال صحتها فمن الأولى أن تُطبق على القارات الأخرى.

العقلانية

ننتقل الآن للنظريات المنادية بالتميز والتفوق التاريخى الأوروبى أو أسبقيتها، أى – "معجزة" أوروبا – التى لا ترتكز على البيولوجيا أو البيئة، بل على الثقافة. أولاً

سأتعامل مع النظريات التى تبدأ بمفهوم تفوق الأوروبيين العقلى: "العقلانية". "للعقلانية" فى تلك النظريات صفات سيكولوچية عديدة دائمًا ما تتضمن القدرة على الاختراع والابتكار (أو التقدمية)، وهى قدرة على التفكير المجرد، وعلى اتخاذ أحكام أخلاقية. ليست القضية هى ما إذا كانت تلك الأمور أسبابًا مهمة تاريخيًا أم لا، بل هى هل يتمتع الأوروبيون بعقلانية أكثر من باقى المجتمعات الإنسانية؟. وهل كانت تلك الصفة هى السبب الأساسى أو أحد الأسباب الأساسية لنهضة أوروبا الفريدة؟ يبدو التأكيد بأن الأوروبيين أكثر ذكاء من غيرهم وكأن به مسحة منذ القدم تعود إلى العصر الفيكتورى، ولكنه مضلل. تعتبر النظريات عن صفة "العقلانية الغربية" وما شابهها مهمة لأجيال من الباحثين اليوم كما كانت فى الماضى. فمن الصعب التعرف على النظريات الخاصة بها وذلك لأنها تتخذ شكلاً آخر. قد يركز التحليل على التكنولوچيا على سبيل المثال، مجادلاً بأن المخترعات التكنولوچية الأوروبية أدت إلى تحركات تقدمية متنوعة فى التاريخ الأوروبى. وبالنظر لها عن قرب نجد أن هذا التحليل التكنولوچى عادة ما يقود إلى نظرية عن قدرة الأوروبيين على الاختراع، أى عقلانيتهم. وعلى نفس المنوال قد يبدأ التحليل بالدولة أو الأسواق الحرة أو الأسرة ولكنه غالبًا (وليس دائمًا) ما يعزوها إلى صفة العقلانية الأساسية، وفى بعض الأحيان يكون اتجاه الجدل عكسيًا. كانت نظريات العنصرية الكلاسيكية نظريات عقلانية: لكونك أبيض، فأنت بالضرورة أكثر ذكاءً. بعض (وليس كل) نظريات ماركس هى نظريات عقلانية: أطلقت هزيمة النظام الإقطاعى العنان للطاقات الخلاقة التى أدت بعد ذلك إلى الابتكار التكنولوچى إلخ. ويزيد الأمور تعقيداً افتراض التفوق العقلى لفترة واحدة ومكان واحد كمفتاح سحرى بدأ العملية كلها مثل بركليز أثينا(*) وورشة جوتنبرج(**) ... إلخ.

(*) بركليز أثينا : إشارة إلى بركليز القائد اليونانى الذى جعل من أثينا أقوى المدن وأجملها وأغناها. يعود إليه الفضل فى نهضة أثينا الثقافية والمعمارية والسياسية حيث بنى البارثينون فى عهده .

(**) جوتنبرج : يعود إليه الفضل فى اختراع آلة الطباعة .

سأحاول أن أصنف هذه الأمور عن طريق التعامل أولاً مع "نظريات العقلانية"، ثم ننتقل إلى أنواع أخرى من النظريات التكنولوچية والمؤسسية، بعضها له جذور فى صفة العقلانية الأوروبية.

نظرية العقلانية

قبل معظم الباحثين الأوروبيين فى بداية هذا القرن الفرضية الأساسية بأن الأوروبيين أكثر عقلانية من غيرهم. وقد شُرح ذلك عن طريق مجموعة متنوعة من النظريات المتنافسة، أكثرهم شهرة هى العنصرية البيولوچية، ولكنى أظن أن معظم الأوروبيين قبلوا هذه الفرضية بغض النظر عن التفسير. كان من الواضح أن الدول الأوروبية قد حققت مستوى عاليًا من الثروة والحضارة أكثر من دول أخرى، وقد وصلوا لذلك معتمدين على أنفسهم عن طريق الاختراع والابتكار والخلق. بالإضافة إلى تحكم الأوروبيين الآن فى العالم كله مما يعكس بعض التفوق الفكرى وربما أيضًا الأخلاقى. كان هذا فى أوج مبدأ نظرية الانتشار الكلاسيكية (نوقشت فى الفصل الأول) وقد شكك بعض الناس فى فرضيات المبدأ الأساسية: أوروبا تتطور بينما لا نجد هذا التطور فى غيرها من المناطق أو أنه يحدث ولكن بصورة أبطء؛ يرتكز تطور أوروبا فى الأساس على مبدأ فكرى أو روحى؛ السبيل الوحيد لتطور المناطق غير الأوروبية هو عن طريق استقبال الأفكار الأوروبية العقلانية التى جلبها أوروبيون من أمثال الإداريين الاستعماريين والمستوطنين والمزارعين والمبشرين ومتعهدى السلع المختلفة.

فى هذا الوقت كان معظم المفكرين الأوروبيين قد قبلوا مبدأ "الوحدة النفسية للجنس البشرى"، على الأقل للدرجة التى يوافقون فيها على أن كل البشرية تشترك فى قدرة عامة على التطور باتجاه الحداثة. تبلور هذا المعتقد فى شكل نظرية منتشرة

بالرغم من عدم قبولها عالميًا فى الجزء الأول من هذا القرن، التى يمكن تسميتها بالمفهوم الازدواجى التطورى للعقلانية الإنسانية.

كانت الازدواجية الأولية هى تمييز بين عقلية الطفل وعقلية الراشد. لقد تطور العقل الإنسانى من حالة ما قبل التاريخ التى كانت بمنزلة طفولة عقلية. وقد كان التاريخ الأوروبى يُشرح إما على أنه ثمرة التطور العقلى الإنسانى أو على أنه كان مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا به فى عملية هى فى الأساس تعد مثل التطور النفسى من الطفولة للرشد. كلما تقدم التاريخ أصبح الأوروبيون أكثر عقلانية، تمامًا مثلما يصل الأطفال للرشد أثناء نموهم. لم يكن القدماء فقط أقل ذكاء بل كانوا تحت سيطرة عواطفهم ومشاعرهم أكثر من عقلهم، تمامًا مثل وضع الأطفال فى العصر الحديث. مع بعض التعديل كان نفس الرأى موجودًا بالنسبة للنساء الأوروبيات اللواتى كن أقل ذكاءً وتتحكم فيهن العاطفة أكثر من الرجال، أى أنهن أقل رشدًا من الرجال. ولكن أمكن للنساء أيضًا أن يختبرن التطور العقلى، وبالتالى يصلن إلى درجة من الرشد تؤهلهن للتصويت وشغل مناصب عامة ... إلخ.

فى إطار نفس النظرية كان ينظر إلى غير الأوروبيين على أنهم غير متطورين نفسيًا، أو أنهم أشبه بالأطفال. ولكن مع التسليم بالوحدة النفسية للبشرية يصبح فى إمكان غير الأوروبيين أن يصلوا لمرحلة الرشد، وللحداثة، وذلك من خلال مجموعة من التجارب التعليمية التى هى استعمارية فى الأساس. (إن عبارة "الوصاية الاستعمارية" كانت العلامة على هذا المعتقد الذى يواجهنا فى معظم مقررات التاريخ والجغرافيا لذاك الوقت). هى لم تكن مجرد الاعتقاد بأن "السكان الأصليين مثل الأطفال"، بل كان من المفترض أن فكرة عدم نضج غير الأوروبيين مبدأ علمى محدد وواسع الانتشار: يفكر غير الأوروبيين على نحو ما مثل الأطفال، ويهتدون إلى طريق العقلانية بواسطة الأوروبيين. وبالطبع كانت هناك مستويات من غير الأوروبيين. كان "الهمج" يملكون عقلية أطفال. وكان ينظر إلى الشعوب التى قد تمثل مشاكل مثل الهنود والعثمانيين

والصينيين على أنهم مثل أطفال فى نواحٍ معينة فقط. فقد كانت تحكمهم العاطفة والمشاعر أكثر من الأوروبيين. (تعبر الثوارت ضد الاستعمار عن عدم النضج، حيث إنها إنفجارات لمشاعر طفولية). أما بالنسبة للتفكير العلمي والفلسفى المجرد فلم يكن أناس تلك الثقافات على درجة كافية من الرشاد، ولكن فى بعض النواحى مثل الفنون والحرف اليدوية ربما كانوا مراهقين موهوبين.

إذًا لدينا نموذج جوهره الرجل الأوروبى العقلانى والحديث. التاريخ هو تطور هذا الرجل حتى يبلغ مرحلة الرشد العقلى. لقد قورن بينه وبين الرجل الأوروبى القديم، وبينه وبين الأطفال الأوروبيين فى العصر الحديث، بينه وبين النساء الأوروبيات وبينه وبين غير الأوروبيين. اتسعت المقارنة لتشمل الذهانيين فى بعض المدارس التى كانت تراهم مقيدين عقلياً، وكان هذا يستخدم كأسلوب علاجى(١٠٠) . الذى نحتاج أن نؤكده هنا هو حقيقة اعتبار هذه الأفكار نظرية علمية. ولذا كان صحيحًا تبادل مبادئ بين الأبعاد المتنوعة للمقارنة. ما يتماشى مع أهدافنا هنا هو أهم تلك المبادئ، وهو إلصاق صفة التطور العقلى بالتاريخ الأوروبى والتخلف لغير أوروبا فى الماضى والحاضر ولذا تحلى الأوروبيون بعقلانية متفردة.

من الخطأ تقديم صورة مختزلة عن النظريات البحثية لبضعة أجيال سابقة، حيث إن النموذج الذى أقدمه يبدو وكأنه كذلك. لم يعتقد معظم الباحثين حرفيًا فى أن الهندى الأمريكى مثلاً كان له عقل طفل أو أن نشأة التطور العقلى من الطفولة للرشد توجز التطور العقلى لنوعنا البشرى. ولكن كان للنموذج قوة مسيطرة على الفكر الأوروبى وبطرق محددة ودقيقة. إن معادلة الطفل والإنسان القديم وغير الأوروبى كانت مقبولة بشكل واضح فى السياق غير الأكاديمى (الجرائد وروايات طرازان، وهكذا). كانت السياسة التعليمية الأمريكية تجاه الهنود والشعوب المستعمَرة الأخرى مبنية بوضوح على هذا النموذج، حتى لو كانت نسخة مخففة منه. استخدمت أعداد كبيرة من الكتابات فى التاريخ والجغرافيا وكل العلوم الاجتماعية جوانب من هذا النموذج.

وكان عدد من النظريات الواسعة الانتشار والمقبولة هى فى الحقيقة أشكالٌ لنفس النموذج. وسنقدم هنا ثلاثة أمثلة لتتحقق الفائدة:

قبل معظم علماء الأنثروبولوچيا فكرة أن هناك نوعين عقليين متمايزين: الأول هو ما يسمى "بالعقل البدائى" وهو عقل شعوب القبائل فى كل مكان (وأضاف البعض الفلاحين فى كل مكان). وُصف هذا "العقل البدائى" بوضوح - يوجد أكثر هذه الأوصاف شهرة فى كتاب ليفى برول المهم كيف يفكر السكان الأصليون - على أنه غير قادر على التفكير بأفكار مجردة ونظرية عليا لتحكم العاطفة فى مقاليد أموره وهكذا[١٠١] . اعترض بعض علماء الأنثروبولوچيا على هذا المفهوم (أكثرهم شهرة بوس ورادين وميد)[١٠٢] . وقد قبله بعض علماء الأنثروبولوچيا مع بعض التعديلات وبعضهم قبله كما هو. كان لشكل نظرية ليفى برول الفج تأثير كبير على علماء النفس وكل العلوم الاجتماعية. وكان مفهوم "اللغات البدائية" غير القادرة على التعبير عن الفكر المجرد والنظرى العالى مرتبطًا بهذه النظرية. ارتبط هذا المفهوم القديم (الذى استخدم فى شكل واحد لدى وليم ڤون همبولت) مع فرضية أن البشر لا يستطيعون التفكير خارج نطاق ما تحدده لغتهم وبالتالى فاللغة البدائية تتضمن عقلاً بدائيًا[١٠٣] . الأبعد من هذا هى النظرية الفيلولوچية القديمة عن التميز الفطرى للغات الإندو - أوروبية التى كان لها الكثير من المؤيدين. وسعت هذه النظرية مفهوم اللغة البدائية ليشمل كل اللغات غير الأوروبية فى العالم. أما المثال الثالث فهو عائلة كبيرة من النظريات فى علم النفس وهى التى استخدمت فكرة التطور العقلى لدى الفرد على أنه مطابق للتطور العقلى للنوع، وأن الشعوب البدائية فى العصر الحديث لها عقلية الأطفال والقدماء وفى بعض الأحيان توسع هذا المفهوم ليشمل التركيب النفسى المفترض (والنقص) لدى الشعوب غير الأوروبية بشكل عام. ظهرت هذه النظرية فى القرن العشرين من خلال نظرية التحليل النفسى على يد كارل يونج وأتباعه. تغلغل يونج فى الثقافات غير الغربية (العرب والهنود والأفارقة والأمريكيين وغيرهم) ووصل إلى نتيجة أن الإنسان الأوروبى

الحديث هو وحده الذى طور ضميراً فردياً، أنا ذاتية، قدرة على التفكير؛ قدرة على أن يعتبر نفسه فرداً منفصلاً عن العالم الخارجي. وحده فقط الإنسان الأوروبى هو الناضج عقلياً[١٠٤] .

تعرض هذا المعتقد لعدة تغييرات مهمة حيث تمت إذابته داخل نموذج "التحديث" وهو مجموعة الأفكار التى، كما رأينا، جاءت لتسيطر على الفكر الاجتماعى الأوروبى فى الخمسينيات، ومازالت لدرجة ما حتى يومنا هذا. أعطت "الهيمنة الاستعمارية" المجال "لانتشار ابتكارات التحديث". لم يعد غير الأوروبيين هم "السكان الأصليين"، ولم يعد فى الإمكان وصفهم "بالأطفال". حل مفهوم العقلية التقليدية محل مفاهيم مثل "العقل البدائى" و"اللغة البدائية". يعد غير الأوروبيين تقليديين فى أمرين: هم يفتقدون إلى "القدرات العقلية الحديثة"، أى القدرة على التفكير النظرى والعلمى، كما أنهم يفتقدون إلى "السلوكيات الحديثة" من النوع الذى يدفع بالفرد للحصول على أشياء أعلى وأن يرفض القديم وهكذا.

مازال يظهر هذا على أنه العقل البدائى ولكن هناك فرق مهم. تنتظر "العقول التقليدية" أن توقظ من غفوتها كى تدخل عصر الحداثة. الصورة الأكبر هى صورة لمنظر طبيعى كبير لمجتمعات تقليدية بها أناس ذوو عقليات تقليدية والتحديث هو من يبعث الحياة فى أوصال تلك الصورة. قد تتغير العقليات. قد يتغير الهيكل الاجتماعى. قد تنتشر الأفكار الحديثة والتكنولوچيا فى المجتمعات الجارى تحديثها من تلك الأوروبية الحديثة بالفعل وهكذا. تذكر أن مبدأ التحديث ليس هو فقط مفهوم الانتشار المكانى للأفكار الأوروبية وما شابهها فى العالم اليوم فيما بعد الحقبة الاستعمارية. بل هو أيضاً مفهوم تاريخى: التحديث كتاريخ. أصبح مصطلح "المجتمع التقليدى" والعقلية التقليدية" يستخدم لوصف أوروبا القديمة ونظر إلى نهضة أوروبا على أنها عملية تحديث، كما نوقشت كثيراً بداية هذه العملية: متى بدأت أوروبا فى انطلاقها ونهضتها من التقليدية إلى الحداثة. يستدعى التاريخ هنا لنفس السبب: تقدمت أوروبا والآن

سيسير العالم غير الأوروبى - ولكن ليس بتبعية - على نفس منوالها. سنأتى فيما بعد لهذه النقطة. ولكن أولاً أريد أن أعلق على المبادئ السببية الأساسية التى أعتقد أنها تؤدى إلى الاتجاه الآخر. سأوضح كيف ظهرت المدارس فى علم النفس وعلم الاجتماع والمجالات الأخرى مدعية أنها توفر الإيضاح العلمى عما هو بالضبط "العقل التقليدى" وكيف يتسرب نتاج عمل هؤلاء الباحثين راجعا إلى التاريخ، حيث يجد طريقه فى الكتابات الجديدة عن المعجزة الأوروبية.

افترضت نظرية چان بياچيه(*) - وهو الشخصية المهمة فى علم النفس - الأساسية عن التطور العقلى سلسلة من "المراحل" الثابتة للتطور العقلى التى يمر خلالها كل الأطفال. تأثر بياچيه بليڤى برول ومبدأ العقل البدائى وبنهاية ١٩٧١ اعتقد بأن:

> **من الممكن وهذا هو الانطباع الذى لدينا من العمل الإثنوجرافى أنه فى مجتمعات عديدة لا يتخطى تفكير الراشد مستوى العمليات "الملموسة"، ولذا فهو لا يصل مستوى العمليات المنطقية التى تتطور بين سن الثانية عشر والخامسة عشر فى أوساطنا(١٠٥).**

تعنى "العمليات المنطقية" التفكير المنطقى. أما "العمليات الملموسة" فهى التفكير الطفولى، مرحلة ما قبل التفكير المنطقى وهو غير قادر على التعامل مع المجرد والنظرى. أصبح الآن بياچيه عالم نفس عظيم ولكنه لم يملك - ولم يزعم أنه يملك - معرفة مباشرة بعلم النفس غير الأوروبى. كان يجادل من منظور نموذج التطور الازدواجى التقليدى حيث يساوى بين الطفل والبدائى (وكان متأخراً بحوالى ٣٠ سنة فيما يتعلق بالإثنوجرافيا).

(*) چان بياچيه : فيلسوف وعالم سويسرى يعود إليه الفضل فى معرفة التطور العقلى ومراحله من خلال دراسته وتجاربه على الأطفال وكذلك فلسفته التى عرفت بالمعرفة الوراثية .

ولكن الكثير من تلامذته أرادوا الربط بين نظريتهم ومبدأ التحديث، فتناولوا الموضوع وشرعوا فى البحث لمعرفة ما إذا كان غير الأوروبيين (الأفارقة على وجه التحديد) لديهم بالفعل قدرات عقلية أقل. لا يعد تبسيطًا أن نقول إن كل هذه الدراسات ارتكبت نفس الخطأ وجاءت بنفس النتائج المتوقعة. فقد استخدموا اختبارات القدرة العقلية التى استخدمها بياچيه مع الأطفال الأوروبيين، ونادرًا ما عدلوها، وقاموا بتطبيق هذه الاختبارات على غير الأوروبيين من الأطفال والبالغين، ووجدوا ما هو متوقع من عدم امتلاك هؤلاء الناس لقوى عقلية راشدة. أصبح الآن الخطأ معروفًا، ومعظم علماء النفس من تلاميذ بياچيه اليوم لا يبدو أنهم يؤكدون الطفولية العقلية لغير الأوروبيين. ظهرت فى تلك الحقبة، بجانب الدراسات القائمة على فكر بياچيه فى الستينيات والسبعينيات، دراسات عدة لعلماء نفس من مدارس فكرية أخرى (مثل مدرسة هاينز ڤرنر) التى أخذت مبدأ العقل البدائى القديم على أنه حقيقة(١٠٦) ، بجانب دراسات لعلماء نفس من جنوب أفريقيا تقارن بين عينات من البيض والسود، وهناك أوروبيون يدرسون التعدادات السكانية الأفريقية وبعض علماء النفس الإسرائيليين الذين يقارنون بين القدرات العقلية للعرب واليهود. وجد علماء النفس الأوروبيين، مع بعض الاستثناءات القليلة، أن العينات غير الأوروبية لديها نقص فى القدرة العقلية، وبالتالى فهم "تقليديون"(١٠٧) . فى معظم تلك الدراسات تقريبًا لم تعط الفرصة "للسكان الأصليين" حيث كانت الاختبارات أوروبية، ومطبقة من قبل أوروبيين أو مساعديهم فى مواقف أوروبية. أصبح الخطأ معروفًا لدرجة أن اكتسب مجال "علم نفس الثقافة المقارن" سمعة سيئة – كاعتذار كتابى للعنصرية – حتى فترة الثمانينيات حينما تغير الاتجاه. إن المسألة هنا أنه بينما علماء علم النفس المقارن بين الثقافات ينكرون بوضوح اليوم أن غير الأوروبيين أقل رشدًا من الأوروبيين، فقد قدموا مجموعة من الأبحاث المنشورة التى مازالت تستخدم اليوم بواسطة غيرهم لإثبات العكس.

كان معتقد العقلانية أكثر تأثيراً فى قضايا علم الاجتماع وعلم الاقتصاد التى كانت أقرب لمبدأ التحديث. وبالأخص فيما بين الأكاديميين الذين انشغلوا فى صنع وتطبيق السياسات التى وضعت فى الخمسينيات والستينيات لتطوير الدول النامية. كما رأينا فى الفصل الأول، كان هذا المجال من الأفكار مهمًا لسياسات التحديث على الأقل لثلاثة أسباب: الأول والأكثر حيوية هو الحاجة لمنح نظرية الانتشار صفة المشروعية. الثانى هو انتشار الأفكار والتقنيات الجديده كان أرخص بكثير من حيث المبدأ من التطور الذى يتضمن التدفقات الكبيرة لرأس المال والتطوير الصناعى وما شابه ذلك. والثالث، وهو على نفس الوتيرة، لم يكن التطور على مستوى الأفكار والبحث والتوسع والتعليم وهكذا يمثل تهديداً؛ فلن ينتج مخاطر الثورة والثورة المضادة المتضمنة فى الجهود لتغيير علاقة مراكز القوى وتفعيل عمليات الإصلاح وما شابه. لهذه الأسباب تم تشجيع الباحثين بإعطائهم منحًا سخية ومرتبات مجزية لإنتاج تحليلات للتحديث تؤدى إلى سياسات قابلة للتنفيذ لتحقيق التطور وذلك فى الأساس من خلال التأثير على مستوى الأفكار.

أسهم إيفيرت روجرز عالم الاجتماع الريفى وديفيد ماكليلاند عالم النفس الاجتماعى ووايفيرت هاجن الاقتصادى بإسهامات بارزة سوف أصفها باختصار: كان روجرز واحداً من القادة فى حركة تصنيف العقليات القروية إلى مشجعة على الارتقاء ("كوزموبوليتانية")، وتلك غير الابتكارية، و"المتأخرة". المفهوم الحيوى هو فكرة انتشار العقلانية داخل المجتمعات الريفية غير الأوروبية. إن مفتاح التطور (مع بعض التحفظات) هو انتقال الأفكار الجديدة إلى متبنيين مبتكرين. إن حقيقة أن معظم الأفكار لم تكن فى حد ذاتها قابلة للتنفيذ (وبالتالى لم تكن معقولة) وتطلب تبنى تلك الأفكار من الفلاحين، لا معرفة أكثر ولكن، قوة أكثر وملكية للأرض، ولكن تم تجاهل هذه الحقيقة . زعم ماكليلاند أن الشعوب غير الغربية لم تتجدد بسبب فقدانها للدافع المناسب وهو "الحاجة للإنجاز"، وأنهم سيدخلون عصر الحداثة عندما يكتسبون تلك

الحاجة للإنجاز التى كانت ذات أهمية كبرى فى أوائل تطور أوروبا منذ اليونان القديمة وما بعدها. وقد أنتج هاجن نظرية متقنة لا تقوم على أى دليل، وتدعى أن الشعوب غير الأوروبية وبالتحديد الفلاحين لديهم عقلية تقليدية تقاوم التغيير بكل أشكاله. يبدأ هذا النموذج بعقل (مفترض وغير موجود فى الواقع) لفلاح غير واع وغير خلاق وخاضع للسلطة الأبوية (ولذا فهو يقهر الأطفال المبدعين) كما أنه لا توجد لديه الرغبة فى التغيير. أنتج هؤلاء الباحثون الثلاثة وعدد من معاونيهم نموذجًا عامًا لعقلية الفلاح تنقصها الصفات العقلية والسلوكية (العاطفية) معًا ولكن بالطبع ليست بهذه الحالة من اليأس[١٠٨] . أحد محصلات هذا المبدأ العديدة هى نظرية "المعرفة" لمارجلين ستيفن وهى تزاوج بين فكرة "العقل البدائى" القديمة والأفكار الجديدة عن التقليدية التى تجادل فى جوهرها بأن العقل الغربى هو - وكما كان تاريخيًا - عملى وعقلانى وعنيد فكريًا - "المعرفة" - بينما يبدع العقل غير الغربى فى الحرفية والفن (الحرف الفنية) وليس العلم. إضافة مارجلين الجديدة لهذا المعتقد القديم هى أن بعض (الحرف الفنية) غير الغربية يجب أن تنضم إلى "المعرفة" الغربية وذلك لأن (الحرف الفنية) أقل إعمالاً للعقل ولكنها أكثر شاعرية، ولذا فاحتمالية أن تدمر البيئة الطبيعية وتسبب دمارًا نفسيًا لشعوبها هى احتمالية ضئيلة. إنه فارق مثل تلك الازدواجية القديمة بين الفكر العلمى والفكر الملموس المفعم بالعواطف[١٠٩] . أمدت أفكار مارجلين عالَم التطور الاقتصادى بمثال يتسم بكثير من التنظير (فهو مثل هاجن عالم اقتصاد التطور) عن فقدان العالم غير الغربى للعقلانية.

قد ننجرف بعيدًا إذا ما اختبرنا المجادلات الموازية فى كل مجالات الفكر الاجتماعى. ما يأتى يكفى: فى الجغرافيا، أصبح منهج انتشار الأفكار الإبداعية مهمًا منذ الستينيات وبقى هكذا حتى اليوم. مازالت نفس الافتراضات القديمة عن القروية التقليدية غير الغربية مهيمنة. حتى يزعم بعض الجغرافيين بأن غير الأوروبيين غير قادرين عقليًا على استخدام كل الوسائل المتاحة كى يتكيفوا مع الأخطار الطبيعية مثل

الجفاف والأعاصير. قدم الجغرافى روبرت ساك نظرية مركزية أوروبية كلاسيكية عن المعرفة المكانية: معظم الشعوب غير الغربية (البدائيون ومعظم القرويين) لا يستطيعون التفكير بمصطلحات مكانية مثلما يفعل الأشخاص العقلانيون الراشدون الغربيون الجدد. من بين الشخصيات المهمه التى يستند إليها - فالمجادلة مستندة على أشخاص، وليست قائمة على دليل - ليفى برول وبياچيه[١١٠] . فى مجال التعليم فى الولايات المتحدة تعتبر الأشكال الجديدة لنظرية الازدواجية التطورية للرشد الغربى مؤثرة فى مناحى كثيرة بما فيها الاختبارات[١١١] . فى مجال الفلسفة هناك علاقة قوية بين تيار الأفكار عن العقلانية المناقش سابقًا وبين الولادة الجديدة لازدواجية العقل - الجسد كتلك التى نجدها فى تقاليد ديكارت وكانت وبالتحديد فى أفكار كانت الحديثة[١١٢] .

لا أقول إن معتقد عدم نضج الشعوب غير الغربية عقليًا مهيمن تمامًا على المجال البحثى الأكاديمى الجديد أو أن أحدًا لم يعترض على الصيغ السابقة . وبوجه عام، وعلى أية حال، يبقى المعتقد مسيطرًا إلى حد ما على كل مجالات الفكر ربما ما عدا الأنثروبولوچيا والاقتصاد. فقد حافظت الأنثروبولوچيا، مع وجود بعض الهفوات، فى العقود الحديثة على فكرة أن العقول البدائية ليست بدائية[١١٣] . وتحتاج بعض مدارس الاقتصاد لمبدأ العقلانية الاقتصادية الشامل بشدة كمسلمة لنظرياتهم مما يجعلهم مضطرين لمنح صفة العقلانية للجميع.

العقلانية والمعجزة الأوروبية

كثيرًا ما يطلق على فكرة العقلانية الأوروبية "الڤيبرية" وذلك لاستخدام ماكس ڤيبر لهذه الفكرة فى تفسيرات متنوعة عن التطور الاجتماعى الأوروبى، والأحكام السلبية بشأن عدم النضج العقلى للمجتمعات الأخرى. وعلى أية حال، لقد كان معتقد الرشد منتشرًا فى أوروبا فى أوائل القرن العشرين حينما نشرت كتابات ڤيبر المهمة عن هذا

الموضوع. ولكنه نظم المعتقد القديم وأضاف إليه، ولذا فيمكن بحق أن نطلق اسم ڤيبر على هذا المعتقد من منظور الوقت الحالى. يمكن كذلك أن نعتبر هذا المعتقد منتميًا إلى ڤيبر بمعنى آخر وربما يكون معنى أهم: وهو أن ڤيبر وضع التطور الاجتماعى الأوروبى فى إطار مؤكدًا على عملية التحديث ومقارنًا بينها فى أوروبا وبين "التقليدية" التى أحيانًا ما أطلق عليها تقليدية الحضارات الآسيوية. عندما أخذ نموذج التحديث مكانه بين الباحثين بعد الحرب العالمية الثانية، كان ماكس ڤيبر هو المصدر الاجتماعى الأساسى الأكثر وضوحًا، والأكثر منطقية لهذا النموذج. منذ هذا الوقت وفيما بعد أصبح الباحثون الذين كتبوا عن نهضة أوروبا واختاروا التأكيد على صفة العقلانية أو الصفات الاجتماعية والمؤسسات التى رأى ڤيبر أنها أساسية (هى نتاج صفة العقلانية الأوروبية) أصبح يطلق عليهم الڤيبريون لدرجة أو أخرى (حتى لو رفضوا جانبًا من نموذج ڤيبر). تكمن أهمية ڤيبر فى مناقشتنا للنظريات الحالية عن "المعجزة الأوروبية" فى حقيقة أن أكثر المدارس الفكرية تأثيرًا وربما هيمنة فيما يتعلق "بالمعجزة" اليوم هى ڤيبرية. ولذا تتطلب آراء ڤيبر عن العقلانية مناقشة مختصرة على الأقل:

قام ڤيبر بتحليل المجتمع الرأسمالى الغربى منذ أواخر القرن التاسع عشر وحتى أوائل القرن العشرين ملقيًا الضوء على تفاصيل دقيقة ومستخدمًا بصيرة نافذة، شابتها بعض الشوائب فى بعض الأحيان. لقد تمسك بالغرور الذى تميز به وقته ومكانه وطبقته حينما فكر فى أن الرأسمالية الأوروبية هى تراكم لعملية التطور الاجتماعى، التى كانت فى الأساس تطورًا فكريًا وارتقاءً "للرشد" الإنسانى بمعنى الفكر والأخلاق من المجتمع القديم إلى الحديث. (كانت لديه شكوك عن احتمالية عملية ارتقاء أخرى فى المستقبل) فى كل مرحلة من مراحل هذا التطور، اخترع الناس أشكالاً اجتماعية جديدة مثل الأشكال العليا للدولة والنظام القانونى والبيروقراطية والاقتصاد والمدينة وهكذا. ولكن كانت تلك الأشكال نتائج للرشد العقلى أكثر منها أسباب تطور. ولكن السير باتجاه مجتمع أكثر رشدًا أخذ مكانه فى أوروبا وبين

الأوروبيين. أما خارج نفق الزمن الأوروبى فكانت كل المجتمعات على درجات مختلفة من التقليدية وعلى درجات مختلفة من اللارشد.

لم يتناول ڤيبر السؤال الخاص بلماذا عرض الأوروبيون نضجهم العقلى على أنه السبب الأساسى فى المقام الأول باستفاضة. لقد استحضر عوامل متعددة منها، كما لاحظنا سابقًا، كانت هناك أسباب عرقية وبيئية وأخرى ثقافية. ولكن نادرًا ما ناقش ڤيبر الأسباب من جذورها، أى محاولة تفسير نضج الأوروبيين العقلى الفريد الذى اتصفوا به منذ وقت بعيد أى قبل فترة الإصلاح الدينى البروتستانتى والحداثة(١١٤). والسبب وراء هذا هو رأيه فى العلّيّة الاجتماعية، والأفكار والقيم وتطور تلك الأفكار والقيم التى عوملت على أنها الأسباب الرئيسية للعمليات الاجتماعية والهياكل الاجتماعية والتغير الاجتماعى. مع تسليمنا بهذا المفهوم، ليس من المتوقع منه إذًا أن يبحث عن الأسباب غير الأيديولوچية للأفكار والقيم. مع العلم بأنه قد كانت هناك أسباب أخرى بلا شك.

لقد وصف ڤيبر كل ما اعتبره السبب الأساسى للاختلافات بين المجتمع الأوروبى المتطور الرشيد والمجتمع الآسيوى التقليدى اللاعقلانى (نادرًا ما التفت إلى أمريكا وأفريقيا). قام بوصف هذه الاختلافات المزعومة بدقة شديدة، وضمّن كتابه التاريخ الاقتصادى العام والخُلُق البروتوستانتى وروح الرأسمالية أكثر مجادلاته أهمية. أدى تطور الرشد بين الأوروبيين - كيفما حدث هذا - إلى نوع خاص من "الخلق الاقتصادى" وهو مجموعة من القيم والطموحات والعمليات الفكرية المنطقية التى ظهرت مرتبطة مع الإصلاح الدينى (وعلى الأخص البيوريتانى) وأثمرت الرأسمالية. إن النقطة الأساسية هنا هى أن الرشد أنتج "الخلق الاقتصادى" للرأسمالية والحركة البروتوستانتية معًا. لم يكن ڤيبر (كما يظن البعض) مفسرًا للرأسمالية والحداثة من منظور دينى ضيق. فهو يستدعى الدين لتفسير عدد من جوانب التقليدية الآسيوية

المزعومة، ونرى كذلك بدائية تشكل أساسًا للدين (يكتب على سبيل المثال عن "التقليدية السحرية" للهنود والصينيين)[١١٥] .

ينتج رشد الأوروبيين اختلافات تاريخية مهمة أخرى بين أوروبا وغيرها. فالأوروبيون محبون للحرية، غير مقيدين بالاستبدادية الشرقية؛ يؤدى هذا إلى شكل للمدينة أكثر حرية من المدينة الآسيوية. نظر ڤيبر إلى الشكل الثانى للمدينة على أنه (فى جوهره) كيان مادى تتحكم فيه إمبراطورية مسيطرة، أما الشكل الأول فهو شكل جديد للمجتمع ظهر فى العصور الوسطى ممهدًا الطريق للحداثة[١١٦] . (كما سنناقش فى الفصل الثالث لم تكن المدن الآسيوية كما وصفها ڤيبر. كانت بعضها مدنًا فى دول حرة وأخرى كانت حرة تحت مظلة إمبراطورية مفككة. وعلى الجانب الآخر، كانت المدن الأوروبية أقل استقلالية مما اعتقد ڤيبر). كانت نظم ملكية الأرض أيضًا مختلفة بسبب اختلافات فى الرشد: فى أوروبا فقط كما يقول ڤيبر (هنا يقدم وجهة نظر أوروبية تقليدية صرفة) يظهر مفهوم الملكية الفردية بحق. تعد الإقطاعيات بحق ملكية فردية. وقد كان ينظر إلى الملكية الآسيوية على أنها ببساطة تخصيص مؤقت للأرض كمصدر للدخل لأصحاب المقام الرفيع، كشكل من أشكال الرواتب يعطى مقابل الخدمة، وعادة ما يعود للدولة. ولكن الإقطاعيات الأوروبية كانت تُمنح، قانونيًا وفعليًا، على أساس خدمة انتفاع بمكان، وفى كلتا القارتين اتجهت تلك الأنواع من الممتلكات لأن تورث، وتصبح تدريجيًا ملكية خاصة (انظر الفصل الثالث). بالطبع، يتحدث ڤيبر عن اختلافات أخرى مزعومة بين أوروبا وغيرها، ولكن تكفى الأمثلة المقدمة هنا لعرض منهجه العام.

لم يكن ڤيبر هو صاحب معظم تلك المجادلات، بالرغم من أنه قام بتصنيفها وتطويرها بأسلوب رائع. ولكن الفضل دائمًا ما يرد إلى ڤيبر، وتعد نظريته من أهم شروحات "المعجزة" الأوروبية. يمكن أن نلخص الشكل الأساسى ببساطة. السبب الجذرى هو الرشد. وتأثير اختلاف درجة الرشد، بالنسبة لأوروبا، يعنى التقدم الدائم

والحداثة، والرأسمالية. وفى غيرها الركود والتقليدية، وصفات ثقافيــة لاعقلانيــة عديده مثل الخرافات. النموذج هنا ببساطة هو نظرية الانتشار: نجـد الرشــد وبالتالى الحداثة دائمًا فى أوروبا. لا يتقدم العالم غير الأوروبى إلا عن طريق نشر الصفات الأوروبية.

اتسع مجال استخدام معتقد "الرشد الغربى" اليوم فى تفسيرات عن نهضة أوروبا الفريدة "ومعجزتها". لم يعد يعزى رشد الأوروبيين المتميز ولو بطريقة ضمنية إلى التفوق العرقى، ولكن كيف يمكن للمؤرخين التأكيد على واحد دون الآخر وهو ليس بالسؤال الذى يمكن إجابته بسهولة. وبصورة عامة، خُصصت العلّيّة للمناطق التى يعتورها الغموض فى التاريخ القديم، وربما مع تأمل بين الفينة والأخرى للقرويين الأوروبيين الأحرار القدماء أو لشرور الاستبدادية الشرقية، ومع اقتباس طقسى لماكس فيبر. لمؤرخين عدة، أظن أن فكرة الرشد الأوروبى تعد بديهية. والأوروبيون – لأى سبب كان – جُبلوا على هذا النحو.

يمعن إيريك چونز النظر فى الرشد كتفسير لتفوق أوروبا التاريخى فى المعجزة الأوروبية. حيث يزعم بأن هناك نقصًا أساسيًا فى الرشد بين الآسيويين والأفارقة. كما يقدم تأكيدات مكثفة مع محاولة صغيرة لتفسير تلك اللاعقلانية المزعومة، للدرجة التى يصعب معها تجنب الشك فى أن چونز، ربما من بين مؤرخى "المعجزة" المحدثين، كانت لديه انحيازات عميقة. لقد تم استبعاد الأفارقة فى مناقشة مختصرة لعدم وجود أى أهمية تاريخية لهم. فهو يصفهم على أنهم أقرب للوحوش منهم للبشر:

> **كيَّف الإنسان نفسه مع الطبيعة فى أفريقيا. شعر الصياد أنه جزء من البيئة وليس خارجها ناظرًا إليها فى إعجاب، وبالتأكيد ليس أعلى منها أو متفوقًا عليها. وقد كانت هناك كائنات تأكل اللحوم سعت وراء الإنسان كفريسة. أكثر الرموز إثارة للعواطف فى هذه الوحدة البيئية هم مرشدو العسل ... الطيور المعايشة**

للإنسان، فهى تطير وتزقزق بصوت عالٍ متقدمة جموعًا من الصيادين تقودهم للأشجار التى بها خلايا النحل البرى، ثم تتغذى على الشمع بعد أن يكسر الإنسان تلك الخلايا(١٥٤)(١١٧) .

إنها صورة طرازين. كان معظم الأفارقة مزارعين وليسوا صيادين (ناقشنا هذا سابقًا). يعد العصفور الدورى الذى يعيش على لحم الفطائس أيضًا متعايشًا مع الإنسان فى ضواحى لندن، ولكن يتحدث چونز فقط عن هذا بالنسبة للأفارقة. (يستحضر علم الإيثولوجيا(*) بشكل مشابه بالنسبة للآسيويين)(١١٨) :

كان هناك دافع ضئيل أو ضغط للتطور أو الاختراع ..وأى ضغط ... كان تأثيره يتلاشى من خلال استخدام العبيد بدلاً من تحسين الأساليب ... بطريقة أخرى أنفقت الثروة على بنود الرفاهية ... (كان هناك) عدم أمان منتشر نتيجة للصراع والإغارة على العبيد (١٥٥-١٥٦).

لذا افتقر الأفارقة لصفة الاختراع، كما كانوا عدائيين، محبين للرفاهية، نخاسين وعبيدًا. كما كانوا صيادين أقرب للوحوش التى صادوها. "وعليه لم يكن واضحًا إمكانية أى تطور فطرى خاص بهم"(١٥٦).

لا يفكر الآسيويون بطريقة منطقية. هناك "غياب نسبى لتقاليد البحث الإمبيريقى والنقد الخاص التى ترتبط بالتقاليد اليونانية - اليهودية - المسيحية"(١٦١). و"هناك نقص فيما يختص بتقاليد المناظرات المنطقية الواضحة " التى قد تفسر "فشل" العلم

(*) Ethology علم دراسة سلوك الحيوانات فى بيئتها الطبيعية.

الآسيوى"(١٦٢). "قد يبدو مفهوم الإجماع فى فهم الطبيعة عبثيًا"(١٦٢). أى قد لا يكون الآسيويين قد امتلكوا القدرة على التدقيق العلمى للتمييز بين الحقيقة العلمية والزيف. كانوا غير خلاقين: "قامت المؤسسات الآسيوية بكبت الإبداع أو حولته إلى إنتاج رفاهيات حسية"(٢٣١).

كان للآسيويين سلوكيات وقيم قهرت التقدم. "تؤكد الفلسفات الشرقية على المشاعر والقيم والكونيات" على حساب الفكر الإمبيريقى (١٦١). الشرقيون كسالى(١٦٣). فهم (مثل الأفارقة) لديهم "حب للرفاهية"(١٧٠)، كما يحبون شراء أشياء مثل ريش طائر الرفراف ... الأحجار الثمينة ... أدوية لا تمتلكها أى دساتير للأدوية"(١٦٤). لديهم "روح خانعة"، كما تفتقر جيوشهم للضباط "الحازمين الصغار"(١٦٧). هم انطوائيون، ينظرون إلى الداخل، فهم "مجتمعات غير متحركة ولا تمر بتجارب مثيرة" ويعيشون فى "عزلة" فرضوها على أنفسهم (١٧٠). يفتقدون الدافع للاستكشاف (١٦٨، ١٧٧، ٢٠٣، ٢٣١). خاضوا حروبًا لا معنى لها (١٦٩، ١٨٨، ١٩٧)، ليس لديهم نظام قانونى مكتوب (١٦٤، ١٨٨، ١٩٧)، وليس لديهم مفهوم للحدود السياسية (١٦٧، ١٩٤). هناك الكثير من اللصوصية والقرصنة (١٨٩، ١٩٩، ٢٠٩، ٢٢٩-٣٠).

فى معظم الأحكام من هذا النوع (الذى قدمت منه نموذجًا فقط) يشير چونز إلى الآسيويين بشكل عام وعلى مدار جميع الفترات فى تاريخهم[119] . هناك بعض الأحكام أكثر تحديدًا. كان المجتمع الإسلامى فى وقت معين مبدعًا، يستعير التكنولوچيا من غيره من المجتمعات ويحافظ على علوم اليونان القديمة. (ذاك هو المعتقد المركزى الأوروبى النموذجى: حافظ العرب على العلم اليونانى خلال عصور الظلام ثم سلموها ثانية إلى أوروبا للمزيد من التطوير، شىء يشبه مكتب الأمتعة المفقودة). قضت الإمبراطورية العثمانية (كانت المثال الوحيد والحقيقى على الثقافة الإسلامية كما رآها چونز ووصفها على أنها رمز الإسلام ككل وفى كل زمان) على

الفكر الابتكارى. لقد أنتجت اللاعقلانية والتخلف والانحطاط، "غشاوة من الفكر الغامض"(١٨٣). لم يعرف العثمانيون حتى "الحقائق الأولية للجغرافيا"(١٨٤) ولم يستطيعوا حتى عمل خرائط جيدة (١٧٩) (چونز نفسه لا يعرف الكثير عن الجغرافيا والخرائط). فى الغالب كان الحكام "منحلين"، "مدمنى خمور"، "لديهم خلل عقلى"، ماجنين" يحكمون باستبداد وإرهاب (١٨٦-١٨٧)، قامت "فلسفتهم" على السرقة والسلب التى "لم يكن يقابلها رادع من القانون"(١٨٧-١٨٩).

أما المجتمع الهندى فكان "متجمداً" اجتماعيًا ونفسيًا (١٩٢)، ذا قيم ضارة بالتقدم الاقتصادى. كان الدين يستدعى لإجازة كل الأعمال، ولكن نصيحة المستشارين الدينيين كانت "خبيثة أو عشوائية"(١٩٥). كان الحكام المغول(*) مثل العثمانيين منحلين، يديرون المجتمع لمصلحتهم، "ذوو أنانية حسية"، للنساء وللمجوهرات، كما كانوا يهوون جمع الحيوانات، والمكائد، والخيانة (١٩٦). كانت الدولة كلها قائمة على السلب. كانت التكنولوچيا "راكدة" ولم تكن حتى تقلد الخارج (١٩٩). "لم يوجد نظام قانونى مكتوب" كما يقول چونز فى تحريف عجيب (١٩٧).

كانت الصين مخترعة ومبتكرة تكنولوچيًا حتى أوائل العصور الوسطى عندما توقف التقدم. كان هناك "تراجع" بعد ذلك (٢٠٣)، حتى إن بعض المهارات قد نسيت. بعض المهارات. أصبح الصينيون "ينظرون داخليًا"(٢٠٣، ٢١٦، ٢٢٠). و"تأخرت" الصين بعيداً عن التكنولوچيا، وعن التجارة، وعن الاستكشاف. توقف التطور التكنولوچى حتى فى الزراعة وما أنقذ الصينيين مؤقتًا من الكارثة هو زراعة أرض جديدة مع القطع العشوائى للغابات، مع وصول منتجات العالم الجديد مثل الذرة والبطاطا الحلوة فى وقت مناسب لحسن الحظ، بالرغم من أن قطع تلك الغابات كان

(*) إمبراطورية المغول الإسلامية التى حكمت شبة جزيرة الهند فى الفترة مابين أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر .

"أحد الغباوات البيئية الكبيرة للعنصر البشرى" ذلك الغباء الذى أدى إلى "تعرية التربة، والجدب، وتكون الغرين، والفيضانات"(٢١٣). (من الواضح أن إزالة أشجار غابات أوروبا وأمريكا الشمالية لم يكن عملاً "غبيًا"). عاش الفلاحون فى ظل "الحقد والشك"(٢٠٦)، كانوا كمزارعين أغبياء (٢١٢-٢١٧)، كما كانوا أغبياء فى تفضيل "أعلى معدلات التكاثر القصوى" على "الرخاء"(٢١٨).

كانت الدولة الاستبدادية "مضخة للدخل" بالنسبة للحكام، ولا توفر أى خدمات (٢٠٦). (مرة ثانية) كان هناك حب للرفاهية، وموقف "التفوق الثقافى الأجوف"(٢٠٥)، وطبقة حاكمة فاسدة ومرتشية وطفيلية. كان للصينيين "عادات غير اجتماعية" (٧) كما كانوا مرضى.

يستدعى جونز علم الإيثولوجيا فى توصيف الآسيويين والأفارقة، كانت المحاكم الشرقية أماكن لاستعراض "علاقات السيطرة" (١٠٩-٢٠٩). وكان لتعدد الزوجات "دلالة إيثولوجية" مثلما كان "تجميع العبيد" لأغراض استعراضية". "وكان هناك اهتمام كبير برموز الإذعان مثل الانحناء والركوع والسجود"(٢٠٩). وفى الهند كانت هناك "حسابات مشابهة متضمنة فى السلوك الديموغرافى وتبجيل البقرة"(١٩). تذكر علاقات الاستغلال Commensalism فى أفريقيا.

تلك المعتقدات عن النقص الأخلاقى والفكرى لغير الأوروبيين هى انحيازات الحقبة الاستعمارية القديمة التى يقتبسها جونز. أعتقد أن المعجزة الأوروبية التى تعامل معها بجدية بعض المؤرخين هى جزئيًا انعكاس للدرجة التى مازالت تلك الانحيازات تقبع فى غياهب البحث الأكاديمى على شكل معتقدات ضمنية.

كثير من مؤرخى "المعجزة" الآخرين يحاولون إدخال صفة الرشد الأوروبية على أسس نظرياتهم التفسيرية أو بالقرب منها. يمكن أن نأخذ مايكل مان على أنه ممثل نموذجى لهذا اللون. لقد ناقشنا نظريته الصغيرة التى صاغها حول الإندو - أوروبيين

الرائعين الذين عاشوا فى العصر الحديدى فى الغابات الشمالية، وكيف أنهم كانوا مستقلين، ومغامرين، ومحبين للحرية (كل المفاهيم من الفترة الأولى للبحث الأكاديمى منذ القرن التاسع عشر وجميعها ليست مبنية على براهين سواء بالنسبة لأوروبا أو غيرها). ينتقل مان بسلاسة لليونان القديمة التى يراها نتاج الجذور الأولى للرشد الإندو - أوروبى. اخترع اليونانيون كل الأشياء التى تتطلب إعمال العقل من العلم وحتى الديموقراطية والأخلاق (احترام الإنسانية). أسهمت شعوب البحر الأبيض المتوسط الأخرى بالقليل مقارنة بالإندو - أوروبيين العقلانيين الذين نزحوا من الشمال. (حتى التأثير الرومانى الذى سخّر الفلاح الأوروبى كان يُنظر إليه على أنه "غير أوروبى" (١٢٠)). تتحرك مجريات الأمور بعد ذلك ناحية الشمال الغربى حيث يزيل الأوروبيون الأشجار من الغابات، ويدفعون ما يطلق عليه مان "جناح المقدمة" فى المجتمع الأوروبى باتجاه الأمام ناحية ما يبدو وكأنه الغاية المقدرة: بريطانيا(١٢١) . فى أوائل العصور الوسطى حوالى ٨٠٠ بعد ميلاد المسيح يظهر لدينا مرحلة جديدة من الرشد تجمع ما بين الثقافة القديمة والمسيحية الجديدة. يظهر الأوروبيون الآن "قلقهم العقلانى" وقدرتهم الفريدة على الاختراع منتجين نظامًا زراعيًا ثوريًا وما هو أكثر من ذلك. إن التفسير هو صفة الرشد القديمة، وعقلانية المسيحية الجديدة، والبيئة الأوروبية الرائعة(١٢٢) . يعد هذا بالنسبة لمان جوهر المعجزة الأوروبية. الجانب الوحيد فى هذا التصور الذى يتطلب تعليقًا إضافيًا هو نظرية الثورة التكنولوجية فى العصور الوسطى. وهذا ما سنناقشه فى الجزء التالى.

أسهم لين وايت الابن بشكل مؤثر جداً فى معتقد الرشد بنظريته عن قدرة الأوروبيين الفريدة فى العصور الوسطى على الاختراعات التكنولوجية. وهى نظرية سنناقشها فى الجزء التالى. يشارك چون هول بنسخة أخرى تشبه فى كثير من جوانبها نظرية مان فيما عدا تأكيده على اختراع الأوروبيين للسياسة الرشيدة، كما أنها تشبه نظرية إريك چونز فى أحكامها السلبية على التاريخ الآسيوى. لا يتسع لى

المجال هنا حتى أراجع الأسلوب الذى يستحضر به المؤرخون المعاصرون نظرية الرشد الغربى كأساس لنظرياتهم عن المعجزة الأوروبية. يجب أن ألاحظ أن بعضًا منهم ماركسيون أو قريبون من الماركسية. يتسع مجال مجادلة بيتى أندرسون، على سبيل المثال، من الرشد فى اليونان القديمة وإلى التقدم الأوروبى فى العصور الوسطى. وكذلك م. فاينلى. أما روبرت برينر فيسهم بنظرية ماركسية عقلانية مختلفة جداً. لم يكن هناك نضج عقلى حتى، وذلك تم فجأة، ظهرت الرأسمالية بين المزارعين الإنجليز من صغار الملاك الذين أصبحوا مخترعين مذهلين فوراً، وبذا بدأت الثورة التكنولوچية التى لم تنته للآن[١٢٣] .

التكنولوچيا

من بين الطرق المحدودة النظر إلى التاريخ تعتبر الحتمية التكنولوچية هى أكثرهم تجانسًا مع وجهة نظر التاريخ النفقى فى المركزية الأوروبية. فلها شكل وإيحاء وبرودة الحقيقة العلمية. " لقد اختُرع (أ) هنا فى هذا التاريخ وأدى إلى هذه النتائج". حينما نتحدث عن الأمور المتعلقة بالتكنولوچيا، يمكن أن ننفى دخول المركزية العرقية الصورة: "هذه حقيقة جامدة لا تقبل الجدل". كما أن دلالة التكنولوچيا لا تقبل الجدل بنفس القدر: فالآلة الجديدة تنتج غذاء أكثر، سلاح جديد يتسبب فى إصابات أكثر، بينما الشكل الاجتماعى الجديد قد يكون له دلالة تاريخية أو قد لا يكون له أى دلالة. ولكن تستمد الحتمية التكنولوچية قوتها الكبيرة من الخطأ المعروف بـ "اختزال التاريخ". عندما نسافر بعقولنا راجعين إلى أوروبا فى العصور الوسطى، فإننا نمر خلال الحقب التى كان فيها الأوروبيون متفوقين تكنولوچيًا على غيرهم، ونميل إلى التوقع بأن ذلك التفوق كان من طبائع الأمور فيما سبق. ولكن أوروبا تقدمت تكنولوچيًا على آسيا وأفريقيا بعد بداية الثورة الصناعية. حتى إن أوروبا لم تتقدم على باقى الحضارات الأخرى تكنولوچيًا أو علميًا إلا فى القرن السابع عشر أو حتى بْعد ذلك. باستخدام

"اختزال التاريخ" نسبغ على العصور الوسطى الصفات التكنولوچية الرائعة لأوروبا الحديثة. إنها فقط خطوة صغيرة لنصل إلى نتيجة حيث إنه من الواضح أن التكنولوچيا سبب قوى فى التاريخ، وحيث إن أوروبا تعد دائمًا تكنولوچية، فهنا تكمن جذور المعجزة الأوروبية.

ولكن الأدوات لا تخترع أو تنتج نفسها. عندما نتحدث عن الحتمية التكنولوچية، يجب علنيا ألا نوضح أسباب ظهور التكنولوچيا فقط، ولكن يجب كذلك أن نشرح لماذا اخترعت وبواسطة من. (على ما أعتقد) تنتهى كل مجادلات الحتمية التكنولوچية تقريباً، التى كانت جزءًا من تفسير تقدم أوروبا التاريخى، بأن تصبح مجادلات عن المخترعين وليس المخترعات. تنتهى بنوع من الادعاء القائم على نظرية ڤيبر بأن الأوروبيين هم أكثر ابتكاراً وإبداعًا و"رشداً" من غيرهم. إذًا تختلف الحتمية التكنولوچية عن نظريات التاريخ النفقى الأخرى فى ادعائها بأن الأوروبيين العقلانيين تقدموا بمجتمعهم للأمام عن طريق اختراع تكنولوچيا جديدة، وليس عن طريق اختراع نظم سياسية جديدة، وأشكال جديدة من النظام الاجتماعى وديانات جديدة أو أى شىء آخر.

يقدم بعض مؤرخى المركزية الأوروبية ادعاءات بأن التكنولوچيا كانت هى المحرك الأساسى فى جميع الأزمنة منذ فترة ما بعد العصر الحجرى الجديد وفيما بعد. يعد من الصعوبة بمكان اليوم تجاهل الدليل على أنه فى العصور القديمة جاءت الابتكارات التكنولوچية العظمى فى الزراعة والمواصلات ومجالات أخرى إلى أوروبا من الجنوب والشرق، أى تبدأ المجادلات التكنولوچية مع العصور الوسطى. ومع ذلك يوجد استثناءات. كما لاحظنا سابقًا فإن مايكل مان قام بإحياء المفهوم القديم بأن اختراع الحديد أحدث تغييراً كاملاً فى المجتمع الأوروبى القروى بطريقة لم تتم فى أى مكان آخر؛ حيث أنتج نوعًا من المجتمع يعد مبتكراً وMولعًا بالامتلاك (إلخ) له جذوره فى الفلاحين المتحدثين بالأندوأوروبية الذين يستخدمون المحراث الحديدى، كما يدعى على التوازى أن الاستبدادية الشرقية فى الشرق الأوسط القديم عطلت الابتكار التكنولوچى

حيث كان الفلاحون تحت وطأة النظام السياسى الذى فرضته تكنولوچيا الرى. ولكن يعارض هذه النظرية كم هائل من الأدلة. هناك الكثير المعروف عن التطور التكنولوچى فى الشرق الأوسط خلال تلك الفترة (منذ أواخر العصر الحجرى الجديد وحتى ما بعد "العصر الحديدى") مما يجعل مفهوم عدم القدرة على الابتكار غير معقول. ولكن لم تخترع أعمال الحديد فى أوروبا. ربما جاءت من الشرق الأوسط، ولكن هناك بعض الأدلة عن مكان بعيد قد يكون (غرب أفريقيا). استخدمت المحاريث فى الزراعة فى الشرق الأوسط سواء القائمة على نظام الرى أم لا، كما استعملت كذلك فى الزراعة الأوروبية. وقد تكون المحاريث استخدمت فى الصين قبل أوروبا. لذا فالمجادلة التكنولوچية التى قدمها مان (وغيره آخرون) لا تعد سليمة، كما أن الاستنتاجات النفسية والاجتماعية يجانبها الصواب كذلك.

إن كثيرين من مؤرخى "المعجزة" مستعدون للبدء مع اليونانيين القدماء، ويعرفون هذا الشعب على أنهم المخترعون الأوروبيون الأصليون. ولكن اليونانيين لم يسهموا فى التقدم التكنولوچى أكثر من جيرانهم فى الجنوب والشرق. لذا فالمجادلات من هذا النوع تعود أدراجها إلى فكرة "الرشد" المجردة وذلك بسبب احتمالى أكثر منه واقعى كما أسلفنا. الرومان بدورهم كانوا مخترعين بدرجة متوسطة وكذلك كان جيرانهم. فى عصور الظلام الأوروبية، وكما يتفق الجميع نادراً ما كان التطور التكنولوچى مؤثراً وفى الحقيقة كان يسير بخطوات سليمة فى أفريقيا وآسيا. أظن أن غالبية المؤرخين اليوم لا يتفقون مع مايكل مان وغيره فى الزعم بوجود تقدم تكنولوچى فريد فى أوروبا قبل العصور الوسطى، بالرغم من انتشار هذا الرأى حتى عقود قليلة ماضية. سيعترض الكثيرون على إيريك چونز فى المعجزة الأوروبية حين يقول إن أوروبا تعد "حضارة فريدة فى تراكمها الدائم للمعرفة التكنولوچية " (ص. ٤٥)، حيث إنه لا يوجد شىء غير عادى فى هذه العملية فى المجتمع الإنسانى.

برزت المجادلات التكنولوچية فى العصور الوسطى. هنا كثيراً ما نواجه مفهوم "الانطلاق التكنولوچى نحو الحداثة" بين مؤرخى "المعجزة" الأوروبية. تتخذ المجادلة الشائعة هذا الشكل: كان الأوروبيون الشماليون شعبًا متخلفًا بحق حتى أواخر عصور الظلام، فى أوائل العصور الوسطى عندما حدث نوع من اليقظة نجد الأوروبيين الشماليين يظهرون فجأة على أنهم من نعرفهم اليوم: أكثر شعوب العالم ديناميكية وتقدمًا وإبداعًا ونهضة سريعة (إلخ). وكان مفتاح تلك النهضة هو مجموعة من الابتكارات التكنولوچية فى العصور الوسطى، مركزين فى الأساس على الاختراعات الأوروبية، فى حين أغفل هؤلاء المؤرخون المناطق غير الأوروبية. لذا فقد قدموا لنا شكلاً تقليديًا لنظرية التاريخ النفقى فى المركزية الأوروبية.

لين وايت الابن هو مؤرخ أمريكى يقدم كتابه "تكنولوچيا العصور الوسطى والتغير الاجتماعى" ذلك النوع من الحتمية التكنولوچية فى مجادلات التاريخ النفقى ربما فى شكلها الأوضح. نشر هذا الكتاب عام ١٩٦٢ وكان له تأثيرٌ كبيرٌ. بُنيت مجادلاته على نظريات كثيرة لمؤرخى "المعجزة" بما فيهم مان، وچونز، وهول (الذين لا يستشهدون بالكتاب مرارًا فى كتاباتهم فقط، بل يعتمدون عليه فى كثير من المجادلات التكنولوچية التى يستخدمونها لدعم نظرياتهم). إن الكتاب هو مجهود لتوضيح كيف كان الاختراع والابتكار التكنولوچى هو السبب الأساسى لنهضة أوروبا خلال العصور الوسطى. يسرد وايت قائمة من الاختراعات الأوروبية المزعومة ويوضح الآثار الرائعة لكل منها فى التاريخ الأوروبى. ولدينا هنا مثال مبدئى: كان لاختراع الركاب الحديدى فى العصور الوسطى "تأثير حافز للتاريخ". فقد سمح لنوع جديد من الحرب التى تستخدم فيها المطايا، وخلق هذا ظاهرة فارس العصور الوسطى، كما أدى إلى وجود النظام الإقطاعى (حيث أصبح الفرسان من أصحاب العزب). وبذا "وجد الرجل على ظهر الحصان كما عرفناه فى الألفية السابقة بسبب اختراع الركاب"(١٢٤) .

ولكن تهتم مجادلات وايت الأساسية بالتكنولوچيا الإنتاجية وعلى الأخص التكنولوچيا الزراعية. يدعى وايت أن الثورة الزراعية حدثت فى أوروبا (أو بالأحرى فى شمال أوروبا) فى أوائل العصور الوسطى وأدى ذلك إلى تغيير المجتمع الأوروبى تغييراً شاملاً، وأصبح جزءًا كبيراً من تفسير الحداثة ونهضة الرأسمالية. يعتقد كذلك أن ثلاثة اختراعات أوروبية كانت هى صلب الموضوع: المحراث الثقيل ولجام الخيل (ومن ثم استخدام قوة الحصان) والدوران الثلاثى فى الحقل.

يجر المحراث الثقيل مجموعة من الثيران (عادة ثمانية) وأصل هذا الاختراع طبقًا لوايت هو وسط أوروبا فى القرن السادس، ومن ثم انتشر سريعًا فى الشمال الغربى لأوروبا، "وقد أسهم كثيراً فى قوة أسرة كارولينج(*) فى القرن الثامن"[١٢٥] . أصاب وايت حين يسترعى الانتباه، كما فعل من سبقوه، لأهمية المحراث الثقيل كابتكار زراعى فى الأجزاء الأكثر برودة ورطوبة فى أوروبا.

كانت له ميزة كبيرة فى تفتيح التربة الطينية الثقيلة لسهول شمال أوروبا، وتلك الأعمال العميقة فى التربة كانت مهمة لطقس شمال أوروبا الرطب. فى الحقيقة كان ضرورياً للتوسع المكانى للفلاحة فى التربة الرطبة. وهكذا أدى استخدام المحراث الثقيل إلى الزيادة الكلية للإنتاج الزراعى فى العصور الوسطى. ولكن المحراث الثقيل فى الحقيقة لم يُخترع فى أوروبا فى العصور الوسطى. كانت المحاريث التى تجر بواسطة أربعة وعشرين ثوراً مستخدمة فى الهند قبل ميلاد المسيح[١٢٦] . استخدمت جنوب أوروبا المحاريث الأخف وذلك لأن التربة كانت أخف وأجف، ولكن التكنولوچيا لم تختلف. يبدو من المؤكد أن المحراث الثقيل إما أن يكون قد انتشر فى شمال أوروبا من مكان آخر، أو أنه كان تأقلمًا محليًا لشكل أداة واسعة الاستخدام. إذًا هذه ليست

(*) أسرة كارولينج: أسرة نبيلة ترجع إلى أصول چيرمانية غربية أحكمت سطوتها فى أوروبا فى القرن السابع . عززت تقاليد مثل الحكم الوراثى كحق إلهى ممنوح للحكام حيث استمدت قوتها من تحالفها مع الكنيسة .

ثورة تكنولوجية أوروبية. ولذا يمكن أن يعود الفضل فى آثار ذلك الابتكار فى شمال أوروبا إلى القوى الاجتماعية التى أدت إلى تقديم المحراث الثقيل وليس للتكنولوچيا نفسها. نعرف، على سبيل المثال، أن نمو الإقطاع أدى إلى توسع هائل فى الزراعة كحافز للوردات الذين رغبوا فى زيادة ثرواتهم وقوتهم عن طريق توسيع مناطق نفوذهم من ناحية، ومن أخرى كرد فعل للفلاحين للمطالب المتزايدة والملحة من اللوردات لتوفير فائض من الإنتاج، تلك المطالب التى تراكمت لدرجة جعلت من الصعب تحقيقها لأنها ستعرض الأسرة الزراعية للخطر، إلا إذا وجد الفلاحون طريقة لزيادة الإنتاجية. من الواضح أن أى آثار تاريخية أرجعها وايت للمحراث، يجب أن تعود للإقطاع كنظام اجتماعى. كما أن الآثار التى قدمها هى بحق معجزة.

كما يقول وايت أدى تبنى فكرة المحراث الثقيل إلى نمو هائل فى تعداد السكان. ومن ثم كان هناك انتقال لنظام "الحقل المفتوح" فى الزراعة وذلك أدين طبقًا لوايت، لاختراع "الأنماط المجتمعية" communal patterns للتعاون الإنسانى (كما لو أن هذه الأنماط المعيشية لم تعرف من قبل، ولم تكن معروفة فى أى مكان آخر). كانت تلك ثورة اجتماعية، كانت بمنزلة "إعادة صياغة للمجتمع القروى". لقد كانت "جوهر اقتصاد العزب" مع تجاهل لحقيقة أن العزب كانت مملوكة للوردات وليس للفلاحين[١٢٧] . والأكثر أهمية من ذلك هو "تغير اتجاهات فلاحى الشمال نحو الطبيعة وبالتالى " ما هو لنا" (تأكيدى أنا). لماذا؟ لاضطرار الكثير من الأسر إلى التعاون لتركب محراثًا واحدًا ولذا أصبحت حصصهم مقرونة بإسهامهم الاجتماعى وليس باحتياجاتهم ("لا يمكن تخيل تغير جوهرى فى فكرة علاقة الإنسان بالأرض: كان الإنسان جزءًا من الطبيعة، أصبح الآن هو المستغل لها"[١٢٨]).

ولكن كل هذا هراء. فليس هناك أساس لهذه المجادلات التكنولوچية ولا الاستنتاجات الاجتماعية. يعطى كتاب دومزداى النسبة بين الأسر وفرق المحراث ٢-٣ و٣ - ٥[١٢٩] . يبدو أن نظام الحقل المفتوح كان قديمًا وقد انتشر فى أوروبا وعُرف فى

آسيا وشمال أفريقيا منذ وقت قديم(١٣٠) . لم تكن قرى الشمال التى استخدمت فرقًا كبيرة ومحاريث ثقيلة أكثر تعاونية من قرى الجنوب التى تستخدم المحاريث الخفيفة. أوجدت الملكية المشتركة للحقول فى بعض المجتمعات تعاونًا كبيرًا أكثر من ذاك الذى نجده فى نظام الحقل المفتوح فى أوروبا. كان اقتصاد الغرب نظامًا اجتماعيًا وليس اختراعًا تكنولوجيًا. وهكذا.

كانت الخطوة الثانية والثورية لدى وايت تسمى "اكتشاف قوة الحصان"(١٣١) . وُجد الحصان منذ فترة. وكان الابتكار المهم بالنسبة لوايت هو لجام الحصان الحديث، الذى يعتقد أنه ربما تطور فى الغرب فى وقت ما قبل القرن التاسع. طبقًا لوايت، غير لجام الحصان الزراعة ونقل الحبوب فى شمال أوروبا وذلك عن طريق إحلال الحصان محل الثور فى جر المحاريث والعربات. يجر الحصان نفس الوزن الذى يجره الثور ولكن ٥٠٪ أسرع. يستخلص وايت من هذه الحقيقة نتائج مهمة. يقول إنه كان هناك زيادة كبيرة فى الإنتاج الزراعى. بدأت التجارة فى التوسع بصورة مكثفة وذلك لرخص وسائل المواصلات المعتمدة على الحصان مقارنة بتلك المعتمدة على الثور. كبر حجم القرى وأصبحت مثل المدن تقريبًا، وذلك لإمكانية اتساع مجال الانتقال من البيت للحقل. توسع القرى أدى "بمقتضاه إلى حياة حضرية أكثر" تسمح للقرية بأن يكون لها كنيسة ونُزُل ومدرسة (يستطيع الأولاد الآن "تلقى العلم")(١٣٢) . والآن يمكن أن تتوافد "الأخبار من أقاليم بعيدة". إنه تغير شامل ذو أهمية عميقة. لقد جعل القرية "حضرية" وأعطى الفلاحين "الإعداد النفسى" "للتغيير فى الثقافة الغربية من الريف للمدينة"(١٣٣) . كل هذا وأكثر من ابتكار واحد: لجام الحصان.

ولكن كان لجام الحصان منتشرًا فى آسيا الأوروبية منذ زمن قديم، ولربما يكون قد اخترع لكبح جماح الجمل وليس الحصان (١٣٤). أما الافتراض المسبق بمزايا الحصان على الثور فى أعمال الحرث والمواصلات فقد تم دحضه: ربما يكون الحصان أكثر كفاءة، أما الاعتناء به فقد كان مكلفًا وتطلب ذلك تخصيص الأرض لزراعة

محاصيل تأكلها الحيوانات. لم يحل الحصان محل الثور فى إنجلترا. ولم يكن لحجم القرية أى علاقة بقوة الحصان. فى أماكن كثيرة من العالم كتلك التى لم يستخدم فيها الحصان كانت القرى أكبر من تلك فى شمال أوروبا. فى بلدان مثل الصين، كان يتم نقل الحبوب لمسافات بعيدة عن طريق القنوات بكفاءة أكثر من نقلها بواسطة العربة التى يجرها الحصان. ولذا فللمرة الثانية لا نجد أى معنى للمجادلات التقنية أو الاستنتاجات الاجتماعية.

وأخيراً نجد وايت يتحدث عن الآثار الرائعة لنظام الدورة الزراعية الثلاثية(*) three-field system . يعد جزء من هذه المجادلة مألوفًا لكل طفل أوروبى فى سن المدرسة حينما تعلم أن الدورة الزراعية الثلاثية تعد تقدمًا كبيراً على الدورة الثنائية وذلك لأنه قلل نسبة الأرض غير المزروعة من النصف إلى الثلث تقريبًا. ولكن يضيف وايت وفرة من النعم الإضافية. يمكن لزراعة الشوفان أن تنتشر ما دام هناك استخدام واسع لقوة الحصان. فى كتابه تكنولوچيا العصور الوسطى والتغير الاجتماعى وبالتحديد فى الجزء الذى يتحدث عن "الدورة الثلاثية والتغذية المحسنة" يدعى أن النظام الثلاثى يسمح للمزارعين بطريقة ما بزراعة البقوليات وأدى هذا إلى تحسين نظام الأوروبيين الغذائى الذى بدوره أدى إلى "تفسير الزيادة السكانية الهائلة ونماء وكثرة عدد المدن وزيادة الإنتاج الصناعى وامتداد التجارة، والروح المفعمة بالحيوية والنشاط التى بعثت الحياة فى أوصال هذا العصر". وباختصار يقول لين وايت الابن "كانت العصور الوسطى مفعمة بالحياة "(١٣٥) .

ولكننا لا نستطيع أن نأخذ أيًا من هذا مأخذ الجد. ليس هناك أساس لمجادلة وايت بأن معدل الزيادة السكانية كان ضعيفًا بسبب النظام الغذائى غير المتوازن

(*) نظام للزراعة يستبدل النظام القديم الذى يقوم على أساس الدورة الثنائية two-field system الذى كان يقوم على استغلال نصف الأرض وإراحة النصف الثانى باستغلال ثلثى الأرض وإراحة الثلث الثالث. (المراجع)

(حيث يقول إنه يزيد فى نسبة الكربوهيدرات على حساب البروتينات). لم يفتقد المزارعون الذين استخدموا نظام الدورة الثنائية البروتينات وذلك لأن زراعة البقوليات سبقت النظام الثلاثى، كما احتوت الحبوب على البروتينات، كما كانوا يستهلكون الفاكهة والمنتجات الحيوانية بكثرة. لم يكن النظام الثلاثى ثورة تكنولوچية. أولاً: حتى نظم الدوران المكثفة بما فيها النظم التى لا يوجد بها أراضٍ غير مزروعة كانت مستخدمة فى أجزاء كثيرة من العالم قبل العصور الوسطى، وأظن أنها كانت شائعة فى أجزاء من أوروبا (مثل مناطق سهول البو) حيث وجدت التربة العميقة الغنية بالمواد الغذائية وحيث وجدت أيضًا الطرق الموصلة بين المياه والأرض الزراعية. ثانيًا: كان هناك تفضيل للنظام الثنائى ولم يتم استبداله فى كثير من البيئات وفى المناطق التى كان ترك الأرض فيها بلا زراعة ضروريًا لرعى الحيوانات. إن الصورة معقدة، ولكن التعميم واضح: لم يكن النظام الثلاثى ثورة تقنية، كما لم يكن مصدر التغير الاجتماعى. بالإضافة إلى وجود أنظمة مشابهة له فى قارات أخرى أى لا يمكن القول بأنه كان اختراعًا أوروبيًا فريدًا.

فى تكنولوچيا العصور الوسطى والتغير الاجتماعى يقول وايت القليل عن أسباب التكنولوچيا الثورية. يقوم بهذا فى مكان آخر ونجد أن مجادلته الأساسية هى فى الحقيقة ڤيبرية[١٣٦] . تنوب الحتمية التكنولوچية فى الحتمية الأيديولوچية التى تركز على قدرة الأوروبيين على الاختراع - رشدهم - . ويرجع وايت هذا فى الأساس إلى الدين: جزئيًا إلى "الغائية اليهودية - المسيحية" وفى جزء أكبر إلى "المسيحية الغربية". الأولى هى أساس "إيمان الأوروبيين الفريد بالتقدم الدائم والمستمر"، الذى يقود إلى إيمان بفضائل القدرة على الاختراع والتكنولوچيا[١٣٧] . أما الثانى فينتج "تحققًا اختياريًا غربيًا للدوجما المسيحية برفعة الإنسان وسيادته الشرعية على الطبيعة"، أى الفصل بين الإنسان والطبيعة. تعد الطبيعة بالنسبة للمسيحى الغربى راكدة وبلا قيمة.

إنه من الكفر "التعامل مع الطبيعة على أنها روح"[١٣٨] . وهذا يعطى الرغبة والحق للمسيحى الغربى بأن يتحكم، ويستخدم ويغير الطبيعة، وأن يخترع تكنولوچيا جديدة. إن الأخطاء هنا صارخة. أولاً: هناك جهل بتعاليم الديانات الأخرى غير المسيحية. ثانيًا: يبعث وايت الحياة فى خرافة المركزية العرقية بأن الوثنيين القدماء وأتباع الديانات الحديثة غير المسيحية لا يستطيعون الفصل بين الإنسان والطبيعة ويشتركون فى وجهة نظر بدائية بأن الروح تسكن كل شيء. اعتقد الأوروبيون فى العصور الوسطى فى الحقيقة أن الروح تسكن كل شيء. (إنها إرادة الله). لم يتعاملوا مع البشر على أنهم منفصلون كليًا عن الطبيعة. تلك الازدواجية هى نتاج العصور الحديثة بسبب التعامل مع الطبيعة على أنها سلعة ونهضة الرأسمالية. إن الازدواجية معتقد فى الفكر ما بعد ديكارت وليس لها جذور عميقة فى "المسيحية الغربية". اعتقد المسيحيون فى العصور الوسطى أن العالم كيان واحد، سلسلة مستمرة من الوجود. لم يعتقد الناس فى العصور الوسطى بصورة عامة كما يدعى وايت "بالتقدم الدائم والمستمر"؛ اعتقدوا بالخطيئة، وبشكل عام بأن عملية الخلق كانت كاملة متكاملة. يختزل وايت التاريخ ببساطة كى يتسنى له الزعم بأن الاتجاهات الأوروبية بالنسبة للتكنولوچيا والتغير التكنولوچى هى أساسية وتعد صفات متأصلة فى ثقافة الأوروبيين، والأوروبيين فقط. إن أطروحته الأساسية هى نظرية التاريخ النفقى الأساسية: يتفرد الأوروبيون فى قدرتهم على الاختراع، ولذا فهم يخترعون تكنولوچيا فريدة ولذا يتقدمون.

أعتقد أن كل مزاعم التفوق التكنولوچى الأوروبى فى العصور الوسطى يمكن أن تواجه ويثبت خطؤها بنفس الطريقة. أظن أنه سيصبح واضحًا أن كل الحضارات فى هذا النصف من الأرض كانت تخترع تكنولوچيا جديدة وتتداولها فيما بينها. يعد هذا التداول هو الآلية العادية للانتشار التى كانت على نطاقين فى الواقع: التقنيات الزراعية التى انتقلت من مزارع لآخر، وتقنيات أخرى (بما فيها تلك المتعلقة بالزراعية التجارية) التى تتحرك خلال الشبكة المدنية من التجارة والمواصلات أو فى أحيان ما

(مثلما فى التكنولوچيا العسكرية) تتحرك وفقًا للخريطة فى حالات الغزو. لذا أرى تراكمًا للتكنولوچيا فى أوروبا وأفريقيا وآسيا. إنه فقط بعد ١٤٩٢ ومع تبعات هذا التاريخ الثورية استطاعت التكنولوچيا الأوروبية أن تحصل على السبق وتتقدم على آسيا وأفريقيا. هل أدى التطور التكنولوچى فى العصور الوسطى لإحداث تغيرات اجتماعية كبرى فى العصور الوسطى؟ أترك إجابة هذا السؤال للآخرين. إن هدفى فى هذا الكتاب ألا أدافع عن أى نظرية واحدة للتغير الاجتماعى، فقط أريد أن أوضح أن العمليات لم تكن أوروبية خالصة.

وفى الفصل الثالث سوف أناقش هذا الأمر مستعرضًا كيف ظهرت الشواهد التكنولوچية والاقتصادية فى أوروبا فى العصور الوسطى وفى أفريقيا وفى آسيا وكيف أن عمليات التغيير فى كل القارات الثلاث كانت متشابهة من حيث التكنولوچيا والاقتصاد.

قبل أن نترك موضوع التكنولوچيا هناك شىء يجب أن يقال عن أمر مدهش وهو ما أسميه "التركيبة الصينية". عُرف الكثير عن تاريخ التكنولوچيا فى الصين منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وهذا من خلال عمل جوزيف نيدهام ورفاقه[١٣٩] . فى الأزمنة السابقة كان لدى مُنَظِّرِى المعجزة الأوروبية النزعة لتجاهل الإنجازات التكنولوچية الصينية. (قام ڤيبر بهذا بصورة أقل من غيره[١٤٠]). كان النموذج المألوف هو الاعتراف بأسبقية الصين فى بعض الابتكارات، لكن الادعاء بحدوث التطورات التكنولوچية الأساسية فى أوروبا والبحر المتوسط. حيثما كانت هناك ابتكارات صينية ملحوظة غالبًا ما كان يتم الادعاء بأن الصينيين قاموا باختراع تلك الأشياء على سبيل اللعب، فى الوقت الذى قام فيه الأوروبيون بتشغيل هذه الأشياء. (النموذج بطبيعة الحال هو البارود حيث افتُرِض أن الصينيين اخترعوه للألعاب النارية فقط). نستطيع أن نجمع هذه الافتراضات فى نموذج كلاسيكى لنظرية الانتشار بالنسبة للصينيين:

كان لديهم تقدم على نحو ما فى العصور السابقة، ولكن تباطأت سرعتهم حتى توقفوا، وبدأوا من جديد حينما جلب الأوروبيون أفكارًا جديدة.

من المعروف الآن مما لا يدع مجالاً للشك أن التكنولوچيا الصينية كانت على قدم المساواة مع تلك التى فى الجزء الغربى من العالم القديم، أحيانًا أكثر تميزًا وأحيانًا فى درجة أقل وذلك أثناء العصور الوسطى وقبلها[١٤١] . هذه المعرفة الجديدة مدمرة لكثير من نظريات المعجزة الأوروبية تلك التى تدعى بأن التقدم الأوروبى القديم وفى العصور الوسطى فى المجال التكنولوچى كان سببًا حيويًا وراء "المعجزة". (إذا كان الصينيون يقومون بعمل نفس الأشياء وفى نفس الوقت، فإن المجادلة بشأن تفرد أوروبا تنهار). كانت النتيجة هى تعديل عام لكثير من نظريات المعجزة لتأخذ فى الحسبان تلك الحقائق الجديدة. وبالتحديد تقدم المعادلة كالتالى:

١ - "إذا ما كان التطور التكنولوچى فى الصين فى العصور الوسطى يجبرنا على السؤال بلماذا لم تكن للصين معجزتها، فنستطيع على الأقل التأكيد بأن الصين كانت الحضارة الوحيدة خارج أوروبا التى صيغت حولها تلك الأسئلة". وبأسلوب آخر لم يكن التفوق الأوروبى على غيره موضع شك. كان هذا ملائمًا بالنسبة لهؤلاء الذين يريدون أن يوضحوا كيف أن مناطق مثل الهند وأفريقيا والشرق الأوسط لم يكن لديها أى إمكانية للتطور.

٢ - "أيًا ما كانت التطورات التكنولوچية التى حدثت فى الصين فى العصور الوسطى، فالمهم أنها توقفت". فى تلك المعادلة يتم التعبير عن هذه المجادلة بطرق مختلفة وفى مجالات تكنولوچية مختلفة، ولكن المجادلة الأساسية هى السائدة: هناك صفة معينة فى الثقافة الصينية فى العصور الوسطى أدت بهذا التطور أن يصل إلى مرحلة الركود. بطريقة أخرى، ما يتم إثباته هنا هو المعتقد القديم بالركود الشرقى. وبشكل نموذجى، اعتاد ڤيبر على تقديم تلك النقطة: عادة ما يتم استعراض كل الادعاءات التى قدمها ڤيبر عن أسباب عدم تطور الصين هنا. يتورع بعض المؤرخين

عن استخدام ادعاء ڤيبر لتسفيه أثر الكونفوشيوسية. يفضل البعض الآخر ألاَّ يغضوا الطرف عن نظرية ڤيبر المركزية العرقية عندما يصف الشخصية الصينية. ولكن مجادلات ڤيبر عن المدينة وامتلاك الأرض والبيروقراطية، والإمبراطورية مازالت تستعمل بانتظام. لم تكن المدينة الصينية "حرة" ولم تكن بها طبقة برجوازية حقيقة. لم يكن نظام امتلاك الأراضى الصينى قريبًا من الملكية الفردية. لم تكن البيروقراطية الصينية والدولة الصينية القائمة على النظام الإمبراطورى تتمتع بصفة "الرشد"، وبالتالى لم تعط الفرصة للمجتمع كى يتقدم.

نستطيع الرد على هذه المجادلة فى خطوتين: الأولى، كما أوضح بورسل، إن السؤال المهم فى الحقيقة هو كيف ولماذا حدثت تلك التطورات الصينية، وليس كيف ولماذا توقفت (هذا إذا ما كانت حقًا توقفت). بطريقة أخرى، يجب أن يشرح المؤرخون كيف تسنى للصين أن تصبح مجتمعًا مبتكرًا تكنولوچيًا حتى جاوز حضارات أخرى فى مجالات تكنولوچية عديدة ولقرون عديدة. لا يساعدنا ڤيبر فى هذا الأمر البتة. مخطط ڤيبر هو شرح للركود، وما نتحدث عنه هو التقدم الهائل وليس الركود.

تتطلب الخطوة الثانية فى المجادلة تركيزًا على الفترة المحددة عندما، وفقًا لمؤرخى المعجزة الأوروبية، افتُرض توقف التقدم الصينى. طبقًا لإلڤين توقف نطاق التطورات الصينية التكنولوچية الواسع فى بداية القرن الرابع عشر. كانت الصين فى ذاك الوقت ربما أكثر الزراعات تقدمًا وأكثرها تطورًا من الناحية التجارية فى العالم. كانت التكنولوچيا الصينية الصناعية لا تضارَع فى مجال صناعة المنسوجات. عُرفت الساعات الميكانيكية(١٤٢) . كانت السفن الصينية التجارية تذرع سواحل آسيا الجنوبية الشرقية جيئة وذهابًا فى المحيط الهندى. كانت المسدسات الصينية فى المرتبة الأولى. كانت تكنولوجيا القنوات مبهرة ... وهكذا. وبشكل عام كانت التغيرات المتعلقة بأسرة مينج مرتبطة بتقدم بطىء فى التكنولوچيا بالرغم من استمرارها فى مجالات أخرى (بناء السفن والمدافع والطباعة بواسطة الحروف المعدنية المتحركة - التى اخترعت

حوالى ١٤٠٠، ربما فى كوريا[١٤٣] – وأكثر من هذا. ولكن أوروبا فى هذا الوقت لم تكن تشهد تطوراً تكنولوچيًا كبيراً. بعد ١٣٥٠ أصابت أوروبا حالة من الركود اقتصاديًا وتكنولوچيًا. هناك أدلة قليلة على تقدم التكنولوچيا فى أوروبا قبل ١٤٩٢. لم يكن عصر النهضة ثورة تكنولوچية كما خلص المؤرخون[١٤٤]. بعد ١٤٩٢ بدأت تطورات أوروبية مهمة فى بعض المجالات التقنية (بالأخص بناء السفن). أما إذا كانت التغيرات التكنولوچية الثورية قد بدأت قبل القرن الثامن عشر فهو أمر محل نزاع فيما بين المؤرخين الأوروبيين.

ما الذى يدل عليه هذا بالمقارنة عن الصين؟ يظهر أنه ليست هناك مشكلة "ركود". كان هناك بطء فى التقدم خلال قرنين فى سيناريو معروف بالنسبة لكل الثقافات الإنسانية. وذلك بسبب أن التقدم الذى لا يسير على وتيرة واحدة هو القاعدة. إنه يوضح بالأحرى مشكلة يركز عليها مؤرخو العالم الثالث بينما يتجاهلها المؤرخون الأوروبيون. نتيجة للتوسع التجارى الأوروبى فى القرن السادس عشر – نجادل فى هذا الكتاب أن سنة ١٤٩٢ كانت هى الولادة الحقيقية لتلك العملية – بدأت المجتمعات التجارية الأوروبية المغامرة فى التنافس والتجارة مع الصين فى أماكن مختلفة وبالأخص مانيلا وبعض موانئ جنوب الصين. لماذا لم يحكم المجتمع التجارى الصينى سيطرته على تلك التجارة؟ لماذا تحرك التفوق التجارى بثبات باتجاه أوروبا وليس الصين (أو آسيويين آخرين)؟ بطريقة مختلفة، ليس هناك ركود حتى نفسره. هناك بالأحرى مشكلة كيف ولماذا تحكم الأوروبيون فعليًا فى تجارة المسافات البعيدة فى آسيا بعد حوالى ١٦٠٠ . تمهيداً للمناقشة فى الفصول القادمة سأعلق ببساطة أن تلك العملية لا تعكس أى "عراقيل" ثقافية داخلية فى أى حضارة آسيوية. على العكس هى تعكس الزيادة السريعة والهائلة فى ميزان الأرباح ونظام المشاريع الأوروبية عبر البحار فيما بعد ١٤٩٢، الذى لم يستطع غيرهم استغلاله بسبب التدفق الكبير

والمستمر لسبائك الذهب والفضة من العالم الجديد فى الخزانات التجارية الأوروبية (إنها مسألة سوف نناقشها ببعض التفصيل فى الفصل الرابع).

خلال النصف الأول من القرن الخامس عشر بُعث بعدد من الأساطيل الصينية، العسكرية والدبلوماسية والتجارية لجنوب شرق آسيا والمحيط الهندى. كان على متن تلك السفن المئات من الرجال. بعضها كان كبيراً لدرجة أن سطحها كان عليه بساتين للخضراوات. سنناقش أهمية تلك الرحلات فى الفصل القادم. إن ما يعنينى الآن هو أن نلاحظ الأسلوب الذى يحاول عن طريقه مؤرخو المعجزة الأوروبية المواءمة بين تلك الحقائق ونظرياتهم عن تأخر التقدم الصينى. إن التعليق النموذجى هو: "ولكنهم توقفوا". فى الحقيقة آخر رحلة انتهت حوالى ١٤٤٠، ولكنها حققت أهدافها. استمرت السفن التجارية الصينية فى التجارة فى جنوب شرق آسيا. لكن شيئًا لم يتوقف. لقد منع الأباطرة حقًا الشحن الصينى لفترة (بداية القرن السادس عشر) ولكن كان هذا المنع وسيلة لاستجلاب الرشاوى (تسهيلات) التى لم تكن فى أى حال مفروضة بالقوة. بالنسبة لمؤرخى "المعجزة" إن حقيقة المنع الإمبراطورى هى دليل على أن الصين قد توقفت عن التقدم، وتوفرت لدى أوروبا فقط إمكانية حدوث "المعجزة". وهذا لا يتفق مع الحقائق.

قد يكون الصينيون قد اخترعوا المسدسات، فهم على أية حال، كانوا متقدمين فى تكنولوچيا الأسلحة النارية مثلهم مثل أى ثقافة أخرى حتى نهاية العصور الوسطى. تمامًا مثل أسلوب مؤرخى المعجزة الأوروبية فى التعامل مع مجال التكنولوچيا (مثله مثل غيره من المجالات) نجد رواية كارلو كيبولا لهذه العملية فى كتابه الشهير والمؤثر الأسلحة،الأشرعة والإمبراطوريات: الابتكار التكنولوچى والمرحلة الأولى من التوسع الأوروبى ١٤٠٠ - ١٧٠٠ . إنه يسلم بداية أن "الأسلحة الصينية كانت على الأقل على نفس درجة الجودة التى كانت عليها الأسلحة الغربية، إن لم تكن أحسن حتى بداية القرن الخامس عشر"[١٤٥] . ولكن حينما ظهر البرتغاليون من

مقاطعتهم وأطلقوا طلقات من المدفع كتحية فى قرن لاحق (١٥١٧)، كان الصينيون قد تقهقروا بطريقة سحرية:

> **أيقظت زمجرة المدفعية الأوروبية الصينيين ... على الحقيقة المفزعة بظهور أناس غرباء على سواحلهم تحت حماية وتهديد أسلحة قاهرة متميزة ... كيف نتعامل مع "الشياطين الأجانب"؟ هل نحاربهم أو نتجاهلهم؟ هل نقلد ونتبنى أساليبهم التقنية ونتخلى عن عاداتنا وتقاليدنا المحلية أو نقطع أواصر كل علاقة معهم ونبحث عن ملجأ فى حلم بالعزلة؟ نكون أو لا نكون؟ إنها إشكالية مأساوية لا حل لها(١٤٦) .**

وهكذا تحل الصور البلاغية محل الحقيقة فى ميثولوجيا الركود الآسيوى والمعجزة الأوروبية. يبدو أن "التركيبة الصينية" فقدت مصداقيتها. ولكنى لا أشك فى أن "تركيبة هندية" و" تركيبة إسلامية" و" تركيبة أفريقية" وهكذا سوف تُفتعل لتدعم تاريخ المركزية الأوروبية بينما نتعرف أكثر على التطور التكنولوچى الهندى والشرق-أوسطى والأفريقى قبل عام ١٤٩٢

المجتمع :

فى الفصل الثالث سنلقى نظرة على المجتمع الأوروبى فى العصور الوسطى وسنعقد مقارنة بينه وبين المجتمعين الآسيوى والأفريقى فى نفس الفترة وذلك من خلال الصفات الاجتماعية التى تبدو مهمة فى عملية التغيير تجاه الرأسمالية والحداثة. من بين تلك الصفات (الأشكال والحقائق) الطبقة الاجتماعية والدولة وامتلاك الأرض والتجارة والمدنية. إن مهمتنا الحالية هى أكثر تواضعًا من حيث إنها تنقد النظريات التى تدعى أن صفةً اجتماعية أو أكثر كانت السبب وراء نهضة أوروبا على غيرها من

الحضارات قبل نهاية العصور الوسطى أى قبل ١٤٩٢ . ولإنجاز هذه المهمة نستطيع أن نختار القليل من تلك الصفات التى يدعى مؤرخو اليوم من أصحاب نظرية المعجزة الأوروبية بأنها المرشحة والمفضلة لهذا الدور القيادى التاريخى، هذا المحرك والدافع السببى وراء "الانطلاق" نحو الحداثة. إن تلك الصفات المفضلة هى: الدولة والكنيسة والطبقة الاجتماعية والأسرة. كثيراً ما نجد تلك الصفات نفسها تُفسَّر فى ضوء قوى أساسية: الرشد الأوروبى والتكنولوجيا الأوروبية والتفرد الديموغرافى الأوروبى أو التفوق البيئى الأوروبى. تمت مناقشة تلك الصفات بالتفصيل بالفعل. ولذا ستكون المناقشة المقبلة مختصرة.

الدولة :

يبدأ نوع من المجادلات بنموذج للأمة / الدولة الأوروبية الحديثة، ذات الحجم المتوسط والمتكامل والديمقراطى الذى ظهر بعد نهضة الرأسمالية والحداثة، وبعد الثورتين الفرنسية والأمريكية. لا أحد ينكر تفرد هذا الشكل. ولكن يقدم مؤرخو المعجزة الأوروبية ادعاءً أو اثنين عن شكل تلك الدولة: إما أن تكون قد ظهرت مبكراً جداً فى التاريخ الأوروبى، مما أتاح لها أن تلعب دوراً سببياً فى التحديث، أو أن تكون راسخة فى الثقافة الأوروبية؛ شكل للدولة ظهر طبيعياً ومنطقياً بواسطة أوروبيين محبين للحرية ومستقلين ضد الاستبداد فى العصور الوسطى أو ما قبلها. فى بعض الأحيان كان يقدم الادعاءين: حيث نجد اختزالاً لكل شىء فى الرشد الأخلاقى الأوروبى، وفى نفس الوقت مجادلة شمولية على مستوى الدولة نفسها.

على سبيل المثال، نجد إيريك چونز يفعل هذا بالتحديد فى كتابه "المعجزة الأوروبية". يقول چونز إن النظام السياسى فى أوروبا فى العصور الوسطى كان قريباً من "قلب المعجزة الأوروبية"(١٤٧) . هنا تجمع المجادلة بين الانحياز التقليدى لحب أوروبا الفطرى والفريد للحرية وبعض المجادلات البيئية الغريبة. نبدأ بالثانية. يأخذ

جونز بالمجادلة المعروفة بأن أوروبا قديمًا كان لديها عدد من المناطق المركزية الخصبة التى أصبحت أساسًا لثقافة إقليمية. ثم يحولها إلى مجادلة لافتة للنظر عن أثر تلك المناطق المركزية البيئية التى من الطبيعى أن تؤدى إلى نموذج لدولة ذات حجم متوسط، بعكس النموذج "الإمبراطورى" للمجتمعات الآسيوية كما يقول. فى وجهة نظر جونز تعد الإمبراطوريات استبدادية بالفطرة، كما أنها بفطرتها تتدخل فى تطور الاقتصاد. إن جغرافية أوروبا هى التى أنقذتها من هذا القدر. لو كان لعدد من الدول الأوروبية الحديثة "مناطق مركزية" بيئية، ومعظمها لا يوجد لديه، فالقليل من تلك المناطق المركزية أصبحت دولاً. إن هذا النموذج هو نموذج بيئى ولكنه باطل. على أية حال، نجد مناطق مركزية شبيهة فى مناطق أخرى كثيرة فى العالم. فالوحدة المنفصلة متوسطة الحجم ذات البيئة المنتجة زراعيًا هى على سبيل المثال نموذجية فى جنوب شرق آسيا بما فيها المراكز البرية الرئيسية القائمة بذاتها مثل إيراوادى وحوض تشاو فرايا ووسط ميكونج والنهر الأحمر وحتى فى الإقليم الجزيرى، مع مراكز فى سوماطره (اثنان أو ثلاثة) وجاوا (ثلاثة) وبالى ولومبوك وسولا ويسى ولوزون، وهكذا. الهند والصين أيضًا مقسمة باعتدال بنفس الطريقة. المراكز المميزة فى أفريقيا تتضمن وسط النيجر وتشاد والكونجو، من بين الكثير. وبلاد ما وراء النهرين والسهل الإيرانى وغيره فى غرب آسيا (١٤٨).

ثانيًا: يبنى جونز صورة لتلك الدول الأوروبية التى تتشكل طبيعيًا فيما يسمى "بنظام الدول" وهى شبكة من مجموعة دول مستقلة ذات حجم واحد تقريبًا. لقد اتجهت تلك الدول بعضها ناحية بعض فى العصور الوسطى كما لو لم يكونوا أفرادًا متنافسين بل متعاونين، متقدمين للأمام معًا كفريق نحو الحداثة. لذا يميز جونز بعمق فى العصور الوسطى ما يرقى ليصل إلى شكل الأمة - الدولة الحديثة وعصبة الأمم. وحيث إنه يختزل التاريخ فهو يصبغ الحكومات الأوروبية فى العصور الوسطى بكل فضائل الدولة الحديثة: لقد وفروا الخدمات العامة وشجعوا التطور الحر للاقتصاد

وكانوا من اوائل الديموقراطيين وهكذا. كل هذا بسبب البيئة وبسبب الأوروبيين المحبين للحرية الذين عاشوا فيها. فى الحقيقة، إن نوع الدولة ونظام الدولة الذى يصفه لا يظهر حتى القرن السابع عشر تقريبًا. حيث يجد چونز صفات سياسية لأوروبا الحديثة بالفعل ويدعى خطأً أنها كانت موجودة منذ القدم - منها البيئية التى كانت دائمًا موجودة - وبالتالى فهو يدعى أن نظام أوروبا السياسى الديمقراطى الحديث كان دائمًا موجودًا فى أوروبا (وليس غيرها). فى الواقع، أوروبا فى العصور الوسطى كانت خليطًا من وحدات سياسية إقطاعية شبه سيادية، إنها خريطة مشوشة حيث لم يكن يمكن التعرف على دول بهذا الشكل، بالإضافة إلى القليل من صفات الدولة الحديثة كما توصف بها تلك الحكومات بواسطة چونز.

لكى نفهم عبثية هذا النموذج للتاريخ السياسى يجب أن نلاحظ الطريقة التى يتحدث بها چونز عن الدول غير الأوروبية والمفترض أنها بربرية واستبدادية. ففى تلك المناطق تجتمع اللاعقلانية مع المساوئ البيئية لكى تنتج ما هو عكس الدولة الأوروبية ونظامها الرائع: الإمبراطورية الشرقية الضخمة. لماذا لم تتطور آسيا سياسيًا مثلما فعلت أوروبا؟ "طفولة" آسيا السياسية تفسر بواسطة چونز فى ضوء: (١) نقص نفسى، أى لاعقلانية فى الأمور الحيوية الفكرية والابتكار ونوع من الفشل الأخلاقى فى سلوكيات تتعلق بالرغبة فى التطور، مقاومة الهيمنة، إرادة التسامى على المتع الحيوانية وما شابه و(٢) بيئة طبيعية فى مرتبة ثانية. إن آثار تلك العيوب (وأخرى أقل منها) أدت إلى عدم تطور آسيا السياسى وعدم تقدمها هى (١) زيادة سكانية غير متحكم فيها، (٢) حكومة سيئة، "استبداد شرقى" أو كما يفضل چونز أن يسميها إمبراطورية. كانت المجادلة الرئيسية فى كتاب المعجزة الأوروبية تدعم النظرية عن كيفية أن نظام أوروبا الدولى يؤدى إلى التطور وهى نظرية چونز المضادة عن الطبيعة الشريرة للدولة الإمبراطورية الآسيوية. وعلى أية حال، فى النهاية، نجد أن النظرية المضادة جوفاء مثلها مثل النظرية الأساسية. فى الحقيقة لا يعطى چونز أى تفسير مقنع لسبب وجود

تلك الإمبراطوريات الضخمة فى آسيا وليس أوروبا. كما أنه لا يقدم أى مجادلة مقبولة لكون الدول الضخمة أسوأ للتطور من الدول المتوسطة أو الصغيرة. (كما أنه أغفل التطور الحقيقى الذى حدث فى آسيا والدول غير الإمبراطورية الكثيرة فيها). عندما نختبر نظرية جونز عن الإمبراطوريات الآسيوية نجد ألا علاقة لها بحجم أو نوع الدولة، ولكن لها علاقة كبيرة بفكرة الطبيعة السياسة فى المجتمعات غير الأوروبية. إنها الفكرة القديمة "للاستبداد الشرقى". لقد قاسى الآسيويون وكل غير الأوروبيين من الحكومات الشريرة وغير المسئولة والمتقلبة والاستبدادية والكريهة. الوحيدون الذين يفهمون هم الأوروبيون، ولذا فهم يتمتعون بالحرية.

إن تلك ليست نظرية غريبة بين المؤرخين الذين يودون أن يثبتوا أن العمليات والأشكال السياسية الأوروبية كانت هى القوة المسببة "للمعجزة" فى العصور الوسطى. إن شكل النظرية الرئيسى تقليدى. فهو يحتوى على ثلاث فرضيات: رشد الأوروبيين المتأصل هو الذى يدفعهم باتجاه الأشكال السياسية الديمقراطية الحديثة (أو نحو السلوك الاقتصادى المستقل، ولذا نجد اتجاهاً لتفضيل الدول الصغيرة)، بينما يعانى غير الأوروبيين، وهم غير آبهين، من شكل دولة إمبراطورى واستبدادى وفى بعض الأحيان قوى، ولكنه دائماً تعسفى، كما تعطى البيئة الطبيعية لأوروبا الحداثة السياسية، نوع من القوة الدافعة الفريدة (المراكز البيئية والتربة الخصبة وإمكانية الوصول للرؤوس والخلجان). تظهر فرضيات أخرى فى معظم المجادلات ولكن يبدو أن هذه الثلاثة هى الأكثر استخداماً.

تجتمع تلك الفرضيات مع مبدأ منهجى ذى أهمية كبيرة: مهما كانت تلك القوى المسببة فقد كانت موجودة منذ القدم، أى أنها حركت عملية التحديث قبل نهاية العصور الوسطى. هذا بالطبع هو صلب الموضوع. فى هذا الكتاب أجادل أن الحداثة (أو ما تود أن تسميه) كانت موجودة فى أوروبا فى العصور الوسطى، ولكنها لم تكن موجودة فقط فى أوروبا العصور الوسطى. لذا فالأحداث بعد ١٤٩٢ لم تبدأ الحداثة، ولكنها

مكنت التغييرات الأوروبية من التزايد الكبير والتأثير مما أنتج بالضرورة مجتمعًا "ناهضًا" متفردًا. لذا فنحن نجادل من منظور كلى أن أوروبا لم يكن لديها أى إمكانية للنهضة والتطور أكبر من تلك التى امتلكتها المناطق غير الأوروبية إبان العصور الوسطى. إن حقيقة وجود قوى تدفع باتجاه الديمقراطية والدولة الحديثة فى أوروبا العصور الوسطى لا تدل على تفرد أوروبا فى شىء.

يستخدم جون هول نموذج جونز الرئيسى مؤكدًا على ما أسماه "بالعراقيل" التى منعت الصين والهند والشرق الأوسط الإسلامى من الوصول إلى شكل الدولة الحديثة. باختصار: رضخت الصين تحت نير الإمبراطورية. كما قاست الهند من طائفة الطبقة المغلقة(*) (ولم تكن لديهم سياسات)(١٤٩) .

وعكست السياسات الإقليمية السياسية النظام القبلى. يصف هول أشكالاً نموذجية لكل من تلك الحضارات، مفترضًا أنها متجمدة وثابتة ويقارنها بالأشكال الأوروبية فيما بعد العصور الوسطى مع التلميح بأنها كانت موجودة منذ وقت طويل، ثم يبنى مجادلة بأن المناطق غير الأوروبية طالما افتقرت إلى إمكانيات تؤهلها لحدوث "معجزة"، بينما توافرت تلك الإمكانيات فى أوروبا(١٥٠) .

يهتم مايكل مان بالكينونة المجردة "القوة" بدلاً من الأكثر وضوحًا "الدولة". ولكن نظريته لا تختلف فى جوهرها عما سبق. مان مثله مثل عدد من مؤرخى "المعجزة" يحاول تأويل الفوضى السياسية لنظام الإقطاع فى أوائل العصور الوسطى، مع تفتت سياساته ومناطق سيادته من خلال مجادلة عن بدايات الحداثة. يوحى صغر حجم

(*) طائفة الطبقة المغلقة: يعرف أندريه بيتاى هذا المفهوم على أنه مجموعة صغيرة ومحددة من الأشخاص يتسمون بسيادة نظام الزواج الداخلى والعضوية المتوارثة وأسلوب معين في الحياة، قد يشتمل فى بعض الأحيان على التخصص المتوارث فى مهنة معينة، وعادةً ما ترتبط بطقوس متميزة إلى حد ما للمكانة، فى إطار نظام تدرجى يستند على مفهوم للطهر والدنس. (انظر موسوعة علم الاجتماع لجوردن مارشال مراجعة وتقديم محمد محمود الجوهرى) .

الوحدات الاجتماعية السياسية فى أوروبا أنها كانت أكثر "كثافة" وذات معنى أكبر، كما كانت تحمل إمكانية التطور أكثر من الحكومات الإمبراطورية الكبيرة المزعومة فى غير أوروبا. إن مفهوم مان عن "التكثيف" هو فى الأساس مفهوم عن القيمة وليس الحقيقة[١٥١] . فى هذا السياق نستطيع أن نتذكر خرافة الميثاق العظيم (ماجنا كارتا (*)): كان يوصف انتقال السلطة من الملك للبارونات على أنه حركة باتجاه الديمقراطية بالرغم من أن البارونات فى ذاك الوقت لم يكونوا ديمقراطيين، كما فضل الفقراء أن يناشدوا الملك متخطين سلطتهم. (وفى وقت لاحق وصفت السلطة الملكية بأنها خطوة جديدة باتجاه الديمقراطية، إلا أنها لا تعمل فى اتجاهين)[١٥٢] . يستخدم بيتشلر نفس النموذج تقريبًا - بالرغم من أنه على عكس هول ومان ومثل چونز يقلل من دور المسيحية فى التطور السياسى - مع مجادلة إضافية وهى أنه يعتقد أن الأرستقراطية الأوروبية فى العصور الوسطى (فى الأصل كانت إندو- أوروبية "أرستقراطية محاربة") كانت هى نفسها المصدر الأساسى للديمقراطية، زاعمًا فى قراءة غريبة للتاريخ، أن الأرستقراطيين لم يتعامل بعضهم مع بعض بديمقراطية (احترام) فقط ، لكنهم احترموا حقوق الفلاحين[١٥٣] .

وبالرغم من هذا لم يكن هناك ديمقراطية فى العصور الوسطى: كانت الدول الأوروبية مستبدة مثلها مثل غيرها فى مناطق أخرى. تمامًا مثلما لاحظنا فيما يتعلق باليونانيين القدماء، كانت للأشكال السياسية الموجودة فى أوروبا نظراء فى أماكن أخرى. لو كان نظام المدينة / الدول (ربما) الأقرب للديمقراطية - كان بعضها

(*) ماجنا كارتا: وهى كلمة لاتينية تعنى الميثاق الأعظم وترجع إلى الدستورالإنجليزى الذى صدر ١٢١٥ . الذى يخضع الملك چون لحكم القانون وهو أول وثيقة تُملى على الملك بواسطة مجموعة من البارونات فى محاولة للحد من سطوته وحماية امتيازاتهم .

جمهوريًا وكان بعضها تجاريًا - نحتاج فقط أن نلاحظ أن هذا النظام بكل أنواعه كان موجودًا على طوال السواحل الهندية والمحيط الهادى. كذلك لم يكن الشكل الجمهورى غير معروف فى آسيا وأفريقيا.

الكنيسة :

تخصص كثير من النظريات دورًا سببيًا واحدًا أو اثنين للكنيسة لكونها مؤسسة اجتماعية أسهمت فى تحديث أوروبا ونهضة الرأسمالية[١٥٤] . (كثير من النظريات الأخرى ترجع هذا الدور للمسيحية نفسها ولكنى لن أعلق عليها). بالطبع، كان للكنيسة هذا الدور. تكمن المشاكل فى مكان آخر. الكثير منها تهتم بالسؤال الخاص عما إذا كانت الكنيسة (أو الكنائس) أمدت أوروبا والأوروبيين بشىء لم يكن متوفرًا لغيرهم عن طريق مؤسساتهم الدينية أو مؤسسات أخرى فى ثقافاتهم. على سبيل المثال، هناك زعم بأن الكنيسة الكاثوليكية فى العصور الوسطى وحدت أوروبا فى مجالات ثقافية لدرجة لم تتوفر فى مكان آخر. ولكن فى تلك المناطق الأخرى كانت هناك عمليات موازية ومماثلة. مثلاً نجد الإمبراطوريات التى تعرضت للكثير من الذم مثل الإمبراطورية الصينية وفرت وحدة بطرق كثيرة فيما بينها، وكذلك وفرتها الديانة الإسلامية للعالم الإسلامى. كان يجادَل كذلك بأن الكنيسة فى العصور الوسطى عوضت التشرذم السياسى فى أوروبا سامحة لتطور الوحدة الأوروبية بالرغم من عدم وجود نموذج واضح لدول قوية. صحيح. هناك سؤال مقارن: هل (بهذا تكون) الكنيسة قد أعطت أوروبا بعض التميز التطورى على غيرها من الحضارات التى كان بها فى الغالب وحدة سياسية خلال معظم حقبها التاريخية؟ أظن أن الإجابة يجب أن تكون أن الكنيسة لم تعط أوروبا بعض الصفات الثقافية الخاصة المفتقدة فى الحضارات الأخرى، التى بواسطتها استطاعت أوروبا أن تقفز إلى طليعة التطور الاجتماعى.

ولذا ففى الحقيقة لا أرى أساسًا للاقتراح أن كنيسة العصور الوسطى أدت إلى التميز التاريخى الأوروبى بطريقة لم تستطع أن تقوم بها غيرها من المؤسسات الدينية فى حضارات أخرى. يؤكد چون هول على سبيل المثال أن "المسيحية وفرت أحسن غطاء لظهور الدول"(١٥٥) . يدعى مايكل مان أن كنسية العصور الوسطى "شجعت الباعث على التحسن الأخلاقى والاجتماعى حتى ضد السلطة الدنيوية" ، إنها قضية يمكن أن نتساءل بشأنها ليس فقط على أنها مقارنة بل كتأكيد فعلى على الدور الذى لعبته الكنيسة فى أوروبا(١٥٦) . بالنسبة لحلام " كانت الكنيسة اللاتينية فى العصور الوسطى منبت الفكرة الحديثة للرأسمالية"(١٥٧) . يدافع ڤرنر "عن حدوث المعجزة الأوروبية بسبب وجود عالم مسيحى تهيمن عليه المعتقدات الكاثوليكية فى الغرب"(١٥٨) . تفشل هذه الأفكار كمقارنات مع الديانات الأخرى والحضارات الأخرى، كما تفشل كذلك لأن نهضة أوروبا المسلّم بها لم تحدث فى العصور الوسطى ولكن بعد ذلك. أما كون المسيحية قد ساعدت فى نهضتها، فهذا ليس محل نقاش.

ليس من الضرورى أن نناقش مجادلة ماكس ڤيبر الشهيرة عن دور الدين فى نهضة أوروبا، أو مجادلته الشهيرة الأخرى عن الدور الخاص الذى لعبته حركة الإصلاح الدينى البروتستانتى فى نهضة الرأسمالية. كان لڤيبر الآراء التى قمت بنقدها سابقًا. ولكن الدور السببى للدين ليس موضوع المناقشة فى هذا الكتاب، إن الاهتمام هنا هو وجهة النظر الشمولية للحضارات الأوروبية وغيرها وديناميكياتها.

الطبقة الاجتماعية

تتعلق ثلاثة أنواع من المجادلات المرتبطة بالطبقة الاجتماعية بمناقشتنا؛ الأولى: هى مجادلة ذات مستويين عن التفوق التاريخى القديم لأوروبا فى العصور الوسطى التى يمكن تلخيصها كالتالى: (١) الأقاليم والشعوب اللاطبقية (أو "ما قبل الطبقية") تعتبر ببساطة لا علاقة لها بتفسير تفوق أوروبا والتقدم التاريخى العالمى لأن المجتمعات

اللاطبقية هى بالضرورة غير متطورة وبدائية. (٢) ولذا فالمشاكل الحقيقية التى تستدعى التفسير هى التى تتمحور حول السؤال عن سبب أن بعض المجتمعات الطبقية (الأوروبية) تعد متطورة بينما غيرها (فى الأساس الآسيوية) هى راكدة ومتأخرة. تعد منطقة جنوب الصحارى فى أفريقيا لاطبقية، لذا فهى خارج موضوع تاريخ العالم. مازالت تستخدم هذه النظرية على نطاق واسع فى بعض الأعمال التحليلية (من بينها إيريك جونز فى كتابه المعجزة الأوروبية)، وفى بعض المقررات عن تاريخ العالم (كما أشرنا فى الفصل الأول)، وفى بعض (ربما معظم) الأطالس الحديثة لتاريخ العالم. (لا يوجد خرائط لأفريقيا فى العديد من هذه الأطالس منذ الحقبة الأخيرة من العصر الحجرى القديم وحتى ١٤٩٢[١٥٩]). بدلاً من تقديم مناقشة مطولة لهذا الأمر، سأكتفى بتقديم هذه التعليقات: لم تكن أفريقيا لاطبقية فى ١٤٩٢ (سنعود لتلك النقطة فى الفصل الثالث)، لا تعتبر المجتمعات اللاطبقية راكدة[١٦٠]، كما أن المؤرخين الذين يقدمون هذا النوع من المجادلات عن اللاطبقية يناقضون أنفسهم عندما يعلنون أن الشعوب الأوروبية اللاطبقية فى الأزمنة القديمة والعصور الوسطى - "القبائل البربرية"، الألمان والكلتس والسلاف ... إلخ - كانوا متقدمين جداً، بعد استعارة فكرة الطبقات وبعض الأشياء القليلة من الرومان، انطلق هؤلاء الأوروبيون المتطورون والمبدعون والمغامرون والمحبون للبحث والمحبون للإنجازات باتجاه الحداثة.

من المعتاد والمناسب أن نضع التركيب الطبقى لمجتمع ما تحت الاختبار ونسأل كيف تفاعلت الطبقات المختلفة بعضها مع بعض كى تقبل أو تقاوم التغيير، وفى أى اتجاهات؟ فى غياب مثل هذا الاختبار عادة ما نجد تحليلاً به تحيز باتجاه إلصاق السببية للملوك وأفراد آخرين من طبقة الصفوة فقط. تصبح نظرية التمركز حول السلالة[*] مشكلة فقط عندما يكون هناك تأكيد على أن طبقةً ما قامت بعمل شىء فعال

(*) التمركز حول السلالة: مصطلح يعنى الأسلوب المتبع للحكم على مجتمعات أخرى فى ظل افتراضات ثقافية وتحيزات خاصة بالباحث . (أنظر موسوعة علم الإجتماع لجودرن مارشال مراجعة وتقديم محمد محمود الجوهرى) .

فى أوروبا ، ولم تتواجد تلك الطبقة فى حضارات خارج أوروبا. تعد تلك النوعية من المجادلات شائعة فى أدب المعجزة الأوروبية. وبالرغم من أن المؤرخين المحافظين يفضلونها فإنها توجد كذلك بين الماركسيين الذين يتشبثون بالصيغ القديمة عن "مراحل المجتمع الطبقى". وتعد مجادلة بادجُج خير ممثل لفكرة أن نموذج الإنتاج القائم على العبيد فى شكله الواضح - مع هيمنة العبودية على الإنتاج السلعى ومع مقتضيات التقدم الاقتصادى وتطور الملكية الخاصة وكفاح الطبقات - وجد فى الأزمنة القديمة فقط فى اليونان وروما، وفقدان تلك الصفة فى آسيا هو الذى يفسر جزئيًا اتجاه المجتمعات الآسيوية نحو "الركود"(١٦١) .

(يستخدم نفس المجادلة تقريبًا بعض الماركسيين للتأكيد على أن نظام المزارع القائم على العبيد فى أزمنة لاحقة لم يكن رأسماليًا كما ينبغى، وذلك لأن العمال كانوا عبيدًا وليسوا عمالاً بأجر. نناقش تلك النقطة فى الفصل الرابع). يعد هذا الأمر مهمًا، ولكنى سأدعه جانبًا بعد تعليق واحد: أعتقد أن هؤلاء الباحثين الأكاديميين الذين يؤكدون أن طبقة العبيد كانت أكثر أهمية فى البحر المتوسط الكلاسيكى أكثر من آسيا يقعون فى خطأ أولى من السهل الوقوع فيه إذا لم تكن جغرافيًا. قد يكون سؤال عن النطاق الجغرافى فقط. كانت إمبراطورية آثينا ربما واحد على مئة من حجم إمبراطورية الصين. فى الأقاليم الصغيرة المتطورة جدًا فى الصين ربما كانت العبودية بنفس الأهمية التى كانت عليها فى أتيكا أو الأقاليم الزراعية فى إيطاليا الرومانية.

جادل چين بيتشلر وهو عالم اجتماع تاريخى فرنسى بأن طبقة أوروبية فريدة وهى الأرستقراطية فى العصور الوسطى كانت القوة الأساسية المسببة للمعجزة الأوروبية(١٦٢) . يطرح أفريقيا جانبًا، ثم يتساءل عن سبب ظهور الحداثة فى أوروبا وليس آسيا(١٦٣) . مع قبول العديد من المجادلات المعيارية كتفسيرات جزئية نجده

يجادل بأن السبب الأكثر أهمية وراء حدوث المعجزة هو وجود الأرستقراطية الحقيقية في أوروبا. يصف بيتشلر المجتمع الإندو - أوروبي القديم الذي يتميز بطبقة أرستقراطية محاربة. في الهند، فسدت الطبقة الأرستقراطية ولكن ليس في أوروبا(١٦٤) . نجده يُعرف الطبقة الأرستقراطية وصفاتها الاجتماعية الخاصة في العصور الوسطى بحذر ويصفها "بالإقطاعية" كي يميزها عن طبقة أصحاب الأراضي فقط أو طبقة أصحاب الأراضي الذين لهم قوى إقطاعية إضافية. كانت الأرستقراطية مجموعة من الرفاق ينضم إليهم كل من يدخل ضمن وثيقة الولاء الإقطاعي، إنها ديمقراطية في حد ذاتها. وكما يقول لم تكن لها أي قوة سياسية في المجتمع، وكان هذا عاملاً مهمًا في شخصيتها الفريدة. في أماكن أخرى، كانت الأرستقراطية مقيدة تحت نير الحكومة (الإمبراطورية الاستبدادية) أو أصبحت فاسدة واتخذت شكل الطبقة المغلقة كما هو الحال في الهند، في مثل هذه الحالات لم يكن هناك تحديث. كان للأرستقراطية الأوروبية نوع معين من القوة الخاصة، مصدر أصلي واحد للقوة الرأسمالية. (هنا يناقض بيتشلر نفسه، حيث إنه في الحقبة الإقطاعية كانت الأرستقراطية بحق هي القوة السياسية. إنه يلاحظ ببساطة إنه قد كان هناك وقت من الفوضى السياسية، ثم ينتقل لأمور أخرى(١٦٥)). باختصار، اخترعت الأرستقراطية الديمقراطية والملكية الرأسمالية الأولية. كذلك كان الفلاحون الأوروبيون أصحاب رأس مال من البداية. يطرح بيتشلر جانبًا فكرة أن جماعة الفلاحين الأوروبيين كانت جماعة مقيدة ومقهورة في العصور الوسطى، ويعطيها صفات استثنائية: كانت القرية تحكم بنفسها، نوع من "الجمهورية" بمواصفات تذكر بالحياة الحضرية (١٦٦) . "كان الفلاح نموذجًا مُصغرًا لصاحب مشروع"(١٦٧) ومع حلول القرن الرابع عشر، أصبح هذا الفلاح المبشر بالرأسمالية هو فلاح أوروبا الحقيقي. كانت القرية ديمقراطية صغيرة. وكان الفلاحون أصحاب قرار مستقلين. يتجاهل بيتشلر ببساطة العبودية كما يتجاهل كذلك أهمية حقيقة امتلاك اللوردات للأرض واستغلالهم للفلاحين وتحكمهم في حياتهم. وهكذا يصبح النظام الإقطاعي نوعًا من المجتمع الديمقراطي تلعب فيه الطبقة

الأرستقراطيه دوراً ديمقراطياً وينعم فيه الفلاحون بالحرية. هذا بالإضافة إلى أن هؤلاء الفلاحين فى أعماق العصور الوسطى كان لديهم كل صفات المزارع الرأسمالى الذى وجد فى القرن الثامن عشر وما بعده؛ الاستثمار والتوجه للربح وتراكم رأس المال. (كما كانوا أذكياء للدرجة التى جعلت بيتشلر يقول إنهم تجنبوا نظام الأسرة الممتدة). كل هذا يعد وهماً. إنه اختزال للتاريخ يدفع بالعالم الحديث (وبالتحديد المزارع الرأسمالى الجديد) للوراء فى العصور الوسطى.

يبرز بيتشلر نقاط الاختلاف بين كل هذا والهند. يعد تصويره للهند غريباً. لم تكن فى الهند طبقة أرستقراطية على مدار التاريخ، وذلك نتيجة لوجود الطبقة المغلقة وكان هذا هو "السبب الأعمق" وراء فشلها فى التطور[١٦٨] . (كانت فى الهند طبقة أرستقراطية قوية). لم يكن للمجتمع الهندى أى بعد سياسى: "لم تكن الحكومة ... واقعاً فى الهند". ولذا "فمعنى الهوية فى الهند لا يمكن أن يكون سياسياً" – ولا نقول ديمقراطياً[١٦٩] . (هراء). تكونت الطبقة المغلقة لتحل محل الحكومة المفقودة. (هراء أكثر). لم يكن هناك طبقة فلاحين، كان هناك "عمال زراعيون"[١٧٠] . كيف يمكن لهذا أن يكون صحيحاً؟ لأن الفلاحين الحقيقيين هم أصحاب مشاريع وصناع قرار، وهو شىء من المفترض أنه غائب فى الهند (ولكن فى الحقيقة كان هناك وضع مماثل فى أوروبا). يستخدم بيتشلر هنداً خرافية: فى أوروبا كانت الأرستقراطية والمجتمع الحر الذى صنعته (وحلفاؤهم الفلاحون) المصدر الأساسى "للمعجزة". ولكن طبقتى الارستقراطيين والفلاحين لم تكن لها تلك الصفات الحالمة، والأهم من هذا، كانت هناك طبقات مماثلة فى أقاليم أخرى وفى نفس الوقت، كما سنرى فى الفصل الثالث.

فى نظرية ماركس، مفهوم الطبقة هو جزء من مفهوم أكبر وذو تبعات أكثر هو صراع الطبقات. كما يقول ماركس وإنجلز صراع الطبقات هو محرك التقدم فى كل المجتمعات الطبقية. معظم الماركسيين اليوم يعتبرون التطور الثقافى أكثر تعقيداً من هذا، ولكنهم مع هذا يستمرون فى التركيز على فكرة وعملية صراع الطبقات. كذلك

يجب أن نلاحظ أنه ليس هناك أى شىء له علاقة بالمركزية الأوروبية فى هذا المفهوم، إلا إذا افترضنا جدلاً أن صراع الطبقات الحقيقى أو مرحلة منه أو شكل من أشكاله يحدث فى أوروبا فقط. والكثير من الماركسيين ينحون هذا النحو. وفقًا لموريس جودبير على سبيل المثال، يمثل الغرب "أنقى صور الصراع الطبقى"، وهو وحده الذى أوجد شروط الصعود ... التنظيم الطبقى"(١٧١) . ربما أكثر تراكيب تلك النوعية من المجادلات تأثيرًا هى نظرية روبرت برينر عن نهضة الرأسمالية(١٧٢) . يحاول برينر أن يعرض أن نهضة الرأسمالية قبل ١٤٩٢ كانت نتيجة الصراع الطبقى، ولكن الصراع الطبقى فى أوروبا فقط. ثم يستخدم تلك المجادلة كدليل ضد ما يسميه " نظرية العالم الثالث Third-Worldism". الاعتقاد بأن غير أوروبا كان له أهمية كبيرة فى التاريخ ومازال كذلك سياسيًا حتى الآن. أثرت تلك النتيجة بشكل كبير ليس فقط فى الفكر الماركسى بل فى الفكر المحافظ فى التاريخ والجغرافيا وعلم الاجتماع ونظرية التطور الاقتصادى أيضًا. تستحق نظرية برينر اهتمامنا فى هذا الكتاب بالتأكيد. كما أنها ليست نظرية معقدة على الإطلاق:

وفقًا لبرينر أدى الصراع الطبقى بين اللوردات وأقنان الأرض(*) بالإضافة إلى قلة عدد السكان إلى تراجع النظام الإقطاعى فى شمال غرب أوروبا. (لا يذكر برينر المناطق غير الأوروبية، كما أنه نادرًا ما يذكر جنوب أوروبا). فى معظم أجزاء شمال غرب أوروبا انتصر الفلاحون فى ذلك الصراع الطبقى وأصبحوا ملاكًا صغارًا للأرض مع رضاهم بمعيشتهم القروية وعدم رغبتهم فى الإبداع. فى إنجلترا فقط استطاع اللوردات إحكام قبضتهم على الأرض، واستمر الفلاحون فى أن يكونوا مستأجرين. وبذا اختلفت طبقة الفلاحين منتجة طبقة من عمال بلا أرض، وطبقة كبيرة من

(*) إشارة إلى الفلاحين زارعى الأرض فى النظام الإقطاعى، وكانت علاقتهم بالإقطاعى شبيهة بالعبودية، وهى فى جوهرها العمل الإجبارى فى أراضى الإقطاعى فى مقابل الحماية والحق فى زراعة حقول مؤجرة من الإقطاعى.

المزارعين المستأجرين على درجة من الثراء تخولهم من تأجير ممتلكات ضخمة وأجبرتهم (لأنه كان يجب أن يدفعوا قيمة الإيجار) أن يتاجروا ويبدعوا تكنولوچيًا وبذا أصبحوا أصحاب رؤوس أموال. (يعتقد برينر أن الأقنان واللوردات والفلاحين من أصحاب الأرض لم يبدعوا وكان للمدن، حتى الإنجليزية منها، دور صغير في نهضة الرأسمالية). وبذا أصبح صغار الملاك المزارعين المستأجرين الإنجليز هم مؤسسو الرأسمالية. وبطريقة أخرى: ظهرت الرأسمالية لأن الفلاحين الإنجليز خسروا في الصراع الطبقي. في الحقيقة، لم يكن الفلاحون هم أصحاب الأرض في بلاد أخرى في الإقليم، كما تطورت الرأسمالية سريعًا في المدن وحولها أكثر من مناطق الريف، أما الابتكارات التكنولوچية التي يعتقد برينر بوجودها في القرنين الرابع عشر والخامس عشر بين المزارعين الإنجليز، فقد حدثت بالفعل بعد هذا التاريخ بفترة متأخرة مما يجعلها لا تناسب نظريته. الأهم من ذلك أن الزراعة التجارية وبدايات الرأسمالية الحضرية كانت قد بدأت في التطور خلال تلك الفترة في جنوب أوروبا وفي قارات أخرى (كما سأجادل فيما بعد). ببساطة نظرية برينر هي نظرية خاطئة[١٧٣] .

الأسرة

لا يوجد جديد فيما يخص الاعتقاد بأن الأسرة الأوروبية هي أكثر رشدًا وتحضرًا من أنوع العائلات الأخرى الموجودة في أماكن أخرى. لكن يبدو أن هذا المعتقد قد اختفى في الخلفية، عندما سيطرت نظرية الحداثة؛ كان هناك نوع من شبه الإجماع بين علماء الاجتماع أن الاختلافات في نوع الأسرة يجب أن تنسج في متصل من "التقليدي" "للحديث" أو كتنوع من "الشعبي" "للحضري" . كان يفترض أن الأسر التقليدية تعكس صلات قرابة قوية على نطاق أكبر وأوسع من الأسرة النووية، فقد اتجهت أن تشكل أسرًا كبيرة وممتدة، كما اتسمت بمعدلات مواليد مرتفعة. في غياب

الأدلة على الأسرة الأوروبية فى العصور الوسطى أصبح من المفترض أن الأسر الأوروبية القديمة كانت تقليدية مثل الأسرة "قبل الصناعية"، التى اختلفت عن الأسرة الصغيرة الحديثة فيما بعد الثورة الصناعية فى منزلها الصغير، وعدد أطفالها القليل، وأواصر قرابة ضعيفة مع غيرها من الأسر الأخرى. كان يعتقد أن هذا التغيير مرتبط بما كان يطلق عليه "التحول الديموغرافى"، وهى عملية التغيير من نموذج ديموغرافى "تقليدى" ذى معدل مواليد مرتفع ومعدل وفيات مرتفع، وهى من صفات الظروف قبل الثوره الصناعية، لنموذج ديموغرافى "حديث" بعد الثوره الصناعية يتميز بمعدل مواليد ووفيات منخفضين.

تمر الدول غير المتقدمة فى العالم غير الأوروبى فى نظرية تحديث الأسرة خلال نفس التحولات فى طريقها للحداثة. وتحل الأسرة النووية محل الأسرة الممتدة. وقد يغرس هذا سلوكيات التطور الحديثة: مثل إنجاب عدد أقل من الأطفال (وبالتالى يتغلبون على زيادة السكان)، وقد يتجهون للتفكير بفردية أكثر وبالتالى بطريقة تجاريه.

كان كل هذا مجموعة من الافتراضات. لم يكن هناك دليل عن علاقة سببية بين معدل المواليد وحجم الأسرة (أو أواصر قربى قوية خارج الأسرة النووية)؛ كان هناك ارتباط فى المجتمعات الغنية والحديثة: فقد كانت الأسرة النووية ومعدلات المواليد المنخفضة صفات لتلك المجتمعات. (أشار أحد الديموغرافيين البارزين أن الأسرة النووية قد يكون لديها أطفال أكثر بالنسبة لكل زوجين من الأسرة الممتدة[١٧٤]). بالإضافة إلى فكرة أن العائل البالغ يكون ذا عقلية تجارية أكثر ويتجه أكثر لجمع المال ولديه قدرة أكبر على التنافس وهكذا، إذا كان (يفترض أنه رجل) يعمل فقط من أجل زوجته وأطفاله، وليس من أجل أسرة كبيرة بما فيها والداه وأبناء وبنات عمومته وأقارب آخرون، فذلك يعد افتراضًا ضعيفًا. لقد ثبت أن الأسرة الكبيرة التى تتمتع بصلات قرابة قوية تكون أكثر قدرة على جمع المال من مجموعات المهاجرين المشتغلة

بالتجارة على سبيل المثال. لماذا، بحق، يريد الفرد البالغ أن يعمل بجد لزوجته وأطفاله فقط وليس لوالديه وأخواته أيضًا؟ (نستطيع أن نبنى مجادلة عن أن الأسرة الممتدة التى بها عدد من الأفراد البالغين العاملين تستطيع أن تحقق مكاسب اقتصادية واضحة فى ظل اقتصاد متنام[١٧٥]). ومثلما بدأت نظرية الحداثة فى التطور بعد حوالى ١٩٦٠، بدأت تلك الأفكار فى التبدد. أصبح واضحًا أن أشكالاً متنوعة من التنظيم الاجتماعى يمكن أن تكون على نفس القدر من الحداثة. والأسباب الجذرية للتغيير أو عدمه لا تكمن فى تركيب الأسرة.

فى منتصف الستينيات وبشكل درامى تم إعادة إدخال مفهوم نموذج الأسرة الأوروبية فى الخطاب السائد بين المؤرخين وكان هذا نتيجة جزئية لبحث مؤثر لجون هاچنال[١٧٦] . كما لاحظنا فى نقطة سابقة فى هذا الفصل فى المناقشة الخاصة بمجادلات "المعجزة"، كانت الديموغرافيا التاريخية فى هذا الوقت تكشف عن دليل على أن أوروبا قبل الصناعية (أو جزء منها) كان به معدل مواليد أكثر انخفاضًا مما كان يمكن أن نتوقعه بالنسبة "لمجتمع تقليدى". يبدو أن الأوروبيين كانوا يتزوجون فى سن متأخرة أكثر مما كان يتوقع حدوثه فى مجتمع تقليدى خاضع لسيطرة قوانين مالتوس وبالتالى معدل مواليد مرتفع. بدلاً من طرح نموذج مالتوس جانبًا والمجادلة بأن المجتمعات الإنسانية تتحكم بنشاط فى آليات تعداد السكان لديها عن طريق استخدام وسائل مثل تعديل سن الزواج، بدأ هؤلاء المؤرخون فى التأكيد ببساطة على تفرد أوروبا. ظهر فى مجتمعات قبل اقتصادية أخرى النموذج "التقليدى" ذو معدلات المواليد المرتفعة التى لا يمكن التحكم فيها (ولذا ارتفع معدل الزيادة السكانية بينما هبطت معدلات الوفيات فى "المرحلة الانتقالية"). وعلى النقيض كان لدى أوروبا ما قبل الصناعية نظام الأسرة الرشيد مع تحكم عقلانى فى تعداد السكان. ثم ادعى بعد ذلك، بدون دليل، أنه كان فى أوروبا ما قبل الصناعية معدل مواليد مرتفع ومعدل وفيات منخفض أكثر من المناطق غير الأوروبية، واستنتجت النتيجة التالية وهى أن أوروبا

استطاعت أن تحتفظ بمعدلات المواليد منخفضة من خلال تعديل مناسب وعقلانى للتناسب مع معدلات الوفيات المخفضة وذلك عن طريق استخدام آلية تأخير الزواج. أولئك الذين يقدمون تلك المجادلة فشلوا فى الأخذ فى الحسبان إمكانية أن تكون الأسر فى مجتمعات أخرى قد تصرفت بنفس الطريقة. بدأ الدليل على هذا فى الظهور من عدد من المجتمعات غير الأوروبية. بعض المجتمعات كان لديها معدلات ميلاد أكثر انخفاضًا مما كان متوقعًا من النموذج التقليدى. وأظهرت مجتمعات أخرى تحولات أساسية فى معدلات المواليد إما بالزيادة أو الانخفاض، كرد فعل لتغيرات اقتصادية وظروف أخرى(١٧٧) .

بدأ هاچنل مقاله عام ١٩٦٥ بهذه العبارة الصريحة:

كان نموذج الزواج فى معظم أوروبا كما وجد على الأقل فى قرنين من الزمن وحتى ١٩٤٠ متفردًا فى العالم. لا يوجد هناك مثال لحضارة شعب غير أوروبى كان لديه نفس النموذج. إن الصفات المميزة لهذا "النموذج الأوروبى" هى: (١) سن زواج مرتفع و(٢) نسبة مرتفعة من أولئك الذين لا يتزوجون مطلقًا(١٧٨) .

كانت مجادلة هاچنل فى بعض الأحيان حذرة وفى أحيان أخرى عابرة. لقد أشار بدقة إلى أن الدليل على تأخر سن الزواج (وإلى حد ما) معدل الزواج المنخفض فى أوروبا فى فترات قبل القرن السابع عشر كان غير قاطع، كما أوحى الدليل "المفكك" للعصور الوسطى الأوروبية "بنموذج غير أوروبى"(١٧٩) . لم يقدم أى بيانات تاريخية مطلقًا عن الأقاليم غير الأوروبية وقارن بطريقة عابرة بين أوروبا القديمة والمناطق غير الأوروبية فى القرن العشرين. إن القيد النظرى واضح جدًا: النماذج غير الأوروبية "تقليدية" ودائمة ولذا نجد المقارنة بين أوروبا فى القرن السابع عشر مع آسيا وأفريقيا فى القرن العشرين تعد مقبولة جدًا(١٨٠) .

تلك الفرضية عن النموذج الأوروبى الفريد للزواج المتأخر ومعدلات الزواج المنخفضة تم إدماجها بسرعة وعلى نطاق واسع مع النظرية الأكثر شمولاً "للمعجزة" التاريخية الأوروبية. مع عدم وجود دليل تم إرجاع الفرضية لزمن العصور الوسطى. ووفقًا للورانس ستون حينما كتب عام ١٩٧٧ "لقد ثبت مما لا يدع مجالاً للشك" أنه فى معظم شمال غرب أوروبا كانت الطبقات الوسطى والدنيا "تتزوج متأخرة بشكل ملحوظ تأكيدًا منذ القرن الخامس عشر فلاحقًا ... عادة الزواج المتأخر تلك هى صفة فريدة وفوق العادة للحضارة الأوروبية فى شمال غرب القارة"(١٨١) . هنا نستطيع أن نلاحظ كلمة "بشكل ملحوظ" حينما يكون هناك شيء نقارنه به، ومع ذلك لم تقدم أى بيانات تاريخية عن المناطق غير الأوروبية. ويستخلص مايكل مان هذا النموذج من المجتمع القروى الإندو- أوروبى فى العصر الحديدى. تتأمل باتريشيا كرون قائلة إنه ربما يكون صفة جيرمانية قديمة. يظن إيريك جونز أنها ترجع ثلاث أو أربع آلاف سنة للوراء. آلان ماكفارلين يظن أن لها جذور فى "مزيج خاص من المسيحية والعادات الجيرمانية"(١٨٢) وهكذا. وبكلمة واحدة، إن النموذج يعد قديمًا جدًا فى أوروبا.

إن مسألة التواريخ أو العمر هى بالتأكيد مهمة. كانت أوروبا الغربية تمر بتحولات كبرى منذ القرن السابع عشر وفيما بعد، ويمكن لتأخر سن الزواج وانخفاض معدله أن يفسر بواسطة عدد من الحقائق الجديدة: الحراك وفقدان الممتلكات بسبب التطويق والتحضر، وأخيرًا الآثار الديموغرافية والاجتماعية المفهومة للثورة الصناعية. حتى القرن السادس عشر كان مليئًا بالفوضى إلى حد ما فى غرب أوروبا. ولكن لو كان نموذج الزواج هذا قد ظهر قبل ١٤٩٢ قبل أن تظهر تلك العراقيل، فمن الممكن إذًا أن نتحدث عن "نموذج أوروبى" محدد وليس فقط نموذج "قبل صناعى" أو" تقليدى". بل يمكن كذلك أن نبنى نظرية عليّة عامة للتغيرات المترتبة: "المعجزة الأوروبية".

ثم أضيفت عدد من الافتراضات الأخرى. لقد كان معروفًا منذ وقت بعيد أن الأسر النووية والأسر التى يعيش فيها الزوجان فى مناطق بعيدة ومنفصلة عن والديهما

كانت من صفات أوروبا الغربية خلال القرون الحديثة ويعد ذلك من ملامح الحداثة. فهو يتلاءم مع نظرية التحديث النموذجية: من المفترض أن تؤدى هذه العملية من الأسرة الممتدة للأسرة الصغيرة. ولكن يجادل مؤرخو المعجزة الأوروبية الآن أن الأسرة النووية وتلك التى تقطن أماكن بعيدة عن أهلها هى جزء من "نظام عائلى أوروبى" فريد (لاسلت)[١٨٣] ومرة ثانية يدعون أن مصدر هذا كان قديمًا تاريخيًا. ويؤكدون كذلك أن غير الأوروبيين تنقصهم هذه النماذج. فى الحقيقة هناك براهين جيدة على أن الأسرة النووية كانت شائعة فى أجزاء عديدة من المناطق غير الأوروبية. قام توبر بتحليل بيانات باك ووجد أن أكثر من ٦٠٪ من الأسرة القروية فى الصين كانت أسرًا نووية وذلك فى أوائل القرن العشرين. [١٨٤] ليست تلك بيانات تاريخية، ولكن من المفترض أن الصين وفقًا لنظرية التحديث "تقليدية" فيما يتعلق بالأسرة وأشياء أخرى كثيرة. حقًا هناك خلط شائع بين مفهوم النسَب أو "القربى" فى الصين - الذى نشره ڤيبر- وبين فكرة الأسرة الممتدة. تعد الأسر الكبيرة الممتدة غير شائعة فى أمريكا اللاتينية. فى الهند، مثل الصين مفهوم الأسرة الممتدة يعد غامضًا وذلك لغموض مفهوم "الأزواج الذين يعيشون بعيدًا عن ذويهم" (فى قرية صغيرة يعد توفير مكان لبناء بيت مشكلة) والعلاقة التى وجدت فى بعض الأحيان بين الإقامة فى مكان جديد والأرض المتوفرة التى يمكن بناء بيت صغير عليها. هناك خلط آخر فى العلاقة بين الأسرة (و/أو المشتركة) الممتدة وبين حقوق التوريث والقوة والحراك، وما هو أكثر من ذلك[١٨٥] فى نفس الوقت نرجع إلى أوروبا لنجد أن نموذج الأسرة المفترض أنها نووية وتنتقل للإقامة بعيدًا، يواجه هذا النموذج العديد من التساؤلات الجادة فيما يتعلق بالعصور الوسطى. (حتى لوقت قبل ذلك فكرة النموذج الفريد تعد خيالية وتنتمى إلى أفكار أخرى قديمة ومشكوك فيها - تلك التى نوقشت فى بداية هذا الفصل - عن القبائل الجرمانية القديمة وتفردها وقدرتها على التقدم وهكذا). عكست نماذج الإقامة الزواجية فى العصور الوسطى قواعد العزب (مثل تخصيصات الممتلكات) أكثر من قواعد الإقامة الثقافية فى ظل ظروف العبودية والاستئجار غير الآمن، لذا وجب أن نميز بين

الأنواع المختلفة من الأقاليم الحضرية مثل مناطق تكون العمالة فيها من خارج المزارع (مثل مناطق الصوف في جنوب شرق إنجلترا)، والأنواع التي بها صفات "الحدود" وهكذا. وهناك ما يدعونا أن نتساءل بشأن مفهوم نموذج الزواج الأوروبي الغربي المتواصل [١٨٦] . ولكن إعطاء صفة التعميم لغرب أوروبا لا يجعل هناك أساساً لاعتبار النموذج الأوروبي فريداً تاريخياً[١٨٧] .

وأخيراً، نجد أن النموذج قد تمت زخرفته بواسطة زخارف موشاة. كان يُزعم أن النموذج الأوروبي الفريد ليس فقط أمراً متعلقاً بانتقال محل الإقامة والأسر النووية والعمر، ومعدل الزواج. كان الزواج في غرب أوروبا يقوم على أساس من الحب. في الأماكن الأخرى كان الزواج مُرتباً. (ولكن الزواج المُرتب يبدو أنه كان قاعدة في أوروبا ما قبل الحديثة قبل فترات الحراك والخلل الاجتماعي. إن المفهوم المستدعى هنا وهو أن الأزواج غير الأوروبيين هم غرباء بعضهم عن بعض قبل أن يزج بهم للزواج يعد تحيزاً من الفترة الاستعمارية وهو مدعم بقليل من المواقف الثقافية غير العادية. يعتبر الحب الرومانسي في هذه المجادلة من خصائص الرشد الأوربي، فالأزواج غير الأوربيين محبون مثلهم مثل الأوروبيين). ادُّعى بعد ذلك أن الأسرة الأوروبية الغربية لأنها نووية فهي تنتج نوعاً فريداً من الشخصية. النظرية هنا هي أن الأسر الأوروبية النووية تقود حتماً إلى السلوك الفردي والتنافسي المولع بالكسب ولكن العطوف. وكما أسلفنا يقدم مان وجونز صورة للبيت القروي القديم، مثل بيت هانزل وجريتل(*) في أعماق الغابة، على أنه المصدر التاريخي لهذا النموذج الفردي. أما ماكفارلين الذي يقدم ربما أكثر أشكال النظرية تطرفاً (وقد انتقده زملاؤه ليس بسبب نظريته ولكن بسبب ادعائه بأنها تنطبق في الأساس على الإنجليز) يدعي أن الأسرة الإنجليزية في أوائل العصور الوسطى أنتجت شخصاً لديه صفات سيكولوچية وسلوكية هي (في جوهرها)

(*) هانزل وجريتل: وهي من القصص الشعبي الألماني وتحكي قصة طفلين لحطاب تقنعه زوجته بأن يترك الطفلين في الغابة خوفاً من الجوع .

نفس صفات الشخصية الرأسمالية لدى ڤيبر، وتسير السلسلة السببية قدمًا من العادات القبلية والدين للأسرة ومن الأسرة للشخصية ومن الشخصية لبدايات الرأسمالية (إنها نقطة سنعود إليها فيما بعد). وتقدم تلك المجادلة فى الأساس عن طريق إنشاء نموذج لما يعتبره ماكفارلين "المجتمع القروى" ذو الأسرة القروية والعقلية القروية. أما الشعب الإنجليزى القروى الأول فلا يناسب هذا النموذج. ولذا فهم ليسوا فلاحين، وليس لديهم نفس السمات الشخصية القروية من نوعية الأسرة التقليدية والعقلية التقليدية(١٨٨) . وكما علق الكثيرون مفهوم ماكفارلين "للقروى" رجل القش لا يمكن أن يمثل صفات من هم فى المناطق غير الأوروبية الحديثة أو القديمة، ورأيه بأن الأفراد فى المزارع الإنجليزية فى العصور الوسطى هم غير فلاحين يعد خطأً تاريخيًا(١٨٩) .

تعد نظرية الأسرة الأوربية الفريدة جزءًا مهمًا من نظرية المعجزة الأوروبية كما تعرف اليوم. فهى تستخدم فى مجادلتين بارزتين؛ الأولى: تجمع بين نظرية الأسرة ونظرية مالتوس. وتقول بأن الناس فى العموم ليسوا عل درجة الرشد الكافية التى تؤهلهم أن يتحكموا فى سلوكهم الجنسى ويحدوا من عدد الأطفال حتى يتناسب مع الظروف السائدة من توفر الغذاء وهكذا. ولذا فالبشر العاديون يمرون بأزمات دائمة أو على فترات تؤدى فيها الزيادة السكانية للمجاعة والحرب والأوبئة، ويبدأ التعداد السكانى المنخفض بعدها فى الاتجاه للزيادة فى إنجاب الأطفال مرة أخرى. إن المسلمة الجذرية هى اللارشد. يتصرف الناس بغباء، (مثل ما قاله مالتوس قبل ٢٠٠ سنة) مثل وحوش الحظائر(١٩٠) . النتيجة التاريخية لهذه العملية هى منع التطور. وأى تطور فى التكنولوچيا الإنتاجية على سبيل المثال يؤدى إلى نمو السكان، ثم لكارثة، ثم قلة عدد السكان ثم تعود من حيث بدأنا من نقطة الصفر، إنها دائرة مفرغة من الركود. إنها أحد أسباب عدم تطور المجتمعات غير الأوروبية بشكل عام وربما أهمها. وعلى العكس فالأوروبيون قد أظهروا دائمًا (أو ربما لألفية سابقة) سلوكًا رشيدًا فيما

يتعلق بالسكان. وهذا يتضمن قرارات عن الزواج وإنجاب الأطفال. الزواج الأوروبى المتأخر الفريد والأسرة النووية ومحل الإقامة الجديد، والأسرة المترابطة هى المؤسسة الحيوية التى بها تحدث عملية صناعة القرار الرشيدة تلك. ولذا فالأسرة الأوروبية قد سمحت للأوروبيين (أو الأوروبيين فى الغرب أو شمال غرب أوربا) أن يراقبوا نمو السكان، وبالتالى يراكمون الثروة المادية التى كان يمكن أن تبدد فى غير ذلك على غذاء أطفال كثيرين. هذا التراكم الأولى يشكل أساس التطور الدائم لأوروبا. قدم هذه النظرية بشكل أو بآخر العديد من المؤرخين الذين ناقشناهم من بينهم كرون، هول، چونز، لاسلت، ماكفارلين، ومان[١٩١] . ويعبر هول عن شكل من أشكال تلك النظرية فى تعليقه التالى (لقد استشهدنا بجزء منه سابقًا):

> **(ال) أسرة الأوروبية كانت دائمًا صغيرة، تتزوج متأخرة، نووية وعلى درجة ملحوظة من الحساسية فيما يتعلق بضغط مالتوس ... إن توسع الاقتصاد الأوروبى لم يحدث جزئيًا مثل الصين التقليدية القديمة وذلك لأن التحسن فى الإنتاج لم يكن يُستهلك بواسطة النمو الكبير فى تعداد السكان. النسبة بين تعداد السكان والفدادين بقيت جيدة وذلك بسبب عفة وضبط نفس العائلة الأوروبية[١٩٢] .**

تنظر نظرية مالتوس إلى البشر على أنهم وحوش. ولكن حتى لهؤلاء الباحثين الذين يقبلون نظرية مالتوس، فإن فكرة أن الأسرة الأوروبية تتجنب كوارث مالتوس غير مقبولة.

الطريقة الثانية التى استخدمت فيها نظرية "الأسرة الأوروبية الفريدة" فى مجادلات "المعجزة" الأوروبية: هى استنتاج الطرق التى من خلالها تنتج الأسرة الأوروبية مجموعة من التصرفات والأفعال التقدمية الفريدة التى بدورها تؤدى إلى المعجزة. يعبر لاسلت عن شكل شائع الاستخدام من هذه المجادلة:

قد يكون (ال) نظام الأسرى الأوروبى مسئولاً عن سلسلة كاملة من الخصائص التى تساعد على التقدم الاقتصادى وربما الإبداع. إن الظروف المقدمة للزواج والإنجاب فرضت على جميع الأفراد ... ضرورة الادخار وجمع المال ... شجع نظام الأسرة الأوروبى روح الادخار والاقتصاد(١٩٣) .

لذا تعتبر الأسرة الأوروبية منذ العصور الوسطى المصدر الأساسى لسمات الشخصية الرأسمالية. إن ذلك أيضاً صعب التصديق، كما أنه ليس متوافقاً مع حقائق الحياة (وعلم النفس) قبل ١٤٩٢ . لاسلت مثل ماكفارلين وكثيرين آخرين يفترض خطأ أن العائلة الأوروبية النموذجية فى العصور الوسطى كان لديها فى الواقع اختيارات سمحت لها بالادخار والتوفير وتراكم الثورة وهكذا. تتطلب تلك المجادلة أن تكون الأسرة القروية مالكة لمساحات كبيرة من الأرض، أو على الأقل مستأجر يتمتع بأمان قوى حتى يمكن لتراكم رأس المال أن يتحقق ولا يستنزفه سيد للأرض أو مالك لها. هناك خلاف كبير حول درجة امتلاك الأرض فى أوروبا الغربية فى أواخر العصور الوسطى، ولكن من المؤكد أن سلوك الأسرة بالشكل الذى وصفه لا سلت لا يمكن أن يكون شائعاً فى ظل النظام الإقطاعى، وبعد انهياره لا يمكن أن يكون شائعاً فى أماكن لم يمتلك فيها الفلاحون الأرض. ويبدو أن تلك هى القاعدة وليست الاستثناء(١٩٤) . ولذا فهذه المجادلة تقوم هى الأخرى باختزال التاريخ. إن نموذج الفلاح صاحب الملكية الصغيرة ذا العقلية التجارية فى القرن الثامن عشر يعود للخلف فى العصور الوسطى، وتصبح النتيجة سبباً.

هناك مجادلات عديدة تحذو الحذو نفسه: الأسرة الأوروبية أدت إلى المعجزة الأوروبية، وهى شائعة فى الخطاب البحثى الأكاديمى اليوم والمساحة تسمح لى أن أعطى مثالاً آخر من لورانس ستون:

هناك تبعات عديدة تترتب على نموذج الزواج المتأخر ... من المعقول أن نفترض أن هذا التأخر بالنسبة للشباب تطلب إنكاراً

> **للدافع الجنسى فى وقت بلغت فيه الغريزة الجنسية لدى الرجل ذروتها ... وإذا تتبعنا نظرية فرويد فقد يؤدى هذا إلى العُصاب ... وقد يفيد هذا فى شرح مستوى العدائية المرتفع فى الجماعة الذى قد يكون السبب وراء العدوانية التوسعية فى الدول / الأمم الغربية فى ذلك الوقت. وقد تكون كذلك الدافع وراء المشاريع الاقتصادية ... تحفز على الادخار لكى يتسنى لهم الزواج، كما أوجدت آلية اجتماعية واقتصادية نشطة[١٩٥] .**

كذلك فـ:

> **التسامى على الجنس بين البالغين من الشباب قد يفسر العدائية العسكرية الشديدة والاقتصاد والرغبة فى العمل الشاق والمشاريع التجارية والفكرية للرجل الغربى الحديث[١٩٦] .**

لقد غزا الأوروبيون العالم لأن شبابهم كانوا محبطين جنسياً.

لا تسمح لنا المساحة لسرد ومناقشة التفسيرات المتنوعة الأخرى لما يسمى بالمعجزة الأوروبية. ستُذكر بعض التفسيرات الإضافية فى سياقات مختلفة فى مواضع لاحقة من هذا الكتاب. ولكن أتمنى أن تكون المناقشة فى هذا الفصل قد أوضحت أن ما من صفة سواء للبيئة الأوروبية والشعب الأوروبى والثقافة الأوروبية، فى أى وقت قبل ١٤٩٢ يمكن أن تكون مرتبطة بحقيقة تطور أوروبا بينما بقيت غيرها من الحضارات بلا تقدم .

سأحاول فى الفصلين التاليين أن أوضح كيف أن السؤال يجب أن يصاغ بطريقة مختلفة ويجاب عنه بطريقة أخرى. إن أوروبا لم تنهض بالمقارنة بغيرها من الحضارات قبل ١٤٩٢ . لم تعكس نهضة أوروبا بعد ١٤٩٢ صفة خاصة بالأوروبيين وحدهم، ولكن ثروة هائلة جاءت لها نتيجة الاستعمار فى القرن السادس عشر وما بعده.

هوامش

(١) بالرغم من أن كتاب إيريك جونز المعجزة الأوروبية ١٩٨١ نشر عبارة "المعجزة الأوروبية" فقد كانت موجودة ومستخدمة لوقت طويل بنفس المعنى: النهضة الفريدة لأوروبا قبل العصور الوسطى أو أثنائها. لا يصف كل مؤرخ هذا على أنه "معجزة" ولكن المصطلح لقى قبولاً واسعًا بدليل المؤتمر الدولى بعنوان "المعجزة الأوروبية" الذى عقد فى جامعة كامبردج عام ١٩٨٥ .

(٢) من الواضح أن مقالى عام ١٩٧٦ بعنوان " أين ولدت الرأسمالية؟" كان أول منشور يرفض نظرية "المعجزة" كليًا وبدون قيود. أشار سمير أمين ١٩٩٦ فى تعليقه على ورقة لاحقة لى إلى موافقته لموقف الرفض. (Amin, "Colonialism and the Rise of Capitalism: A Comment," 1990; Blaut, "Colonialism and the Rise of Capitalism," 1989; also see Blaut, "Fourteen Ninety-Two," 1992; and Amin, "On Jim Blaut's 'Fourteen Ninety-Two,'" 1992.) اتخذ بعض المؤرخين القلائل مواقف قريبة منه: نناقش آرائهم فى جزء لاحق من الفصل.

(٣) عمل مهم آخر هو Cyril Black's The Dynamics of Modernization: A Study in Comparative History (1966). سوف تُناقش أعمال أخرى فى مجالات أخرى فيما بعد فى هذا الفصل.

(٤) ربما كان السبب هو نضوج الدراسات التاريخية كفرع من فروع المعرفة، وسبب آخر هو التأثير، وهو ليس مفيدًا كليًا للمنهج العلمى الإيجابى للتاريخ الذى أدى إلى محاولة تحديد متغيرات و"عوامل" وإن أمكن تصنيف كل منها. سبب آخر هو فقدان الإيمان بفكرة التقدم الحتمى فى القرن التاسع عشر، بعد حوالى نصف قرن من الفوضى والحرب لم يظهر التقدم ليكون شيئًا طبيعيًا وحتميًا، كان يجب أن يفسَّر وينتَج. سبب آخر هو علمنة الفكر الأوروبى بما فيه التاريخ حتى إن الأحداث البشرية لم يفترض أن تعكس إرشاداً من قوة أعلى. سبب آخر ومن الممكن أن يكون مهمًا جدًا كان التقدم العام لفروع المعرفة الأكاديمية وانخراطها فى (واعتمادها على) السياسة الداخلية والخارجية. تضمن هذا أن كل فرع يرى العالم بدرجة ما من التحيز لمادته كعامل (للاقتصاديين عامل السوق، للسيكولوجيين الدافع كعامل، للاجتماعين العامل الديموغرافى وعامل الهيكل الاجتماعى، للجغرافيين عامل المصادر إلخ) واتجه لأن يجادل مفضلاً نماذج تاريخية تعاملت مع عاملنا على أنه حيوى والعوامل الأخرى ثانوية. حيث إن الكثير من العلماء الاجتماعين كتبوا التاريخ بهذه الطريقة فقد تطلب هذا إيضاحًا خاصًا.

(٥) لا أعنى أن ألمح أن كل هذا كان نظرية مهيمنة لمادة التاريخ ككل. فالغالبية العظمى من الباحثين المؤرخين اشتغلوا على مشاكل أصغر متعمقين بحذر فى الأحداث ومطورين تفسيرات محدودة لتلك الأحداث. أثر المنظور الحداثى على بعض التعميمات الصغيرة على سبيل المثال عرض تفسيرات تم فيها تفضيل العوامل التى ساعدت التحديث، عوامل مثل تعداد السكان، والتكنولوچيا وما شابه. وكانت هناك بعض مناطق البحث حيث كان عدم الانتباه لتاريخ غير أوروبا مصدراً مهمًا للخطأ (الأكثر وضوحًا كما سنرى فى دراسات تاريخ التكنولوچيا الأوروبية). إضافة إلى ذلك كانت هناك (وما زالت) وجهات نظر مختلفة فى مجال التاريخ الاحترافى المتنوع والكبير، إذًا هو أمر يدعو للتساؤل أن نصف فترة تاريخية جغرافية محددة على أنه قد تحكمت فيها نظرية معينة (أو "نموذج"). أظن أن اهتمامى بالبحوث المتعلقة بمشكلة "المعجزة الأوروبية" ربما يقودنى أن أؤكد بشدة على أهمية رأى التحديث فى التاريخ ككل . يجب أن نلاحظ كذلك أن الكتاب الكبار عن "المشكلة المحددة فى تفسير النهضة الفريدة لأوروبا كانوا مؤرخين متخصصين: مؤرخين اقتصاديين، مؤرخين اجتماعيين، وهكذا ليسوا مؤرخين وحسب.

(٦) Cabral, Unity and Struggle (1979).

(٧) اتجه مفكرو العالم الثالث إلى أن يقدموا مجادلتين للحاضر والمستقبل. هؤلاء الذين دعموا فكرة شكل رأس مالى للتطور جادلوا بأن التطور الاقتصادى يجب أن يحتوى على دفاع عن رأس المال المحلى فى وجه الانتشار المزعج فى اقتصاد البلاد، كما كان يجب رفض السيطرة السياسية والاقتصادية للبلاد والشركات الأوربية. أما بالنسبة للاشتراكيين، فكان من الواضح أنه ينبغى رفض الهيمنة الاقتصادية والسياسية لرأس المال العالمى. اتجه كلا الفريقين إلى أن يعتنقوا إما "نظرية التبعية" أو "نظرية التخلف" التى كانت نظرية تاريخ ونظرية عمليات اجتماعية حديثة وتطور. أقلية صغيرة نسبيًا من مفكرى العالم الثالث عادة ما عكست أفكار واهتمامات القطاعات الثرية وجناح اليمين كما رحبت بفكرة الهيمنة الاقتصادية من قبل الاهتمامات الرأسمالية الأجنبية. حيث إن القطاعات الاجتماعية الغنية هيمنت على معظم مجتمعات العالم الثالث، وجهة نظر هذه الأقلية فى الغالب هى التى رسمت السياسة. كما حصلت أيضًا على الشهرة التى تستحقها فى الدوريات الأكاديمية فى العالم الأول.

(٨) انظر James, A History of Pan-African Revolt (1938), The Blackjacobins (1938) "The Atlantic Slave Trade and Slavery" (1970); Williams, CaPitalism and Slavery (1970) . تناقش هذه المواضيع فى الفصل الرابع.

(٩) Amin, Accumulation on a World Scale (1974) and later works. My articles "Geographic Models of Imperialism" (1970) and "Where Was Capitalism Born?" (1976) . كونا هيكلاً لنظرية عامة.

(١٠) أتعامل مع هذا الموضوع فى The National Question (b ١٩٨٧) .

(١١) انظر Van Leur's 1934 essay "On Early Indonesian trade," reprinted in his imdone-sian Trade and Society (1955) .

(١٢) انظر Duyvendak, Ma Huan Re-examined (1933); Needham and collaborators, Science and Civilization in China, published in 6 volumes between 1965 and 1984; wheatley, The Golden Khersonese (1961) and The Pivot of the Four Quarters (1971); Elvin, The Pattern of the Chinese Past (1973) .

(١٣) انظر Amin, Unequal Development (1976), Eurocentrism (1988), "Colonialism and the Rise of Capitalism: A Comment" (1990) .

(١٤) انظر Bernal, Black Athena, vol. 1 (1987) and vol. 2 (1991).

(١٥) يجب أن نذكر هنا كتاب إيريك ولف عام ١٩٨٢ أوروبا والشعوب بلا تاريخ الذى يقدم استقصاءً مفيدًا ومهمًا عن تاريخ الحضارات الأوروبية وغير الأوروبية ويوضح عدم إقناع نظرية أن الحضارات غير الأوروبية كانت راكدة وغير متطورة تاريخيًا (أى انهم كانوا "شعوبًا بلا تاريخ"). على أية حال يتوقف ولف قبل أن يتساءل عن المعتقد المركزى الأوروبى المهم بأن الأوروبيين كانوا أكثر تطورًا من غيرهم فى مناحى عدة تعد مهمة لنظرية "المعجزة الأوروبية" ولذا فهو لا يواجه النظرية مباشرة. (يجب الملاحظة هنا بأن معظم مؤرخى التيار السائد لم يعودوا يجادلون بأن الحضارات غير الأوروبية تعد أو كانت غير متطورة أى "غير تاريخية" ويجادلون بشأن المعدلات البطيئة لتغيير "العراقيل" التى تعيق التغيير وما شابه. هو اختلاف فى أسلوب التعبير وليس دائمًا اختلافًا فى المجادلة).

(١٦) يعد من قبيل المخاطرة أن نحاول شرح التغيرات الكبيرة لما هو سائد فى البحث الأكاديمى وبخاصة عندما تكون التغيرات فى مرحلة التكوين، لذا لا يتعدى هذا التفسير كونه حدسًا أو فرضية. كانت المواقف الأكاديمية تجاه العالم الثالث إيجابية جدًا فى فترة مواجهة الاستعمار وكفاح الحقوق المدنية. تغير الوضع بعد نهايات السبعينيات. تحكمت الآراء الأكثر تحفظًا فى العالم الغربى وظهرت صعوبات غير متوقعة فى العالم الثالث نفسه: الصراعات القومية وفشل برامج التطوير، وغيرها. لم يتخل البحث الأكاديمى الغربى عن الرأى التقليدى لأوروبا وعلاقاتها بغيرها بما فيها رأى نظرية الانتشار فى الاستعمار ويظهر أن هذا النموذج القديم لم يترك أبدًا بل أصبح مسيطرًا مرة أخرى. وهجر الباحثون الأكاديميون نظرية التبعية والآراء المشابهة لها. أما فيما بين الماركسين، فكانت العملية أكثر دراماتيكية لأنها لم تكن متوقعة. باختصار، طرح الماركسيون من أنصار المركزية الأوروبية دور العالم الثالث جانبًا، وأصبحو الآن الماركسيون الوحيدون فى العالم الأكاديمى الذين يبدون رأيًا فى أمور تتعلق بالعالم الثالث. أصبح من الشائع التأكيد مرة أخرى أن الطبقة العاملة فى الدول الرأسمالية المتطورة يمكن أن تفضى إلى الاشتراكية وذلك لأن كل مرحلة فى التاريخ تبدأ من هذا الجزء من العالم (الداخل) قبل أن تنتشر لباقى العالم (الخارج). فى المعسكر المحافظ لم تستعد أراء المركزية الأوروبية سلطانها فقط بل بدأنا نسمع الآن همسات عن أراء ليست بعيدة عن العنصرية: أراء عن فقدان شعوب العالم الثالث لإمكانية التطور.

(١٧) انظر Brenner, "The Origins of Capitalist Development: A Critique of Neo-Smithian Marxism" (1977), "Agrarian class structure and economic development in pre-industrial Europe" (1985), "The Agrarian roots of European capitalism" (1985b); Anderson, Passages from Antiquity to Feudalism (1974), Lineages of the Absolute State (1974); Warren, Imperialism: Pioneer of Capitalism (1980) .

(١٨) سأناقش أكثر المعتقدات أهمية فقط وربما أتجاهل القليل منها. وسأقدم الدليل الكافي على أن هذه المعتقدات ليست صحيحة فى حد ذاتها. ثم أقدم أدله أكثر لدحض بعض هذه المعتقدات فى الفصلين الثالث والرابع.

(١٩) انظر الفصل الأول الملاحظة الثانية.

(٢٠) انظر Bowler, The Invention of Progress (1989); Harris, The Rise of Anthropological Theory (1968); Gossett, Race: The History of an Idea in America (1963); Jackson, Rac and Racism: Essays in Social Geography (1987); Stocking, Race, Culture, and Evolution (1968); Trigger, A History of Archeological Thought (1989) .

(٢١) انظر . Bernal, Black Athena, vol. 1 (1987)

(٢٢) انظر . Gossett, Race (1963)

(٢٣) انظر . Blaut, "The Theory of Cultural Racism" (1992)

(٢٤) "النورالجيا (الألم العصبى) الوراثية للاتجاه القوى المزعوم للهستيريا والتنويم المغناطيسى الذاتى للهنود..." (Max Weber, The Religion ofIndia (1967), p. 387) هذه الفرضية تعد أساسية لتحليل ڤيبر للبرهمية كسبب رئيسى لتأخر الهند.

(٢٥) "ظهر الزنوج قديمًا على أنهم غير مناسبين لعمل المصانع وتشغيل الماكينات، فكثيرًا ما أصيبوا بإغماءة تخشبية فى نومهم. هناك حالة واحدة فى التاريخ الاقتصادى حيث وجدت الفوارق العنصرية الحقيقية" (Weber, General Economic History (1981), p. 379) بالرغم من أن ڤيبر يقول هنا إن هذه هى "حاله واحدة" للتأثيرات العنصرية، فقد لاحظ أن هذه الحالة تعد حيوية بالنسبة لتحليل ڤيبر "للرشد" و"التحديث". إن "الفروق العنصرية" هنا تعزل الأفارقة بطريقة أساسية. إنها حالة واضحة لعنصرية معتدلة ولكن فى غاية الأهمية. وعلى نفس المنوال " وجد أن الأمريكين الهنود كانوا غير ملائمين للعمل فى المزارع" (p.299)

(٢٦) Weber, The Religion of China (1951), pp. 231-232. يعتبر ڤيبر أن هذه هى "الصفات العنصرية للصينيين" (P.230) بالرغم من ضلوع عوامل ثقافية.

(٢٧) (Weber, The Religion of China (1951), pp. 231-232). يقول ڤيبرهنا "إنه من الطبيعى أن نظن أن أهم سبب " لرشد الغرب هى "اختلافات الوراثة" و"أهمية الوراثة البيولوچية" حيث يعتقد أنها "هائلة جداً" P.30 ولكن لا نعرف حتى الآن كيف نقيس هذا التأثير لذا يجب أن ينصب اهتمامنا فى الأساس على العوامل الثقافية (pp.30-31). يعد هذا نموذجًا للعنصرية المعتدلة (كما أسميها) فى الوقت الذى نشر فيه العمل (١٩٠٥-١٩٠٤)

(٢٨) لم أناقش السؤال إذا ما كانت العنصرية البيولوچية قد بقيت مهمة لليوم كنظرية ضمنية أى نقبلها ولكن بدون وعى. أظن أنها كذلك. بعض مؤرخى المركزية الأوروبية يتمسكون بمواقف تتعلق بالفروق الفردية بين الأوروبيين وغيرهم التى تعد متطرفة جداً وشديدة التعصب حيث من الصعب تجنب نتيجة أنهم على الأقل يتمسكون بنظرية تحتية ضمنية عنصرية، وربما بدون وعى يعتقدون بأن النقص لدى غير الأوروبيين هو محدد جينياً.

(٢٩) بين المصادر العديدة عن المغالطة العنصرية انظر Franz Boas' classic book, Race, Language, and Culture (1948); also Blum, Pseudoscience and Mental Ability, (1978); Gossett, Race (1965); Haller, Outcasts from Evolution (1971); Jackson, Race and Racism (1987); Magubane, The Ties that Bind: African-American Consciousness and Africa (1987); Gill and Levidow, Anti-Racist Science Teaching (1987) .

(٣٠) فكرة أن التصرف الديموغرافى لا يقع تحت طائلة التحكم الاجتماعى هى حقيقة أو عامل بيولوچى أصلى ويبدو أنها تمثل أساس فكر معظم مؤرخى المركزية الأوروبية (إيريك چونز، مايكل مان وچون هول). يبدو أن الافتراض الأساسى أن تعداد السكان سوف ينمو بالضرورة وراء الحدود المعقولة وبالتالى زيادة عدد السكان يجب أن تكون هى النتيجة إلا إذا ما وجدت المجتمعات حلولاً غير ديموغرافية بصورة ملحوظة عن طريق زيادة إمدادات الغذاء لإطعام التعداد السكانى المتزايد. انظر على سبيل المثال مايكل مان مصادر القوة الاجتماعية، الجزء الأول (١٩٨٦) إذا لم تكن العائدات الزراعية قد زادت فى أوروبا فى العصور الوسطى "لشهدت القارة دورة مالتوسية كل قرن أو ما يقرب ولم تكن قد أدت إلى ظهور الرأسمالية" (P.402). عادة ما يواجه هذا الرأى بين الحين والآخر فى الحركات النسائية، والراديكالية. لاحظ الرأى التالى الذى قدمته زعيمة نسائية ماركسية" نفترض (مع تسليمنا بوجود الدافع الجنسى لدى الجميع...) أن العدد الكلى للحمل فى تعداد سكان معين سيزيد عن العدد المرغوب فيه فى الأساس وهذا فى إطار هيكل تحفيزى معين، ستكون تلك الزيادة غير المقصودة كبيرة ولن تكون هناك وسائل جيدة متاحة لمواجهة الموقف... وبالتالى يُتخذ نموذج معين للخصوبة لأنه "رشيد" ما عدا زيادة صغيرة ولكنها متنوعة من (المواليد)" سيكومبى "الماركسية والديموغرافيا" (١٩٨٣) P.31. إن السياق هو مناقشة التطور الاجتماعى الأوروبى فى العصور الوسطى ولكن تقدم المجادلة لتدعيم نظرية برنر عن النهضة الأوروبية للرأسمالية. معظم الراديكالين وزعماء الحركات النسائية يرفضون نظرية مالتوس كما يرفضون رأى سيكومبى على أساس أنه متأثر بنفس النظرية.

(٣١) انظر Jones, The European Miracle (1981), p. 3. جزء من القطعة هو اقتباس.

(٣٢) انظر . Jones, The European Miracle (1981), p. 219

(٣٣) انظر Hall, Powers and Liberties: The Causes and Consequences of the Rise of the West (1985), p. 131. Italics added .

(٣٤) كما يشير ف. حسن إلى أنه " ممارسة تنظيم النسل بشكل أو آخر فيما بين التجمعات البشرية هو سلوك شائع" ("Hassan, Demographic Archeology", 1978, p.71).

(٣٥) بعض الأسر بالطبع سوف يكون لديها أولاد أكثر مما أرادت والبعض الآخر أقل بسبب عدم كفاءة وسائل تنظيم النسل ولكن المتوسط بالنسبة للمجموعات الأكبر حجمًا سيتسق مع قيم المجموعة وأهدافها. ستتنوع الوسائل فيما بين اختلاف سن الزواج واختلاف المهور إلى تعقيد قوانين الزواج (تعريف من يصلح ليتزوج من في نظام عائلي ما) إلى توقيت العلاقات الجنسية، إلى استخدام الوسائل المضادة للخصوبة والإجهاض إلى وأد الأطفال الرضع وغيرها من الممارسات.

(٣٦) معظم الدراسات البحثية تأتي من الهند حيث اعتادت الأيديوليجا الاستعمارية على الزعم بأن الفقر هو نتيجة كثرة عدد الأطفال. أثبت الديموغرافيون الآن وغيرهم من العلماء الاجتماعيين بطلان هذه الخرافة. انظر على سبيل المثال Mamdani, Th Myth of Population Control (1972), and Nag, "How Modernization Can Also Increase Fertility" (1980). For Africa, see, for example, Kitching, "Proto-Industrialization and Demographic Change" (1983); Swindell, "Domestic Production, Labor Mobility, and Population Change in West Africa, 1900-1980" (1981); Cordell and Gregory, the introduction to African Population and CaPitalism (1987) .

(٣٧) انظر على سبيل المثال دراسات عديدة توضح مرونة معدلات المواليد Nag "How Modernization Can-Also Increase Fertility" (1980), Collyer, Birth Rates in Latin America (1965), and Harewood, "Population Growth in Grenada" (1966) .

(٣٨) انظر Aston and Philpin, eds., The Brenner Debate (1985)، خاصة مقدمة . R.Hihon

(٣٩) ربما أكثر استعدادًا وذلك لأن تفسير مالتوس للفقر في بلدان العالم الثالث أصبح موضوعًا شائكًا للباحثين والمخططين في تلك الدول وأصبح من الأهمية بمكان توضيح كيف أن الفقر في بلادهم هو إلى حد ما نتيجة السلوكيات الديموغرافية غير السليمة للأفراد العاديين.

(٤٠) على سبيل المثال (Montesquieu, in The Spirit of the Laws ([1748] 1949)) "الناس أكثر حيوية في المناخات الباردة" (PT.XIV.2) "هناك دول الحرارة المرتفعة فيها توهن الجسد ويصبح الانسان... كسولاً بهمة مثبطة" (PT. XV.7) .

(٤١) "أفريقيا" دائمًا ما تعنى "أفريقيا جنوب الصحارى" فى السياق الذى أنتقده لذا سوف أستخدم "افريقيا" بنفس المعنى فى المناقشة الحالية.

(٤٢) انظر Blaut, "The Ecology of Tropical Farming Systems" (1963) .

(٤٣) انظر على سبيل المثال Collins and Roberts, eds., Capacity for Work in the Tropics (1988), الذى يفشل فى إيجاد دليل مقنع يقترح الآثار الاستوائية السلبية.

(٤٤) الاستشهادان Gilfillan, "The Cold ward Course of Progress," 1920, and Lambert,) "The Role of Climate in the Economic Development of Nations," 1971) يعبران عن الأدب البحثى الأكاديمى الحديث.

(٤٥) "مناخ" الهند "الموهن" هو سبب من أسباب تخلف الهند خلف أوروبا وفقًا لجونز (Jones, The Euro-pean Miracle (1981), p. 198).

(٤٦) بين الأعمال الرائدة ذات الأهمية بالنسبة لزراعة الفلاحين نستطيع أن نذكر (Fred Hardy's "Some Aspects of Tropical Soils" (1936)) وبعض مقالاته المتنوعة Tropical Agriculture، وعمل Robert Pendleton خاصةً (Pendleton, "Land Use in North-Eastern Thailand," 1943, and Prescotr and Pendleton, Laterites and Lateritic Soils, 1952), and G. Milne "A Soil Reconnaissance Journey Through Parts of Tanganyika Territory" (1947)، أول كتاب دراسى شامل عن التربة الاستوائية يجسد المعرفة الجديدة هو (Mohr and van Baren, Tropical Soils (1954)).

(٤٧) انظر Nye and Greenland, The Soil Under Shifting Cultivation (1960); Blaur, "The Nature and Effects of Shifring Agriculture" (1962); Ahn, West African Soils (1970) .

(٤٨) انظر Curtin, The Rise and Fall of the Plantatiar Complex Way of Death (1988); (1990). يتردد هذا الرأى فى كتب دراسية عديدة عن تاريخ العالم على سبيل المثال، Roberrs, The Hutchinson History of The World (1987), pp. 54-56; McNeill, A Worli JHistory (1967), pp. 273-278.

(٤٩) انظر Wilken, Good Farmers: Traditional Agricultural Resource Management in Mexico and Central America (1987); also Nye and Greenland, The Soil Under Shifting Agriculture (1960); Blaut, "The Ecology of Tropical Farming Sysrems" (1963) .

(٥٠) Denevan, The Native Population of the Americas in 1492 (1976).

(٥١) انظر . Cockburn and Hecht, The Fate of the Forest (1989)

(٥٢) تلك المناطق الهامشية هى فى الغالب أقاليم تمارس بها الزراعة مفضلة على نظام أقل تكثيفًا فى استخدام الأرض وذلك لأن المجتمعات البشرية قد تم دفعها بعيدًا عن الأرض الجيدة عن طريق قوى تاريخية هى الاستعمار فى الأساس.

(٥٣) لمثال نموذجى J.M.Roberts المؤرخ من أكسفورد فى كتابه الشهير عن تاريخ العالم (The Hutchin-son History of the World (1987)) يقدم هذا التصريح الذى يدل على جهل "ربما الأهمية العظمى لإنتشار أعمال الحديد [فى أفريقيا الاستوائية] هى الفرق الذى أحدثته فى الزراعة. جعلت اختراقًا جديدًا للغابات ممكنًا، حراثة جديدة للتربة. (التى يمكن أن ترتبط بوصول المحاصيل الغذائية الجديدة من أسيا...) ... هذا يقترح مرة أخرى العامل المحدد المهم للبيئة الأفريقية. معظم تاريخ القارة هو قصة إستجابة لتأثيرات خارجية [بما فيها أعمال الحديد والمحاصيل الجديدة . (p.511-512) "[المزارعون الأفارقة مثل غيرهم من أوروبا وأقاليم أخرى عديدة مارسوا الزراعة باستخدام أدوات حجرية قبل استخدام الحديد واستمروا فى ذلك عندما كان من الصعب الحصول على الحديد. فى عصر أعمال الحديد فى أفريقيا الاستوائية انظر على سبيل المثال Wai-Andah, "West Africa Before the Seventh Century" (1981) and Sinclair, "Archeology in Eastern Africa,(1991).

(٥٤) انظر على سبيل المثال Roberts (note 53 above); also Irwin, "Sub-Saharan Africa," in Garraty and Gay, eds. The Columbia History of the World (1981), p. 299. .

(٥٥) انظر على سبيل المثال العمل الكلاسيكى لـ Irvine, A Textbook of West African Agriculture (1934); Coursey, Yams (1967) .

(٥٦) وفقا لـ (Jones, The European Miracle (1981))، "الشعوب الزنجية ... كانت لا تزال تندفع شرقًا وجنوبًا باتجاه مقاطعات الأقزام والبُشمان عندما قام المزارعون الهولنديون بالهجرة شمالاً فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر" (p.155) انظر أيضًا Roberts The Hutchinson History of the World (1987), p. 178 .

(٥٧) Curtin, Economic Change in Pre-Colonial Africa (1975); Curtin, The Rise and Fall of the Plantation Complex (1990); Miller, Way of Death (1988) .

(٥٨) انظر Wisner and Mbithi, "Drought in Eastern Kenya" (1974); Wisner, Powe and Need in Africa (1989); O'Keefe and Wisner, "African Drought: The State of the Game" (1975) .

(٥٩) نفس المجادلات تنطبق هنا ولا حاجة لأى شروط فى الزراعة فى نصف الكرة الأرضية الغربى. فى أجزاء محدودة نسبيًا من الغابات الاستوائية فى جنوب أمريكا تعد البيئة ضعيفة كنتيجة لظروف جيولوجية

محلية (تكون الصخور الذى يؤدى إلى وجود تربة صلصاليه كولينيتية غير خصبة فى بعض المناطق، وفى مناطق أخرى رمال) مما أدى إلى تبنى نظم المحاصيل الزراعية المتنقلة (أو محاصيل الأشجار). ولكن تلك المناطق هى الاستثناء فى التوزيع الحالى لبيئات الغابات الاستوائية. بشكل عام، الإزالات الكبيرة للغابات الاستوائية الأمازونية والغينية أنتجت مناطق زراعية غير مستقرة بسبب العوامل التاريخية الثقافية وبالأخص قلة عدد السكان والزيادة الهائلة فى مزارع الماشية. فى الحقيقة مزارع الماشية وليست الزراعة المتنقلة هى التى أدت إلى تدهور بيئى زراعى على المدى الطويل فى أقاليم الغابات الاستوائية بسبب: (١) المزارعون يحرقون الغابة بشكل واسع وبلا ضابط وذلك لزيادة مساحة الرعى، (٢) المرعى الناتج يؤدى إلى تدهور التربة بسبب حشائش المرعى الجافة التى لا تحافظ على بيئة التربة مثل الغابة الأصلية. على النقيض يحرق المزارعون المتنقلون تحت شروط محددة ومناطق صغيرة فقط ويشجعون على إعادة نمو الغابة. إذا اختفت الغابة فسبل حياتهم تختفى كذلك. لا ينبغى أن يوجه اللوم إلى المزارعين المتنقلين لإزالة أشجار الغابات فى أى مكان من المناطق الاستوائية الرطبة. انظر Hecht and Cockburn, The Fate of the Forest (1989); Blaut, "The Nature and Effects of Shifting Agriculture" (1963) .

(٦٠) Buckle, The History of Civilization in England, 2nd ed., (1913), chap. 2 . وانظر أيضًا . Bowler, The Invention of Progress (1989), pp. 28-29

(٦١) Marx, Capital, vol. 1 (1976), p. 513n .

(٦٢) يتمكن جونز فى الواقع من استخدام كلتا النظريتين المتضادتين باتجاه نفس الهدف. فى الأقاليم الرطبة فى أفريقيا "كانت الحياة أسهل". فى الأقاليم الجافة "كانت الزراعة منتجة". Jones, The European Miracle (1981), p. 154 . وانظر أيضًا Jones, Growth Recurring: Economic Change in World History (1988) .

(٦٣) "الوفرة واتساع الأرض فى أفريقيا يجعلان الزراعة متنقلة وبالتالى نجد أسسًا ضعيفة تبنى عليها الدول. شىء مثل هذا قد يكون صحيحًا بالنسبة لزراعة الاجتثاث والحرق". John Hall, Powers and Liberties (1985), p. 27. ("الاجتثاث والحرق" هى الزراعة المتنقلة).

(٦٤) Laibman, "Modes of Production and Theories of Transition" (1984), p. 284. على الرغم من ذلك مجادلة Laibman الكلية ليست مركزية أوروبية مطلقًا.

(٦٥) Buckle, History of Civilization in England, vol. 1, 2nd ed. (1913), p. 93 : جاءت الأوبئة الكبيرة التى اجتاحت أوروبا على فترات متفرقة من الشرق الذى يعد موطنها الأصلى حيث كانت قاتلة أكثر. حقًا من بين هذه الأمراض الشرسة التى توجد الآن فى أوروبا نادرًا ما نجد واحدًا ظهر فيها أولاً، والأسوأ قد تم استيراده من البلاد الاستوائية أثناء القرن الأول من الحقبة المسيحية وبعده".

(٦٦) نظرية أن فيروس HIV الذى يسبب الإيدز للإنسان هى نوع آخر من الأوبئة الأفريقية التى تنزل على العالم الغربى وقد تكون هى أحدث خرافة فى تقليد نظرية الانتشار القديمة. إذا ما كان هذا الفيروس ظهر فى أفريقيا أولاً أم لا، الأمر الذى لم يتم ثبوته، اتخذت الخرافة تنويعات متزايدة سيئة مثل المعتقد (الكلاسيكى) غير المؤسس على براهين أن الإيدز انتقل من القردة إلى الإنسان بسبب ممارسات جنسية غريبة فى قبائل أفريقية مغمورة. (قدم تقرير عن هذه الخرافة فى Shannon and Pyle, "The Origin and Diffusion of AIDS," 1989. انظر نقد هذه الورقة فى Watts and Okello, "Medical Geography and AIDS," 1990. انظر أيضًا R. C. and R. J. Chirimuuta, AIDS Africa and mcism, 2nd ed., 1989).

(٦٧) McNeill, Plagues and Peoples (1976), p. 43 .

(٦٨) انظر على سبيل المثال Giblin, "Trypanosomiasis Control in African History: An Evaded Issue?" (1990); Turshen, "Population Growth and the Deterioration of Health: Mainland Tanzania, 1920-1960" (1987) .

(٦٩) Wittfogel, Oriental Despotism (1957) .

(٧٠) انظر Venturi "The History of the Concept of 'Oriental Despotism' in Europe" (1963); P. Anderson, Lineages of the Absolute State (1974); B. Chandra, "Karl Marx, His Theories of Asian Societies, and Colonial Rule" (1981) .

(٧١) أحكام مشابهة مازال يقدمها منظرو المعجزة الأوروبية. على سبيل المثال، John Hall, Powers and Liberties (1985), p. 12 : "بقى المجتمع الصينى فى نفس المرحلة مدة تزيد على ألفى عام، بينما أوروبا بالمقارنة تقدمت مثل بطل سباق الحواجز".

(٧٢) وأيضًا قبل ذلك ناقشها مونتيسكيو، برنير، آدم سميث، وهيجل (انظر على سبيل المثال، Introduction," and "The Oriental World" in Hegel's Philosophy of History, 1956)." انظر أيضًا المراجعات التاريخية فى "The History of the Concept of 'Oriental Despotism' in Europe" (1963); P. Anderso, Lineages of the Absolute State (1974); and B. Chandra, "Karl Marx, his Theories of Asian Societies, and Colonial Review" (1981).

(٧٣) كان لهذه الفكرة من بشر بها. ربما أخذ ماركس الفكرة من كارل ريتر أستاذه فى الجغرافيا فى برلين.

(٧٤) Marx and Engels, Selected Correspondence (1975).

(٧٥) أخذ ماركس وإنجلز عوامل أخرى فى الاعتبار ومن العدل القول بأن تحليلهما بقى تأمليًا. أعتقد أن إنجلز تراجع عن فكرة " الاستبداد الشرقى" فى وقت متأخر من حياته. انظر مناقشة هذا الموضوع فى

P. Anderson, Lineages of the Absolute State (1974); Blaut, "Colonialism and the Rise of Capitalism" (1989); and B. Chandra, "Karl Marx, His Theories of Asian Societies, and Colonial Rule" (1981).

(٧٦) انظر Laibman, "Modes of Production and Theories of Transition" (1984), and Bailey and Llobera, The Asiatic Mode of Production (1981).

(٧٧) انظر Weber, The Agrarian Sociology of Ancient Civilizations (1976), pp. 84, 131, 157, The Religion of China (1951), pp. 16, 21, 25, and "The Origin of Seigneurial Proprietorship," part 1, chap. 3, esp. pp. 56-57 in General Economic History (1981). انظر أيضًا McNeill, Plagues and Peoples (1976), pp. 93, 207, 259.

(٧٨) Weber, The Agrarian Sociology of Ancient Civilizations (1976), pp. 157-158. وأيضًا فى صفحة ٨٤ "كانت الزراعة أساس الاقتصاد [فى مصر] لأنها كانت العامل المهم فى استغلال مصادر الأرض. كل مستوطنة جديدة تطلبت بناء قناة ... بناء القناة هو عملية تتطلب نوعًا من التنظيم الاجتماعى المشترك على نطاق واسع ، إنه يختلف نسبيًا عن النشاط الفردى لإخلاء غابة بكر. هنا إذًا يكمن السبب الاقتصادى الرئيسى للموقف المسيطر للملكية فى بلاد ما بين النهرين [و] مصر.

(٧٩) انظر على سبيل المثال Denevan, The Aboriginal Cultural Geography of the Llanos de Mojos of Bolivia (1966), and "Hydraulic Agriculture in the American Tropics" (1966)، عن زراعة الحقول الجافة القديمة أو زراعة المرتفعات فى الأقاليم الاستوائية: Golson, "No Room at the Top: Agricultural Intensification in the New Guinea Highlands" (1977)، عن استخدام الصرف فى الأرض الجبلية فى نيو جينى Doolittle, Canal Irrigation in Prehistoric Mexico (1990)، عن استخدام الصرف والزراعة فى المكسيك: Harrison and Turner Pre-Hispanic Maya Agriculture (1978)، عن استخدام الصرف فى الأرض المنخفضة لدى المايا.

(٨٠) Jones, The European Miracle (1981), pp. 8-9.

(٨١) Hall, Powers and Liberties (1985), pp. 12-13, 27-28, 36, 42-3, 53, 59, 99, 102, 137.

(٨٢) Hall, Powers and Liberties (1985), p. 11. انظر أيضًا pp. 41,123,132.

(٨٣) Mann, The Sources of Social Power (1986). انظر أيضًا مقالته "European Development: Approaching a Historical Explanation" (1988).

(٨٤) Mann, The Sources of Social Power (1986), p. 94.

(٨٥) Mann, The Sources of Social Power (1986), p. 179.

(٨٦) حقيقة أن مان يعزو انطلاقة أوروبا القديمة إلى العربة الحربية، والزراعة المعتمدة على مياه الأمطار والمحراث الحديدى ولكن يوافق على أن كلا الاختراعين بدأ فى الشرق الأوسط وهذا ما يجعلنى أفكر فى أن ركائز التفكير السببية الأساسية لدى مان بخصوص مفهوم الرشد الأوروبى وبغض النظر عن مخترعى هذه الأشياء قائمة على فكرة أن الأوروبيين هم من فعّلوا تلك الأشياء. هذا المفهوم الفيبرى يعد أساسيًا بالنسبة لمان وسوف يشرح فى جزء لاحق من هذا الفصل.

(٨٧) Bray, Agriculture, vol. 6, part 2, of Needham and collaborators, Science and Civilization in China (1984).

(٨٨) Blaut, "Two Views of Diffusion" (1977).

(٨٩) Mann, The Sources of Social Power (1986), pp. 247,406,408,412,504-510, 520, 530, 539-540.

(٩٠) Mann, The Sources of Social Power (1986), p. 509.

(٩١) Hall, Powers and Liberties (1985), p. 99.

(٩٢) Hall, Powers and Liberties (1985), p. 110.

(٩٣) Jones, The European Miracle (1981), p. 10.

(٩٤) Jones, The European Miracle (1981), p. 47..

(٩٥) Jones, The European Miracle (1981), p. 8. يقترف جونز الخطأ الشائع بافتراض انخفاض إنتاجية العامل فى الزراعة القائمة على الرى بالمقارنة بتلك التى لا تقوم عليه. ليس هذا هو الوضع. حتى مع الحيوانات المستخدمة فى الجر، كان الإنتاج الزراعى فى العصور الوسطى للعامل منخفضًا. كما تستخدم الحيوانات فى الجر فى الزراعة القائمة على الرى وعلى نطاق واسع كذلك فى بعض النظم الزراعية فى مناطق زراعة الأرز المليئة بالمياه فى آسيا.

(٩٦) Mann, "European Development" (1988), p. 10, The Sources of Social Power (1986), p. 406; Jones, The European Miracle (1981), pp. 90, 227; Crone, Pre-Industrial Societies (1989), p. 150; McNeill, Plagues and Peoples (1976), p. 295.

(٩٧) Mann, The Sources of Social Power (1986, chap. 5). يبنى مان فى الواقع نظرية الحرب القديمة على أساس هذا النوع من الحسابات، وهو هنا يتجاهل حقيقة أن الجيوش وقتها مثل الآن تمد نفسها والحيوانات التى تستخدمها بالمؤن فى طريق سيرها.

(٩٨) Jones, The European Miracle (1981), chap. 2 and elsewhere. Hall, Powers and Liberties (1985), p. 132 ، يقدم نفس الإدعاء مستشهدًا بجونز.

(٩٩) Hall, Powers and Liberties (1985), p. 111; Jones The European Miracle (1981), pp. 90, 105, 107,226-227; Mann, "European Development: Approaching a Historical Explanation" (1988), p. 10; Mann, The Sources of Social Power (1986), p. 406 .

(١٠٠) أحيانًا كان "العقل الإجرامي" يُرى على أنه يعكس بعدًا آخر للاختلاف.

(١٠١) Levy-Bruhl, How Natives Think (1966).

(١٠٢) انظر على سبيل المثال Boas, The Mind of Primitive Man (1938); Radin, Primicive Man as Philosopher (1927); M. Mead, Growing Up in New Guinea (1930) .

(١٠٣) Stocking, Victorian Anthropology (1987), p. 59; Bowler, The Invention Progress (1989), p. 66; Whitman "From Philology to Anthropology in Mid-Nineteenth-Century Germany" (1984); Bernal, Black Athena, vol. 1 (1987); Said, Orientalism (1978) . تعبير جديد عن هذه النظرية جاء فى مناظرة سوفيتية عن "الاستبدادية الشرقية" ((Lelekov, "Round-Table: State and Law in the Ancient Orient," 1978). زعم لكلوف، وهو مؤرخ، أن الكلمات التى تعنى "الحرية" و"الحق" كانت أساسية فى اللغة أو اللغات الإندو – أوروبية وليس فى لغات الشرق الأدنى، وأكد أن هذا ينبغى ان يكون قد أثر على "التفكير الاجتماعى" (p.109) لقد دحض هذا المنطق عالم اللغة V. Ivanov (p.193)

(١٠٤) انظر Dalal, "The Racism of Jung" (1988). فى عمل يونج على وجه الخصوص Psychological Types (1971) (على سبيل المثال: "[لو]عدنا للوراء لعلم النفسى البدائى، لا نجد أى أثر لمفهوم الفرد" P.10) (Memories, Dreams, Reflections (1963) and "The Dreamlike World of India," in Civilization in Transition (1927). انظر أيضًا عمل تلميذ يونج (Erich Neumann, The Origins and History of Consciousness (1954) على سبيل المثال "تطور الوعى كشكل من التطور الخلاق هو إنجاز خاص بالإنسان الغربى ... الشخصية الخلاقة هى ملمح رئيسى للمبادئ الثقافية للغرب ... فى الثقافات غير المتغيرة أو المجتمعات البدائية حيث الملامح الأصلية للثقافة فى الإنسانية مازالت محفوظة، تسود المراحل البدائية الأولى لنفسية الإنسان" pp.xviii-xix).

(١٠٥) Piaget, Psychology and Epistemology (1971), p. 61 .

(١٠٦) انظر على سبيل المثال Werner and Kaplan, Symbol Formation (1964).

(١٠٧) انظر الأجزاء ١٦ الأولى (حتى ١٩٨٥) لدورية علم النفس بين الثقافات لأمثلة عديدة رائعة لهذه الظاهرة. لهذه الفترة شيء مثل عُشر المقالات الإمبيريقية فى هذه الدورية الأمريكية كانت دراسات قام بها بيض من جنوب أفريقيا محاولين توضيح النقص العقلى للأفارقة السود.

(١٠٨) Rogers, The Diffusion of Innovations (1962); Rogers and Shoemaker Communication of Innovations (1971), pp. 187-191; McClelland, The Achieving Society (1961); Hagen, On the Theory of Social Change (1962) and "A Framework for Analyzing Economic and Political Change," in Brookings Institution, ed., Development of the Emerging Countries: An Agenda for Research (1962), pp. 1-39. استشهدت بالتصريحات الأولى، ظهرت أعمال أخرى بعد ذلك.

(١٠٩) S. Marglin, "Losing Touch: The Cultural Conditions of Worker Accommodation and Resistance," in F. and S. Marglin, eds., Dominating knowledge: Development, Culture, and Resistance (1990) .

(١١٠) Sack, Conceptions of Space in Social Thoughr (1980) . الجغرافيون البارزون فى نموذج نظرية الانتشار هنا هم L. Brown (The Diffusion of ,/ innovations, 1981) and P. Gould (Spatial Diffusion, 1969). عن التقليدية فى الزراعة فيما يتعلق بالمخاطر الطبيعية، انظر G. White, ed., Natural Hazards (1974)، كمثال على الأبحاث الوفيرة فى الأدب. انتُقدت تلك المجادلات وغيرها عن عدم نضج غير الأوروبيين العقلى فى Blaut, "Two Views of Diffusion" (1977), "Diffusionism: A Unitarian Critique" (1987a), and "Natural Mapping" (1991).

(١١١) فى مجال التعليم فى الولايات المتحدة تحتوى اختبارات القبول الموحدة للكليات (SAT,ACT) على صفات خاصة بثقافة معينة وجنس معين مثل ضعف مستوى النساء عن الرجال بالرغم من حصولهن على مستويات أعلى فيما يتعلق بدرجات الجامعة بينما درجات امتحانات ACT, SAT لمن يتحدث اللغة الأسبانية (لم يدرس الأمريكيون الأفارقة بهذه الطريقة) وهى منخفضة ليست لها ارتباط تبادلية مع أدائهم فى الكلية. لذا فالاختبارات تقلل من شأن الإناث والأقليات. لماذا تستخدم الاختبارات عالميًا بالرغم من هذا؟ أنه سؤال مدهش. نجد نفس الانحيازات فى اختبارات معامل الذكاء حتى إن تلك الاختبارات مُنعت كوسائل تشخيصية فى مدارس كاليفورنيا. انحيازات "العقل البدائى" و"اللغات البدائية" تجتمع أحيانًا مثلما فى مناظرات الولايات المتحدة عما يسمى "الإنجليزية فقط" وعن السؤال الذى يتعلق بهل الأدب غير الأوروبى يستحق أن يكون ضمن مناهج الكليات بجانب الأدب الأوروبى. فى بوسطن منذ وقت ليس بعيد لم يذهب ٣٠٪ من الأطفال الأسبان الذين تتراوح أعمارهم بين السادسة والثامنة إلى المدرسة بسبب عدم قدرتهم على التحدث بالإنجليزية ووصموا بالتخلف العقلى وادعت بوسطن أن لديها وسائل عديدة لتعليم هؤلاء الأطفال فى "مدارس خاصة". تبقى الامتحانات بوجه عام فى التعليم فى الولايات المتحدة عنصرية جداً.

(١١٢) Rorty, Philosophy and the'Mirror of Nature (1980), and earlier works by Dewey (for instance The Quest for Certainty, 1929), Whitehead (for instance, Modes of Thought, 1938), and G. H. Mead (for instance, Philosophy of the Act, 1938). .

(١١٣) هذا تقييم عام. يستمر بعض علماء الأنثروبولوجيا في التمسك بمبدأ "العقل البدائي" أو "العقل التقليدي" القريب منه، مثال على الأخير كتاب جورج فوستر الشهير والمؤثر ثقافات تقليدية (١٩٦٢)، مثال على السابق عمل هول بايك أسس الفكر البدائي (١٩٧٩). للنقد انظر Schweder, "Cultural Psychology: What Is It?" (1990) .

(١١٤) عن سؤال استخدام فيبر "للرشد"، ومكانته المركزية في تنظيره بالرغم من تعريفه ومصدره غير المؤكد انظر على سبيل المثال Cohen's Introduction to the 1981 ed. of Weber's General Economic History (1981), pp. xxv-xxvii; L?with, Max Weber and Karl Marx (1982), pp. 40-42, 53-54, n. 49; Freund, The Sociology of Max Weber (1968), pp. 140-149. In Weber, see General Economic History (1981), chaps. 29, 30, The Protestant Ethic and the Spirit of CaPitalism (1958), pp. 13-31,59-60, 79, 118-120, 191, n. 19, 265, n. 31, The Religion of China (1951), chap. 8, The Religion of India (1967), p. 387, and other works .

(١١٥) Weber, General Economic History (1981), p. 161. Also see pp. 339, 355-368. . يقدم ڤيبر مجموعة كبيرة من التعليقات من عدم نضج الآسيويين العقلي.

(١١٦) Weber, Economy and Society, vol. 2 (1968), pp. 1212-1374.

(١١٧) الأرقام بين الأقواس هى أرقام صفحات في المعجزة الأوروبية .

(١١٨) مصطلح علماء البيئة "علاقة الاستغلال" يشير إلى شكل من التعاون الداخلي المحدد فيما بين الحيوانات ولا ينطبق على الإنسان.

(١١٩) أن نجد ملمحًا مستهجنًا في المجتمع الآسيوى قديمًا ونقارنه بملمح مرضى للمجتمع الأوروبي الحديث فيما بعد الثورة الصناعية ثم يعامل الملمحان على أنهما صفات دائمة لهذه المجتمعات مقدمًا صورة بدائية كريهة للآسيويين وحداثة رائعة للأوربيين، وهذا يعد نموذجًا لأسلوب جونز.

(١٢٠) كان الإقطاع بين قبائل ألمانيا الغربية نموذجًا أوليًا للإقطاعية المتأخرة وهو خليط من النزعة القديمة جدًا الراسخة في المجتمع الزراعي "الأوروبي" والانتهازية اللا أوروبية Mann, "European Development" (1988), p. 16 .

(١٢١) Mann, "European Development" (1988), p. 17. انظر كذلك The Sources of Social Power (1986)، على سبيل المثال صفحات ١٩٠، ١٩٥، ٢١٣، ٣٧٧، ٤٠٤، ٤١٢، ٥١٠ ("في نهاية كل تلك العمليات تقف دولة جزيرية حيوية متوسطة الحجم ذات تربة رطبة ذات موقع استراتيجى للانطلاق: بريطانيا العظمى" p.510)

(١٢٢) Mann, "European Development" (1988), pp. 8-9, 11-12, 15-18 and The Sources of Social Power (1986), pp. 377-378, 397-398, 402-408, 412, 500-510. عن رشد أوروبا وأهميتها التاريخية، انظر McNeill, Plagues and Peoples (1976), pp.41,97, 106-107, 236, 238, 249, 256, 259, 264..

(١٢٣) P. Anderson, Passages from Antiquity to Feudalism (1974), part3; Finaly, The Use and Abuse of History (1975), chap. 6; Aston and Philp in, The Brenner Debate (1985), pp. 32-33, 42-51,59, 63n, 214-215, 234-236, 306-316 .

(١٢٤) White, Medieval Technology and Social Change (1962), p. 38); also McNeill, Plagues and Peoples (1976), p. 234 .

(١٢٥) White, Medieval Technology and Social Change (1962), p. 54 .

(١٢٦) Kosambi, Ancient India (1969), p. 89; R. S. Sharma, Light on Early Indian Society and Economy (1966), p. 57 .

(١٢٧) White, Medieval Technology and Social Change (1962), p. 44 .

(١٢٨) White, Medieval Technology and Social Change (1962), p. 56; McNeill, Plagues and Peoples (1976), p. 237 .

(١٢٩) C. T. Smith, An Historical Geography of Western Europe (1967), p. 203; انظر Darby, The Domesday Geography of Eastern England (1952) .

(١٣٠) Orwin and Orwin, The Open Fields (1967), chap. 3; C. T. Smith, An Historical Geography of Western Europe (1967), chap. 4 .

(١٣١) White, Medieval Technology and Social Change (1962), p. 57.

(١٣٢) White, Medieval Technology and Social Change (1962), p. 67.

(١٣٣) White, Medieval Technology and Social Change (1962), p. 68.

(١٣٤) Bray, Science and Civilization in China, vol. 6, part 2, Agriculture (1984), p. 304-328 .

(١٣٥) White, Medieval Technology and Social Change (1962), p. 76.

(١٣٦) White, Machina Ex Deo (1968). انظر على وجه الخصوص المقال الشهير "The Historical Roots of Our Ecological Crisis" (chap. 5).

(١٣٧) White, "The Historical Roots of Our Ecological Crisis." In White, Machina Ex Deo (1967), p. 85 .

(١٣٨) White, Machina Ex Deo (1967), p. 90 .

(١٣٩) Needham et al., Science and Civilization in China (1954-1984).

(١٤٠) يتجاهل بعض المؤرخين اليوم هذا الدليل ويكررون المفاهيم القديمة عن فقدان الصين للبراعة التكنولوجية، انظر على سبيل المثال Roberts, The Hutchinson History of the World (1987), pp. 493-495, 502 .

(١٤١) عادة ما يستخدم مصطلح "العصور الوسطى" لمعظم أجزاء نصف الكرة الأرضية الشرقى أو كلها.

(١٤٢) Needham et al., Science and Civilization in China, vol. 4, pard (1965), chap. 27 .

(١٤٣) Needham et al., Science and Civilization in China vol. 4, part 2 (1965), p. 33).
أرنولد باسى يجد الابتكار فى كوريا. Pacey's Technology in World History (1990), p. 56 .

(١٤٤) انظر على سبيل المثال Lopez, "Hard Times and Investment in Culture" (1953), Thorndyke, "Renaissance or Prenaissance?" (1943).

(١٤٥) Cipolla, Guns, Sails, Empires (1965), p. 106.

(١٤٦) Cipolla, Guns, Sails, Empires (1965), pp. 108-109.

(١٤٧) Jones, The European Miracle (1981), p. 124.

(١٤٨) من بين الدول الحديثة التى لا تحيط بمناطق المركز البيئى: أسبانيا، إيطاليا، ألمانيا، بولندا، اليونان، السويد، روسيا إلخ. قبل القرن العشرين ربما كانت مناطق فى بريطانيا العظمى (جنوب إنجلترا وفرنسا (حوض باريس) ينطبق عليها هذا النموذج المجرد، إنه نموذج مفيد لبعض الأهداف وليس لغرض شرح التاريخ السياسى للقارة. بعض مناطق المركز هى أنوية (جمع نواة) دول وبعضها ليس كذلك. تتناسب مناطق مثل جنوب شرق آسيا الحديثة، بورما، تايلاند وكمبوديا هذا النموذج مثل الحالة الأوروبية.

(١٤٩) فى هذه العلاقة انظر Dirks, The Hollow Crown (1987).

(١٥٠) Hall, Powers and Liberties (1985), "States and Societies: The Miracle in Historical Perspective" (1988) .

(١٥١) Mann, The Sources of Social Power (1986), "European Development" 1988).

(١٥٢) ليس هذا هو المثال الوحيد للمجادلات التى تركز على الدولة الأوروبية فى الطريقة التى يناقض بها بعضها بعضًا. يقال إن الدولة الرومانية (من قبل هول من بين كثيرين) كانت إبداعًا مهمًا، ومصدرًا لكثير من الملامح السياسة التى تصف أوروبا وأوروبا فقط، هذا من جانب ومن جانب آخر تُعامل الدولة الرومانية من قبل آخرين (من بينهم مان) على أنها "دولة إمبريالية"، مثل الدول الاستبدادية الشرقية. من المفترض أن أوروبا تفوقت سياسيًا عن طريق تجنب الشكل الإمبريالى للدولة وتطوير نوع من الدولة أصغر حجمًا ولكن إلى حد ما أكثر ديمقراطية بدلاً عنه.

(١٥٣) Baechler, "The Origins of Modernity: Caste and Feudality (India, Europe and Japan)" (1988) .

(١٥٤) انظر على سبيل المثال White, Machina Ex Deo (1968); Mann, The Sources of Social Power (1986), "European Development" (1988); Hall, Powers and Liberties (1985); Baechler, "The Origins of Modernity" (1988); K. E Werner, "Political and Social Structures of the West" (1988); and Hallam, "The Medieval Social Picture" (1975) .

(١٥٥) .Hall, Powers and Liberties (1985), p. 135

(١٥٦) .Mann, "European Development" (1988), p. 12

(١٥٧) .Hallam, "The Medieval Social Picture" (1975), p. 49

(١٥٨) K. E Werner. "Political and Social Structures of the West" (1988), p. 172. يجادل هذا الألمانى المتخصص فى تاريخ العصور الوسطى أن القوة المركزية لنظرية "المعجزة" هى المسيحية. يشير هنا إلى الكنيسة الكاثوليكية ولمجموعة العقائد (الكاثوليكية ثم البروتوستانتية فيما بعد)، وللمؤسسات الاجتماعية والسياسية التى تأثرت بالكنيسة والعقيدة، ولإيمان الأوروبيين، الذى فى رأيه كان له علاقة وطيدة بقدرتهم على الابتكار، عدم "رضاهم" ورشدهم. ويعترف كذلك بأن العديد من العوامل المسببة كانت تعمل لإحداث النهضة فى أوروبا، وهو لا يتردد فى ادعاء دور للبيئة الطبيعية. ولكن من الواضح أن هذه النظرية مبنية فى الأساس على الدين والأكثر من هذا أننا يمكن أن نستشعر أن هذا الباحث نفسه قد يرى يد إله مسيحى فى نهضة أوروبا المسيحية.

أولاً يقدم موقفًا قويًا عن أثر احتفاظ التاريخ الأوروبى باستمرارية المؤسسات وبالتقدم، منذ وقت الإمبراطورية الرومانية إلى العصور الوسطى، وكيف أسست الإمبراطورية الأخيرة الكنيسة وأرست المؤسسات التى استمرت حتى العصور الوسطى وأعطت الحقبة طابعها. كانت الكنيسة الكاثوليكية من بين تلك المؤسسات المهمة. يتمنى فرنر أن يصور الكنسية على أنها تمتلك تأثيرًا قويًا فى التاريخ منذ وقت تأسيسها. فهو يرى أن نهضة أوروبا كعملية، دائمًا ما أرشدتها الديانة المسيحية كمؤسسة

وعقيدة. لو كان ڤرنر يقدم نظرية عن التاريخ تعطى دوراً رئيسيًا للدين لما ناقشت آراءه فى هذا الكتاب. لكنت قد وافقت أن دورها لم يأخذ ما يستحقه من الاهتمام الكافى من قبل المؤرخين المحافظين والماركسيين. سبب تعاملى مع آراء ڤرنر هو أنه يقدم اعتقاده واضحًا أنه ليس الدين بشكل عام ولكن الدين المسيحى الذى لعب الدور الفعال تاريخيًا فى "المعجزة" الأوروبية. آراء ڤرنر هى آراء مركزية أوروبية واضحة. ربما يكون التعليق المهم هو التالى:

[لو] وجب أن نختار حكمة واحدة هى فى حد ذاتها قادرة على التعبير عن العامل الأساس فيما نفهم أنه "المعجزة الأوروبية" لأمكن أن نختار المصطلح الفلسفى ... "عدم الراحة" ..."القلق"، الاضطراب... بينما آسيا وحكمتها وقاطرتها، الديانات العظيمة وفلسفاتها تكافح تجاه فن البحث عن مركز الروح، العالم، والراحة في الله، الوصول، إن أوروبى المعجزة الأوروبية هو رجل دائمًا على أهبة الاستعداد ... ولكن أين يجب البحث عن دافع أو دوافع تلك العقلية؟ الباعث على القلق يرى فى آلام الخطيئة ... أثناء البحث عن الغفران والنعمة الإلهية أن أهمية تخليص الروح أعطت حتى الآن أهمية، لم يسمع بها من قبل، للفرد بعيداً عن طبقته الاجتماعية، الفرد الذى ... [لا يترك نفسه] للقدر ... يبدو أن معنى المسئولية بالنسبة لى هو أحد نقاط قوة الأوروبيين الذين يستحقون "المعجزة" (p.185).

ولذا: دين أوروبا ، المسيحية ، يغرس نوعًا من الرشد فى "الرجل الأوروبى" الذى يفسر المصدر الأساسى "للمعجزة الأوروبية".

الاعتراض على هذا هو نفس الذى قدم بخصوص مفاهيم "رشد" أوروبا الفريدة إذا ما جاءت هذه الصفة المفترضة من الدين (ڤرنر) أو من القبائل الأوروبية فيما بعد العصر الحجرى القديم (مان) أو من أى مصدر آخر فالاعتراض الأساسى هو: كيف يمكنك أن تجد تبريراً لتصريح يجعل من الأوروبيين أكثر ذكاءً، أفضل، أكثر جرأة من غيرهم. إذا ما قبلت بالبديهة الأساسية بأن كل المجتمعات الإنسانية لديها نفس الحصة من العقل؟ إنه شيء بأن نعطى العقل البشرى الفضل فى السببية الرئيسية للتغير الثقافى من خلال إبداع أشياء اجتماعية وتقنية وفكرية صرفة، ولكنه شيء مختلف، شيء مشكوك فيه أن نعطى الفضل لعقول الجنس البشرى من مجتمعات معينة – وليس غيرها – بكل تلك الصفات من القدرة على الابتكار، القلق، الإحساس بالمسئولية، الشغف الفكرى واحترام الآخرين وهكذا، إنها صفات يمكن أن تلخص فى حكمة "الرشد". يتمتع الأوروبيون بالرشد وكذلك غيرهم.

(١٥٩) انظر على سبيل المثال Palmer, Atlas of Modern History (1957); Bj?rklund, H?lmhoe, R?hr, and Lie, Historical Atlas of the World (1970); and Kinder and Hilgemann, The Anchor Atlas of World History, vol. 1 (1974) .

(١٦٠) أناقش هذا فى The NatioT1ll1 Question (1987b).

(١٦١) Padgug, "The Problem of the Theory of Slavery and Slave Society" (1976).

(١٦٢) Baechler, "The Origins of Modernity" (1988).

(١٦٣) Baechler, in "The Origins of Modernity" (1988), p. 39، يقترح أننا يجب أن "نضع أوروبا البربرية فى فترة الهولشتات [حوالى ٦٠٠ ق.م ...] جنبًا على جنب مع أفريقيا التى كانت على حافة الاستعمار فى القرن الثامن عشر [بعد الميلاد .]

(١٦٤) يجد بيتشلر أرستقراطية حقيقة أيضًا فى اليابان ولكنه يعتقد أن اليابان فشلت فى أن تحاكى أوروبا لأسباب أخرى متنوعة.

(١٦٥) يعتبر بيتشلر أنه من الطبيعى أن الفوضى السياسية فى عصور الظلام أفسحت الطريق بسلاسة أمام دول قوية فى أوروبا . "حتميًا" سيكون هناك "إعادة بناء للحكومات الكبيرة" (Baechler, "The Origins of Modernity" 1988, p. 50) ولكن من الحتمية كذلك بالنسبة للهند أن الفوضى السياسية منذ ١٠٠٠ سنة ماضية لن تعالج ومن ثم "يصبح وجود الحكومة ... وهم فى الهند". (p.45)

(١٦٦) Baechler, "The Origins of Modernity" (1988), p. 59.

(١٦٧) Baechler, "The Origins of Modernity" (1988), p. 53.

(١٦٨) Baechler, "The Origins of Modernity" (1988), p. 56 .

(١٦٩) Baechler, "The Origins of Modernity" (1988), p. 45.

(١٧٠) Baechler, "The Origins of Modernity" (1988), p. 53 .

(١٧١) Godelier, Sobre el Modo de Producci6n Asiatico (1969), p. 58.

(١٧٢) Brenner, "The Origins of Capitalist Development: A Critique of Neo-Smithian Marxism" (1977); "Agrarian Class Structure and Economic Development in Pre-Industrial Europe" (1985, originally published 1976), and "The Agrarian Roots of European Capitalism" (1985) .

بعد ظهور المقال الأول عام ١٩٧٦ فى دورية الماضى والحاضر نشرت مجموعة من الدراسات النقدية فى هذه الدورية وقام برنر بالرد فى مقالة عام ١٩٨٢، "The Agrarian Roots of European Capitalism".

ثم ظهر The Brenner Debate: Agrarian Class Structure and Economic Development in Pre-Industrial Europe فى ١٩٨٥ ، الذى احتوى على المقالتين فى دورية الماضى والحاضر ودراسات نقدية أخرى حررها أستون وفيلبن.

(١٧٣) فى رأيى ترجع شهرة تلك النظرية الضعيفة إلى أمرين فى الأساس؛ الأول: تم تقديمه على أنه رأى ماركسى، مؤسس على فكرة الصراع الطبقى ويثبت أنه نظرية تقليدية وإن كانت ريفية فى انحيازها. يتبع من هذا أن نظريات الصراع الطبقى تؤدى إلى نتائج تقليديه. ثانيًا: يستخدم برنر نظريته "أصول النمو الرأسمالى" (The Origins of Capitalist Development: A Critique of Neo-Smithian Marxism," 1977, pp. 77-92) للهجوم على نظريات أقل شعبية مثل "نظرية العالم الثالث" وجوانب مختلفة لنظرية التبعية ونظرية التخلف وعلى وجه الخصوص ثلاثة آخرين من الماركسيين الجدد –Swezzy, Frank, Wallerstein– الذين يجادلون بأن الاستعمار الأوروبى كان له علاقة وطيدة بنهضة الرأسمالية اللاحقة. برنر هو مؤرخ مجتهد متخصص فى النظرية النفقية للمركزية الأوروبية. لم يكن للمناطق غير الأوروبية دور مهم فى التطور الاجتماعى فى أى فترة تاريخية. غير واع بأن الاستعمار يتطلب علاقات إنتاجية رأسمالية – انظر الفصل الرابع أدناه – يدعى بأن العالم غير الأوروبى كان له تأثيرات تجارية على أوروبا، بينما نهضة الرأسمالية لم تكن منتجًا للتجارة، حيث حدثت فى ريف إنجلترا وعكست صراع الطبقات وليس التجارة. انظر نقد برنر فى Brenner collected in Aston and Philpin (1985) by Hilton, Croot and Parker, Wunder, Le-roy, Ladurie, Bois, Cooper, and others . انظر أيضًا Torras, "Class struggle in Catalonia" (1980) and Hoyle, "Tenure and the land market in early modern England: Or a late contribution to the Brenner debate." (1990) .

(١٧٤) Taeuber, in Freedman, Family and Kinship in Chinese Society (1970).

(١٧٥) (١) لو كان فرد واحد من الأسرة هو عامل بالأجر فإن فقد العمل يعد كارثة. لو كان أفراد أكثر هم عمال بالأجر فمن الطبيعى أن البعض سيكسب دخلاً وقد يستغنى عن الآخرين. (٢) لو افترضنا أن هناك قدره على ادخار نسبة معينة من الدخل فإن كثرة عدد العاملين سوف تزيد الادخار أى رأس المال؛ وتلك الكمية تكون مهمة جدًا بالنسبة للمشاريع. (٣) وجود قريب للاستعارة منه يعد مفيدًا للمشاريع على نطاق صغير. (٤) الأقرباء يمكن أن يوفروا عمالة غير مدفوعة الأجر. تلك المبادئ معروفة فى مجتمعات العالم الثالث.

(١٧٦) Hajnal, "European Marriage Patterns in Perspective" (1965), pp. 101-146. هذه الورقة واحدة من أكثر المطبوعات المستشهد بها فى موضوع الديموغرافيا فى أدب المعجزة الأوروبية.

(١٧٧) انظر ملاحظة ٣٧ السابقة.

(١٧٨) Hajnal, "European Marriage Patterns in Perspective" (1965), p. 101.

(١٧٩) Hajnal, "European Marriage Patterns in Perspective" (1965), p. 134 .

(١٨٠) يسلم هاجنال بأن لديه بيانات معاصرة عن المناطق غير الأوروبية ولكنه يقترح ببساطة أن البيانات التاريخية قد تثبت رأيه بوضوح أكثر وذلك لأن نماذج الأسرة غير الأوروبية الحديثة فى رأيه تتغير باتجاه النماذج الأوروبية أى أنها فى طريقها لتصبح أوروبية. وعندما "نقدم كل التعديلات على البيانات فبلا شك نستطيع أن نبقى على تعميمنا الأصلى" (European Marriage Patterns in Per-spective," 1965, p. 106).

(١٨١) Stone, The Family, Sex and Marriage in England 1500-1800 (1977), p. 509.

(١٨٢) Mann, The Sources of Social Power (1986), p. 408; Crone, Pre-Indusrial Societies (1989), p. 152; Jones, The European Miracle (1981), pp. 15-16; Macfarlane Marriage and Love in England: Modes of Reproduction 1300-1840 (1986).

(١٨٣) Laslett, "The European Family and Early Industrialization" (1989).

(١٨٤) Taeuber, "The Families of Chinese Farmers" (1970), pp. 63-86.

(١٨٥) انظر. Freedman, Chinese Lineage and Society (1966), p. 49

(١٨٦) انظر على سبيل المثال Handler "Review of Macfarlane, A., Marriage and love England" (1989); Hilton, "Individualism and the English Peasantry" (1980); Kertzer, "The Joint Family Household Revisited: Demographic Constraints and Household Complexity in the European Past" (1989); and Berkner, "The Use and Misuse of Census Data for the Historical Analysis of Family Structures" (1975), and "The Stem Family and the Developmental Cycle of the Peasant Household" (1989).

(١٨٧) على سبيل المثال G. Lee, "Comparative Perspectives" (1987), p. 65، يوضح أن "[العديد] من الباحثين يؤكدون أن غالبية العائلات فى أى مجتمع هى كما كانت دائمًا معتمدة على الأسرة النووية الصغيرة بغض النظر عن العوامل الثقافية التى تفضل الأسر الممتدة الكبيرة".

(١٨٨) Macfarlane, The Origins of English Individualism (1978), chap. 1 and "The Cradle of Capitalism" (1988), p. 344.

(١٨٩) انظر على سبيل المثال، Hilton, "Individualism and the English Peasantry" (1980) and Handler, "Review of Mcfarlane, A., Marriage and Love in England" (1989).

(١٩٠) "يبدو من المحتمل أن نماذج سلوك [الأفراد البدائيين] فيما يتعلق [بالخصوبة والوفيات] تشبه إلى حد كبير تلك التى يمكن أن تلاحظ لدى كثير من الحيوانات" Wrigley, Population and History (1969), p. 37. يكتب ريجلى عن مجتمعات الصيد والالتقاط." وصف العلاقة بين تقاليد الحيوانات الاجتماعية وتنظيم تعداد تلك الحيوانات" هو نقطة مناسبة للانطلاق لدراسة الإنسان البدائى" (P.37)

(١٩١) Crone, Pre-Industrial Societies (1989), p. 153; Hall, Powers and Liberties: The Causes and Consequences of the Rise of the West (1985), pp. 130-132; Jones, The European Miracle (1981), pp. 3, 13-15, 217-19, 226-227, 231, and elsewhere; Laslett, "The European Family and Early Industrialization" (1989), pp. 235-240; Macfarlane, "The Cradle of Capitalism" (1988), chap. 14; Mann, The Sources of Social Power (1986), p. 408.

(١٩٢) Hall, Powers and Liberties (1985), pp. 130-131.

(١٩٣) Laslett, "The European Family and Early Industrialization" (1989), p. 237.

(١٩٤) انظر Croot and Parker, "Agrarian Class Structure and the Development of Capitalism: France and England Compared" (1985). هذا المقال وغيره في كتاب Aston and Philpin, The Brenner Debate: Agrarian Class Structure and Economic Development in Pre-Industrial Europe (1985)، يناقش بالتفصيل مستوى ملكية الأرض المنخفض في أوروبا في العصور الوسطى.

(١٩٥) Stone, The Family, Sex and Marriage in England, 1500-1800 (1977), pp. 53-54.

(١٩٦) Stone, The Family, Sex and Marriage in England, 1500-1800 (1977), p. 652.

الفصل الثالث

قبل ١٤٩٢

ستتمحور مجادلتى فى هذا الفصل والذى يليه حول ثلاث فرضيات:

١ - قبل ١٤٩٢ كان التطور باتجاه الحداثة والرأسمالية موجودًا فى مناطق من أوروبا كما كان موجودًا أيضًا فى مناطق من آسيا وأفريقيا. كانت العملية الأساسية على نصف نطاق الكرة الأرضية عملية تغيير من مجتمع قبل رأسمالى، زراعى طبقى وباتجاه مجتمع ذى شكل بدائى للرأسمالية. لم يكن هناك أى شىء يتعلق بالغائية، لم يكن نوعًا من الكفاح التطورى باتجاه هدف قدرى هو المجتمع الرأسمالى. إننى ببساطة أجادل أن ما حدث فى أوروبا حدث أيضًا فى أجزاء متفرقة من نصف الكرة الأرضية الشرقى. سأستخدم كلمة "الإقطاعية" لوصف المجتمعات الزراعية الطبقية فى أفريقيا وآسيا وكذلك فى أوروبا (وسأعطى أسبابى لاستخدامى هذه الكلمة على هذا النحو). سأطلق على الشكل الذى ظهر لاحقًا "ما قبل الرأسمالية". فى ١٤٩٢ من المحتمل أن يكون الشكل الاجتماعى الإقطاعى هو الذى كان يتحكم فى أكثر من نصف كل قارة فى نصف الكرة الأرضية الشرقى. كانت مراكز ما قبل الرأسمالية تظهر فى مناطق متفرقة من القارات الثلاث، وكانت مترابطة عن طريق شبكة تمتد من غرب أوروبا إلى جنوب أفريقيا إلى شرق أسيا.

٢ - بدأ هذا النظام على نطاق نصف الكرة الأرضية فى التفكك بعد ١٤٩٢ بقليل بسبب الثروة والقوة التى حصل عليها الأوروبيون فى أمريكا. هُزمت أمريكا من قبل الأوروبيين وليس الآسيويين أو الأفارقة وذلك بسبب موقع أوروبا على الكرة الأرضية وليس بسبب التفوق الأوروبى فى مستوى أو معدل التطور أو "الإمكانية" للتطور.

٣ - كان التدفق الضخم للثروة إلى أوروبا من التراكمات الاستعمارية فى أمريكا ثم آسيا وأفريقيا بعد ذلك هو القوة الأساسية التى تفسر حقيقة تحول أوروبا السريع إلى مجتمع رأسمالى، والحقيقة المكملة بأن مراكز ما قبل الرأسمالية فى آسيا وأفريقيا بدأت فى الانهيار وبالتالى بدأت تفقد أهميتها النسبية والمطلقة. بدأ التطور فى أوروبا والتأخر فى المناطق الأخرى. كانت هناك عمليات داخلية أوروبية تعد أسبابًا مهمة للتغير والتطور فى تلك القارة، ولكن العملية الأساسية التى أشعلت الفتيل ودفعت بعملية التحول باستمرار كانت هى الثروة المجلوبة من الاستعمار.

الفرضية الأولى هى موضوع هذا الفصل، أما موضوع الفصل الرابع فسيكون الفرضيتين الثانية والثالثة.

لن أستطيع أن أبرهن على صدق هذه الفرضيات. سأقوم ببساطة بعرض كمية كبيرة من الأدلة التى تدعمها وسأوضح كيف أن تلك الفرضيات تتلاءم مع الحقائق المعروفة الأخرى فى نظرية مترابطة. إنها النظرية التى أقترحها وهى نظرية منطقية. هذا فيما يتعلق "بالبرهنة على الحقيقة" مع الأخذ بعين الاعتبار الأدلة التى أعرفها وكمّ المجادلات التفصيلية التى يمكن حشدها فى هذا الفصل. بعض أجزاء هذه المجادلة (مثل تطور أفريقيا فيما قبل ١٤٩٢) سيتم التنظير بشأنها فى نطاق أوسع من نطاق الأدلة المتوافرة لدينا، وذلك فى رأيى لأن الحقائق التى نحتاج إليها حتى نؤكد أو ننفى تلك الأجزاء من المجادلة ليست متوافرة لدينا حتى الآن ولم يتم البحث عنها باهتمام من قبل البحث الأكاديمى فى مجال نظرية الانتشار. أما الجانب الأكبر فسيكون التنظير مبنيًا على أسس إمبيريقية قوية. بالإضافة إلى هذا الدليل هناك الدليل المقدم فى الفصل السابق ضد النظريات المضادة التى تنكر أهمية المناطق غير الأوروبية قبل وبعد ١٤٩٢ . وقد أتاح لنا هذا، إذا جاز التعبير، مساحة لمناقشة المواضيع التى ستتم طرحها فى الجزء التالى.

حالة العالم فى العصور الوسطى

قبل ١٤٩٢ كانت الحضارات فى آسيا وأفريقيا وأوروبا مختلفة بعضها عن بعض فى نواحٍ عدة، ولكنها كانت متشابهة فى نواحٍ أخرى. وأعتقد أن نقاط الاختلاف لم تكن ذات أهمية فى التطور الثقافى[1] . فى الفصل الثانى قمت بسرد عدد من النظريات التى تزعم أن هناك عدداً من الاختلافات الخاصة بين أوروبا وغيرها من الحضارات وهى التى تفسر النهضة الفريدة لأوروبا، وقد حاولت أن أعرض أن تلك النظريات لم تكن مقنعة. فى المناقشة التالية سأتعامل مع بعض الأجزاء من الثقافة ذات الأهمية الشديدة والبينة بالنسبة لعملية التطور الثقافى، وسأحاول كذلك توضيح أن النماذج الموجودة فى أوروبا فى العصور الوسطى لم تكن مختلفة بشكل جدى عن غيرها الموجودة فى حضارات أخرى. سأجادل بأن أساليب الإنتاج وتركيب الطبقات ونظم التبادل المكانى والتحضر كانت متشابهة إلى حد كبير فيما بين العديد من الحضارات، فقد تبلورت بطرق متشابهة وإلى حد ما كانت أجزاء من عملية شائعة على نطاق نصف الكرة الأرضية.

فى القرن السابق على ١٤٩٢ عاشت معظم الإنسانية فى مجتمعات زراعية طبقية. كانت الغالبية العظمى من الناس فى تلك المجتمعات فلاحين ينتجون ما يعيشون عليه، كما كانوا يجبرون على تسليم جزء كبير من إنتاجهم (أو عملهم أو دخلهم المالى) لطبقة من الصفوة أو الطبقة الحاكمة، وهى طبقة طالما ادعت حقها فى الأرض وكانت دائمًا لها القوة الحقيقية والرسمية فوق الفلاحين. الذى وصفته هنا على أنه أسلوب إنتاج هو مجموعة متشابكة من السمات من بينها المصادر المادية مثل الأرض والثقافة المادية (الأدوات وما شابها) والقوة العاملة المستخدمة فى الإنتاج والتوزيع والقواعد الاجتماعية التى تتحكم فى الموارد المادية وتوزيع الإنتاج وغيرها من السمات الأخرى. أما فى أوروبا فى العصور الوسطى فقد كان هذا الأسلوب من الإنتاج يسمى "بالإقطاعى". إنه جزء من مفهوم أكبر هو "المجتمع الإقطاعى". أحد الملامح المهمة

للمجتمع الإقطاعى الأوروبى كان طبيعة الدول والقوة السياسية. ملمح آخر كان ثقافة طبقة أصحاب الأرض بألقابهم، وفروسيتهم، وما إلى ذلك. والثالث هو أهمية نظام الأقنان serfdom فى بعض الأقاليم والفترات. ولكن الأساس المتضمَن (أو على أية حال المصاحب) لتلك الملامح كان الحقيقة العامة للإقطاع كأسلوب إنتاج، كفلاح وصاحب أرض، لمجتمع زراعى طبقى كانت فيه طبقة أصحاب الأراضى تعتمد على فائض مأخوذ (ودائمًا عن طريق استخدام درجة من القوة) من المنتجين الفلاحين. كان أسلوب الإنتاج هذا مع تنويعاته هو الملمح الأساسى لكل المجتمعات الزراعية الطبقية فى نصف الكرة الأرضية الشرقى تقريبًا[٢] . لذا سأستخدم مصطلح (أسلوب الإنتاج الإقطاعى) لمثل كل تلك المجتمعات.

استعمل آخرون المصطلح بهذه الطريقة ولكنهم واجهوا اعتراضات مهمة متنوعة. هؤلاء الباحثون الذين يصرون على أن الملامح الأوروبية الخاصة هى بحق المحركات الباعثة على التغيير سيرفضون وصف الأنواع الأخرى من المجتمعات على أنها "إقطاعية". اعتقد ماكس ڤيبر، على سبيل المثال، أن الإقطاعيات الأوروبية كانت متفردة، كما كانت الأسباب المهمة (أو الشروط) وراء التقدم. هؤلاء الماركسيون الذين يعتبرون نظام الأقنان هو الملمح الأساسى فى التطور لن يريدوا أن يستخدموا ذلك المصطلح "إقطاعى" مع مجتمعات لم توجد فيها هذا النظام (بالرغم من وجوده فى مناطق كثيرة خارج أوروبا)[٣] . يرفض سمير أمين هذا الاستخدام الواسع لمصطلح الإقطاعية على أساس أنه يتطلب منا أن نستخدم الإقطاعية الأوروبية كنموذج نقيس على أساسه المجتمعات الأخرى المشابهة فى قارات أخرى. ولذا فهو يفضل استخدام "الرافد أو التابع" عن مصطلح "الإقطاعى" مجادلاً بحق أن الأشكال المختلفة من استخلاص الفائض فى هذا الأسلوب من الإنتاج (الضريبة والإيجار؛ السيولة والقوة العاملة والإنتاج) يمكن أن تماثل مفهوم دفع الرسوم[٤] . رأيى هو أن مؤرخى المركزية الأوروبية ليس لديهم حقوق الطبع والنشر على هذا المصطلح "الإقطاعيه"، ولذا فهو

صحيح ويمكن استخدامه للإشارة إلى هذا الأسلوب من الإنتاج أينما لاحظناه فى أى قارة وأى تركيب اجتماعى. وتبقى اعتراضات أخرى؛ ماذا عن المجتمعات الحضرية الصغيرة التى تجدها هنا وهناك على الخريطة فى تلك الفترة؟ سنأتى إلى هذا الأمر فى جزء لاحق من هذا الفصل. كيف يجب أن نصف المجتمعات التى تختلف كثيراً عن نموذج الفلاح - صاحب الأرض؟ ماذا عن المجتمعات الطبقية الرعوية؟ ماذا عن المجتمعات الطبقية التى يوجد بها صلة قربى بين الطبقة الحاكمة والطبقة المنتجة؟ تلك التعريفات مهمة وسأحاول التعامل معها فى سياق المناقشة القادمة.

هناك العديد من الأسئلة التى بلا أجوبة عن أصول وتطور الزراعة، وأسلوب الإنتاج الإقطاعى. اعتقد معظم الباحثين لوقت قريب أن الزراعة والطبقية الاجتماعية، وصفات أخرى عديدة للحضارة ظهرت فى الشرق الأوسط والأدنى القديم. (لقد ناقشنا هذا فى الفصل الأول). مع تسليمنا بتلك المجموعة من الفرضيات المرتبطة بالمعتقدات الضمنية والصريحة (الواضحة) عن التأخر الثقافى وعدم التقدم للآسيويين والأفارقة، كان من المسلم به أن الطبيعة الزراعية لأوروبا الإقطاعية يجب أن تكون قد وصلت إلى مستوى عالٍ من التطور النوعى -أو بطريقة أخرى يجب أن يكون بها إمكانية كبرى للتغير السريع - أكثر من مناطق أخرى عديدة وربما كل المناطق فى آسيا وأفريقيا فى العصور الوسطى. بدا من المنطقى أن نعتقد أن الزراعة بهذه الطريقة كانت ما تزال فى طريقها للانتشار خارجياً فى بعض المناطق الطرفية فى نصف الكرة الأرضية خلال تلك الفترة. على سبيل المثال، كما لاحظنا فى الفصل الثانى، مال المؤرخون إلى أن يعتقدوا أن معظم جنوب أفريقيا كان "ما قبل زراعى" حتى فى أوائل العصر الحديث. وقد قدم الباحثون العديد من التكهنات، ويعد هذا مشروعًا فى ضوء النموذج الأساسى، فيما يتعلق بالتواريخ التى وصلت فيها الزراعة بشكل عام، والنباتات المتكيفة والحيوانات الأليفة بشكل خاص إلى الأقاليم الطرفية فى عملية الانتشار.

بدأ هذا النموذج بالانهيار حديثًا. بدأت المعلومات عن ظهور شديد التبكير للثورة الزراعية (فى العصر الحجرى القديم) فى أجزاء من جنوب شرق آسيا من حوالى ٩٠٠٠ سنة ماضية (الفكرة العامة المقبولة هى أن عُمر الزراعة فى الشرق الأوسط هو ١٢٠٠٠ – ١٠٠٠٠ سنة) فى الظهور. ويبدو أن الفخار قد بدأ فى نفس الفترة فى شمال شرق آسيا واليابان. بعد هذا بقليل ظهرت تواريخ قديمة للزراعة فى الهند، وغينيا الجديدة، وأقاليم أخرى[٥] . اليوم وبالرغم من أن رأى الغالبية مازال هو أن الزراعة ظهرت أولاً فى الشرق الأوسط فإننا نجد كثيرًا من الباحثين يعتقدون العكس. يجادل الكثيرون بأنه كانت هناك أصول مستقلة وربما متزامنة فى الشرق الأوسط وجنوب شرق آسيا؛ وقد يضيف البعض غرب أفريقيا. ولكنه من المحتمل أيضًا أن تكون الثورة الزراعية قد حدثت فى كل الأقاليم في وقت واحد[٦] . أعنى بهذا أن تركيبة المحاصيل والحيوانات والأدوات، والأفكار كانت تتطور فى كثير من المجتمعات فى وقت واحد (وربما خلال فترة زمنية طويلة) واتجه كل شىء جديد إلى أن ينتشر بسرعة فى الأجزاء الأخرى من نصف الكرة الأرضية التى كانت تعتبر تلك الأشياء ابتكارًا مفيدًا فيها فى عملية عامه أسميها "عملية انتشار متقاطعة". وتدريجيًا أوجدت هذه العملية طبيعة زراعية فى إقليم واسع من نصف الكرة الأرضية يمتد (مع فجوات غير مهمة) عبر رباط من الأراضى الاستوائية والواقعة فى خطوط العرض المتوسطة ذات المناخ المعتدل والتربة الجيدة[٧] .

على أية حال، يعد من المقبول الآن أن انتشار الزراعة حدث فى زمن طويل ومع حلول العصور الوسطى كانت الزراعة قد وصلت إلى معظم الأقاليم فى نصف الكرة الأرضية الشرقى التى كانت الظروف البيئية فيها مواتية للزراعة. كما كانت الزراعة مازالت فى حيز الانتشار فى ذلك الوقت، ولكن لم يكن من الممكن اعتبارها بعد ثورة زراعية. فقد دُفع بالزراعة باتجاه القطب إلى نقطة ليست بعيدة عن حدودها العرضية الحالية. فى نصف الكرة الأرضية الغربى لم يكن الحد الشمالى للذرة فى ١٤٩٢ متجهًا

نحو الجنوب أكثر من الحد الحالى بالنسبة لزراعة الحبوب فى وسط كندا. فى نصفى الكرة الأرضية كانت كل المحاصيل والحيوانات التى تعد مهمة اليوم قد أصبحت متكيفة وأليفة بالرغم من أن عمليات التطوير المتنوعة كانت ما تزال مستمرة. وبوجه عام يمكن أن نجادل بأن كل إقليم زراعى كان بحلول هذا الوقت قد اختار لنفسه من القائمة الطويلة فى نصف الكرة الأرضية التركيبة من المحاصيل والحيوانات التى تناسب ظروفه البيئية وثقافته. معظم أنواع المحاصيل القريبة من بعضها فى أى جزء من نصف الكرة الأرضية كانت معروفة كذلك فى مناطق أخرى كثيرة.

أحد الأدلة المهمة فى هذا الشأن هو الانتشار السريع لمحاصيل نصف الكرة الأرضية الغربى فى نصف الكرة الأرضية الشرقى بعد ١٤٩٢ . هذا الانتشار السريع للذرة والكساڤا والتبغ والبطاطا الحلوة والبطاطا البيضاء، والمحاصيل الأخرى، والطريقة السريعة التى من خلالها أصبحت تلك المحاصيل المتكيفة مهمة ثقافيًا تبين أن سرعة انتشار تلك المحاصيل يمكن أن تحدث عندما تكون العملية هى عملية انتشار ابتكارات غير معروفة من قبل. يمكن أن نفترض أن معظم محاصيل نصف الكرة الشرقى المتكيفة لم تعد تنتشر بنفس السرعة. فى الأماكن التى كانت تنتشر فيها الزراعة كانت فى المناطق الطرفية مثل الأراضى الجبلية وبعض أقاليم الغابات والجزر البعيدة، كنتيجة لعمليات اجتماعية مثل الهجرة والغزو ونقص الأرض(٨) . فى سنوات ما قبل ١٤٩٢ كانت الزراعة تمارس فى مناطق جنوب أفريقيا وشمال أوروبا وشمال آسيا وجنوب شرق آسيا ومعظم أقاليم المحيط الهادى بما فيها هاواى. فى الغالب كانت الثقافات التى توصف على أنها "غير زراعية" قد اختارت ألا تمارس الزراعة ولذا لم تكن" ما قبل زراعية"(٩) .

ربما ينطبق الكلام نفسه على الأشكال الأكثر تعقيدًا من التكنولوچيا الزراعية. الرى والحرث واستخدام الأسمدة والدورات المركبة (بما فيها الدورات التى لا تترك فيها الأرض بدون زراعة) وبعض ملامح الزراعة المكثفة الأخرى ربما كانت قد انتشرت فى

هذا الوقت فى الأجزاء الأخرى من الأراضى الزراعية التى وجدها المزارعون صالحة للاستخدام إما لزيادة الناتج أو لتقليل متطلبات العمالة أومواجهة المطلب بتسليم الفائض أو لأى سبب ثقافى أيًا ما كان[١٠] . سأخطو بهذه المجادلة خطوة أوسع. فى معظم ذلك الامتداد الطبيعى كان انتشار الابتكارات المهمة قد توسع لدرجة أن إنتاجية القوة العاملة لم تكن محدودة أبدًا بسبب نقص المعرفة التكنولوچية التى كانت متوافرة للمزارعين فى مناطق أخرى فى نصف الكرة الأرضية[١١] . وما هذا إلا تكهنًا.

ليست المجتمعات الزراعية دائمًا طبقية. ولكن هناك أدلة كثيرة على أن معظم الأقاليم الزراعية فى نصف الكرة الأرضية قد أظهر فى تلك الفترة تركيبة طبقية من النظام الزراعى ونظام الفلاح - صاحب الأرض وهو أسلوب الإنتاج "الإقطاعى" كما أسميه. بناءً على أساسين سيتم تفنيد تلك النقطة. أحد الاعتراضات المقدمة من جانب بعض الماركسيين يدعى بأن أساليب الإنتاج الزراعية غير الأوروبية كانت مفتقرة إلى حد ما إلى إمكانية التغيير المرتبطة بالأسلوب الإقطاعى الأوروبى. تلك المجادلة ("أسلوب الإنتاج الآسيوى"، "الاستبداد الشرقى"، الخ) قد تمت مناقشتها بقدر كافٍ فى الفصل الثانى.ا

الصعوبة الثانية هى فيما يتعلق بالنموذج المكانى. أين على خريطة نصف الكرة الأرضية الشرقى فى العصور الوسطى نجد مجتمعات طبقية زراعية؟ وأين نجد مجتمعات زراعية لا طبقية؟ يجب أن نقدم الإجابة فى جزئين. أولاً، نعرف مما لا يدع مجالاً للشك أن الشكل الطبقى كان مسيطرًا فى جميع الأقاليم الزراعية فى آسيا تقريبًا، مع وجود نماذج واضحة للصراع بين الفلاح وصاحب الأرض. وتتجه المجادلات لأن تركز على أفريقيا. ولكن هناك قليلاً من الشك أن ثمة علاقة استغلالية بين الفلاح وصاحب الأرض كانت سائدة فى معظم شمال شرق أفريقيا (على سبيل المثال، إثيوبيا) والإقليم السودانى من الشرق الأطلنطى وراء بحيرة تشاد وأجزاء من إقليم البحيرات شرق أفريقيا وجنوب شرق أفريقيا حول إقليم زمبابوى الإمبراطورى، وجزء

من الساحل الشرقى لأفريقيا. من المعروف الآن أيضًا أن كثيرًا من الدول ذات الغابات والدول ذات الغابات الجافة فى غرب ووسط أفريقيا (آكان Akan ويوروبا والكونجو، وغيرها) أظهرت هذا الأسلوب من الإنتاج أو شيئًا يشبهه. والبحث فى الجغرافيا التاريخية فى هذا الإقليم الكبير قد بدأ لتوه[١٢] . ولذا فخريطة أسلوب الإنتاج الإقطاعى فى أفريقيا شاسعة. ثانيًا: سأجادل (متتبعا خطى سمير أمين) أن كل المجتمعات القائمة على نظام الدولة تقريبًا كانت مجتمعات طبقية وأن الدول فى العصور الوسطى قامت بمهامها فى علاقة محكمة فى عملية استغلالية مع سياسات الطبقة الحاكمة. أكثر من نصف أفريقيا فى العصور الوسطى فيما يتعلق بالمنطقة والسكان كان قائمًا على نظام الدولة ولذا أعتقد أنها كانت طبقية على نحو ما. أستنتج من هذا الفحص غير الشامل للنماذج الزراعية المكانية فى العصور الوسطى والزراعة المعقدة تكنولوجيًا والطبقات الاجتماعية، أن أسلوب الإنتاج الإقطاعى كان هو السائد فى أكثر من نصف أفريقيا وأوروبا وآسيا وأجزاء من الأقاليم المحيطية Oceania(*) فى تلك الفترة.

كانت الطبقة الحاكمة فى المجتمعات الإقطاعية فى كل مكان تقريبًا هى الطبقة المالكة للأرض على الرغم من أن التحكم فى الأرض من قبل تلك الطبقة قد يأخذ أشكالاً قانونية عديدة. مُنح بعض أفراد تلك الطبقة الألقاب، ولكن الفرق بين طبقة النبلاء وغيرهم من أبناء الطبقة شبه الأرستقراطية ليس مهمًا بالنسبة للمصطلحات التطورية وكلا الشكلين (مثل غيرهم) كانا منتشرين فى نصف الكرة الأرضية[١٣] . هذه الطبقة لديها القدرة على الحفاظ على نفسها، وقد تستخدم ألقابًا موروثة كإشارة دالة على العضوية لهذه الطبقة أو قد تستخدم وسائل أخرى لتحقيق نفس الغرض أو كليهما معًا. حقًا إن العضوية فى الطبقة العليا التى ليس بها ألقاب قد تُحسن، مثلما

(*) أوشينيا Oceania : مناطق وسط المحيط الهادى وجنوبه .

حدث فى الصين فى أوقات مختلفة، من فرص الأسرة فى الاحتفاظ بمكانة وثروة الطبقة الحاكمة فى ظل رياح التغيير فى سياسات الدولة. كما أن الفرق بين درجات النبلاء العليا والدنيا وبين أصحاب الأرض ومسئولى الحكومة (الذين هم بالمثل يأخذون ثروتهم من الأرض) ليس مهمًا فى هذا السياق. كما ناقشنا فى الفصلين الأول والثانى ليس هناك أساس لوجهة النظر التقليدية التى تدعى أن طبقة أصحاب الأرض الأوروبية فى العصور الوسطى كانت إلى حد ما أقرب إلى ملكية الأرض الخاصة والخالصة من طبقات أصحاب الأرض فى أماكن أخرى. كان ماركس مخطئًا فى قبول وجهة النظر التقليدية تلك، وذلك لأنه عرف القليل عن التركيب الطبقى غير الأوروبى. كذلك كان ڤيبر مخطئًا فى استنتاج وجود فرق شاسع بين النموذج الإقطاعى الأوروبى المزعوم وإمتلاك صاحب الأرض لها بالقوة فى ظل نوع ما من التسوية بين اللوردات ذوى المكانة الرفيعة والملوك وبين "حق الانتفاع" أى الانتفاع بالأرض مقابل الخدمة التى رأى أنها تميز معظم المجتمعات الأخرى.

إن الفرق بين الوراثة والانتفاع بالأرض مقابل الخدمة يعد ضبابيًا. فى أوروبا كان شكل الانتفاع بالأرض مقابل الخدمة هو الشكل النموذجى فى ظل شروط صارمة (تقديم منح مشروطة بعهود الولاء والمساندة العسكرية ... الخ) ولكن اتجهت تلك المنح لأن تكون موروثة. وبشكل واسع ينطبق نفس الشىء فى المجتمعات الأخرى. مالكو الإقطاعيات أو المنح على الأرض المنتفع بها مقابل الخدمة قد ينتقلون من إقطاعية لأخرى (أو قد يمتلكون مجموعة متغيرة من الإقطاعيات) ولكن النقطة المهمة هى أن العضوية فى تلك الطبقة سمحت للفرد بأن يمتلك إقطاعية ويأخذ ثروته منها وممن يشغلونها ما دام هذا الفرد محتفظًا بعضويته فى الطبقة الحاكمة. والمعنى المهم هنا هو منح الملكية للفرد الذى يملك السيطرة على مقاليد الأمور وكان هذا هو الحال فى أقاليم عدة بالرغم من وجود انتفاضات وتغييرات بين الحين والآخر. ولكن يمكن للأرض أن تكون ملكية خاصة بمعنى آخر وهو قيمتها فى سوق الأرض. ولكن ذلك يتطلب المناخ

الرأسمالى الذى يوجد فى القليل من الأقاليم التجارية الريفية الأوروبية وغير الأوروبية قبل ١٤٩٢[١٤] . أبناء الطبقة العليا فى الصين وملاك الإقطاعيات الهندوس وحتى المغول الذين مُنحوا حق الانتفاع بالأرض مقابل الخدمة قاموا بتوكيل آخرين لرعاية إقطاعياتهم أو تحويلها إلى ملكية خاصة موروثة، يوضح هذا كله الملامح الكلاسيكية لطبقة أصحاب الأرض الإقطاعية[١٥] . لم تكن طبقة أصحاب الأرض فى الحقبة الإقطاعية فى أوروبا أكثر تقدماً، ولم تكن مستعدة للرأسمالية والحداثة أكثر من طبقات أصحاب الأرض فى أقاليم أخرى كثيرة.

كان نظام العزب الأوروبى يوصف على أنه من الصفات المميزة للإقطاع وهو خطوة أوروبية عملاقة باتجاه الملكية الخاصة واستخدام القوة العاملة على نطاق واسع، الأمر الذى يعد غائباً فى المناطق غير الأوروبية رغم أهميته للتطور باتجاه الرأسمالية. كانت الإقطاعيات الضخمة منتشرة فى نصف الكرة الأرضية، ولكن الشكل التنظيمى الخاص بزراعة الأرض بعد الاستيلاء عليها واستخدام العمالة غير مدفوعة الأجر كان موجوداً فى مناطق أقل. وفى نطاق ضيق لمعنى مصطلح نظام العزب بما يتضمنه من زراعة الأرض المستولى عليها واستخدام السخرة، بالإضافة إلى ممتلكات الفلاحين والإنتاج الصناعى والزراعى فى الإقطاعية، نلاحظ أن هذا الشكل كان موجوداً فى مناطق عديدة خارج أوروبا. كان مهماً فى الصين وفى جنوب الهند[١٦] . ولكن نظام زراعة الأرض بعد الاستيلاء عليها لم يكن سائداً فى أوروبا (لم يكن معروفاً فى إقليم البحر الأبيض المتوسط) ولم يكن يشبه الزراعة الرأسمالية، وكان على أية حال قد انتهى فى غرب أوروبا مع حلول القرن الرابع عشر. ولذا فإن التقدم القوى نسبياً لتلك السمة فى أوروبا أكثر من أقاليم أخرى عديدة (مثل شمال الهند) لا يمكن أن يفسر التحول اللاحق للرأسمالية فى منطقة وليس أخرى.

يعتبر التعريف الأوروبى القديم الخاطئ للقرى الهندية مرتبطاً بهذا السؤال. ذلك التعريف الذى قبله ماركس لسوء الحظ وهو أن تلك القرى هى كيانات مشتركة مغلقة

(فعند ماركس هى بقايا لمجتمع اشتراكى بدائى). حقًا كان للقرية الهندية فى العصور الوسطى بعض الصفات الاشتراكية حيث كان لديها تحكم مشترك فى حق الانتفاع (وليس ملكية مشتركة)، كذلك كانت هناك الزراعة والحرف اليدوية التى كان لها أهمية كبيرة لدى ماركس وبدت له وكأنها تفسر ترابط القرية وقدرتها على البقاء كما هى فى وجه الصدمات الخارجية من الرأسمالية الاستعمارية كما استطاعت مقاومة التحول الاجتماعى. ولكن حافظت القرى الأوروبية أيضًا على عدد من الصفات الإشتراكية بل ربما تعد أكثر وضوحًا من تلك فى القرى الهندوسية التى بها ارتبطت الطبقة المغلقة ارتباطًا ضعيفًا مع نماذج الاستيطان فى القرية[١٧] . فى هذا الشأن قد نواجه الخطأ الكلاسيكى الخاص باختزال التاريخ، حيث نفهم انقسام القرية الأوروبية بعد نهضة الرأسمالية ونفترض أن تلك القرى كانت تنوب ككيانات إشتراكية منذ قرون عديدة ماضية. بالاضافة إلى ذلك فإن ملكية الأرض المشتركة كانت غير مهمة نسبيًا فى تلك الفترة للهند وأوروبا معًا؛ وعادة كان للقرى حقوق منتدبة فقط (بما فيها الحق فى الأرض المشتركة) التى كانت فى بعض الأحيان تنتهك من قبل أصحاب الأرض. وكان الملاك الحقيقيون لمعظم الأرض المنتجة، وملاك الإقطاعيات الموروثة والمنقول ملكيتها فى كلتا المنطقتين هم الطبقة الحاكمة. وأخيرًا، الجمع بين الزراعة والحرف اليدوية كان أيضًا موجودًا فى القرى الأوروبية[١٨] . ويبدو أنها قد اختفت بعد ١٤٩٢ مع نهضة الرأسمالية. خلاصة القول، بالرغم من أن الإقطاعية الهندية لم تكن تشبه التنويعة أو (التنويعات) الأوروبية، فقد كان بها نفس الخصائص العامة كأسلوب للإنتاج ونفس الإمكانية للتطور باتجاه الرأسمالية. يمكن أن تنطبق نفس المجادلة على أقاليم عديدة فى آسيا وأفريقيا. يبدو أن القرية الأوروبية فى العصور الوسطى كانت نموذجًا عاديًا بين القرى والأشكال الاجتماعية فى نصف الكرة الأرضية.

عادة ما تتكون الطبقة المنتجة فى النظام الإقطاعى من الفلاحين، الذين يزرعون إقطاعية صاحب الأرض وذلك من خلال وحدات عائلية توفر اليد العاملة وتنتج كما تقدم

الأموال النقدية كإيجار. غالبًا ما كان يظن أن نظام الأقنان هو شكل العمالة فى النظام الإقطاعى فى النمـوذج الأوروبى[١٩] . كـان الأقنان من النوع الأوروبى مـوجـودين هنا وهناك فى أفريقيا وآسيا، هذا بالرغم من أن التاريخ الخاص باستخدام الأقنان en-cerfment فى روما فى وقت متأخر كان فريدًا كما ندر وجود شكله القانونى فى مكان آخر. ما نجده بالأحرى هو بانوراما من أشكال العمالة غير الحرة، أى عمالة الفلاحين المقيدين بطريقة ما فى إقطاعية صاحب الأرض فى كل القارات الثلاث[٢٠] . على الجانب الآخر، يجعل بعض الباحثين (من بينهم برينر وهو ماركسى وبيتشلر وهو محافظ) الفلاح فى غرب أوروبا فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر مثاليًا ويرون فى هذا الشخص مزارعًا مالكًا حرًا، مشبعًا بروح المغامرة التجارية وما إلى ذلك[٢١] . يعد هذا أيضًا اختزالاً تاريخيا. كان هؤلاء الفلاحون مستأجرين وما يزالون مقيدين فى الإقطاعية بطرق متعددة. ولم يحدث إلا بعد وقت متأخر، بعد ١٤٩٢، ظهور قوى لطبقة مهمة لها ملكية مطلقة، تجمع رأس المال على نسق المزارع الغنى فى بروسيا، وعلى أهبة الاستعداد للرأسمالية. لم يكن الفلاح الأوروبى غير عادى على نحو خاص. الفلاحون الذين أجبروا على تقديم الخدمة أو المنتج أو المال كقيمة إيجاريه أو خراج (إتاوه) أو جزية أو ضريبة (تدفع لصاحب الأرض) لم يكونوا أحرارًا فى الانتقال من إقليم صاحب الأرض الذى ورث مكانته من أجيال متتالية وقد وُجد هذا النموذج فى أجزاء عديدة فى آسيا وأفريقيا فى العصور الوسطى وكذلك فى أوربا.

لقد كان هناك قدر من العلاقة المتشابكة فيما بين المجتمعات الزراعية الإقطاعية بما يكفى لكى نقترح أننا يجب أن نفكر فى المجتمعات الزراعية الطبقية فى نصف الكرة الأرضية كله، ليس على كونها كيانات اجتماعية منفصلة، ولكن على أنها ذات طبيعة إقطاعية واحدة مع تنويعات إقليمية احتوت فى بعض الأحيان على حدود فاصلة، وفى أحيان أخرى لا تجد هذه الحدود. من الواضح أنه كان هناك انتشار متشابك فيما بين تلك الأقاليم وكدليل على هذا على سبيل المثال، شيوع التقنيات الزراعية فى المناطق

الكبيرة. (هناك ادعاء مقدم من قبل بعض المؤرخين الأوربيين[٢٢] بأن الزراعة الأوروبية في العصور الوسطى كانت فريدة في مستواها التكنولوجي ولذا فهي على نحو ما قد أشعلت فتيل التقدم تجاه الرأسمالية، ويعد هذا الزعم غير صحيح كما ناقشنا في الفصل الثاني. اشتركت الزراعة الأوروبية في معظم الصفات مع أقاليم أخرى ولم تكن هي الوحيده المتطورة أو حاملة لبذور التغيير الاجتماعي.) يبدو من المحتمل أن سيطرة الإقطاع على جزء كبير من مساحة نصف الكرة الأرضية تطلب تعميق القهر على الفلاحين كلما زاد الطلب على زيادة الإنتاج، وقد احتوت استجابة الفلاحين على التطور التكنولوجي والاستعارة (الانتشار) بالإضافة إلى الهجرة باتجاه الأقاليم الطرفية وباتجاه المدن. في نفس الوقت، حاولت الطبقات الحاكمة استنفاد كل طاقات رعاياهم لزيادة وتسليم الإنتاج، كما حاولوا استغلال مجموعات أخرى من المنتجين للحصول على حقول خارجية بالإضافة إلى حقول داخلية وهذا بدوره أدى إلى زيادة الترابط بين الأقاليم[٢٣] . وعلى الرغم من هذا فالمجتمعات الإقطاعية الحاكمة في ذات الوقت كانت مترابطة ومتحدة في شبكة من علاقات النسب أو البيروقراطية أو الطبقية التي في بعض الأحيان امتدت في مساحات كبيرة جداً . نعرف أن تقسيم المجتمعات لدول لم يكن متواجداً في تلك الأوقات والأقاليم اللغوية لم تكن مُعرّفة تعريفًا واضحًا كما لم تكن حواجز اللغة من الأهمية، حتى الاختلافات الدينية لم تكن تمثل عوائق أمام انتقال الأفكار والأشياء والناس. ولذا يجب أن نفكر في كل (أو معظم) المجتمعات الإقطاعية على أنها اشتركت في مكان عام انتشرت خلاله القوى الاجتماعية والضغوط في كل الاتجاهات على مسافات كبيرة وذلك عن طريق عبور حدود الدول بسهولة. مع تسليمنا بهذا المفهوم، ليس صعبًا أن نفهم لماذا كان تطور الإقطاع كوسيلة للإنتاج يسير بنفس القدر في معظم أنحاء نصف الكرة الأرضية.

في أواخر العصور الوسطى كانت هناك علامات على التغيير العميق في أقاليم زراعية عديدة في كل القارات الثلاث. كانت هناك إشارات من نوعين: علامات على

الاضمحلال أو حتى الانهيار الوشيك فى النظام الإقطاعى، وعلامات التغيير باتجاه الزراعة التجارية وباتجاه الرأسمالية الريفية. فى معظم أنحاء نصف الكرة الأرضية يظهر أسلوب الإنتاج على أنه فى حالة من الاضمحلال، كما نجد زيادة فى الانتزاعات وثورات الفلاحين والهجرات للمدن والحدود الزراعية وحروب فيما بين الطبقات الحاكمة للحصول على المنتجين وأكثر من هذا. مع حلول القرن الرابع عشر كان الإقطاع قد دخل مرحلة من الأزمة – وليس الانهيار – فى أوروبا ولكن يظهر أنه كانت هناك أزمات مشابهة فى أجزاء من آسيا وربما – كما سنعرف بلا شك من البحث – أفريقيا،[٢٤] فى كل القارات الثلاث كان الفلاحون ينتقلون للمدن وربما بمعدلات شبه متقاربة. فى أى إقليم مهما كبر سواء كان أوروبيًا أو غير أوروبى لم يصبح هذا فيضانًا من المهاجرين من القرية للمدينة حيث إن عدد السكان فى المدن كان ما يزال يمثل نسبة ضئيلة من تعداد السكان العام فى كل مكان فى نهاية القرن الخامس عشر. وما يزال هذا هو أثر للأزمات فى المناطق الريفية. إذا ما كانت تلك الأزمات إشارات بأن أسلوب الإنتاج كان فى سبيله للانهيار وذلك بسبب التناقضات الداخلية ربما لا نستطيع أن نجد إجابة حاسمة له بعد، ولكن على أيه حال لم يكن الإقطاع فى أوروبا قريبة من نهايته قبل ١٤٩٢ أكثر منه فى أقاليم أخرى غير أوروبية.

فى هذه المرحلة من المجادلة لدينا تكذيب ووقفة تأملية. لا أدعى بأن أسلوب الإنتاج القائم على الفلاح وصاحب الأرض كان قد سار فى مساره الطبيعى وكان على وشك الانهيار أو تعديل نفسه نحو الرأسمالية. أما السؤال عما إذا كانت البدايات الأولى للرأسمالية فى بيئة حضرية أو بيئة ريفية فهو بالفعل سؤال على درجة عالية من التعقيد. وسأناقش هذا الأمر فيما يلى ولكنى لا أفترض أى نوع من نظرية علّيّة تاريخية عامة. سأجادل فقط بأن الانتقال أو الاضمحلال أو ما شيءت تسميته لم يكن مكتملاً فى ١٤٩٢ ، كما أن الثروات المجلوبة من أمريكا سرعت بنهضة الرأسمالية، وفى الوقت ذاته، الاضمحلال النهائى للإقطاع كأسلوب إنتاج فى أوروبا.

والظن عندى هو: إذا ما سلمنا بالنموذج العام للانتشار المتشابك والسريع جداً للسمات الثقافية للزراعة (المحاصيل والحيوانات والأدوات ونظم المياه إلخ) ومع تسليمنا كذلك بالمفهوم المتوازى بوجود علاقات مترابطة ومتشابكة مركبة فيما بين المجتمعات الزراعية الطبقية فى نصف الكرة الأرضية الشرقى فى العصور الوسطى يمكن لنا أن نتوقع أن تطور شكل مجتمعى زراعى طبقى يمكن أن يتقدم بشكل متساوٍ من إقليم إلى آخر كلما انتشرت سماته، وكلما انتقلت الضغوط الاجتماعية عن طريق الهجرة المكانية والغزو وما شابه، وكلما تكاثرت تحالفات الطبقة الحاكمة وهكذا. ربما كان تطور أسلوب الإنتاج الإقطاعى هذا فى كل مكان مشروطًا بحقيقة اجتماعية عامة وهى الطلب الثابت والصارم لطبقة أصحاب الأرض وحلفائها (التجار والنبلاء، إلخ) للمزيد من الثروة، إنه طلب ترجم إلى ضغط دائم على الفلاحين لزيادة الإنتاج حتى يستطيعوا زيادة الفائض الذى يسلمونه. انظر إلى هذا على أنه اتجاه مدنى بعيد المدى أدى إلى استجابات معينة فى قطاع الفلاحين بما فيها التطور التكنولوچى والانتشار المتشابك للتكنولوچيا واستزراع الغابات والريادة وثورات الفلاحين والهجرة من القرية للمدينة والمشاركة فى المغامرات العسكرية للطبقة الحاكمة وأكثر من ذلك. وأرى أن تلك الآليات قد قللت من الضغوط الاجتماعية التى ظهرت فى أماكن كثيرة من خلال زيادة الطبقة الحاكمة الطلب على تسليم الفائض. يتيح لنا هذا أن نجادل بأن أسلوب الإنتاج كان فى اضمحلال أو أزمة فى جزء واحد من نصف الكرة الأرضية ومن المحتمل جداً أن يكون الوضع ذاته موجوداً فى أجزاء أخرى عديدة من نصف الكرة الأرضية. باختصار: امتد أسلوب الإنتاج ثم انحسر على نطاق نصف الكرة الأرضية، الذى كان يحدث فى أوربا فى ١٤٩٢ كان يحدث كذلك فى آسيا وأفريقيا.

ولكن لماذا نتوقع من أسلوب الإنتاج الإقطاعى أن يضمحل أو يتدهور؟ هذه هى النقطة الأخيرة فى وقفتى التأملية. لا نستطيع أن نؤكد ببساطة أن الإقطاع هو "مرحلة" فى سلم التطور ويجب فى نهاية الأمر أن يترك مكانه لما بعده أو "المرحلة"

الأعلى (الرأسمالية) وهذا كما يجادل بعض الماركسيين الميكانيكيين. كذلك لا نستطيع أن نقبل الشكل المتحفظ من هذا المجادلة التى ترى الإقطاع يفسح مكانه لشكل أعلى وأكثر "حداثه" للمجتمع (الرأسمالية) كنتيجة حتمية لتطور البشرية قُدمًا اجتماعيًا وفكريًا وأخلاقيًا. كذلك لا نستطيع أن نستحضر قوى مالتوس لضغط تعداد السكان الحتمى (أطروحة تم توضيح خطئها فى الفصل الثانى على أساس أن الثقافات الإنسانية دائمًا ما تتحكم فى سلوكها الديموغرافى بصورة عقلانية على نحو ما). يمكن أن أفترض النموذج التفسيرى التالى: هناك حقيقتان مهمتان بخصوص شكل المجتمع هذا: الأولى هى حقيقة الزراعة على نطاق الأسرة كأسلوب حياة، والثانية حقيقة طبقة أصحاب الأرض التى تستخلص أو تحاول أن تستخلص الفائض المتزايد من المزارعين. يتجاوب الفلاحون مع هذا الضغط بطرق عدة كما ألمحنا سابقًا. فهم بالتأكيد يحاولون زيادة تعدادهم ما دام الفرد يستطيع أن ينتج الفائض المطلوب أى يسهم بعمالة زائدة تستطيع أن تعطى إنتاجًا يزيد عن حاجة الاستهلاك لهذا المجتمع المتزايد، وكذا إسهام هذا الفرد فى تسليم هذا الفائض. بالتأكيد هم يحاولون إضافة أرض للزراعة، وفى بعض الأحيان يحاولون الانتقال لأماكن أخرى باحثين عن الأرض الزراعية. ولكنهم فى الأساس يكثفون. أى أنهم يزيدون الإنتاج الزراعى عن طريق التجريب المستمر فى المحاصيل الجديدة والأدوات الجديدة والتقنيات الجديدة، وهم دائمًا على وعى بأى أخبار عن الابتكارات التى جربت بنجاح فى أماكن أخرى فى القرية المجاورة، أو الوادى المجاور أو الجزيرة المجاورة.

إن عملية التحسن التكنولوچى ليس لها حدود، ولكن سنصل إلى نقطة سينخفض عندها معدل الزيادة فى إنتاجية العمالة جيل وراء جيل وقرن وراء قرن. مما لاشك فيه كان هذا المعدل قد وصل إلى أقصاه خلال الفترة عندما كانت محاصيل كثيرة جديدة وأنواع من الحيوانات تُدجّن بسرعة كبيرة، وعندما كانت الأدوات الأساسية والحديد تُستجلب داخل النظام. ومع حلول العصور الوسطى يكون معدل التحسن قد انخفض

لمستوى لا يكفى بأن يسمح للمزارعين أن يواجهوا الطلب الزائد على الفائض من قِبَل أصحاب الأرض. ولو نحينا جانبًا بعضًا من الاستجابات البديلة مثل الريادة والهجرة من الريف للمدينة، التى كانت موجودة فى بعض الأقاليم فقط، فسيتبقى لدنيا الموقف التالى: أزمة عامة فى أسلوب الإقطاع الإنتاجى.

تم تأسيس هذه المناقشة الآن على أساس فرضية واحدة: إن التحسن فى الإنتاج الزراعى يحدث من خلال الابتكارات فى المزرعة نفسها. وهذا هو الحال بالنسبة للزراعة على نطاق الأسرة فى العصور الوسطى وما قبلها. بالطبع يتحسن الإنتاج أيضًا عن طريق استجلاب المياه والعناصر الغذائية إلى المزرعة من خلال الرى أو الصرف. وهناك دائما بيع يتم بعيدًا عن المزرعة أو تبادل المنتجات أو بيع وتبادل المنتجات من المزرعة مقابل الأسمدة والبذور والعمالة. إذًا المزرعة أو مزرعة الأسرة هى نظام ميكروجغرافى مستقل نسبيًا وليس على إطلاقه. نعرف جيدًا كما عرف المزارعون فى ذاك الوقت أن أفضل إستراتيجية لهندسة زيادة دراماتيكية فى الإنتاج من نظام ميكروجغرافى مثل المزرعة فى القرية هى أن تندمج فى نظام جغرافى أكبر. وفى الأساس يتطلب هذا زيادة فى المياه والمخصبات مثل الكلس والأسمدة وتغيير نموذج المحاصيل والحيوانات، من شكل يوفر غذاء الأسرة فى المزرعة فقط إلى آخر يمكن فيه تخصيص المنتجات التى يمكن أن تباع والتى تناسب الظروف البيئية للمزرعة. (هذا يعنى بعض التخصص فى واحد أو بضعة منتجات غذائية يمكن أن تباع وتستهلك أو التخصص فى المنتج الصناعى مثل القطن). اليوم عندما نتحدث عن "الثورة الزراعية" فى القرون الحديثة فإننا نصف ثورة على المستوى الجغرافى الكبير: مزارع أسرية حديثة تستورد كميات كبيرة من الأسمدة وتستورد (تشترى) أدوات عديدة ومبيدات وعناصر أخرى تنتج فى مكان آخر ويستخدمون أعدادًا كبيرة من العمال خارج أفراد الأسرة، ويتخصصون فى طرق تتطلب توخى الأمثل من حيث الظروف البيئية. تستنفد هذه القائمة التغيرات الثورية التى حدثت قبل القرن الحالى وتقترح أن التحسن

الميكروجغرافى الداخلى - الذى لم يتوقف عن الحدوث - لعب دوراً ثانوياً فى هذه المرحلة من تطور الزراعة.

لكى يحدث هذا التحسن الجغرافى الكبير يجب أن يكون هناك مستوى عالٍ من الزراعة التجارية لأن نقل الأشياء من المزرعة الصغيرة وإليها (وعلى أى حال نظام القرية الصغير) هو عملية بيع وشراء. يتبع هذا أزمة عامة فى أسلوب الإنتاج الإقطاعى التى لها واحد أو اثنان من النتائج المحتملة. أحدهما هو الانتقال الهادئ نسبياً لاقتصاد به طلب على سيولة كبيرة تفى بالمنتجات الزراعية وشراء الاحتياجات بالإضافة إلى دفع الإيجارت (أو دفع فى شكل حصص أو أسهم لصاحب الأرض الذى بدوره يعرض الحصة مقابل المال). يحدث هذا السيناريو فى مكان به تعداد غير زراعى كبير، وبذا يتحضر هذا المكان أو يشارك فى تجارة مسافات طويلة. بقول آخر يمكن أن تواجه تلك الأزمة عن طريق عملية التحويل إلى النمط التجارى والحضرى. أو يمكن أن يكون هناك تغييرات ثورية من نوع آخر: ثورات الفلاحين إما معتدلة (مثل احتجاز الإيجار) أو عنيفة، أو تعديل ثقافى كبير فى الحياة الاجتماعية السياسية أو الدينية وقد تكون تغيرات أخرى على نفس الدرجة من الثورية. ربما كلا البديلين يجب أن يحدث فى تركيبة ما لكى تحل الأزمة. أستخلص من هذا أن النموذج الواضح الذى به تشتد التناقضات الإقطاعية نتيجة لزيادة الطلب على الفائض والقدرة المتناقصة لأسر المزارع على زيادة مستوى هذا الفائض يجب أن تقود إلى ثورة تغيير من نوع ما. معظم التغيرات التى ذكرتها حدثت بالفعل فى أوروبا فى نهاية العصور الوسطى، وتطلب هذا الإطاحة بالإقطاع كنظام سياسى واجتماعى واسبتداله بنظام حديث هو نموذج "الثورة المجيدة" لإنجلترا. ولكنى لا أجادل أن مجموعة العمليات الريفية هذه هى التى تفسر نهضة الرأسمالية. بالتأكيد قد أسهمت فيها وعلى وجه الخصوص فى عمليات زيادة التحضر وزيادة انتقال السلع لمسافات بعيدة التى اتسمت بها العصور

الوسطى المتأخرة فى نصف الكرة الأرضية، العمليات التى أصفها على أنها "الإرهاصات الأولى للرأسمالية" التى سنناقشها فى الجزء التالى من هذا الفصل.

الإرهاصات الأولى للرأسمالية فى آسيا وأفريقيا وأوروبا

لا أستخدم تعبير "الإرهاصات الأولى للرأسمالية" لأقدم مصطلحًا فنيًا، ولكن لأتجنب مشكلة تعريف مصطلح آخر هو "الرأسمالية". من الواضح أن نوع النظام الاقتصادى الذى عادة ما نتحدث عنه كرأسمالى لم يتواجد فى العصور الوسطى، فنحن نتعامل مع جذوره التى (كما سأجادل) قدمت الصفات الرئيسية للرأسمالية، ولكن على نطاق مكانى واجتماعى صغير وفى الغالب داخل أو على حافة نظام اقتصادى مسيطر وأكبر منه بكثير ويرتبط مع الإقطاع كأسلوب إنتاج. لذلك يمكن أن نعتبر أن إرهاصات الرأسمالية هى الرأسمالية الوشيكة أو القريبة أو الرأسمالية فى مرحلة المراهقة. إنها النظام الذى وجد قبل تحولين ثوريين جلبا الرأسمالية إلى حيز الوجود. أولها هو التحول السياسى الذى يطلق عليه عادة " ثورة الطبقة البرجوازية " أو " الثورات البرجوازية " وهى الحكومات الكبيرة التى لم تحكمها طبقة أصحاب الأرض الإقطاعية، ولكن طبقة من الصفوة من رجال المدن (مواطنين، أفراد الطبقة البرجوازية) وحلفائهم من أصحاب المشاريع فى الريف. أكثر الأمثلة شهرة هى" ثورة بريطانيا المجيدة" عام ١٦٨٨، وسوف أستخدم تاريخ ١٦٨٨ كرمز للانتصار السياسى للرأسمالية. بالطبع كان التحول الثانى هو الثورة الصناعية التى لم تشرع فى الظهور حتى الربع الأخير من القرن الثامن عشر. فى الفصل الرابع سنختبر الدور الذى لعبه الاستعمار والمناطق غير الأوروبية فى هذين التحولين.

نجد، فى كل القارات الثلاث، أقاليم ريفية صغيرة نسبيًا (كانت هى المناطق وراء مدن الموانئ الكبيرة) مع أخرى زراعية تجارية وتعدينية التى كانت عادة ما تنتشر فيها الرأسمالية – كانت بدايات للرأسمالية – فى الفترة قبل ١٤٩٢ . من بين تلك

المناطق كانت فلاندرز وجنوب شرق إنجلترا وشمال إيطاليا والمناطق المزروعة بالسكر فى المغرب ووادى نهر النيل والساحل الذهبى وكيلوا وسوفالا (المفترض أنها جزء من زيمبابوى) مالابار وكوروماندل والبنجال وشمال جاوا والساحل الجنوبى للصين. كانت الأرض مملوكة لأصحاب الأرض من نوى العقلية التجارية أو الرأسمالية من بين أفراد الطبقة المتحضرة(٢٥) . وعاده ما كانت الإيجارات تُدفع نقدًا ما عدا تلك المناطق مثل فوكين حيث كانت الأرباح المالية تنتزع بواسطة أصحاب الأرض فى حالة إذا ما جمعوا إنتاج المزرعة وباعوه بأنفسهم(٢٦) . وقد كان الإنتاج الزراعى منظمًا بطرق عدة، تتدرج من الزراعه على نطاق صغير إلى المزارع الكبيرة، وكانت كميات كبيرة من المنتجات الزراعية تزرع وتباع وتصدر: الأرز والقطن والسكر والفلفل، إلخ. وكان الإنتاج الصناعى منتشرًا فى الريف فى كل القارات الثلاث: كان نظام الإنتاج فى واقع الأمر صناعة مضادة للتحضر فى شمال غرب أوروبا حيث تراخت سيطرة النقابات المهنية، وربما كان نفس الشىء يحدث فى أجزاء من آسيا وأفريقيا (حيث كانت النقابات التجارية والفنية متطورة وقوية فى العصور الوسطى)(٢٧) . وفى منطقة أوسع كان إنتاج السلع قد اخترق الاقتصاد الزراعى كليًا ومن المشكوك فيه موضوع إذا ما كانت الزراعة فى عزب أوروبا أكثر تجارية منها فى أجزاء عديدة من الصين والهند، بالإضافة إلى أقاليم أوروبية أخرى. من المحتمل أن نفترض أن مستوى التحضر هو مؤشر مقارن جيد لمستوى تجارية الزراعة لهذه الفترة حيث إنها يجب أن تمثل الطلب الأساسى البعيد عن المزرعة على المنتجات الزراعية. وبهذا المقياس قد تكون الزارعة الصينية والهندية أكثر تجارية من الزراعة الأوروبية، وذلك لأن نسبة كبيرة من السكان كانت تقطن المناطق الحضرية فى تلك الأقاليم.

انتشرت المدن من شمال أوروبا لجنوب أفريقيا لشرق آسيا. كانت بعض هذه المدن مراكز قوى للمجتمعات الإقطاعية الكبرى. وكان بعضها هامشيًا اجتماعيًا وجغرافيًا بالنسبة لتلك المجتمعات وعادة ما وجدت بطول سواحل البحر حيث كان لها

علاقة عضوية مع المجتمعات الإقطاعية الكبرى، تنتقل البضائع فيما بينها وتنتج السلع المصنعة لها. ربما يجانبنا الصواب حين نتحدث عن طبقتين متمايزتين للمكان الحضرى، داخلى وهامشى (أو فرعى) وذلك لوجود تنويعات وتدرجات عديدة، وكذلك بسبب أن المدن التى كانت مراكز قوى كانت فى أحوال كثيرة مراكز كبيرة للتجارة داخل المجتمع وكذلك للإنتاج غير الزراعى. وعلى الرغم من هذا، فإننا نستطيع أن نميز مجموعة خاصة من المدن كان لها اتجاه قوى ناحية التصنيع والتجارة، وكانت هامشية بدرجة كبيرة أو صغيرة بالنسبة للدول الإقطاعية القوية (بعضها كان داخل تلك الدول وبعضها كانت دولاً صغيرة تسيطر عليها المدن أو حتى مدن دول) كما كانت مشغولة فى تجارة بحرية ذات مسافات بعيدة. انتشرت المدن من هذا النوع على طول سواحل غرب أوروبا والبحر المتوسط وشرق لإفريقيا وجنوب وجنوب شرق وشرق آسيا. كان أسلوب الإنتاج فى تلك المدن من المحتمل أن يوصف على أنه رأسمالية أولية أو بدايات للرأسمالية - بالتأكيد لم يكن إقطاعًا - مع وجود عمال بأجر كأكبر قطاع فى الطبقة العاملة وتجار، وأصحاب أراضٍ - تجار ورجال صناعة - تجار وطبقة حاكمة، وكان النشاط الاقتصادى هو خليط من التجارة (انتقال السلع والبنوك، وغيرها) والصناعة (ذات النطاق الكبير والصغير) والزراعة التجارية.

بعض تلك المدن التى اشتغلت بالتجارة البحرية كانت صغيرة وبعضها كانت كبيرة، لكن يبدو أن معظمها كان على نفس المستوى تقريبًا فى تطور المؤسسات فى بدايات الرأسمالية ، والطبقات، والتكنولوجيا. ليس هذا مستغربًا حيث إنها كانت مرتبطة بعضها ببعض فى شبكة محكمة من التجارة تدفقت خلالها الأفكار والتقنيات والبضائع والبشر فى جميع الاتجاهات فى عملية انتشار متقاطعة دائمة[٢٨] .(على سبيل المثال: كانت ملقه عندما وصل البرتغاليون تتاجر مع البحر الأبيض المتوسط وآسيا الوسطى وشرق أفريقيا والشرق الأوسط والهند والصين، وربما اليابان بالإضافة إلى كل جنوب شرق آسيا. يؤكد لنا المؤرخ تومى بيريز أنه فى بداية القرن

السادس عشر كانت هناك أربعة وثمانون لغة مختلفة فى تلك المدينة معززًا أهميتها لدى البرتغاليين، كما يؤكد بأن "صاحب ملقه يتحكم فى مصير ڤينيسا"(٢٩) مثال آخر من فترة سابقة: هو ميناء تيناسيرم فى كالا فى القرن العاشر كان يتاجر مع الصين والمنطقة العربية. وفقًا لابن فقيه فقد تحدثت ببغاوات كالا بالفارسية والعربية والصينية والهندية واليونانية(٣٠) .

امتدت شبكة المراكز التجارية البحرية مثل خيط من حبات اللؤلؤ من البلطيق إلى شرق البحر الأبيض المتوسط ومنه باتجاه الجنوب إلى سوفالا (أو ما وراءها، وما زال تاريخ شرق وجنوب أفريقيا يغط فى سبات بسبب الاستعمار) وباتجاه الشرق إلى اليابان. امتدت الشبكة أيضًا داخليًا فى كل القارات الثلاث، ولكن المدن التجارية البحرية والطرق المحيطية أصبحت فى آخر الأمر ذات أهمية كبرى إبان نهضة الرأسمالية أكثر من المراكز الداخلية. كان هذا صحيحًا لسببين (رئيسيين):

أولاً : كانت التجارة الخارجية أكثر أنشطة بدايات الرأسمالية هامشيةً، حيث كانت بالفعل بعيدة عن طائلة القانون. (اتصفت المدن الداخلية التى كانت تحدها الصحارى بنفس الصفة الهامشية إلى حد ما). ولذا، استطاعت مدينة ذات ميناء فى بدايات الرأسمالية أن تنقل المنتجات من وإلى أى ميناء آخر على المحيط بدون الاضطرار إلى العبور فى مقاطعات ذات حكومات منظمة، وبهذا تتجنب دفع الرسوم أو أن تجبر على بيع أو شراء بضائع من تجار أجانب فى مراكز تجارية متوسطة أو ربما قد لا يسمح لها بالدخول لدولة ما. من الجدير بالذكر فى هذا الشأن أن جزءًا كبيرًا من التكلفة العالية للبهارات الآسيوية فى السوق الأوروبى قبل ١٤٩٢ كان بسبب أن الشحنات القادمة من الهند بالطرق البرية عادة ما كان يجب أن تمر من تاجر إلى تاجر فى أسواق وسيطة تأخذ الربح من هذه العملية. إن رخص ثمن التوابل الآسيوية التى حملها البرتغاليون فى القرن السادس عشر عكس إلى درجة ملحوظة حقيقة أن تلك التوابل كانت تُحمّل فى ميناء آسيوى ثم تنقل مباشرة إلى ميناء أوروبى

بدون صفقات فى المنتصف، وربما كان هـذا العامـل أكثـر أهمية مـن التكلفة الأقل لوسائل النقل البحرية على البرية (العامل الذى عادة ما يركز عليه بطريقة زائدة).

ثانيًا : الانتقال لمسافات طويلة عن طريق البحر الذى يتضمن نقل منتجات مهمة وكمالية كان ضمن الأنشطة فى بدايات الرأسمالية فى أواخر العصور الوسطى، وربما كان الأقرب للرأسمالية الصناعية فى الاقتصاد المدنى فى ذلك الوقت. لم يتضمن هذا النشاط تبادل السلع فحسب، بل تضمن أيضًا إنتاج العديد منها بما فيها السفن، كما أدخل تكنولوچيا معقدة، وأوجد قوة عاملة كبيرة وصفقات معقدة، وتراكم هائل لرأس المال. يعيدنا هذا الأمر مرة أخرى، حيث لا فرار، إلى مشكلة تعريف" الإرهاصات الأولى للرأسمالية".

هناك اتجاه عام، عادة فيما بين الماركسيين، ومرتبط بفكر هذه المدرسة التى تعتقد فى الموقف التالى: كان المال وتبادل السيولة والتجارة موجودة لآلاف السنيين ولكنها لا تعبر عن الرأسمالية أو حتى بذور الرأسمالية. وهذا لأن الرأسمالية تتعلق بالإنتاج وليس بالمقايضة. تتطلب الرأسمالية "الحقة" تطبيق أجر العمالة وإنتاج السلع. أما المقايضة فهى البيع والشراء، لا تضيف أى قيمة. بالنسبة لماركس، هى تنتج ثروة نتيجة لتبادل غير متكافئ (أسعار مرتفعة فى سوق دون غيره وهكذا)، وليس نتيجة القوة العاملة أو إنتاج يضيف أى قيمة.

من هذا النموذج تأتى سلسلة من الطروحات المهمة جدًا؛ إحداها هى المجادلة بأن المدن الأوروبية فى العصور الوسطى لم تكن مركزية بالنسبة لنهضة الرأسمالية وذلك لأن نشاطها الأساسى كان التجارة والمقايضة وليس الإنتاج. ولذا فنهضة الرأسمالية حدثت ليس فى المدن فى العصور الوسطى ولكن فى الزراعة فى تلك الفترة[٢١] . وهناك أطروحة ثانية أكثر أهمية فيما يتعلق بالموضوعات التى نناقشها هنا. إنها المجادلة التى تبدأ بالتسليم بأن المدن التجارية الكبيرة فى العصور الوسطى

والطرق التجارية فى آسيا كانت على مستوى أكبر من تلك التى فى أوروبا والبحر المتوسط، ولكن ذلك يجعلها أكثر أهمية بالنسبة لنهضة الرأسمالية وذلك لإن الإنتاج وليس المقايضة (تجارة ومعاملات تجارية) هو العملية الحيوية بالنسبة للرأسمالية. بغض النظر عن التطور الهائل للطرق التجارية والمدن فى أسيا كان الإنتاج الزراعى الإقطاعى فى أوروبا (فى هذه المجادلة) أقرب للرأسمالية من نظم الإنتاج الحضرى أو الريفى فى غير أوروبا وتلك الحقيقة - طبيعة المجتمع الأوروبى الريفى مقارنة بالمجتمع الريفى غير الأوروبى - تعد مهمة فيما يتعلق بتفسير نهضة الرأسمالية فى أوروبا وليس أسيا (أو أفريقيا). لقد تمت مناقشة المجادلة الخاطئة فيما يتعلق بالإنتاج الريفى. ولكن على نفس الدرجة من الخطأ كانت فكرة أن المدن ذات الموانئ فى آسيا (وأفريقيا)، والمراكز التجارية البحرية كان مهتمة بشكل أساسى بالمقايضة و"العمليات التجارية". هنا لدينا فى الحقيقة ثلاثة أخطاء:

أولاً : يتطلب الإنتاج ليس فقط تغييراً فى الشكل ولكن تغييراً فى المكان. من الغيبيات أن تجادل بأن هناك شيئًا مميزًا وجوديًا فيما يتعلق بعملية تشكيل الطبيعة فى صورة "شيء" أى سلعة. عندما ينتج مزارع "شيئًا" زراعيًا فهو أو هى يجب ألا يزرعها فقط ولكن أن ينقلها من الحقل إلى المزرعة ثم إلى السوق، كذلك يجب أن ينقل المياه والأسمدة والعمالة من خارج المزرعة. لذا يتطلب الإنتاج الزراعى تغييراً فى الشكل والمكان معًا. إن خط إنتاج السيارات هو عملية تغيير فى الشكل والمكان معًا. ولذا فالانتقال المكانى هو جزء من الإنتاج. لا علاقة له البتة بالعملية الخاصة التى تُشترى عن طريقها السلع وتباع. حقًا إن محصول المزارع يمكن أن يكون عرضة للتبادل على أرض المزرعة بالإضافة إلى عرضه فى السوق خارجها. لهذا فإن الأنشطة فى العصور الوسطى التى تطلبت نقل السلع لمسافات طويلة لم تكن "تبادلاً"، كانت نقلاً مكانيًا. تطلبت قوى عاملة كبرى واستثمارات رأسمالية هائلة وتكنولوجيا متطورة - فى الملاحة وبناء السفن والبنوك والتأمين وما هو أكثر من هذا - ورسوم طنية كبيرة. لقد

أنتجت قيمة للسلع التى لم تكن تتمتع بهذه الصفة وهى مازالت فى مرحلة المغادرة. وباختصار إن ما يطلق عليه "تجارة العصور الوسطى" كان عملية معقدة لعب فيها الإنتاج والتصنيع دوراً عظيماً تماماً مثل المقايضة.

الخطأ الثانى هو الفكرة المنتشرة اليوم بين المؤرخين بأن المدن الكبرى وانتقال السلع، وباقى المنظومة كان على نحو ما عملية تتطلب نقل بعض المواد الكمالية فقط لطبقة حاكمة صغيرة. فى الواقع، معظم التجارة البحرية فى العصور الوسطى كانت عبارة عن سلع أساسية مهمة، أشياء مثل الأقمشة الخام والأدوات الحديدية والقمح والخشب والسفن (التى غالباً ما كانت تبحر من مكان البناء لميناء أخر كى تباع)، أو ما شابه ذلك. والأكثر من هذا أن الرسوم التى كانت تفرض على المنتجات التى لا تعتبر أساسية مثل الفلفل والسكر والأقمشة الراقية والفخار وهكذا كانت فى حد ذاتها مهمة جداً وذلك لأن سوق تلك المنتجات كان كبيراً جداً، حيث كانت طبقة الصفوة فى العصور الوسطى على درجة كبيرة من الأهمية والقوة.

أما الخطأ الثالث فهو الفشل فى استيعاب أهمية الإنتاج الصناعى فى تلك المدن فى العصور الوسطى وما وراءها. ولذا أستخلص من هذا أن النظم التجارية البحرية فى العصور الوسطى كانت تعد بمنزلة مهد للرأسمالية فى آسيا وأفريقيا وكذلك أوروبا.

لم تكن مدن الموانئ فى أوروبا فى بدايات الرأسمالية أكثر تطوراً من مثيلاتها فى أفريقا وآسيا فى القرن الخامس عشر. ويعد هذا صحيحاً بغض النظر عن المعايير المختارة: **أولاً**: لم تكن المدن الأوروبية أكبر مطلقًا أو نسبيًا من حيث عدد السكان. فى الواقع ربما كان التحضر فى أوروبا أقل تطوراً منه فى الصين والهند والمنطقة العربية ومما لاشك فيه فى مناطق غير أوروبية أخرى عديدة. سكان المدن فى الصين القديمة إبان حكم أسرة مينج ربما مثلوا ١٠٪ من تعداد السكان العام(٣٢) . فى إمبراطورية ڤيچياناچار فى جنوب الهند كانت فى نفس النسبة تقريبًا: العاصمة الداخلية وحدها

كان بها ٣٪ مقارنة بمراكز أوروبية مثل باريس التى كان بها نصف هذه النسبة، كما كانت مدن الموانئ الساحلية عديدة وكبيرة[٣٣] .

ثانيًا : تطور تقنيات الأعمال كان متقدمًا ومعقدًا ومنتشرًا فيما بين التجار ورجال البنوك فى آسيا وأفريقيا مثلما فى أوروبا (قال تومى بيريز عن رجال أعمال جوچاراتى فى ١٥١٥: "إنهم رجال يفهمون البضائع، فهم... ربما أحسوا إيقاعها" و" من هم منا ويريدون أن يكونوا موظفين ووكلاء يجب أن يذهبوا هناك ويتعلموا، وذلك لأن التجارة علم[٣٤]").

ثالثًا : وسائل الإنتاج المادية والفنية يبدو أنها كانت على نفس مستوى التطور فى عدد من المراكز التجارية البحرية فى القارات الثلاث مما سمح بوجود اختلافات فى حجم الإنتاج والتجارة وأنواع البضائع وما شابه. كانت التقنيات البحرية كذلك متقاربة فى نصف الكرة الأرضية بالرغم من اختلافها من محيط لآخر، ومع ذلك لا يمكن القول إن سفن محيط ما كانت متطورة تكنولوچيًا أكثر من غيرها[٣٥]. كان المصنعون فى مدن الموانئ والمراكز الصناعية فى أوروبا وأفريقيا وآسيا متقاربين على المستوى العام ومستوى التطور[٣٦].

رابعًا : تركيب الطبقة الحضرية فى المراكز الآسيوية والأفريقية يظهر أنه كان مشابهًا لما كانت عليه المراكز الأوروبية: فى كل الأقاليم كانت هناك طبقة قوية من الرأسماليين الأوائل وطبقة من العمال بأجر مع أو بدون طبقات مثل أصحاب الأرض الإقطاعيين والعبيد وهكذا. وأخيرًا الخرافة الأوروبية القديمة التى نظمها ڤيبر- أن المدن الأوروبية كانت إلى حد ما أكثر حرية من غيرها، تلك التى كانت تئن تحت قبضة الحكومات المتاخمة – هى فى الحقيقة تعد إرثًا من نظرية انتشار المركزية الأوروبية الكلاسيكية التى تخيلت أن كل شىء مهم فى أوروبا القديمة كان مصبوغًا بالحرية بينما كل شىء مهم فى آسيا (ولا داعى لذكر أفريقيا) كان مؤسسًا على "استبداد شرقى" سفيه، حتى وصل الأوروبيون هناك وجلبوا الحرية معهم. إن ما يطلق عليه

"المدن الحرة" فى وسط أوروبا كان من الصعوبة بمكان أن تكون هى المقياس، كما أنها لم تكن مركزية بالنسبة لنهضة الرأسمالية. الاستقلال الجزئى لعديد من مدن الموانئ التجارية البحرية الأوروبية من إيطاليا إلى البلطيق كان بالطبع حقيقيًا، وعادة ما عكس إما سيطرة مدينة ذات حكومة صغيرة نسبيًا (فى الغالب مدينة – دولة) أو التأقلم التدريجى للدول الإقطاعية على القطاعات المدنية سامحة للأخيرة بمقدار من الاستقلال لتحقيق الربح وبلوغ القوة. ولكن كل هذا يعد صحيحًا بالنسبة لأجزاء عديدة من أفريقيا وآسيا أيضًا. كانت المدن – الدول الصغيرة منتشرة على سواحل المحيط الهندى وفى المغرب وفى جنوب آسيا، كذلك كانت المدن شبه المستقلة منتشرة مع إعطائها ولاء غير مقيد للدول الأكبر. نوقشت هذه النقطة فى الفصل السابق.

لم تكن المناقشة السابقة نظرية عن نهضة الرأسمالية. كان هدفى ببساطة أن أعرض أن كل النظريات التى تدعى التفوق السببى لأوروبا على أساس الزعم بفقدان آسيا وأفريقيا للتحضر التطورى، أو بسبب أن العمليات المدنية لم تكن مهمة، حيث إنها بوجه عام لم تكن ذات أهمية كبرى مقارنة بالعمليات الريفية- الإقطاعية الريفية الأوروبية- فهذا يعد غير مقنع.

إنها ليست مبالغة حين نصف كل شبكة المدن التجارية البحرية على أنها نظام لبدايات الرأسمالية[٣٧] . أما الأماكن المحيطة من المجتمعات الزراعية الطبقية فكما جادلت فى السابق فتكونت من مجتمعات منفصلة وحكومات فى أقاليم منفصلة، ولكن بالرغم من هذا كانت متكاملة لدرجة أدى فيها الانتشار المتشابك وانتقالات أخرى إلى قدر من الوحدة وربما حتى إلى قدر من التوازن عبر القارات. كانت هذه الوحدة أكثر قوة بالنسبة لشبكة المدن فى بدايات الرأسمالية. إن الصورة التى فى مخيلتى لهذه الشبكة هى خيوط من أنوار الكهرباء بأحجام وألوان مختلفة تضىء حفلة فى الحديقة. إن التيار، إذا جاز التعبير، الذى سرى فيما بين مدن الموانئ تلك تكون من أناس (بحارة، عمال، تجار، الخ) ، وأشياء مادية (سلع، سفن، بذور، ومحاصيل، أدوات

موسيقية، وغيرها الكثير) وأفكار: أفكار تكنولوچية وأفكار إبداعية اجتماعية واقتصادية ودينية وهكذا.

كل هذا معروف بصورة كيفية وليس فى صورة معبرة عن مدى القوة، والانتشار المكانى، والأكثر أهمية، الوحدة. يمكن النظر إلى النظام بأكمله ككيان واحد متكامل لدرجة تسمح بحدوث الانتشار السريع والمتشابك والآنى فى هذا النظام لكل سمة ثقافية مادية أو غير مادية تعد متعلقة بالتطور الاقتصادى والفنى والبيئى لهذا الشكل المجتمعى. أعتقد أنه من الخطأ أن نعتقد بأن الاختلافات الثقافية العميقة فيما بين المجتمعات المختلفة التى تكون هذا النظام قد انعكست فى نقص التكامل فيما بين الحدود الثقافية فى أمور تتعلق بالبعد الفنى والبيئى والاقتصادى للثقافة، وهذا الاعتقاد الخاطئ مبنى على طريقة فهمنا للثقافات والاختلافات الثقافية. (تذكر مناقشتنا السابقة عن الفرق بين الجوانب التطورية وغير التطورية والمتطورة جزئيًا للثقافة كما فى التقاليد النظرية لعلماء الأنثروبولوچيا من أمثال ستيوارد.[٣٨]) فى تلك الأوقات لم تكن الاختلافات فى اللغة تعوق البحث وراء الربح بين التجار أو أى مشاركين فى هذا النظام. (تذكر ببغاوات كالا التى تتحدث اليونانية، والأربعة وثمانين لغة فى مالاكا) كذلك لم تمثل الاختلافات الدينية عائقًا (كما يوجد لدينا العديد من الوثائق التى تدل على معاملات تجارية بين المسلمين والمسيحيين واليهود فى البحر الابيض المتوسط إبان القرون الوسطى[٣٩]). بالتأكيد كانت هناك شبكات اجتماعية محدودة، والعضوية فيها كانت مرتبطة بديانة ما أو جنسية ما أو حتى رابطة نسب. أوضحت أبو لغد أن نموذج العلاقات والاختلافات أوجد مجموعة من الأقاليم الاجتماعية المتشابكة – وهى تكتب عن "الدوائر الثمانية فى نظام العالم فى القرن الثالث عشر"- بالرغم من أن بياناتها ومجادلتها تتفق مع أطروحتى الحالية بأن كل الأقاليم كانت فى الواقع أقاليم فرعية لنظام رأسمالى أولى واحد[٤٠] . يبدو أن الحدود الدولية لم تلعب دورًا فى إعاقة التدفق عبر النظام، ما عدا فترات محددة عندما كان هناك صراع سياسى أو

سياسات إمبراطورية وممارسات معينة أدت إلى عرقلة التجارة من خلال إقامة حواجز سياسية، إن الأشكال الوطنية الصرفة للمشاريع الرأسمالية ستصبح مهمة فيما بعد، أى بعد ١٤٩٢[٤١] .

يبدو أن الشبكة أو النظام قد تبلور على مدار قرون عدة، من القرن العاشر وحتى الخامس عشر. وأؤكد بدون إضفاء أى أسباب على حقيقة أن الفترة التى فى خلالها نما هذا النظام وترعرع كانت الفترة التى زاد فيها شحن ونقل التكنولوجيا عبر المحيطات فيما يمكن أن نسمية الثورة المكانية. فى الثورة الزراعية لا نعرف ما إذا كان التحول الفنى البيئى هو السبب أو النتيجة أو هو كليهما معًا، أما فيما يتعلق بالتحول الاجتماعى، بالرغم من أن معظم الباحثين يرون الزراعة على أنها السبب والتغير الاجتماعى الأثر، فهم قد يكونون مخطئين أو على صواب. فى حالة الثورة المكانية فى العصور الوسطى من المحتمل أن يكون الجانب البيئى التكنولوچى انعكاسًا لعمليات اقتصادية واجتماعية ارتبطت مع ظهور البدايات الأولى للرأسمالية والتطور المدنى أكثر من كونه سببًا للأخير. ومع هذا فالثورة المكانية فى العصور الوسطى كانت تكملة للثورة الزراعية، فقد كثفت التدفق المكانى مثلما كثفت الثورة السابقة من الإنتاج فى موقعه الأصلى. هذا لا يعنى أن نقول إن تكنولوچيا المراكب والإبحار لمسافات بعيدة كانت غير مهمة: السؤال هو عن مقدار كثافتها.

ربما كفكرة تأمليه أخيرة يمكن أن نفكر أن الثورة المكانية كجزء من عملية أكبر كانت استجابه لنضج ثم تدهور الإقطاع كأسلوب للإنتاج. بالتأكيد، صحيحٌ أن زيادة الطلب على السلع من قبل طبقة الصفوة كانت دافعًا مهمًا، ولكن من الممكن كذلك أن أزمة الإقطاع الناشئة - قلة معدل زيادة الفائض التى تستخلص من إنتاج الفلاحين وما ينتج عنها من مشقة وقيود - كانت لها علاقة بظهور النظام الرأسمالى الأولى فيما بين القارات. على أيه حال، يجب أن نفكر فى الرحلات الاستكشافية الطويلة فى أواخر

العصور الوسطى، ورحلات الصينيين، والهنود والبولونيز، والأوربيين وغيرهم على أنها لحظات فى ثورة مكانية حقيقة.

جزء كبير من هذا لا تعضده البيانات العملية. ولكن لدنيا بيانات مهمة عن متوازيات التطور من نظام حضرى لآخر ومن إقليم تجارى لغيره. لدينا كذلك الحالات المثيرة للانتشار اللحظى: على سبيل المثال، ظهور المدفع فى إقليم البحر الأبيض المتوسط والصين تقريبًا فى نفس الوقت وربما فى نفس العقد ٤٢ . لتحقيق أهداف مجادلة هذا الكتاب هناك تعميم مهم وهو: ليس مدهشًا أن العمليات التى أسميها بدايات الرأسمالية كانت موجودة فى نصف الكرة الأرضية الشرقى فى أواخر العصور الوسطى. أفريقيا وآسيا وأوروبا كانوا على نفس الدرجة من القرب أو البعد من الرأسمالية والحداثة فى ١٤٩٢ . بعد ١٤٩٢ اضطرد معدل التطور بالنسبة لأوروبا وتباطأ فى أفريقيا وآسيا، وذلك بسبب الثروة المجلوبة لأوروبا من أمريكا.

هوامش

(١) فيما يتعلق باستخدامى لمصطلح "التطور الثقافى" انظر الفصل الأول ملاحظة ١٤ .

(٢) تتعامل المناقشة فى هذا القسم من الفصل مع نصف الكرة الأرضية الشرقى. نصف الكرة الأرضية الغربى سيناقش فى الفصل الرابع.

(٣) انظر . Dobb, Studies in the Development of Capitalism (1947)

(٤) Amin, Unequal Development (1976) and "Modes of Production: History and Jne-qual Development" (1985).

(٥) Kabaker, "A Radiocarbon Chronology Relevant to the Origins of A.griculture" (1977); Megaw, Hunters, Gatherers and First Farmers Beyond Europe (1977); Vishnu-Mittre, "Origin and History of Agriculture in the Indian Subcontinent" (1978). See the review in Blaut, "Diffusionism: A Uniformitarian Critique." (1987a).

(٦) Blaut, "Diffusion ism" (1987a) .

(٧) الافتراض هنا أن الزراعة نفسها كانت تتقدم وذلك لأنها كانت مفيدة ولكن هناك افتراض هو نتيجة طبيعية وهو أن البشرية تحققت من أن هذا ليس فقط فى مكان واحد مفضل ولكن فى أماكن عديدة وبين شعوب عديدة، لا يجب أن يكون هذا مستغربًا مع تسليمنا بحقيقة أن الزراعة مفيدة فى كل مكان اليوم. ولكنه بالتأكيد يتعارض مع افتراضات نظرية انتشار المركزية الأوروبية.

(٨) أمثلة على هذه العملية تتضمن الانتقال شرقًا للحدود الزراعية فى العصور الوسطى فى غابات شرق أوروبا واستصلاح أراضى المستنقعات فى العراق. كانت أراضى المحاصيل تتسع بطرق عديدة فى أقاليم عديدة. بالإضافة إلى ذلك، يبدو أكيدًا أن بعض المجتمعات التى لم تمارس الزراعة من قبل كانت تدفع لأقاليم أصغر وأقل شأنًا ولذا اتجهت للزراعة كوسيلة لزيادة إنتاج الغذاء لمواجهة نقص الأرض.

(٩) انظر R. Lee, "Art, Science, or Politics? The Crisis in Hunter-Gathere: Studies" (1992).

(١٠) نظم التحكم فى المياه فى الزراعة بما فيها الرى و الصرف و المصاطب ذات القواعد العريضة و بناء الحقل المرتفع أو الجاف والسدود الطبيعية تعد قديمة قدم الزراعة نفسها لأن (١) كل المزارعين فى كل مكان يعرفون مشكلة التحكم فى الرطوبة (إضافة مياه فى حالة نقصانها و التخلص منها عندما يكون هناك فائض وخطر غرق الجذور. (٢) كل هذه الإجراءات بداية هى أفعال على نطاق صغير فى مزرعة فردية (تذكر مناقشتنا فى الفصل الثانى عن مغالطات "النظرية الهيدروليكية". (٣) هناك دليل أركيولوجى مباشر لأنظمة الصرف القديمة جداً (٩٠٠٠) عام فى غينيا الجديدة (Golson, "No room at the top: Agricultural intensification in the New Guinea Highlands," 1977)، وكذلك أنظمة الحقل المرتفع والحقل الجاف فى أمريكا الاستوائية (Denevan, "Hydraulic Agriculture in the American Tropics; Forms, Measures, ane Recenr Research," 1982). لذا نستطيع أن نستنتج أن بداية الرى وأنظمة التحكم فى المياه الأخرى ربما تكون منذ القدم مثل العصر الحجرى القديم مع أنظمة الحقل المرتفع والجاف. كل هذا يوضح أن التكنولوجيا المكثفة كانت قد انتشرت بالفعل وعدم تبنيها عكس أمراً غير نقص المعلومات. كما لاحظنا فى الفصل الثانى تنتشر أنظمة الرى كعملية اجتماعية ترتبط مع الطبقة الاجتماعية. أما الخرافة بأن المحراث لم يكن يستخدم فى أفريقيا فانظر Hopkins, An Economic History of West Africa (1973) and Onimode, Imperialism and Underdevelopment in Nigeria (1982). لاحظ أن المحاريث تستخدم فى الزراعة الاستوائية بصورة بسيطة، فى الأساس فى بعض العمليات فى حقول الأرز.

(١١) فى المجتمعات اللاطبقية أظن أن مجموعة الخيارات التى تتعلق بالمحاصيل والأدوات و أنظمة الحقل والعمالة، وما شابه أدت إلى مستوى شائع تقريباً من الإنتاج للفرد غير متأثر بالاختلاف فى نوعية البيئة فى البيئات المختلفة. فى بعض المناطق يمكن استخدام الأنظمة الممتدة مثل الزراعة المتنقلة فى غيرها من الأنظمة المكثفة مثل زراعة الأرز التى تتطلب الملء بالمياه. ولكن إنتاجية العمالة فيما يتعلق بالإنتاج فى ساعة العمل قد تتجه لتكون حوالى نفس الشيء فى هذا النموذج بالنسبة للأنظمة الممتدة والمكثفة. قد يكون هذا صحيحاً لو قبلنا بفرضين: (١) أن الانتشار السريع والنشط قد حدث (٢) أن تعداد السكان قد تم التحكم فيه من قبل الشعوب الزراعية كى يتمكنوا من توخى الأمثل فى الموقف المتعلق بالإنتاج ووقت الفراغ. لا يمكن أن يكون أياً من هذا صحيحاً فى مجتمع طبقى حيث القيود على التكنولوجيا واستخدام العمالة تتأثر بشكل كبير بمتطلبات وقوة الطبقة الحاكمة.

(١٢) انظر على سبيل المثال Kea, Settlements, Trade, and Polities in the Seventeenth Century Gold Coast (1982); Isichei, A History of Nigeria (1983); Rodney, A History of the Upper Guinea Coast 1545-1800 (1970); A. Smith, "The Early States of the Central Sudan" (1971); Usman, The Transformation of Katsina (1400-1883) (1981).

(١٣) انظر Blaut, "Colonialism and the Rise of Capitalism" (1989). يعد صحيحًا كذلك أن في كل تلك المجتمعات كان هناك مجموعات متوازية ذات مكانة عالية مثل رجال الدين وموظفى الحكومة والعسكريين وهكذا. ولم تكن هى حالة مجتمع إقطاعى كبير - أستبعد حالات قليلة لمراكز القوة المتحضرة فى الأقاليم الجافة الرعوية وبعض المدن الكبيرة - الذى كانت فيه الثروة والمكانة منفصلة عن ملكية الأرض وعن الفائض المأخوذ من الفلاحين.

(١٤) من الواضح أن تلك الملكية الخاصة (القابلة للبيع) للأرض الزراعية وجدت فى الأساس بالقرب من المناطق الحضرية المهمة والموانى؛ ومناطق التعدين إلخ. انظر Rawski, Agricultural Change and the Peasant Economy of South China (1972); Das Gupta, Malabar in Asian Trade: 1740-1800 (1967); Nicholas, "Town and Countryside: Social and Economic Tensions in 14th Century Flanders" (1967-1968); Kea, Settlements, Trade, and Polities in Seventeenth-Century Gold Coast (1982); Rodney, A History of the Upper Guinea Cost (1970); Usman, The Transformation of Katsina .(1981); Sherif, Slaves, Spices and Ivory in Zanzibar (1987)

(١٥) عن أهمية الإقطاعيات الوراثية و ملكية الأرض فى آسيا انظر على سبيل المثال Elvin, The Pattern of the Chinese Past (1973); Sharma, Indian Feudalism, c. 300-1200 (1965); Fei Hsiao-tung, China's Gentry (1953); Fu and Li, The Sprouts of Capitalistic Factors Within China's Feudal Society (1956); Rawski, Agricultural Change and the Peasant Economy of South China (1972); Tung, An Outline History of China (1979); Liceria, "Emergence of Brahmanas as Landed Intermediaries in Kamataka, c . A.D. 1000-1300 (1974); Mahalingam, Economic Life in the Vijayanagar Empire (1951); Hasan, "The Position of the Zamindars in the Mughal Empire (1969); Raychaudhuri, "The Agrarian System of Mughal India" (1965); Yadava, "Secular Land Grants of the Post-Gupta Period and Some Aspects of the Growth of the Feudal Complex in Northern India" 1966). For Africa south of the Sahara (for which there is as yet only fragmentary evidence), see, for example, A. Smith, "The Early States of the Central Sudan" (1971); Mabogunji, "The Land and Peoples of West Africa" (1971); Kea, Settlements, Trade, and Polities in the Seventeenth-Century Gold Coast (1982); Isichei, A History of Nigeria (1983); Onimode, Imperialism and Underdevelopment in Nigeria (1982); FRELIMO, Historia de Mozambique (1971); Rodney, A History of the Upper Guinea Coast .(1970); and Usman, The Transformation of Katsina (1981)

(١٦) عن نظام العــــزب فى الصــــين انظر Gopal, "Quasi-Manorial Rights in Ancient India" (1963); Mahalingam, Economic Life in the Vijayanagar EmPire (1951); Yadava, "Secular Land Grants of the Post-Gupta Period" (1966); Yadava, "Immobility and Subjugation of Indian Peasantry in Early Medieval Complex" (1974). يتـعرف المؤرخون الهنود على اختلافات مهمة بين أشكال العزب الأوروبية والهندية على الرغم من هذا. فى أوائل الإقطاعية الهندية كانت العمالة تشبه العبيد أو العمالة بأجر وكان بعضهم مزراعين مستأجرين. يبدو أن الإقطاعيات الهندية الأولى كانت أقل فى درجة الحكم المطلق والعزلة من العزبة الأوربية الشائعة.

(١٧) أراء مـاركس مقـدمـة فى "الحكم البريطانى فى الهند" (١٩٧٩) Irfan Habib تتبع كوسـامبى جزئيًا (كلاهما ماركسى) تكتب عن "خلق القرية الهندية التقليدية المنغلقة على نفسها والمكتفية بذاتها" (تاكيدى) بين ٢٠٠ قبل الميلاد 650 ,بعد الميلاد فى عملية تطلب "الحرف القروية" وإلى حد ما خططت استيطان الناس بلا مـأوى فى القـرى : Habib, in "The Social Distribution of Landed Property in Pre-British India" (1965).

(١٨) عن الانسجام بين الزراعة والصناعة اليدوية فى القرى الأوروبية فى العصور الوسطى انظر على سبيل المثال Sylvia Thrupp, "Medieval Industry 1000-1500" (1972).

(١٩) Dobb, Studies in the Develvpment of CaPitalism (1947).

(٢٠) لم يكن نظام أقنان الأرض من صـفـات كل المناطق فى أوروبا فى العـصـور الوسطى. عن العمالة غير الحرة فى آسيا وأفريقيا انظر على سبيل المثال Yadava, "Immobility and Subjugation of Indian Peasantry in Early Medieval Complex" (1974); Levitzion, "The Early States ri the Western Sudan to 1500" (1972); Elvin, The Pattern of the Chinese Past (1973).

(٢١) انظر Brenner and critics in Aston and Philpin, The Brenner Debate: Agrarian Class Structure and Economic Development in Pre-Industrial Europe(1988); Brenner, "The Origins of Capitalist Development: A Critique of Neo-Smithian Marxism." (1977); Baechler, "The Origins of Modernity: Caste and Feudality (India, Europe and Japan)." (1988). انظر ملاحظات Brenner و Baechler فى الفصل الثانى.

(٢٢) including Lynn White, Jr. in Medieval Technology and Social Change (1968) Michael Mann, "European Development: Approaching a Historical Explanation" (1988); Perry Anderson, Lineages of the Absolute State (1974).

(٢٣) Blaur, The National Question (1987b), chap. 7.

(٢٤) الهند انظر على سـبـيل المثال، A. Chicherov, "On the Multiplicity of Socio-Economic Structures in India in the Seventeenth and Eighteenth Century" (1976); I. Habib, "Problems of Marxist Historical Analysis" (1969); S. Gopal, Nobility and the Mercantile Community in India" (1972); Radhakamal Mukherjee, The Economic History of India, 1600-1800 (1967); Ramkrishna Mukherjee, The Rise and Fall of the East India Company (1958); Jha, Studies in the Development of Capitalism India (1963); Nurul Hasan, "The Silver Currency Output of the Mughal Empire and Prices in India During the 16th and 17th Centuries" (1969); Yadava, "Immobility and Subjugation of Indian Peasantry in Early Medieval Complex" (1974). لغـرب أفـريقـيـا، انظر Kea, Settlements, Trade, and Polities in the Seventeenth-Century Gold Cost (1982). الصـين، انظر Harrison, The Communists and Chinese Peasant Rebellions (1969); Parsons, Peasant Rebellions in the Late Ming Dynasty (1970); Fu and Li, The Sprouts of CaPitalistic Factors Within China's Feudal Society (1956).

(٢٥) Appadorai, Economic Conditions in Southern India (1936); Elvin, The Pattern of the Chinese Past (1974); Nicholas, "Town and Countryside: Social and Economic Tensions in 14th Century Flanders" (1967-1968), pp. 458-485; Rawski, Agriculttural Change and the Peasant Economy of South China (1972); T. Raychaudhuri, Jan Company in Coromandel (1962).

(٢٦) Rawski, Agricultural Change and the Peasant Economy of South China (1972).

(٢٧) انظر Appadorai, Economic Conditions in Southern India (1936); Gernet, Daily Life in China on the Eve of the Mongo/1nvasion (1962); Habib, "Problems of Marxist Historical Analysis" (1969); Mahalingam, Econ~mic Life in the Vijayanagar Empire (1951); K. Nilikanta Sastri, A History of South India (1966); Tung, An Outline History of China (1979); Kea, Settlements, Trade, and Polities in the Seventeenth-Century Gold Coast (1982), Sherif, Slaves, Spices and Ivory in Zanzibar (1987).

(٢٨) Blaut, "Where Was Capitalism Born?" (1976).

(٢٩) Pires, The Suma Oriental (1944 edition).

(٢٠) Pires, The Suma Oriental (1944); Di Meglio, "Arab Trade with Indonesia and the Malay Peninsula from the 8th to the 16th Century" (1970). مـــوقع كــالا فى إقليم ميرجوى: انظر (1961) Wheatley, The Golden Khersones!.

(٢١) الأطروحة رئيسية فى المناظرة الشهيرة عن دور التمدين urbanization فى نهضة الرأسمالية فى العـصـور الوسطى. فى الأدب الماركـسى يرتبط هذا الرأى مع مـوريس دوب (الذى قـدمـه بحـذر) والاعتراض عليه - التأكيد على دور المدن الصغيرة فى نهضة الرأسمالية - يرتبط مع بول سويزى. انظر Dobb, Studies in the Development of Capitalism (1947), Sweezy, "A Critique" (1976). الأطروحة أساسية أيضا للمناظرات عن "نظرية التبعية" على سبيل المثال يجادل روبرت برنر أن المدن الصغيرة والتجارية كانتا خارج الموضوع وذلك لأن الموضوع هو الإنتاج وليس التبادل ويعتقد برنر (خطأً) أن المدن الصغيرة لم تكن نقاط إنتاج مهمة فى العالم فى العصور الوسطى انظر Brenner, "The Agrarian Roots of European Capitalism" (1985), pp. 38-39. أيضا انظر الفصل الثانى ملاحظة ١٧٢ .

(٢٢) Elvin, The Pattern of the Chinese Past (1973).

(٢٣) Elvin, The Pattern of the Chinese Past (1973); Mahalingam, Economic Life in the Vijayanagar EmPire (1951); Naqvi, Urban Centres in Upper India, 1556-1803 (1968); Satish Chandra, "Commerce and Industry in the Medieval Period" (1964).

(٢٤) Pires, The Suma Oriental (1944). Also see K. N. Chaudhuri, Trade and Civilization in the Indian Ocean (1985); Chan-Cheung, "The Smuggling Trade Between China and Southeast Asia During the Ming Dynasty (1967); Di Meglio, "Arab Trade with Indonesia and the Malay Peninsula from the 8th to the 16th Century" (1970); Elvin, "China as a Counterfactual" (1988); Gupta, Industrial Structure of India During Medieval Period (1970); 1. Habib, "Usury in Medieval India" (1964); Jha, Studies in the Development of CaPitalism in India (1963); Pires, The Suma Oriental (1944); Prakash, "Organization of Industrial Production in Urban Centres in India During the Seventeenth Century with Special Reference to Textiles" (1964); Victor Purcell, The Chinese in Southeast Asia, 2nd ed. (1965); Jan Qaisar, "The Role of Brokers in Medieval India" (1974); Simkin, The Traditional Trade of Asia (1968); Toyoda, History of Pre-Meiji Commerce in Japan (1969); Udovitch, "Commercial Techniques in Early Medieval Islamic Trade" (1974).

(٣٥) Needham and collaborators, Science and Civilization in China (1954-1984), vol. 4, part 3; Lewis, "Maritime Skills in the Indian Ocean, 1368-1500" (1973); Lo, "China as a Sea Power" (1955); Ma Huan, The Overall Survey of the Ocean's .Shores (1970); Purcell, The Chinese in Southeast Asia, 2nd ed. (1965)

(٣٦) S. Chaudhuri, "Textile Trade and Industry in Bengal Suba, 1650-1720" (1974); Elvin, "China as a Counterfactual" (1988); Gernet, Daily Life in China on the Eve of the Mongol Invasion (1962); Jha, Studies in the Development of CaPitalism in India (1963); Naqvi, Urban Centres in Upper India, 1556-1803 (1968); Needham and collaborators, Science and Civilization in China (1965-1984); Jan Qaisar, "The Role of Brokers in Medieval India" (1974); Rodinson, "Le Marchand Musulman" (1974); Rodinson, Islam and CaPitalism (1973); Bodo Wiethoff, Die Chinesische Seeverbotspolitik und der Private ?berseehandel von 1368 bis 1567 (1963); Yang, "Government Control of Urban Merchants in Traditional China" .(1970)

(٣٧) قدمت هذه الفكرة "أين ولدت الرأسمالية" (١٩٧٦). كتاب جانيت أبو لغد المهم قبل الهيمنة الأوربية: نظام العالم ١٢٥٠-١٣٥٠ بعد الميلاد (١٩٨٩) هو المحاولة الأولى لتوضيح بالتفصيل الدقيق كيف عمل هذا النظام في القرن الرابع عشر. انظر أيضًا S. Chaudhuri, "Textile Trade and Industry in Bengal Suba" (1985); Simkin, The Traditional Trade of Asia (1968); Amin, Accumulation on a World Scale (1974) and Unequal Development (1976)

(٣٨) Steward, Theory of Culture Change: The Methodology of Multilinear Evolution (1955). انظر الملاحظة الأولى.

(٣٩) Braudel, The Mediterranean (1972); Goitein, A Mediterranean Society (1967); .Lane, Venice: A Maritime Republic (1973)

(٤٠) Abu-Lughod, Before European Hegemony: The World System A.D. 1250-1350 (1989), fig. 1, p. 34. واحد من الأقاليم الثمانية في الدائرة غير البحرية تمتد من الصين مرورًا بوسط آسيا إلى البحر الأسود.

(٤١) ..Blaut, The National Question (1987b)

(٤٢) Needham and collaborators, Science and Civilization in China (1965-1984), Vol. .5, part 7; Needham, Gunpowder as the Fourth Power, East and West (1985)

الفصل الرابع

ما بعد ١٤٩٢

تفسير ١٤٩٢

في ١٤٩٢ كانت الرأسمالية قد بدأت في الظهور ببطء في أجزاء عديدة من آسيا وأفريقيا وأوروبا. في تلك السنة لم يكن هناك سبب للتنبؤ بأن الرأسمالية سوف تنتصر في أوروبا وبعد قرنين فقط.

عندما أقول "انتصار الرأسمالية" فأنا أعني في هذا السياق الثورة السياسية التي نقلت القوة من طبقة الصفوة الإقطاعية القديمة صاحبة الأرض للطبقة البرجوازية (المواطنين وطبقة الصفوة الجديدة الجامعة لرأس المال): الثورة البرجوازية. تلك كانت بحق حقبة ثورية، وليس حدثًا واحدًا مختصرًا، وسأتبع التقليد في تأريخها في ١٦٨٨، سنة "الثورة المجيدة" في إنجلترا. في تلك السنة (باستثناء بعض التحفظات) استطاع البرجوازيون فرض سطوتهم على إنجلترا. وقد كانت تلك الطبقة قد أخذت بنصاب الأمور في هولندا وفي بعض الدول الصغيرة في جنوب أوروبا، بينما في مناطق أخرى في أوروبا (مثل فرنسا) كانت البرجوازية "تنتشر" بقوة في أقاليم محددة بالرغم من أن الصراع مع الحكومات الإقطاعية لم يكن محسومًا بعد على مستوى قوة الدولة. ويجب أن نؤكد هنا أن الرأسمالية التي انتصرت لم تكن رأسمالية صناعية. كيف يمكن أن نستوعب مفهوم الرأسمالية قبل الصناعية؟ هذا هو السؤال الصعب، وذلك لأنها شيء أكبر من "إنتاج بسيط للسلع" و"رأس مال التجار" في الأوقات السابقة . ولكن لم تبدأ الثورة الصناعية حتى قرن لاحق، في نهاية القرن الثامن عشر، وهؤلاء الذين ينظرون

إلى الثورة الصناعية على أنها ببساطة امتداد لثورة البرجوازيين يهملون جزءًا كبيرًا ومهمًا فى التاريخ داخل أوروبا وخارجها معًا.

إن تفسير وصول الرأسمالية للقوة السياسية فى أوروبا فى السنة (الرمزية) ١٦٨٨ يتطلب فهمًا لما يأتى : (١) الأسباب التى جعلت الأوروبيين وليس الأفارقة والآسيويين يصلون إلى أمريكا ويغزونها وبذا مُنحوا أول ثمار الاستعمار. (٢) أسباب نجاح الغزو. (٣) الآثار المباشرة وغير المباشرة لنهب الموارد الأمريكية فى القرن السادس عشر واستغلال العمال الأمريكيين فى عملية تحول أوروبا. (٤) الآثار المباشرة وغير المباشرة للمشروع الأوروبى الاستعمارى وشبه الاستعمارى فى أمريكا وأفريقيا وآسيا فى القرن السابع عشر فيما يتعلق بعملية تحول أوروبا الذى أدى فى نهاية الأمر إلى الانتصار السياسى للرأسمالية فى الثوره البرجوازية.

فى الفقرات التالية سنلخص كلاً من هذه العمليات على حدة وبذا، إذا جاز التعبير، نستطيع أن "نفسر ١٤٩٢". ثم نتحول إلى مشكلة شرح نهضة الرأسمالية وتحكمها السياسى فى أوروبا، أو على نحو أكثر دقة جزء من أوروبا فى الفترة ١٤٩٢-١٦٨٨، محاولين أن نوضح أهمية الاستعمار والعالم غير الأوروبى فى فترة التحولات تلك. وأخيرًا، سنلقى نظرة على أهمية الاستعمار ودور المناطق غير الأوروبية فى المراحل الأولى للثورة الصناعية، تقريبًا فى نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، وسننظر كذلك إلى العملية المكملة: بدايات تأخر أفريقيا وآسيا.

هذا البحث يجب أن يقودنا إلى تفسير الحقيقة الأساسية وهى تمركز الرأسمالية فى أوروبا . أستخدم الفعل "يتمركز" للتأكيد على مجادلة نظرية مهمة فى هذا الكتاب: نهضة النظام الرأسمالى على نحو ما كانت موجودة فى أجزاء عديدة من العالم فيما قبل ١٤٩٢؛ أما بعد ١٤٩٢ فقد دخلت قوى جديدة تسببت فى إبطاء ثم إيقاف تطوره خارج أوروبا بينما زادت من سرعته داخلها. لذا فنهضة الرأسمالية بعد ١٤٩٢ كانت

أمرًا يتعلق بتحويل مقر قيادتها إلى أوروبا كما كان أمرًا يتعلق "بالنهضة" بمعنى تطورى بسيط.

لماذا غزا أمريكا الأوروبيون وليس الأفارقة أو الآسيويون؟

تتعلق واحدة من الخرافات الجوهرية لنظرية انتشار المركزية الأوربية باكتشاف (ما أطلق عليها) اسم أمريكا[١] . عادة ما تسير القصة هكذا: لأن الأوروبيين كانوا أكثر تقدمًا ولديهم حس المغامرة كما توجههم الإنجازات وهم كذلك أكثر حداثة من الأفارقة والآسيويين فى أواخر القرون الوسطى، ولديهم تكنولوچيا فائقة واقتصاد متطور فقد مضوا قدمًا لاكتشاف وغزو العالم. ولذا أبحروا باتجاه الساحل الأفريقى فى منتصف القرن الخامس عشر وعبر الأطلنطى إلى أمريكا فى ١٤٩٢ . تعد هذه الخرافة مهمة بالنسبة لأيديولوچية نظرية الانتشار لسببين: أنها تفسر التوسع الحديث لأوروبا فيما يتعلق بالقوى الداخلية، كما أنها تسمح بأن نعترف بالغزو وتبعاته (حقول التعدين المكسيكية ومزارع الغرب الهندى والمستعمرات فى أمريكا الشمالية إلخ) كان له أهمية عميقة فى التاريخ الأوروبى بدون الاعتراف بأى جميل أو فضل لغير الأوروبيين فى تلك العملية.

فى الحقيقة كان الأوروبيون يفعلون ما يفعله الآخرون فى نصف الكرة الأرضية فى شبكة من المراكز التجارية البحرية فى أوائل الرأسمالية، ولم يكن لهم أى صفات خاصة أو مزايا مثل روح المغامرة الخارقة للعادة أو تكنولوچيا بحرية متطورة وهكذا. ما كان لديهم هو الفرصة: إنه الموقع المتميز بمعنى سهولة الاتصال والوصول للعالم الخارجى. تستحق هذه النقطة أن تصاغ بطريقة أكثر قوة. لو كانت المراكز فى جنوب الهند مثلاً أكثر قدرة على الوصول إلى نصف الكرة الأرضية الغربى من أوروبا، لكان من المحتمل أن تكون الهند هى موطن الرأسمالية وموقع الثورة البورجوازية وحاكمة العالم.

فى أواخر العصور الوسطى كانت الرحلات عبر المحيطات تقوم بها المجتمعات البحرية فى كل مكان. فى القرن الخامس عشر كان الأفارقة يبحرون إلى جنوب شرق آسيا والهنود إلى أفريقيا، والعرب للصين، والصينيون لأفريقيا وهكذا[٢] . ومعظم تلك الرحلات كانت عبر محيط كبير مفتوح وتطلب الكثير منها الاستكشاف. لدينا مثالان غير أوروبيين مشهوران: تشنج هو ورحلاته للهند وأفريقيا فيما بين ١٤١٧ و١٤٣٢ ، ورحلة هندية حول رأس الرجاء الصالح، وحوالى ٢٠٠٠ ميل غربًا باتجاه المحيط الأطلنطى حوالى ١٤٢٠[٣] . فى هذه الفترة كانت دائرة الأسفار تتسع لكونها التطور العام لبدايات الرأسمالية والتوسع فى التجارة والتقدم فى التكنولوجيا البحرية. اختلفت التكنولوچيا البحرية من إقليم لآخر ولكن لم يكن لإقليم معين أى تميز على غيره مما يعنى اضطلاعه بتفوق مميز له عن غيره، كما كانت الأفكار والتقنيات الجديدة منتشرة فى كل الاتجاهات عن طريق الانتشار المتشابك. كان كل نصف الكرة الأرضية مشتركًا فى ثوره مكانية.

أدى نمو الاقتصاد التجارى الأوروبى لرحلات الاستكشاف التى قام بها الأسبان والبرتغاليون بالتأكيد. ولكن كان جوهر العملية هو محاولة المجتمعات الأوروبية اللحاق بالمجتمعات الآسيوية والأفريقية فى بدايات الرأسمالية، حيث كانت المجتمعات الأوروبية على شفا نظام على نطاق نصف الكرة الأرضية كما كانت ما تزال تحاول الخروج من منحدر بالمقارنة بمناطق أخرى فى نفس النظام. كانت الدولة المسيحية الأيبرية(*) فى صراع مع دول المغرب، والمجتمعات التجارية الأوروبية كانت تواجه مشاكل تجارية هناك وفى شرق المتوسط. وكانت هناك استراتيچية واضحة تتلخص فى فتح طريق بحرى لأقاليم الذهب فى غرب أفريقيا مع طريق إبحار معروف منذ القدم واستخدام تكنولوچيا بحرية معروفة لغير الأوروبيين والأوروبيين معًا[٤] . مع أواخر القرن الرابع

(*) أيبيريا : تشير إلى المناطق جنوب وغرب أوروبا تحديداً أسبانيا والبرتغال.

عشر امتدت دائرة الأسفار حتى تم إيجاد طريق بحرى للهند (بمساعدة البحارة الهنود والأفارقة). كما كانت القفزة تجاه المحيط الأطلنطى فى ١٤٩٢ إحدى المغامرات العظمى فى تاريخ الإنسانية بالتأكيد، ولكن يجب النظر إليها فى سياق معرفة تكنولوجية وجغرافية مشتركة، وإمكانية كبرى على النجاح التجارى مع عوامل أخرى تضعها فى منظورها الصحيح فى نصف الكرة الأرضية على أساس أنها أمر يستطيع القيام به غير الأوروبيين مثلهم مثل الأوروبيين.

كان لدى الأوروبيين ميزة واحدة. سهولة الوصول لأمريكا من موانئ أيبيريا أكثر من أى مراكز تجارية بحرية غير أوروبية لديها القدرة على القيام بالرحلات البحرية لمسافات طويلة. كانت سهولة الوصول هى أمر يتعلق بمسافة الإبحار جزئيًا. سوفالا التى من المفترض أنها كانت أهم ميناء جنوبى فى شرق أفريقيا فى تلك الفترة (ربما كان هناك عدد آخر من الموانئ باتجاه الجنوب) كانت تبعد عن أمريكا حوالى ٣٠٠٠ ميل أكثر من جزر الكنارى (نقطة انطلاق كولومبس) و٥٠٠٠ ميل بعيدًا عن أى ساحل يكثر فيه تعداد السكان حيث احتمالات التجارة أو السلب. حتى إن المسافة بين الصين والساحل الشمالى الغربى لأمريكا كانت أكبر بل أكبر كذلك من مجتمعات المكسيك الغنية.

يجب أن نضيف إلى كل هذا ظروف الإبحار فى تلك الطرق المختلفة. فالإبحار من المحيط الهندى للأطلنطى هو إبحار ضد التيار. يعد المحيط الهادى الشمالى عاصفًا ولا يمكن الاعتماد على رياحه. على الجانب الآخر، من جزر الكنارى إلى الإنديز الغربية تهب رياح التجارة ورحلة العودة تتجه ناحية الشمال تجاه الرياح الغربية. من الواضح أن المستكشف لا يملك تلك المعلومات بين يديه عندما يبحر فى بحر غير معلوم. يبقى سؤال محير وهو مدى حجم المعرفة الجغرافية التى امتلكتها مجتمعات الصيد فى الأطلنطى فى القرن الخامس عشر، وهناك تخمين بأن هؤلاء الناس قاموا بالصيد حول نيوفاوندلاند Newfoundland والضفاف العظمى قبل ١٤٩٢ . وعلى نحو أكثر تحديدًا،

استخدم البحارة الأيبريون القادمون من جزر الكنارى وإليها وماديرا والآزور نفس دورة الرياح الأساسية مثلما استخدمها كولومبس فى عبور المحيط؛ لقد عرف كولومبس أن الرياح التجارية (أو الرياح الشرقية) ستساعده خارجيًا وكان لديه سبب وجيه للاعتقاد بأن الرياح الغربية ستساعده فى رحلة العودة. إن المسألة هنا هى مسألة احتمالات قوية. وبشكل عام، هناك احتمالية بأن السفينة الأيبرية قد تجد طريقًا (ذهابًا وإيابًا) إلى أمريكا أكبر من سفينة أفريقية أو أسيويه فى نهاية القرن الخامس عشر، وحتى لو كانت تلك الرحلة تقوم بها الأخيرة، فمن المحتمل جداً أن وصول كولومبس لجزر الهند الغربية قد تسبب فى آثار تاريخية أكبر من وصول سفينة أفريقية للبرازيل أو سفينة صينية لكاليفورنيا.

هل يعد هذا حتمية بيئية؟ لا يختلف الحديث عن البيئية هنا عنه عندما نتحدث عنها مثلاً فيما يتعلق بتأثير حقول البترول على المجتمعات فى الشرق الأوسط. أنا فقط أؤيد الظروف البيئية التى تدعم الإبحار المحيطى لمسافات بعيدة أو تعيقه، وعلى أية حال، لو كان هناك خيار بين تفسير بيئى وآخر يدعى التفوق لمجموعة على ما عداها مثلما تفعل نظرية انتشار المركزية الأوروبية، فنحن حتمًا سنستقر على التفسير البيئى.

قبل أن نترك هذا الموضوع، لا يزال لدينا سؤالان:

أولاً : لماذا لم "يكتشف" الأفارقة فى الغرب أمريكا وهم أقرب إليها من الأيبريين؟ يبدو أن الإجابة تكمن فى أن المراكز التجارية الرأسمالية الأولى فى غرب أفريقيا ووسطها لم يكن لديها اتجاه للتجارة البحرية (كما كان الحال فى شرق أفريقيا). إمتدت طرق التجارة البعيدة من السودان للنيل وللشرق الأوسط وللصحارى وللمغرب والبحر المتوسط وهكذا. وجدت التجارة البحرية على طول الساحل الغربى ولكنها لم تكن على نطاق كبير، مع تسليمنا بوجود الحضارة فى الداخل ووجود الشركاء التجاريين فى الشمال والشرق.

ثانيًا : لماذا فشلت المدن التجارية فى المغرب فى الوصول إلى أمريكا؟ هذا الإقليم (كما أوضح ابن خلدون سابقًا) كان فى حالة ركود سياسى وتجارى. فى ١٤٩٢ كان تحت ضغط الأيبريين والأتراك. وهنا عند هذا المفترق التاريخى فقد هذا الإقليم قدرته على الرحلات الاستكشافية ذات المسافات الطويلة عبر المحيطات. كما أن المدن التى تاجرت مباشرة مع السودان وأقاليم الذهب لم يكن لديها الباعث الاقتصادى الذى كان لدى الأوروبيين لتجنب الطرق فى الصحارى للبحث عن مصدر أرخص للذهب.

لماذا نجح الغزو؟

أصبحت أمريكا مهمة لنهضة أوروبا والرأسمالية بعد أول اتصال بها فى ١٤٩٢ . وفورًا بدأت العملية واتسعت جدًا وقد تطلب هذا تدمير الدول والحضارات الأمريكية ونهب المعادن الثمينة واستغلال العمالة واستعمار أوروبا للأراضى الأمريكية . لو أردنا فهم تأثير كل هذا على أوروبا (والرأسمالية) يجب أن نفهم كيف حدث ولماذا حدث بهذه السرعة، باختصار لماذا كان الغزو ناجحًا؟

هناك سبب حيوى ثان نحتاج أن نفهمه وهو علّيّة الغزو. إن تاريخًا لا يعتمد على نظرية الانتشار يبدأ كل مجادلاته العلّيّة بفرضية عدم امتلاك الأوروبيين أى تفوق فطرى فى أى بُعد ثقافى على غيرهم، لا وجود "لإمكانات هائلة دفينة" مسبقة. هذا يقودنا أولاً إلى الاعتراف بأن الأوروبين فى ١٤٩٢ لم يكن لديهم أى ميزة خاصة على الآسيويين أو الأفارقة سواء أيديولوچيًا، أو اجتماعيًا أو ماديًا. ولكن يتطلب منا هذا أن نقدم نفس الفرضية عن كل المجتمعات الإنسانية. لماذا إذًا اكتشف الأوروبيون أمريكا بدلاً من اكتشاف الأمريكيين أوروبا (أو أفريقيا أو آسيا)؟ ولماذا بعد الاتصال الأول هزم الأوروبيون الحضارات الأمريكية بدلاً من هزيمتهم هم وإبعادهم عن السواحل الأمريكية؟ إنها فرضية الوحدة الثقافية أو – إذا كنت تفضل تسمية أخرى – "الوحدة

النفسية للبشرية" التى تواجه ادعاء الانتشاريين بأن شعوب أمريكا كانوا بدائيين ولا لزوم لهم[٥] .

هناك أسباب عديدة وراء هزيمة الحضارات الأمريكية، ولكن هناك سبب واحد على درجة كبيرة من الأهمية وربما يكون فى حد ذاته سببًا كافيًا. وهو انخفاض عدد السكان بسبب الأوبئة التى كانت منتشرة فى نصف الكرة الأرضية الشرقى التى جلبها الأوروبيون لأمريكا[٦] . سببٌ آخر هو التفوق الأوروبى فى التكنولوچيا العسكرية ولكن يجب النظر لهذه الميزة فى محلها. لم تكن الفجوة التكنولوچية كبيرة حتى تكون فى حد ذاتها هى سبب النصر العسكرى - بعد المعارك الأولى - فى مواجهة جيوش أمريكية أكبر بكثير وتستطيع فى أى وقت تبنّى تكنولوچيا العدو. إن مساحة أمريكا الكبيرة جدًا فى ١٤٩٢ كان بها تعداد سكان كبير يصل إلى ٥٠ مليون فرد على الأقل، بل قد يصل إلى ٢٠٠ مليون ونسبة كبيرة من هؤلاء الناس كانوا يعيشون فى مجتمعات تنظمها دول ذات قدرة عسكرية قوية. كما كانت التكنولوچيا العسكرية يمكن أن تنتشر من معسكر للمعسكر المضاد فى وقت قصير نسبيًا. بالإضافة إلى هذا، فإن تفوق المسدسات البدائية الأسبانية لم يكن عظيمًا مقارنة بسهام وأقواس الأمريكيين، أظن أنه بالتأكيد كانت ستنقلب الأمور ضد الأوروبيين إذا تعلق الأمر بالقدرة العسكرية فقط. لن يكون هناك غزو أو قد يمكن احتواؤه فى مقاطعة محدودة ولن يكتسح جنوبيًا باتجاه الحضارات العظيمة فى وسط الإنديز. إن النقطة هنا هى سير التاريخ فى مسار مختلف بسبب التأثير السريع والقاسى للأمراض الجديدة. وانهارت المقاومة لموت الأمريكيين بسبب الأوبئة حتى قبل أن تبدأ المعارك[٨] . احتمال أن ٩٥٪ من سكان وسط المكسيك كان قد أبيد تمامًا خلال القرن السادس عشر. وحدثت تلك الإبادة مبكرًا مما ساعد على نجاح الغزو السياسى. وكانت هناك على التوازى عمليات أخرى فى أجزاء أخرى فى نصف الكرة الأرضية وخاصة فى أماكن تواجد تكتلات سكانية كبيرة، وكانت فى معظم الأحوال مناطق دول منظمة وحضارات عظيمة. وربما أن حوالى ثلاثة

أرباع تعداد أمريكا كله كان قد تم القضاء عليه فى هذا القرن[٩] . توفى الملايين فى الحرب مع الأسبان والبرتغال وفى مراكز العمالة بالإكراه مثل المناجم فى المكسيك وبيرو، ولكن الأعداد الأكثر ماتت بسبب الأوبئة، مما سهل من القضاء على المقاومة فى معظم المناطق.

يمكن أن نفسر سهولة التقاط الأمريكيين لأمراض نصف الكرة الأرضية الشرقى وضعف مستوى التكنولوچيا العسكرية لدى شعوب نصف الكرة الأرضية الغربى فى ظل ظروف ثقافية تطوريه بسيطة بالرغم من عدم وجود أدلة مباشرة فى هذا الشأن. لم يكن نصف الكرة الأرضية الغربى مقطونًا بالسكان حتى فترة متأخرة من العصر الحجرى القديم؛ هناك خلاف حول الوصول الأول، ولكن معظم الباحثين يرون أن السكان لم يقطنوا الأمريكيتن قبل ٣٠,٠٠٠ سنة قبل العصر الحجرى القديم. لم يعمل المهاجرون الأوائل بالزراعة. سبقت الهجرات الأولى الثورة الزراعية فى نصف الكرة الأرضية الشرقى، بالإضافة إلى أن مصدر تلك الهجرات كان شمال شرق سيبيريا وهى منطقة باردة جداً للزراعة حتى فى الوقت الحاضر، ولا نتوقع أن تلك الثقافات كانت لها تجارب زراعية بدائية منذ ٢٠,٠٠٠ سنه ماضية بالرغم من قيام حضارات أخرى بذلك، وكانت توجد فى مناطق خطوط العرض المنخفضة. كان المهاجرون إلى أمريكا هم صيادو العصر الحجرى يجمعون أى شىء، يصطادون السمك أو حتى القواقع. جاءوا بأعداد صغيرة على فترات متباعدة وانتشروا فى أمريكا الشمالية والجنوبية معًا. وبعد الآلاف من السنين نستطيع القول إن مصادر الصيد وصيد الأسماك والجمع وصيد القواقع كانت تتعرض لتهديد ملحوظ من البشر. نفترض أن النمو السكانى كان بطيئًا – وهذا تخمين بالطبع– ولكن وصل النمو السكانى فى نهاية الأمر إلى المنطقة التى توفرت بها شروط مواتية لثورة زراعية[١٠] . يبدو أن الثورة الزراعية فى نصف الكرة الأرضية الشرقى حدثت (كتغير كيفى) بين ١٠,٠٠٠إلى ١٢,٠٠٠ سنة ماضية. فى نصف الكرة الغربى تم الوصول إليها بعد هذا التاريخ

بأربعة آلاف سنة[١١] . ولذا فالتطور الثقافى فى نصف الكرة الأرضية الغربى تقدم فى مسارات تعتبر موازية تقريبًا لتلك فى نصف الكرة الأرضية الشرقى: تطور المجتمعات الزراعية ومراكز الآثار الاحتفالية والعلم والكتابة والمدن والتركيب الإقطاعى الطبقى ، والتجارة. ويبدو بالفعل أن مجتمعات نصف الكرة الأرضية الغربى كانت تحاول رأب الهوة. ولكن فى ١٤٩٢ كانت ما تزال التكنولوچيا العسكرية فى أكثر الدول تقدمًا وقوة متأخرة عنها فى دول الشرق. كانت المعادن داخلة لتوها فى ذلك الميدان، ولم تكن المسدسات قد اخترعت. ولذا تفوق جيش كورتيز على موكتيزوما وبيتسارو على الإنكا. (عندما وصل كورتيز تينوكتيلتان كان الأزتك يموتون بأعداد هائلة بسبب الأمراض الأوروبية التى التقطها التجار الأمريكيون من كوبا للمكسيك. وبالمثل انهزم الإنكا أمام تلك الأمراض قبل وصول بيتسارو[١٢] .)

سهولة إصابة الشعوب الأمريكية بأمراض نصف الكرة الأرضية الشرقى وتدمير المستوطنات الأمريكية وانهيار الدول والهزيمة والخضوع للأوروبيين يمكن تفسيره من خلال نفس النموذج العام . دخلت أعداد صغيرة أمريكا وربما حملت معها مجموعة من الأمراض التى وجدت فى نصف الكرة الأرضية الشرقى فى ذلك الوقت وقت مغادرتهم. إضافة إلى أنهم جاءوا من مناطق منعزلة بها تعداد سكان صغير ومن أجزاء ذات طقس بارد وربما خلوا من بعض الأمراض المصاحبة للأقاليم الدافئة. وربما الأكثر أهمية من هذا هو تاريخ الأمراض نفسها. ظهرت أمراض كثيرة وأصبحت أوبئة أثناء الثورة الزراعية أو بعدها، وكانت لها علاقة بيئية بالزراعة والمدنية والتغيرات الحيوانية والنباتية فى البيئات المعدّلة بالاستخدام البشرى للأرض وهكذا. فى نصف الكرة الأرضية الشرقى دخلت البشرية تلك البيئات بعد الهجرات الأولى لنصف الكرة الأرضية الغربى، لذا فالاحتمال بعيد بأن تكون تلك الهجرات هى التى نقلت الأمراض معها. ربما فعلت هذا الهجرات المتأخرة (بالرغم من عدم احتمالية هذا أيضًا وذلك

لأنهم قدموا من أماكن باردة ومعزولة من أوروبا وبأعداد صغيرة). ولكن نستطيع أن نفترض أن الاستقرار المتباعد وأسلوب الحياة المعتمد على الصيد والجمع وغياب التجمعات الزراعية والمدنية لآلاف السنين قد يكون السبب وراء اختفاء بعض أمراض نصف الكرة الأرضية الشرقى التى نُقلت إلى أمريكا عن طريق المهاجرين. وبمرور الوقت سيفقد السكان الأمريكيون مناعتهم الفسيولوچية لأمراض لم تعد موجودة بينهم وبالطبع لأمراض جديدة عليهم. من المعروف أن القضاء على السكان فى أمريكا كان بسبب الأمراض التى جاءت من نصف الكرة الأرضية الشرقى، وكان لدى الأوروبيين مناعة كبيرة لها حتى إنهم أصيبوا بتلك الأمراض وشفوا منها لكونها أمراضًا ليست قاتلة لهم.

ولذا لا يوجد حاجة لأن نأخذ الخرافات المتنوعة مأخذ الجد التى تشرح هزيمة الأمريكيين بسبب لاعقلانية مزعومة أو خزعبلات أو أى من الخرافات الكلاسيكية التى هى فى الغالب عنصرية عن الحضارات الأمريكية فى ١٤٩٢ . (أكثر تلك الخرافات شهرة هى تلك الفكرة بأن المكسيكيين تخيلوا كورتيز وجحافله على أنهم آلهة خروا أمامهم فى رهبة بدلاً من محاربتهم. هذا لم يحدث). إن الفرق البسيط نسبيًا فى التكنولوچيا بين المجتمعين وتأثير أمراض نصف الكرة الأرضية الشرقى على مجتمعات نصف الكرة الأرضية الغربى يمكن أن يفسر تاريخ استيطان النصف الغربى من الكرة الأرضية وتبعاته. لم يهزم الأمريكيون؛ لقد أصيبوا بالعدوى.

أوروبا فى ١٤٩٢

فى ١٤٩٢ كان المجتمع الأوروبى يتقدم ببطء خارجًا من الإقطاع ومتجهًا باتجاه الرأسمالية. لم يكن هناك فى الأفق ما يوحى بأن ثمة تغييرًا (جذريًا وثوريًا) على وشك الحدوث أو أن التغيرات الاجتماعية والاقتصادية قد تحدث بسرعة جدًا. لم يكن نمو

تجارة الصوف الإنجليزى فى القرن الخامس عشر (كما تتصوَر دائمًا) علامة على التغيير الاقتصادى الجذرى: فقد تبعها تدهور فى صناعة الصوف فى جنوب أوروبا[١٣] . عكس النمو الريفى فى هذا القرن استرداد السكان عافيتهم (فى بعض المناطق) بعد الأوبئة فى القرون السابقة، كما كانت الزراعة التجارية موجودة منذ بعض الوقت[١٤] . كانت المدن الصغيرة فى نمو ولكن ببطء وكان تعداد السكان فى المدن يعد نسبة صغيرة من التعداد الكلى (ما عدا إيطاليا والدول الجنوبية)؛ كما كان تعداد سكان المدن فى أوروبا أقل منه فى غيرها[١٥] . كما كانت هناك دلائل على التقلص الاقتصادى وليس النمو[١٦] . وبلغة اقتصادية، إن عصر النهضة فى إيطاليا لم يرفع مستوى المراكز الإيطالية على غيرها بما فيها الدول الإسلامية المجاورة (القاهرة، على سبيل المثال)، كما لم يكن عصر النهضة ثورة تكنولوجية بأى حال من الأحوال[١٧] . يجب أن يقال كل هذا حتى نمهد الطريق. قبل ١٤٩٢ كان هناك نمو بطىء فى أوروبا وربما حتى تدهور بالتأكيد – وهذا يقبله أغلبية المؤرخين الأوروبيين – لم يكن هناك أى تغيير جذرى فى الطريق فى ١٤٩٢ .

خلال عقود قليلة بعد ١٤٩٢ ازدادت سرعة معدل النمو والتغيير، ودخلت أوروبا فترة التحولات المضطردة. ليس هناك خلاف حول تلك الحقيقة التى ينظر إليها فى ضوء إحصائيات بشأن الأسعار والنمو الحضرى وغير هذا الكثير[١٨] . إن ما يوجد بشأنه خلاف هو العلاقة السببية بين تغييرات القرن السادس عشر الضخمة تلك وبدايات الاستغلال الاقتصادى فى أمريكا (وفى أفريقيا وآسيا). وهناك اتفاق على أن الأثر كان عميقًا. ولكن هل حقًا أدى إلى تحول كيفى فى اقتصاد أوروبا؟ أو هل قام بالإسراع المفاجئ لعملية كانت بالفعل فى طريقها للتبلور؟ أو هل أدى إلى تعديل بسيط فى تلك العملية من خلال نتائج مثل التضخم؟ لا يمكن الإجابة على هذا السؤال إلا إذا خرجنا من التاريخ النفقى الأوروبى ونظرنا إلى ما كان يعتمل فى أمريكا وآسيا وأفريقيا فيما بين ١٤٩٢و ١٦٨٨، التاريخ الرمزى لثورة أوروبا البرجوازية.

الاستعمار ونهضة أوروبا ١٤٩٢ - ١٦٨٨

الاستعمار والرأسمالية فى القرن السادس عشر

كانت المغامرة فى الأمريكتين تتعلق منذ البداية بجمع رأس المال: أى الربح. هذا ولا غضاضة فى إقحام بعض مواد قانون العصور الوسطى فى نظم منح الأرض القانونية (للأوروبيين) فى العالم الجديد وفى أن تأخذ الحكومات الأيبرية قسمًا كبيرًا مبالغًا فيه، من الأرباح. كان هدف كل الأفراد الأوروبيين المضطلعين بهذا المشروع، باستثناء رجال الدين، هو جمع المال لنفسه ودولته (وعادة ما كان لنفسه) .

كان الفريق القائد فى كل مكان هم الرأسماليين الأوائل، ليس التجار فقط بل المشتغلون بالصناعة وأصحاب الأرض الذين يحركهم جمع المال أيضًا، وليس الأيبيرين فقط بل الإيطاليون وشعب الفلاميش (أو الفلاندز(*)) والهولنديون والألمان والإنجليز وغيرهم.

أخذت تلك الطبقة الأرباح من المشاريع فى أمريكا واستثمرت جزءًا منها فى أوروبا من خلال شراء الأرض وتطوير الزراعة التجارية والصناعات (مثل بناء السفن وتكرير السكر، وغيرها) التى كانت مرتبطة بالمشروع الاستعمارى المتنامى، وكذا تطوير الأعمال المدرة للربح فى مجالات لخدمة الاقتصاد الأوروبى (على سبيل المثال مناطق صيد الأسماك الوفيرة فى المحيط الأطلنطى) وبناء مجتمعات حضرية، وهكذا. جزء من هذا الربح كان يعود لدعم مشاريع استعمارية أخرى فى أمريكا، وفى مشاريع تجارية فى آسيا، وأفريقيا، ومنطقة شرق البحر المتوسط. أحد الجوانب الخفية فى تلك العملية كانت الزيادة الهائلة فى مشتريات التجار الأوروبيين فى كل الأسواق داخل

(*) الفلاندز : أحد الشعوب الجيرمانية التى قطنت شمال بلجيكا.

أوروبا وخارجها على أساس أن هؤلاء التجار يمتلكون كميات كبيرة من المعادن الثمينة أو الأموال ويستطيعون الشراء بأسعار لم يسمع بها من قبل. ربما كان نصف الذهب والفضة من أمريكا في القرن السادس عشر مُهرّبًا بطريقة غير قانونية ولذا توفر مباشرة لتلك النوعية من المشاريع ولكن الباقي، بعد المرور عبر الجمارك، يدخل دائرة التداول حيث دفعت الحكومات الأيبرية الفضة والذهب مقابل البضائع والخدمات(١٩) .

أنتج المشروع الاستعماري في القرن السادس عشر رأس مال بطرق عدة؛ الأول: هو التنجيم عن الذهب والفضة. والثاني: هو الزراعة وبالأساس في البرازيل. والثالث: كان التجارة مع آسيا في التوابل، والأقمشة وغيرها. والرابع والأقل أهمية: هو الأرباح العائدة إلى المستثمرين الأوروبيين من مجموعة متنوعة من المشاريع التجارية الإنتاجية في الأمريكتين بما فيها ربح الإنتاج المخصص للاستخدام المحلي في المكسيك وبيرو وأماكن أخرى؛ والربح من بيع البضائع المستوردة من أوروبا، والربح من مجموعة متنوعة من المواد التصديرية الثانوية من أمريكا (الجلود والأصباغ...الخ)، والربح من بيع الأرض في أمريكا، والربح العائد لأوروبا عن طريق العائلات والشركات المالكة لمنح الأرض في المكسيك ومناطق أخرى. خامساً: كانت العبودية. وسادساً: القرصنة. لاحظ أن كل ذلك هو تراكم رأس مالي عادي؛ ليس أي منها هو الشيء الغامض الذي يطلق عليه " التراكم البدائي" ٢٠ . (قيمة أجر العمالة، ولا داعي لذكر العمالة بالإكراه والكثير منها كان قيمة من الإنتاج وليس من التجارة.) كان التراكم من تلك المصادر هائلاً. كان هائلاً لدرجة أن تلك العملية لا يمكن النظر إليها على أنها نتيجة ثانوية للتراكم الرأسمالي الأولي في أوروبا نفسها، وقد كان هائلاً لدرجة، أنا اعتقد، أنها قادرة على دفع عجلة عملية تغيير كبرى في أوروبا وسطوع قوة الطبقة البرجوازية، وازدهار الرأسمالية قبل الصناعية بطريقة سنناقشها فيما بعد.

المعادن الثمينة

نلاحظ أولاً تصدير الذهب والفضة من الأمريكتين وإدخاله في دوائر اقتصاد السوق في نصف الكرة الأرضية الشرقي الذي يمثل فيه الذهب والفضة بالفعل مقياس القيمة الشائع بطريقة مباشرة وغير مباشرة في كل الأسواق تقريبًا. بدأ تدفق المعادن الثمينة بعد الاكتشاف الأوروبي لأمريكا مباشرة، ومع حلول ١٦٤٠ كان معروفًا أن مائة وثمانين طنًا من الذهب وسبعة عشر ألف طن من الفضة على الأقل قد وصلت أوروبا[٢١] . (الأرقام الحقيقية يجب أن تكون ضعف تلك الكميات على الأقل حيث إن وسائل التسجيل كانت فقيرة في بعض المناطق والفترات وحيث إن التهريب لعب دوراً مهمًا[٢٢]). جاءت كميات إضافية من الذهب من الأنشطة الاستعمارية في أفريقيا. في الفترة ما بين ١٥٦١- ١٥٨٠ جاء حوالي ٨٥٪ من إجمالي إنتاج العالم للفضة من الأمريكيتين. أما الكمية البسيطة من الذهب والفضة والمتداولة في اقتصاد نصف الكرة الأرضية الشرقي ككل تأثرت بشدة: وصل مخزون الفضة ثلاثة أضعاف وزاد مخزون الذهب ٢٠٪ خلال القرن السادس عشر نتيجة للسبائك المجلوبة من أمريكا[٢٣] . توحي إليّ حقيقة أن معظم المخزون الموجود بالفعل قد تجمد في استخدامات لا تسمح بطريقة مباشرة أو غير مباشرة بتحويله إلى أموال . أو إلى أن السبائك الأمريكية قد تكون ضاعفت من إمداد الأموال على أساس الذهب والفضة في نصف الكرة الأرضية الشرقي ككل. (في أوروبا زاد تداول العملات المعدنية ثماني أو عشر أضعاف خلال القرن[٢٤]). يجب النظر لتلك العملية في هذا السياق: إنها أموال تتدفق باستمرار وبكميات كبيرة إلى أوروبا، وفي أوروبا ومنها إلى آسيا وأفريقيا، ودائمًا ما يعاد تزويدها في مناطق الدخول (سيفيل، أنتورب، جنوه، الخ) بإمدادات أمريكية ودائمًا ما كان يسمح لمن يملكها بأن يقدم أسعارًا أفضل لجميع السلع - بالإضافة إلى العمالة والأرض - في جميع الأسواق أكثر من أي شخص آخر في أوقات سابقة.

إن أهمية تدفقات الذهب والفضة تلك عادة ما يتم التقليل من قيمتها بين الباحثين وذلك لأسباب ثلاثة (بعيداً عن نظرية الانتشار الضمنية، والاتجاه لتقليل قيمة الأحداث السببيه فى المناطق غير الأوروبية).

أولاً : ينظر إلى العملية على أنها تراكم بدائى إلى حد ما. ولكن كان العمال هم الذين ينقبون عن المعادن وهم الذين ينقلونها؛ تطلب المشروع ككل مغامرة برأس المال وكل صفات المشاريع الإنتاجية فى أوائل الرأسمالية التى ميزت هذا الوقت (تحكم الدول جزئيًا فى تلك العملية لا يغير من المجادلة فى شىء وكذلك حقيقة أن بعض العمالة كانت غير حرة)؛ كما كانت أنظمة اجتماعية واقتصادية كبيرة تبنى حول المناجم نفسها فى المكسيك وبيرو وأجزاء أخرى فى أمريكا.

ثانيًا : المجادلة بأن المعادن الثمينة تتدفق بكميات هائلة وبالتالى أثَّرت على الاقتصاد الأوروبى يتم طرحها جانبًا من قبل بعض الباحثين على أساس أنها "مالية" (تقريبا هى النظرية القائلة بأن التغيرات فى الأموال فقط هى الحيوية بالنسبة لإحداث تغييرات فى الاقتصاد كله). الخطأ فى هذا الاتهام هو الفشل فى النظر إلى اقتصاد القرن السادس عشر فى سياقه الاجتماعى والجغرافى وإلصاق صفة سيولة التبادل لاقتصاد ذلك الوقت بالإضافة إلى العجز النسبى فى الاحتكاك المكانى الذى يميز الاقتصاد الرأسمالى فى وقتنا الحاضر. هنا توجد حقيقتان أساسيتان:

أولاً : امتلاك المعادن الثمينة كان محليًا فى المكان. فقد حصلت عليه جماعة التجار الأوروبيين ونقلته خارجيًا باتجاه الريف الأوربى وباتجاه أسواق خارج أوروبا.

ثانيًا : كان إمداد المعادن الثمينة مستمراً، فامتلاك الرأسماليين الأوروبيين الأوائل لأسعار السلع والعمالة والأرض التى كانت دائمًا أعلى من أسعار منافسيهم فى أى مكان آخر. ولذا فقد قلل المجتمع الرأسمالى فى بدايته من شأن المنافسة فى كل الأسواق فى نصف الكرة الأرضية الشرقى، داخل أوروبا وخارجها، وتدريجيًا

امتلك السيطرة على معظم التجارة البحرية الدولية فى معظم المراكز التجارية البحرية من سوفالا إلى كلكتا وإلى ملقه[٢٥] . لم يكن اختراق تلك الأسواق وكسب قواعد تجارية والتحكم فى بعض المناطق الصغيرة ولكن المهمة تجارياً (مثل بعض جزر مولكاس) يتعلق برشد الأوروبيين أو ولعهم بالمغامرة، ولكن على العكس فهو انعكاس لتوفر الذهب والفضة الأمريكية لديهم وشحنها بالسفن إلى داخل لشبونه وأنتورب وأكابولكو (فى السفن الأسبانية الضخمة التى استخدمت منذ القرن الخامس عشر وحتى السابع عشر) وهكذا.

هناك نوع ثالث من الشك بأهمية الذهب والفضة الأمريكية وارتباطها بنقد النظرية الكلاسيكية لإيرل هاميلتون وهى أن إمدادات المعادن الثمينة أنتج عدم توازن بين عوامل الإنتاج فى الاقتصاد الأوروبى وأدى هذا إلى هبوط الأرباح وبالتالى إلى زعزعة الاستقرار فى الاقتصاد ودفعه باتجاه الرأسمالية[٢٦] . كان هاميلتون واحداً من المؤرخين الاقتصاديين القلائل الذين أدركوا أهمية الذهب والفضة الأمريكية على أنها السبب الأساسى وراء التغيير فى أوروبا بالرغم من كونه مخطئًا (جزئيًا) فى الآليات التى أدت إلى هذا التغيير. لم تغير المعادن الاقتصاد بأى معنى مباشر. ولكنها أثرت الطبقة الرأسمالية الأولى وأعطتها القوة للإسراع بعملية التحول التى كانت قد بدأت بالفعل- ليس فى أوروبا فقط - باتجاه الرأسمالية كنظام اجتماعى وسياسى، مع منع الرأسماليين من غير أوروبا بالمشاركة فى تلك العملية. أسرعت السبائك الأمريكية بنهضة الرأسمالية، كما كانت مهمة فى العملية التى أصبحت عن طريقها متمركزة فى أوروبا.

المزارع

كان تأثير استخدام العبيد فى المزارع على الاقتصاد الأوربى ملموسًا فى القرن السابع عشر وما بعده. ولكن جزءًا من التقليل من أهمية الاستعمار - استعمار العالم

خارج أوروبا – هو الاتجاه لغض الطرف عن أهمية نظام المزارع حتى فى القرن السادس عشر. بالإضافة إلى أن التاريخ القديم لاقتصاد زراعة السكر فى الأطلنطى يعطينا صورة كاشفة عن الطريقة التى كان بها الاقتصاد الإقطاعى يتآكل أمام الاقتصاد الاستعمارى فى بداية الرأسمالية. لم تكن زراعة السكر مغامرة جديدة؛ فالسكر (على عكس الخرافة) لم يكن سلعه نادرة، وزارعة السكر (أيضًا على عكس الخرافة) لم تكن تطفلاً اقتصاديًا غير مهم على حافة التطور الرأسمالى. وجد إنتاج قصب السكر التجارى والإقطاعى فى البحر الأبيض المتوسط فى القرن الخامس عشر[٢٧] . بالرغم من أن القليل هو المعروف عن طريقة تنظيم الزراعة، فمن المعروف أن إنتاج السكر التجارى كان مهمًا فى الهند منذ ألفى سنة (إبان إمبراطورية موريان فى الهند)، بالإضافة إلى أن زارعة السكر فى العصور الوسطى فى ظل نظم إقطاعية وربما أيضًا فى بدايات الرأسمالية كانت موجودة فى شرق أفريقيا وجزء من غرب أفريقيا والمغرب ومصر وقبرص وإقليم شرق المتوسط وأجزاء أوروبية متفرقة فى البحر الأبيض المتوسط وأقاليم أخرى[٢٨]. لم يكن قصب السكر سلعة مهمة فى شمال أوروبا، وذلك بسبب سعره، بعكس العسل. نقل الأوروبيون أولاً نظام الزراعة التجارى خارجيًا إلى جزر الأطلنطى المستوطنة حديثًا من ماديرا إلى ساو توما ثم توسعت فى الإنتاج فى الأمريكتين . ولكن أثناء القرن السادس عشر حلّت المزارع الجديدة محل أقاليم إنتاج السكر فى البحر المتوسط، أما الإنتاج الكلى للسوق الأوروبى المتوسطى فلم يرتفع إلا مؤخرًا[٢٩] . كان هذا إحلالاً للإنتاج الرأسمالى محل الإقطاعى وشبه الإقطاعى بالنسبة لإنتاج المزارع، وفى هذا كان هناك استغلال لميزتين من مزايا الاستعمار: الأرض الخالية والعمالة الرخيصة. لم تكن هناك صناعة أخرى على نفس درجة الأهمية مثل نظام المزارع بالنسبة لنهضة الرأسمالية قبل القرن التاسع عشر.

فى ١٦٠٠ قامت البرازيل بتصدير حوالى ٣٠,٠٠٠ طن سكر محققة مبيعات بقيمة ٢,٠٠٠,٠٠٠ جنيه إسترلينى. يعد هذا ضعف القيمة السنوية الكلية لكل صادرات إنجلترا للعالم كله فى تلك الفترة ٠ . سنتذكر أن الصادرات الإنجليزية فى تلك الفترة وبالتحديد الصوف كانت تعتبر مثالية "لشحذ" أو "نهضة" أوروبا الحديثة. أيضًا فى ١٦٠٠ كانت العائدات للفرد من السكر فى البرازيل، وهذا للجميع ما عدا الهنود، مساوية لدخل الفرد فى بريطانيا فى أواخر ذلك القرن[٣١] . وكان معدل التراكم فى صناعة المزارع البرازيلية مرتفعًا فى نهاية القرن السادس عشر، وكما كانت قادرة على ضخ رأس مال يكفى لمضاعفة قدرتها كل عامين[٣٢] . فى أوائل القرن السابع عشر قام المجتمع الهولندى الرأسمالى (الذى كان مضطلعًا بمشروع السكر البرازيلى فى أمور الشحن والبيع) بحساب معدلات الأرباح فى تلك الصناعة وقد كانت ٥٦٪ فى السنة أى بما يعادل١,٠٠٠,٠٠٠جنيه إسترلينى سنويًا. حتى قبل هذا كان معدل الأرباح مرتفعًا، وفى نهاية القرن السادس عشر ارتفعت تكاليف الإنتاج بما فيها تكاليف شراء العبيد إلى خمس الدخل من مبيعات السكر. يجب أن ننظر إلى هذه الإحصائيات فى ظل خلفية صناعية لم تكن تستجيب لطلب جديد لمنتج جديد فى أوروبا التى كانت تنهض بالفعل، ولكنها ببساطة كانت (فى جوهرها) تحاول أن تضعف شوكة منتجى البحر المتوسط القبل رأسماليين فى أسبانيا وإيطاليا والمغرب ومصر وفى كل مكان فى قدرتهم على توفير منتج تجارى مهم.

بالطبع يعد السكر هو قلب نظام المزارع حتى أواخر القرن الثامن عشر. ولكن أنواعًا أخرى من الإنتاج الاستعمارى ليست فقط زراعية وقريبة من الرأسمالية مثل نظام المزارع البرازيلى كانت على قدر من الأهمية حتى قبل نهاية القرن السادس عشر. كان هناك على سبيل المثال، بعض الإنتاج المباشر للتوابل فى جزر مولكاس كما كانت هناك شراكة بين الأوروبيين والتجار والرأسماليين الهنود فى تنظيم إنتاج الفلفل

فى جنوب الهند. كانت الأصباغ، والتبغ، ومنتجات تجارية مهمة أخرى تتدفق من أمريكا لأوروبا. وُجد اقتصاد زارعى ضخم فى أجزاء من أمريكا لإمداد المستوطنات بجانب المناجم وغيرها بالغذاء والألياف والجلود وضروريات أخرى. ومباشرة بعد ١٤٩٢ (أو قبل ذلك؟) طور صيادو أوروبا الغربية وصائدو الحيتان صناعة هائلة فى إقليم نيوفوندلاند(*) على طول الساحل الشمالى الأمريكى.

لكل هذا يجب أن نضيف الأرباح من الأنواع الأخرى من الأنشطة الاستعمارية وشبه الاستعمارية فى نصف الكرة الأرضية الشرقى[٣٣] . كانت تجارة العبيد مربحة جدًا حتى فى القرن السادس عشر. فى جميع الدول الأوروبية كان التاجر الرأسمالى يحقق أرباحًا طائلة من تجارة لشبونة مع آسيا وشرق أفريقيا فى الأقمشة والتوابل خاصة (حملت التوابل الآسيوية بواسطة البرتغاليين وبيعت فى أنتورب (مدينة فى بلجيكا) وهى لم تحل محل التدفق المتوسطى التقليدى ولكنها أضافت إليه محققة زيادة فى مصدر مهم وجديد). بالإضافة إلى هذا كان هناك ربح ملحوظ من التجارة الآسيوية الداخلية نتيجة سيطرة التجارة المحيطية ذات المسافات الطويلة فى شرق أفريقيا والهند وجنوب شرق آسيا عن طريق البرتغال (وبمشاركة أسبانيا ثم هولندا بعد ذلك). وعمومًا فإن التراكم المبنى على الأنشطة الاستعمارية فى نصف الكرة الأرضية الغربى كان يفوق بكثير نظيره فى نصف الكرة الأرضية الشرقى الاستعمارى وشبه الاستعمارى فى القرن السادس عشر. إن الأهمية الكمية فى هذا القرن للتجارة والإنتاج فى المناطق الاستعمارية وشبه الاستعمارية والأرباح الطائلة التى يحققها المشروع، أى التراكم السريع لرأس المال الذى يعزز مباشرة و(فى أوروبا) غير مباشرة يضيف إلى قوة موجهة مهمة قادرة بسهولة على تغيير عملية التحول الاقتصادى فى أوروبا من التطور البطىء إلى الثورة المضطردة.

(*) Newfoundland : مقاطعة كبيرة فى شرق كندا.

النتائج

يبدو أن هناك طريقتين بالإضافة إلى التجارة والقرصنة لتقييم الأهمية الحقيقة للإنتاج الاستعمارى أثناء نهضة الرأسمالية فى القرن السادس عشر فى أمريكا وفى آسيا وأفريقيا.

إحدى هذه الطرق هى تقصى الآثار المباشرة وغير المباشرة للاستعمار على المجتمع الأوروبى باحثين عن تنقلات البضائع ورأس المال وتدفقات العمالة فى الصناعات والأقاليم التى وجدت بسبب المشروع الاستعمارى، وكذلك النظر إلى الطريقة التى ازدهرت بها المدنية فى تلك المدن التى انخرطت فى المشروع الاستعمارى (وبوجه عام الدول غير الأوروبية) أو التى هى على علاقة وطيدة به. سوف نختبر تلك العمليات فى علاقتها مع التغيرات الكلية التى حدثت فى أوروبا فى ذلك القرن، لتحديد ما إذا كانت التغيرات فى أوروبا نفسها نتجت من التأثير المباشر وغير المباشر لأنشطة غير أوروبية وكانت هى السبب الأساسى وراء التغير الاجتماعى والاقتصادى. يبدو أن تلك المهمة لم يضطلع بها أحد حتى الآن. أما الطريقة الثانية فهى محاولة الوصول إلى حساب كلى لكم العمالة (الحرة وغير الحرة) التى وظفت فى المشاريع الأوروبية فى أمريكا وأفريقيا وآسيا، بالإضافة إلى العمالة فى أوروبا نفسها والتى وظفت فى أنشطة قائمة على أساس مشاريع خارج أوروبا، ثم النظر إلى تلك الكميات فى ضوء سوق العمالة الكلى فى أوروبا بالنسبة للأنشطة الاقتصادية التى يمكن اعتبارها مرتبطة بنهضة الرأسمالية. لم يقم أحد بهذه المهمة أيضًا، حقًا، حسب علمى درست أبحاث قليلة القوى العاملة فى القرن السادس عشر وأسواق العمالة فى المستوطنات الأمريكية أو بالأحرى فى أوروبا. إذًا فالفرضية هى فيما يتعلق بأهمية الاستعمار فى القرن السادس عشر (وما يتعلق به من أنشطة خارج أوروبا) بالنسبة لنهضة الرأسمالية فى أوروبا، ربما لا نستطيع بعد القيام بهذا الاختبار.

لكن ما زال لدينا دلائل مقتَرَحة. بعضها تم ذكره بالفعل: أمور تتعلق بشأن تقييم كميات وقيمة الصادرات الاستعمارية لأوروبا. نستطيع كذلك أن نخمن فيما يتعلق بالعمالة. أحد المناهج يتم عن طريق تعداد السكان. إن تعداد سكان أسبانيا والبرتغال في منتصف القرن السادس عشر كان حوالي تسعة ملايين[٣٤] . أما التقديرات التي تخص تعداد السكان في أمريكا في القرن السادس عشر فهي متنوعة، وهناك اختلاف حول مستويات ومعدلات الهبوط في التعداد السكاني[٣٥]، ولكن لخدمة أغراض المجادلة المنهجية الحالية سأتجاهل تلك الخلافات وسأقبل بالتقديرات العالمية. كان تعداد سكان المكسيك في منتصف القرن حوالي ستة ملايين، وكان يمر بفترات هبوط مستمرة عن مستواه قبل الغزو الذي ربما كان ثلاثين مليون إلى أن وصل إلى ١/١٠ هذا الرقم (أو ربما أقل) في ١٦٠٠[٣٦] . تعداد السكان في إقليم الإنديز المشتغلين في إنتاج الأقمشة والمعادن للأسبان قد (وأنا أخمن هنا) يكون وصل إلى خمسة ملايين في نهاية القرن السادس عشر. وقد نضيف مليونين لتعداد سكان أجزاء أخرى في إيرو- أمريكا(*) التي كانت تحت السيطرة الأوروبية وربما انخرطت بشكل ما في الاقتصاد الأوربي. دعونا نستخدم إذًا تقديرًا جزافيًا وهو ثلاثة عشر مليونًا للتعداد السكاني الأمريكي الذي كان قوة داعمة للاقتصاد الأوروبي في منتصف وحتى أواخر القرن السادس عشر. يبدو أن تعداد السكان كان أكثر منه في أيبريا.

وإذا سلمنا بهذا فإن المقارنة يجب أن تكون مع جزء أكبر من أوروبا بما فيها الإقليم الشمالي الغربي في أوروبا الذي كان متورطًا في عملية استغلال أمريكا (وآسيا) في تلك الفترة، مع أجزاء من إيطاليا ودول أخرى. لنفترض إذًا أن الرقم هو عشرون مليونًا لأوروبا مقابل ثلاثة عشرة مليونًا لأمريكا.

(*) إيرو - أمريكا : مصطلح استخدم في النصف الثاني من القرن التاسع عشر للإشارة إلى المناطق الأمريكية التي كانت مستعمرات أسبانية وبرتغالية في السابق.

لا أرى سبباً أن أجادل بأن السكان الأوروبيين كانوا مضطلعين فى عملية نهضة الرأسمالية أكثر من الأمريكيين، أى الثلاثة عشر مليونًا الذين نفترض وجودهم فى الأقاليم الخاضعة للسيطرة الأوروبية. من المحتمل أن نسبة السكان الأميركيين الذى اعتبروا عمالة لدى الأوروبيين، أى عمالة مقابل أجر، عمالة مجبرة بما فيها العبيد وكذلك العمال الزراعيون الذين يقدمون البضائع على أساس أنها ضريبة أو إيجار عينى لم تكن تلك النسبة أقل من نسبة الشعب الأيبرى الذى عمل فى القطاعات التجارية فى الاقتصاد الأسبانى والبرتغالى. بالإضافة إلى أن مستوى الاستغلال للعمالة الهندية كان أعلى بكثير من العمالة الأيبرية، وذلك لأن أعداداً كبيرة من العمالة الهندية كانت تجبر على العمل حتى الموت فى تلك الفترة - وكانت قلة عدد السكان بسبب العمالة بالإكراه جزئيًا- ولذا فإن رأس المال الذى يجلبه كل عامل أمريكى كان يجب أن يكون أعلى من ذاك الذى يجلبه العامل الأوروبى (نحتاج أن نذكر أنفسنا مرة أخرى أننا نتعامل مع اقتصاد العصور الوسطى القبل صناعى فى أوروبا. لا يمكن أن نجادل، على سبيل المثال، أن التكنولوچيا أو رأس المال الثابت فى الإنتاج كان أكثر تطوراً فى استخدام العمالة الأوروبية أكثر من العمالة الأمريكية، لذا فالاستغلال فى التحليل الأخير هو وظيفة الجهد الإنسانى).

يجب بعد ذلك أن نأخذ بعين الاعتبار حقيقة أن تراكم رأس المال بسبب عمالة الأمريكيين اتجه مباشرة إلى القطاعات الاقتصادية فى أوروبا التى كانت تبنى الرأسمالية بينما معظم العمال والفلاحين فى أوروبا كانوا ما يزالون مرتبطين باقتصاد العصور الوسطى. بعد ذلك يجب أن نضيف عمالة الأفارقة والآسيويين. وأخيراً يجب أن نأخذ فى الاعتبار العمالة الأوروبية فى أوروبا وغيرها التى ينبغى أن نعتبر عملها جزءاً من الاقتصاد خارج أوروبا. فى ضوء هذا التفكير التأملى كانت العمالة الحرة وغير الحرة فى الاقتصاد الاستعمارى وشبه الاستعمارى فى أواخر القرن السادس عشر توفر الفائض ورأس المال للرأسمالية الأوروبية فى بدايتها ونهضة الطبقة البرجوازية كما كان الوضع بالنسبة لعمال أوروبا نفسها.

القليل هو المعروف عن القوة العاملة الأمريكية في القرن السادس عشر ولكن أيضًا يمكن أن نقوم ببعض التكهنات. أكد لاس كاساس أن ثلاثة ملايين أو أكثر من الهنود كان مستعبدين لدى الأسبان في الجزء الشمالي من أمريكا الأسبانية خلال النصف الأول من القرن السادس عشر، وهذا الرقم إذا كان قد استبعد فيما سبق فإننا الآن نأخذه مأخذ الجد[٣٧] . من المعروف أن أكثر من أربعمائة ألف عبد كانوا في نيكاراجوا وحدها[٣٨] . وقد عرفنا كذلك أن الهنود العبيد كانوا أكثر أهمية في الاقتصاد الأووربي الأمريكي في تلك الفترة في زراعة السكر البرازيلي والتعدين في أواسط أمريكا وجزر الأنديز وفي مناطق غيرها. دعونا نتكهن بأن مئة ألف هندي كانوا يعملون كعبيد للأسبان في سنة معينة في منتصف القرن السادس عشر. وربما كان عشرون ألف هندي يعملون أحرارًا أو كعمال بالإكراه في مناجم المكسيك والإنديز في الجزء الأخير من هذا القرن[٣٩]، كما أنه من الممكن أن نفترض أن خمسة أضعاف هذا الرقم كانت تعمل في اقتصاد التعدين ككل. كانت مدينة بوتوسي وهي مدينة في جزر الإنديز بها مناجم فضة هائلة كان تعداد سكانها مئة وعشرين ألفا في سبعينيات القرن السادس عشر ١٥٧٠ (أكبر من باريس وروما ومدريد وسيفيل). هناك رقم أكبر وهو غير معروف للعمال الهنود في الإقطاعيات والمشاريع الأوروبية الأخرى، أو أنهم كانوا عمالة مجبرة لفترات معينة أو قدموا الضريبة أو الإيجار العيني. (كان في نظام العمالة كورتيز(*) في المكسيك خمسون ألف هندي)[٤٠] . ربما كان هناك مائة ألف من العبيد الأفارقة في أمريكا وعلى جزيرة ساوتومي في السنوات الأخيرة من القرن[٤١] . وربما كان هناك ثلاثمائة ألف من الأوروبيين والخلاسيين(**) والميستيزوس(***) في أمريكا في ١٥٧٠[٤٢] الذين كان من بينهم مئتان وخمسون ألف عامل.

(*) كورتيز: نظام عمالة أدخلهُ التاج الأسباني أثناء الاستعمار الأسباني لأمريكا لتعزيز غزواتهم.

(**) الخلاسيين: الشخص الأفريقي القوقازي.

(***) الميستيزوس: الشخص ذو الخلفية العرقية المختلطة (في أسبانيا والمكسيك).

ربما يكون من المعقول أن نقدر أن مليونًا من الناس كانوا يعملون فى الاقتصاد الأوروبى فى نصف الكرة الأرضية الغربى فى السنوات الأخيرة من القرن السادس عشر، وربما كان النصف منهم عمالة منتجة فى مشاريع رأسمالية صرفة. هل يمكن أن يكون هذا أكثر من العمالة الأوروبية فى أوائل الرأسمالية فى ذلك الوقت؟ كل هذا يعد ضربًا من التخمين ولكنه يتجه بنا باتجاه أن القوى العاملة الأمريكية كانت جزءًا هائلاً من القوة العاملة الكلية ولهذا يجب أن نضيف ثلاثة فئات: العمالة المشتغلة فى تجارة العبيد داخل أفريقيا[٤٣] ؛ العمالة فى أقاليم خارج أوروبا (ساوتومى وترنات وكاليكت وهكذا) التى اندمجت فى الاقتصاد الأوروبى وأنتجت بضائع للتجارة مع الأوروبيين، وعمالة من الأوروبيين داخل وخارج أوروبا التى كانت جزءًا من الاقتصاد خارجها: البحارة والجنود ومحملو السفن ومفرغوها وسائقو الشاحنات أو الخيل أو الثيران والموظفون وكبار العمال وغيرهم.

مع نهاية القرن السادس عشر كانت نهضة أوروبا قد بدأت. وبينما تدفق رأس المال فى أوروبا وباقى آثار المشروع الاستعمارى ظهرت سببية ثانوية بما فيها من التوسع والتحول الزراعى والتصنيع الأولى والمدنية وتوسع المستوطنات الريفية والاقتصاد التجارى. تم النظر إلى تلك الأسباب فى إطار نظرية التاريخ النفقى ونتيجة لهذا ظهرت نهضة أوروبا فى القرن السادس عشر وكأنها عملية حدثت فى أوروبا وسببتها قوى محلية . كما رأينا سابقًا هذه صورة غير دقيقة وغير كاملة. كان التحضر موجودًا ولكن فى أماكن مرتبطة بالاقتصاد خارج أوروبا. كما كان التضخم أيضًا (مع بعض الشروط) قاسيًا فى تلك المناطق[٤٤] .

من بين قطاعات الاقتصاد الأوروبى التى كانت تنمو فى القرن السادس عشر قطاعات مثل القرصنة وبناء السفن، كانت على ارتباط مباشر بالاقتصاد الأوروبى خارجها، بينما قطاعات أخرى مثل إنتاج القمح والصيد فى شمال الأطلنطى فقد أسهم هذا الاقتصاد بتحفيزها بطرق مباشرة أو غير مباشرة[٤٥] .

سأقدم التعميم التالى: الظروف المبدئية فى بداية القرن السادس عشر هى أن الاقتصاد الأوروبى فى الوسط والغرب كان يمر بفترة تغيير بطيئة ومحدده باتجاه الرأسمالية كما فى أقاليم أخرى كثيرة فى آسيا وأفريقيا. فى ذات الوقت تسللت قوى جديدة داخل النظام الأوروبى، كالعمليات المؤثرة على الحدود، بسبب غزو أمريكا وغيرها من الأحداث الخارجية، تضمنت تلك العمليات فى الأساس منتجات رأسمالية ومادية (وبالطبع العمالة). وتقاطعت تلك الأمور مع التغيرات الاقتصادية والتكنولوچية والديموغرافيه وغيرها. وقد أظهرت تغيرات عديدة ليس نتيجة التحفيز المباشر من العالم الخارجى غير الأوروبى ولكن من التغيرات الموجودة بالفعل التى تعد هى نفسها نتائج العمليات التى تحدث خارج أوروبا. وقامت التغيرات الداخلية الأوروبية بتكثيف تلك العمليات فى أمريكا وآسيا إلخ التى بدورها تنتج تغييرات أخرى داخل أوروبا.

نستطيع أن نرى نموذجًا جغرافيًا فى كل هذا. هناك اتجاه ناحية تغييرات اقتصادية كبيرة تحدث أولاً بالقرب من المراكز التجارية البحرية التى تشارك فى العمليات خارج أوروبا. ومن الواضح أيضًا أن كل المراكز التى وجدت فى ١٤٩٢ لم تكن مشاركة بالتساوى فى تلك العملية مع مدن الموانئ الأيبرية والإيطالية والفلامنك التى اضطلعت بدور القيادة. ولكن الشبكة كانت محكمة حتى إن الموانئ الإنجليزية وتلك التابعة لرابطة الهانز كانت من أوائل المشاركين، كذلك المدن الداخلية ذات الصفات الاقتصادية الخاصة مثل أوجزبرج وباريس. من هذه المراكز انتشرت العملية إلى داخل أوروبا أولاً فى المناطق التى قدمت البضائع الأساسية مثل القمح – فى ذلك الوقت كان نمو تجارة قمح البلطيق وإنتاج العزب من القمح أيضًا فى أجزاء من وسط وشرق أوروبا معروفًا – ثم إلى غيرها. فى كل وقت نرى نموذجًا مكانيًا واسعًا وغير منظم (من النوع الذى يطلق الجغرافيون عليه "اضمحلال المسافة") من مستويات منخفضة من التحضر والإنتاج التجارى كلما تحركنا باتجاه الداخل الأوروبى.

كانت هناك عمليات أخرى تعتمل ولذا فالنموذج الذى قدمته هنا هو نموذج بسيط للغاية. عكس النمو السكانى فى بعض المناطق فى القرن السادس عشر تغييرات اقتصادية مرتبطة بأحداث خارج أوروبا، ولكن فى مناطق أخرى كان يعنى الشفاء بعد التدهور فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر. عكست تغيرات أخرى مثل ثورات الفلاحين الأزمة العامة فى نهاية عصر الاقتصاد الإقطاعى، ولكن ارتفاع الأسعار فى القرن السادس عشر والإيجارات (على الأقل فى بعض المناطق) كان القوة المساهمة فى ذلك القلق. أما بالنسبة للإصلاح الدينى أستطيع أن أجادل متبعًا النظريه التونية بأنه كان أثرًا وليس سببًا مستقلاً وراء التغييرات الاقتصادية التى حدثت فى أوروبا فى القرن السادس عشر[٤٦] . ولكن أى تغييرات؟ الانهيار الداخلى للإقطاع؟ أم القوى المتصارعة فى العالم خارج أوروبا؟ أم كليهما؟ ربما عكس الانتشار المكانى للإصلاح الدينى فى القرن السادس عشر قوى أوروبية داخلية فى الأساس[٤٧]، ولكن فى وقت الثورة البرجوازية فى القرن السابع عشر كانت المناطق المنخرطة فى الأنشطة الأوروبية خارجها قد اتجهت إلى أن تكون مراكز بروتوستانتية. باختصار: تعكس نماذج التغيير المكانى فى القرن السادس عشر الأوروبى لدرجة معينة التكامل بين أوروبا وأمريكا وثانويًا مع آسيا وأفريقيا، ولكن يظل النموذج غير واضح نوعًا ما.

و بشكل عام كانت عمليات التحول والتحديث فى أوروبا فى القرن السادس عشر على درجة بالغة من التعقيد والتنوع فى الوقت والمكان فى معظم أنحاء القارة. ولكن التعميم مع هذا يعد مباشرًا. إن المناطق خارج أوروبا بعد ١٤٩٢ أدت إلى تحفيز التغيرات داخلها، تلك التغيرات التى أنتجت من ناحية زيادة فى معدل التغير والنمو الاقتصادى الأوروبى، ومن ناحية أخرى بدايات تمركز الرأسمالية فى أوروبا (إنها مسألة سنناقشها لاحقًا). مع نهاية القرن السادس عشر كانت تلك العوامل الخارجة عن أوروبا قد أرست أساسًا لنصر سياسى واجتماعى للرأسمالية (قبل الصناعية)، أو

بالأحرى بالنسبة لحقيقة أن الثورة المجيدة حدثت فى ١٦٨٨ بدلاً من وقت متأخر وكانت فى إنجلترا بدلاً من مصر أو زيمبابوى أو الهند أو الصين (أو كل من هذه الدول فى آن واحد).

الاستعمار والرأسمالية فى القرن السابع عشر

بحلول منتصف القرن السابع عشر كانت التغيرات فى أوروبا تحدث بمعدل سريع وعلى نطاق هائل وعملية تصنيف الأسباب والآثار الداخلية والخارجية لتلك الفترة تعد مسألة بالغة التعقيد. حدث توسع هائل فى تلك الفترة فى الموقع والقوة للاستعمار الرسمى وغير الرسمى للأمريكتين وحول سواحل أفريقيا وآسيا، وبالنسبة لتلك العمليات خارج أوربا فإن المشكلة تزداد تعقيداً بسبب نقصان البيانات الكمية فيما يتعلق بحجم الإنتاج وأرقام القوى العاملة وتراكم رأس المال، ومعلومات أخرى قد تساعدنا على الحكم على دور الاستعمار (كمفهوم واسع) فى التغيرات التى كانت تحدث داخل أوروبا. تلك الأمور بالغة التعقيد للدرجة التى لا تسمح لنا بمناقشتها بطريقة كافية هنا. سأحدد نفسى فى حدود تدخل تخطيطى أو (إذا كنت تفضل أن تطلق عليه) نموذج.

مع بدايات القرن السابع عشر كانت هولندا وإنجلترا قد ظهرتا كمراكز (أو مركز) لتطور الرأسمالية فى أوروبا[٤٨] . بالرغم من أن أسبانيا استمرت فى ضخ كميات هائلة من الفضة وبعض الذهب فى أوروبا فى النصف الأول من هذا القرن، كما أن المزارع البرتغالية فى البرازيل والأنشطة التجارية فى آسيا استمرت فى أن تصبح مصادر مهمة للتراكم، فإن التوسع الرئيسى للمشروع الاستعمارى بعد ١٦٠٠ كان هولندياً وإنجليزياً. إن العنصر المهم كان نظام المزارع فى الهند الغربية، التى توسعت بدرجة كبيرة بعد ١٦٤٠ . (تم استيراد خمسين ألف عبد إلى بربادوس

وحدها فى الخمسين سنة التالية. ربما تم استيراد مليونى عبد إلى أمريكا خلال القرن السابع عشر)[٤٩] . لو وضعنا مستعمرات السكر الهولندية والإنجليزية فى نفس المكان الاقتصادى لعواصم الدول نفسها فمن المحتمل أن يبدو أن اقتصاد زارعة السكر كان القطاع الوحيد الأكثر إنتاجًا فى اقتصاد أوروبا المتنامى (أو "الاقتصاد الأطلنطى" كما يطلق عليه فى الغالب) بخلاف المزارع العائلية، كما أنه يعد إلى حد بعيد أكبر مورد للقيمة. (المزارع البرازيلية التى تنتج جزئيًا لرأس المال الهولندى كانت لا تزال فى منتصف القرن السابع عشر أكبر من تلك فى الهند الغربية). ولكن المشروع البريطانى والهولندى فى نصف الكرة الأرضية الشرقى كان يتوسع أيضًا بسرعة كبيرة، لقد تشكلت شركات الهند الشرقية حوالى ، ١٦٠٠ ومع حلول ١٦٥٠ تحكم الهولنديون والبريطانيون معًا فى معظم التجارة الدولية – تجارة غير متكافئة، أى تجارة شبه استعمارية – مع آسيا بالإضافة إلى تجارة العبيد فى أفريقيا. فى نفس الأثناء، كان المشروع الأسبانى يؤتى ثماره فى شكل تراكمات هائلة فى أمريكا (بصرف النظر عما إذا ما كان هناك "كساد فى القرن السابع عشر" أم لا). كذلك لا يجب أن نغفل التنوع الكبير للمصادر الإضافية لتراكم رأس المال خارج أوروبا: صناعة سمكية هائلة فى شمال غرب الأطلنطى الآن واستخراج موارد الداخل وبدايات الاستيطان الأوروبى فى شمال أمريكا وتجارة العبيد والقرصنة والمشروع الروسى فى سيبريا، وغيرها.

إن السؤال المهم هو : كيف كان دور المشروع الاستعمارى وشبه الاستعمارى مركزيًا بالنسبة لنهضة أوروبا والرأسمالية فى القرن السابع عشر؟ إن النموذج الذى أقدمه يتطلب عنصرين؛ **الأول**: هو استمرار وتضخيم عمليات القرن السادس عشر، التى جادلت بأنها تتميز باقتصاد أوروبى بطىء النمو قامت قوى خارج أوروبا بإسراع عملية تطويره وتقدمه بعد ١٤٩٢ . فى منتصف القرن التالى قويت شوكة الطبقة

البرجوازية الأوروبية وقامت بتدعيم موقفها و(في مواقع مهمة) لفتت أنظار الطبقة الأرستقراطية الإقطاعية لتشترك معها في مشروعها البرجوازي(٥٠) وكانت قد بدأت بالفعل عملية تدمير إرهاصات المشروع الرأسمالي خارج أوروبا نتيجة لتدفق رأس المال من أمريكا (وثانويًا في تلك الفترة من أفريقيا وآسيا).

الآن وبدون مخزون المعادن الثمينة من غير المحتمل أن يكون تراكم رأس المال من المشروع خارج أوروبا في ١٥٠٠-١٦٥٠ قد ارتفع لمقدار كبير من الاستثمار الكلي لرأس المال في أوروبا حتى في الأقاليم الأكثر تقدمًا فيها وحتى في القطاعات الاقتصادية التي كان يفيض رأس المال فيها بقدر كبير أو صغير. إن ما حققه هذا المخزون هو توفير زيادة مهمة. فقد سمحت للمجتمع التجاري في كل مكان بأن يعرض أسعارًا أعلى للمنتجات والعمالة والأرض، ووضعت استثمارات رؤوس الأموال في أيدي الطبقات من غير طبقة الصفوة التقليدية التي من المستبعد أن تراكم رأس المال أكثر من احتياجاتها الاجتماعية أو أن تعيد استثمار الأرباح في مشاريع تجارية جديدة. كان رأس المال الاستعماري في كلمة واحدة هو رأس مال جديد. بدونه كان يمكن لاقتصاد فترة أواخر العصور الوسطى البطيء فيما قبل أيام ١٤٩٢ أن يستمر في تقدمه البطيء ليخرج من الإقطاع إلى الرأسمالية (أو شيء يشبه الرأسمالية) ولكن لن يكون هناك ثورة القرن السابع عشر البرجوازية.

ربما يكون جوهر الرأسمالية على مستوى كلي أعلى من العلاقة بين العامل وصاحب رأس المال هو إعادة استثمار الأرباح لزيادة القدرة الإنتاجية. يمكن للمشروع الرأسمالي أن يكون بدائيًا أو متقدمًا تكنولوچيًا، ولكن لكي يستمر يجب أن يراكم رأس المال. فهو أبدًا في حالة عدم اتزان. تقودنا هذه النقطة إلى التركيز على الظروف التي سمحت باستمرار النماء في القرنين السادس عشر والسابع عشر. لم يتطلب ذلك النماء تغيرًا تكنولوچيًا بأي أسلوب مهم: الزيادة الإنتاجية كانت أمرًا يتعلق بجلب عمالة أكثر ومواد إنتاجية داخل عمليات الإنتاج التقليدية لزيادة الإنتاج. مع التسليم

بحقيقة توفر عنصر رأس المال للأغراض التوسعية بسبب المشاريع خارج أوروبا وغيرها من العمليات التطورية المرتبطة بها فإن المشكلة المهمة فى القرن السابع عشر يجب أن تكون الأسواق أو الطلب. كان لدى صاحب رأس المال القدرة على الوصول إلى رأس المال، والعمالة - على مستويات الإنتاج إذا لم يكن هناك ضرورة لسيادة طبقة عاملة هائلة حقيقة - والمواد الخام (بعضها أوروبى، وبعضها من المستعمرات). ربما كان تقدم مشروع رأس مالى فى تلك الفترة مقيداً بطريقة جدية بالحاجة لفتح أسواق جديدة ولبيع منتجات أكثر لكى ينتجوا أكثر ويحصلوا على رأس مال أكثر وهكذا.

بعض من هذه الأسواق كانت فى أوروبا نفسها مما يعكس فى البداية قدرة المشروع الرأسمالى على بيع المنتجات التقليدية (مثل السكر) بأسعار أكثر انخفاضاً من تلك التى سادت فى ظل الاقتصاد الإقطاعى، ولكن تدريجياً جلبت عمليات التجارة والتحضر للقارة فرص أكثر للرأسمالية من خلال طرق الحياة الجديدة التى سببتها نهضة الرأسمالية التى بدورها أوجدت أسواقاً داخلية كثيرة للرأسمالية. ولكن ربما يكون أكبر نمو للأسواق فى بداية المشروع الرأسمالى فى القرن السابع عشر وبالتالى الباعث الأساسى لنهضة الرأسمالية كان خارج النظام. يعد هذا معروفاً فى حالة التجارة مع شرق أوروبا. إنه معروف فى أسواق أمريكا وأفريقيا وآسيا، ولكن الأهمية الكمية لتلك الأسواق خارج أوروبا لم يتم تقييمها كلياً. فى حالة الطبقة البرجوازية الإنجليزية كانت الأسواق الرئيسية للمشروع الرأسمالى بما فيها المنتجات الزراعية وغير الزراعية من إنجلترا والمنتجات المعاد تصديرها من الخارج فى أمريكا وأفريقيا وآسيا بالإضافة إلى الأسواق غير التقليدية فى البلطيق. وبالنسبة للهولنديين كانت التجارة خارج أوروبا أكثر أهمية. كما استمرت المجتمعات الإيطالية فى الاعتماد بشكل كبير على شرق المتوسط.

فى القرن السابع عشر إذاً أضاف الدور المهم للعالم خارج أوروبا أهمية لدورة فى القرن السادس عشر لكونه مورداً للسبائك والمنتجات الأخرى كما سمح للتوسع فى الطلب - بما فيه الطلب بالإجبار مثلما فى مزارع العبيد - على المنتجات الرأسمالية، وهو طلب كبير، حتى يتسنى للقدرة الإنتاجية والمشاريع الرأسمالية أن تستمر فى النمو بمعدل سريع جداً. هذا النمو فى الإنتاج كان أحد عاملين أساسين فى القرن السابع عشر فى نهضة الرأسمالية. القوة الثانية كانت الانتصار السياسى نفسه: الثورة البرجوازية. فقد أمد هذا البرجوازيين بالقوة القانونية والسياسة لتمزيق نسيج المجتمع فى بحثه عن رأس المال. ولذا أصبح من الممكن تخلق طبقة بروليتارية إجبارياً، كما توفر دعم حكومى لأى استراتيچية كانت تعتمل فى رأس طبقة الصفوة الجديدة الجامعة لرأس المال. ومن ثم أصبحت الثورة الصناعية، وهى تحول فى أساليب الإنتاج كى ترتفع معدلاته بصورة هائلة (نستطيع أن نقول)، حتمية.

مركزة الرأسمالية

إن عبارة "نهضة الرأسمالية" عادة ما تستدعى للذهن صورة مصانع ومحركات البخار؛ أعداد هائلة من العمال بأجر ومدن مكسوة بغبار الفحم: الرأسمالية الصناعية. لم تتطرق مناقشتنا إلى الآن إلى نهضة الرأسمالية الصناعية - الثورة الصناعية - ولكنا تعاملنا مع مقدمات هذا الحدث الجلل. ولكن دعنى الآن أراجع بعض تلك المقدمات:

قبل ١٤٩٢ كانت معظم الظروف الأولية المهمة بالنسبة لنهضة الرأسمالية الصناعية موجودة ليس فقط فى أجزاء من أوروبا ولكن فى آسيا وأفريقيا أيضاً. بعد ١٤٩٢ فى القرنين السادس عشر والسابع عشر اكتسبت أوروبا ثلاثة مقومات أخرى؛ **الأول:** هو التراكم الهائل للثورة من المناجم والمزارع الأمريكية والتجارة فى آسيا وأفريقيا. **الثانى:** وهو مرتبط بالأول كان التوسع فى الأسواق خارج أوروبا الغربية

لمنتجات إما تنتج فى أوروبا الغربية أو تستورد ثم يعاد تصديرها، أى كان هناك طلب كبير ودائم. ثالثًا وهو الأهم: أمسكت القطاعات الاجتماعية التى اضطلعت بالرأسمالية بزمام الأمور والقوة السياسية فى أوروبا الغربية وهو ما لم يحدث فى أى مكان آخر ماعدا مناطق محدودة جدًا. كما سمحت الثورة البرجوازية للطبقة الرأسمالية فى المجتمع أن تحرك قوة الدولة باتجاه تطور أكبر حتى يسهم المجتمع كله فى تأمين المغامرات الاستعمارية وإعداد البنية الأساسية مثل المدن والطرق بينما تستخدم الشرطة والقوة العسكرية لإجبار الناس من الخارج والعمل بأجر وتجنيدهم لحروب مفيدة لهم فى الخارج. ظهرت هذه المقدمات الثلاث كما جادلت بسبب الاستعمار الذى لولاه لما ظهرت فى البداية.

ينخرط المؤرخون فى مناظرات ضارية عن أسباب الثورة الصناعية. معظم الأسباب المرشحة أو "العوامل" هى نظريات داخل "المعجزة الأوروبية" التى ناقشناها وحاولنا دحضها فى الفصل الثانى. فرضيات عن تحديث الاقتصاد ونظام الحكم الأوروبى فى العصور الوسطى والثورات التكنولوچية فى العصور الوسطى و"الرشد" فى العصور الوسطى وما بعدها وقد قدمت على أنها التفسيرات الأكثر شيوعًا لظهور الثورة الصناعية. لقد أوضحنا كما أتمنى أن كل تلك العمليات كانت تعتمل خارج أوروبا وداخلها، لذا لا يمكن سردها كأسباب لحادث حدث فى أوروبا فقط.

وتتبدى فى هذه المشكلة الأهمية الفائقة لتأريخ الأحداث وتسلسلها. إن مفهوم الثورة الصناعية مرتبط بتحولين محددين: تطور قوة البخار والتكنولوچيا الجديدة فى الإنتاج الصناعى، ونشوء العمالة بأجر فى الإنتاج الصناعى. ولكن التحديد التاريخى خطأ. لم يصبح الجانب التكنولوچى من الثورة الصناعية مهمًا إلا فى وقت متأخر من العملية بحيث يصعب الاعتماد عليه فى شرح وتفسير الثورة نفسها. حقًا إن التطورات التكنولوچية كانت تحدث فى التصنيع الأوروبى خلال الفترة من ١٤٩٢ إلى ١٧٥٠ ولكن قليلاً من هذه التكنولوچيا كان أوروبيًا خالصًا كما رأينا، والأكثر أهمية من ذلك

هو أن التطورات التكنولوچية التى أصبحت مهمة لزيادة الإنتاج الصناعى وزيادة الكفاءة العمالية فيما بعد حدثت فى وقت متأخر، أى فى العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر آخذة فى الانتشار فى القرن التاسع عشر. فى الزراعة كانت التطورات التكنولوچية تتعلق بزيادة المساحة الإنتاجية فى بيئة ذات عمالة زراعية متدهورة، ولكن كل التغيرات التكنولوچية التى كانت جزءًا من تلك العملية كانت تقليدية ومعروفة خارج أوروبا. (قليل من الباحثين يقيمون وزنًا للمحاصيل الجديدة مثل اللفت ولكن تلك الأمور لم تكن ذات أهمية كبرى - إذا نحينا جانبا إنتاج البطاطس قبل ذلك - مقارنة بأشياء مثل زيادة استخدام رأس المال وشراء المواد المغذية. لم تكن حقيقة أن المزارعين فى أوروبا الغربية تعلموا كيفية زيادة الإنتاج وتقليل العمالة فكرة جديدة فى تاريخ وجغرافية الزراعة. ولذا فالثورة الزراعية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر يمكن أن تعتبر أثرًا وليست سببًا فى عملية التصنيع والتمدين). إذًا لم يكن الجانب التكنولوچى للثورة الصناعية سببًا أساسيًا، إلا إذا وافقنا على أنه كان فعلاً كذلك فى عملية تحولات بطيئة على نطاق نصف الكرة الأرضية كما ناقشنا من قبل. لقد ظهر متأخرًا جدًا.

يمكن لمجادلة مماثلة أن تقدم كرد على أطروحة أن ظهور القوى العاملة عن طريق الرأسمالية فى الإنتاج الصناعى الضخم كان السبب الأساسى للثورة الصناعية. قدمت هذه المجادلة من قبل الاقتصاديين الماركسيين الذين يتمسكون بصرامة بواحدة من مجادلات ماركس فى رأس المال. لا يوجد خلاف حول أننا لا نستطيع أن نحصل على رأسمالية صناعية مكتملة النضج بدون تأسيسها على قوة عاملة بأجر فى سوق حره (نسبيًا) يستطيع فيها العمال أن يتحركوا من صاحب عمل لغيره. ولكن تلك الظروف لم توجد قبل نهاية القرن الثامن عشر. كانت العمالة بأجر سائدة، ولكن قليل منها فى مجال التصنيع ولم يكن العامل يعمل فى سوق عمالة حر مع خيارات حقيقية لمكان العمل. تلك كانت ملامح الرأسمالية الصناعية كما ظهرت بعد الثورة الصناعية.

خرجت كل تلك النظريات عن أسباب الثورة الصناعية من تحت عباءة نظرية الانتشار ما دام ينظر لهذه العملية على أنها تطور داخلى داخل التاريخ والمجتمع الأوروبى. كما لاحظنا فى الفصل الثانى، كانت هناك نظرية تاريخية مضادة لنظرية انتشار المركزية الأوروبية خلال الخمسين سنة الأخيرة. وهى مجموعة قدمها بعض الباحثين من العالم غير الأوروبى وغيرهم. كان لتلك المدرسة النقدية الجديدة تأثير عظيم على مناظرات أصول الثورة الصناعية أكثر من أى مجال آخر.

إن أطروحة اعتماد التطور الصناعى فى أوروبا على العمليات العسكرية كانت مقبولة فى القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر[٥١] . بعد ذلك وربما بسبب نمو أيديولوچية نظرية الانتشار مع فرضيتها أن أوروبا هى مصدر التقدم المستقل لم تعد هذه الأطروحة تلقى نفس القبول بين المؤرخين الأوروبيين[٥٢] . فقد قدمت بقوة عن طريق عدد من الباحثين فى ثلاثينيات وأربعينيات هذا القرن. ربما أكد باحثون هنود على حقيقة أن صناعة المنسوجات القطنية الهندية المتطورة قدمت ليس فقط بعض التكنولوچيا الجديدة للصناعة البريطانية وعلى وجه الخصوص فى الأصباغ، ولكنها أوقفت عن طريق بريطانيا – فى عملية أطلق عليها الباحثون الهنود "عملية إلغاء التصنيع فى الهند"– وذلك حتى ينسى للصناعة البريطانية أن تتقدم فى نهاية القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر[٥٣] . (كانت صناعة المنسوجات القطنية القطاع الرائد فى أوائل الثورة الصناعية.) أيضًا فى الثلاثينيات بدأ باحثو الهند الغربية وبالتحديد وليامز وچامز بتقديم أطروحة أن الصناعة القائمة على العبيد وتجارة العبيد كانت قوى سببية مهمة فى التصنيع الفرنسى والبريطانى. وتبلورت تلك المجادلة العامة فى شكل نظرية تقدم من قبل الباحثين الكاريبيين الآن – يطلق عليها أحيانًا "المدرسة الكاريبية التاريخية" فى نطاق ضيق – بالإضافة إلى غيرهم من الباحثين الأفارقة والأفارقة الأمريكيين. تعد تلك النظرية مهمة جدًا وسأحاول تلخيصها متجاهلاً عددًا من الخلافات الثانوية فيما بين المنادين بها.

قدّم المجادلة الأساسية أولاً وليامز وچامز وكانت فرضية أن نظام المزارع القائم على العبيد فى الهند الغربية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر كان نظامًا صناعيًا متطورًا جدًا، أى أكثر الأنظمة تقدمًا فى ذاك الوقت. قاما مع آخرين فى نفس المدرسة البحثية بتوضيح أن نظام المزارع تطلب رأس مال ضخمًا وهيكلاً تنظيميًا معقدًا وتكنولوچيا صناعية متقدمة (فى الطحن وصناعة الجعة والمواصلات وهكذا) وقوى عاملة كثيرة فى مصنع السكر كما فى الحقل وعددًا كبيرًا من العمال الأحرار والمشرفين عليهم بالإضافة إلى العبيد، والأكثر أهمية من ذلك كله هو الأرباح الطائلة وهى أرباح ليس فقط من المزارع وإنتاجها ولكن من تجارة العبيد ومكونات أخرى مساعدة أطلق عليها وليامز "التجارة المثلثية"[٥٤] . (يقول چامز فى تاريخ ثورة هايتى فى كتابة "اليعاقبة السود[*]": كانت تجارة العبيد والعبودية هما الأساس الاقتصادى للثورة الفرنسية... تقريبًا كل الصناعات التى تطورت فى فرنسا أثناء القرن الثامن عشر كانت لها أصولها فى بضائع وسلع تذهب إما إلى ساحل غينيا أو الأمريكتين."[٥٥]) أود أن أوسع هذه المجادلة لتشمل فرضية أكثر شمولية: داخل المجال الاقتصادى الذى تحكمت فيه أوروبا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر وجد الأوروبيون أنه فى الإمكان تطوير نظام الإنتاج الصناعى الرأسمالى – على نطاق كبير ومنظم وشبه مُميكن– إلى أعلى مستوى بالنسبة لتلك الحقبة وبالتحديد فى نظام المزارع باستخدام العبيد وحتى التطور بالإنتاج الصناعى كنظام عام لمستوى تحققت فيه الأرباح حتى عندما كان يدفع للقوى العاملة أجر إعاشة، يكفل إنتاج طبقة عاملة جديدة كى يتسنى للنظام أن يتمركز فى ويورد إلى أوروبا نفسها[٥٦] .

وبطريقة أخرى كانت بدائية المرحلة الأولى من الثورة الصناعية وغير متطورة وبربرية لدرجة أن العمالة الحرة لم تكن تستخدم إذا كانت هناك أرباح. ولذا كان أسر

(*) اليعقوبيون: أعضاء فى الحزب التحررى المتطرف أثناء الثورة الفرنسية.

العبيد، والعمالة بالإكراه ضرورياً للإنتاج أو للحكم الاستعمارى فى أماكن أخرى (مثل الهند) لإجبارهم على تسليم السلع بأسعار رخيصة.

جادل چامز وويليامز معًا بأن الأرباح من هذه التركيبة المعقدة كانت حيوية لتوفير معظم رأس المال المطلوب فى المرحلة الأولى من الثورة الصناعية. يقدم كتاب وليامز الرأسمالية والعبودية تعبيراً كلاسيكيًا ومجادلة عن هذه الأطروحة. لقد أوضح بالتفصيل كيف أن الأرباح العائدة من تجارة العبيد والمزارع القائمة على العبيد، والقطاعات الاقتصادية المساعدة تدفقت على إنجلترا ثم اتخذت أشكال استثمارات دفعت بالثورة الصناعية وبنيتها الأساسية (قنوات وموانئ وما شابه). الاتجاه السائد لدى معظم الباحثين الأوروبيين هو رفض هذا الموقف النظرى. والرأى العام كان هو أن الثورة الصناعية كانت ظاهرة أوروبية داخلية وأشياء مثل تجارة العبيد والمزارع القائمة عليهم وعوائد الأرباح ما هى إلا تفصيلة أو حاشية(٥٧) . وقد كانت هناك مجهودات لدحض هذه النظريه ولكن الجزء الوحيد منها الذى تعرض للنقد الإمبيريقى هو الأكثر محدودية والأقل أهمية. حاول إنجرمان وآخرون توضيح لو أن الافتراضات المختلفة عن الاقتصاد ما بعد الكلاسيكى طبقت على اقتصاد بريطانيا فى القرن الثامن عشر ولو استخدمت حسابات تقليدية منخفضة فيما يتعلق بعدد العبيد المجلوبين إلى أمريكا فيمكن أن يظهر أن تجارة العبيد لم تكن مربحة حقًا. ولكن فى واقع الأمر كانت تجارة العبيد نفسها جزءًا من التركيبة المعقدة التى كان وليامز وآخرون ينظرون إليها. فى الحقيقة كانت المزارع كما فى النظام الصناعى أقرب لمركز اهتمامهم وذلك لاستخدام العمالة فى إنتاج سلع بكميات كبيرة. أوضح إنيكورى وآخرون أنه قد تم التقليل من شأن أعداد العبيد الذين جلبوا إلى أمريكا. وأخيراً، الافتراضات ما بعد الكلاسيكية (فيما بينها المجادلة بأنه كانت هنا أرباح "عادية" فى صناعة القرن الثامن عشر كما لو كانت الثورة الصناعية وأسواق المنتجات والعملاء قد نضجت لتوها) تكتنفها الكثير من التساؤلات.

جاء تيار نقدى آخر من الماركسيين من بينهم برينر ولاكلاو اللذان يشتركان فى آرائهما عن نظرية انتشار المركزية الأوروبية التقليدية التى نوقشت من قبل[٥٨] . تأسست مواقفهم على مجادلتين؛ الأولى دوجماتيكية والثانية بها مغالطة فكرية.

أولاً : يدعون أن العمالة غير الحرة لا نستطيع أن نعتبرها جزءًا من الرأسمالية. وقد تم الرد على هذا من قبل چامز الذى أوضح أن الخطأ هو محاولة الحكم على نظام عمالة فى القرن السابع عشر والثامن عشر بمقاييس منتصف القرن التاسع عشر وهى حقبة الرأسمالية التنافسية الناضجة كما وصفها ماركس. والأكثر تأثيراً كان عرض ايمانويل والرستاين بأن الرأسمالية تستخدم عدداً من أنظمة العمالة البديلة فى ظروف إنتاج بديلة والعمالة بالإجبار هى أحد تلك البدائل[٥٩] .

ثانيًا : يدعى النقاد الماركسيون بأن العمليات التى حدثت خارج أوروبا وتطلبت جلب السلع ورأس المال إلى أوروبا يجب أن تسمى "تبادلاً" وليس "إنتاجًا" ولذا لا يمكن أن تعتبر حيوية بالنسبة للتقدم الصناعى أو الرأسمالية . هذه الأطروحة خاطئة: الإنتاج فى المزارع القائمة على العبيد هو إنتاج مثله مثل ذلك فى مصنع الإبر فى برمنجهام.

وهناك باحثون مثل بالى ويكلز وداريتى ومينتز وشريدان وسولو وروبنسون ورودنى (وعلى نطاق العالم) وأمين ووالرستاين وفرانك قدموا فى السنوات الأخيرة دعمًا للنظرية المهمة التى قدمتها هنا[٦٠] . فى بعض الأحيان يطلق عليها المؤرخون التقليديون "نظرية وليامز". إن ما أطرحه هنا هو أن هذه "الأطروحة هى شىء أكبر: إنها حالة الفكر النظرى حاليًا الذى يركز اهتمامه على الدور الذى لعبه الاستعمار فى الثورة الصناعية.

نقطة خلافية أخرى تتعلق بأهمية الطلب. تتفق كل الأطراف هنا أن قرارات زيادة القدرة الإنتاجية وهى القرارات التى أدت فى مجملها إلى الثورة الصناعية اتخذت على

أســاس الأحكام بأن السلع التـقليـدية لو أنتــجت يمكن أن تبـا ع. ينظر المؤرخــون التقليديون إلى زيادة الطلب على أنه منتج طبيعى لتحديث أوروبا[٦١] . ويؤكد المؤرخون النقديون أن الاستـعمـار نفسه كـان مطلوبًا حـتى يزداد مسـتوى الطلب كى يتـسنى للأفراد المشتغلين بالصناعة أن يبذلوا الجهود لزيادة القدرة، تلك الجهود التى عندما دارت عجلة الثورة فعلاً تطلبت استـخدام تكنولوچيا إنتاجية جديدة. وقد أوضح هؤلاء المؤرخون أن الكميات الهائلة للطلب كانت تزود من قبل تجارة العبيد والمزارع (الطلب على الغذاء والملبس والآلات والسفن وهكذا) والتوسع فى النطاق التجارى الذى انتقلت فيه السلع الأوروبية فى القرن الثامن عشر وما بعده. يمكن أن أعمم تلك الحالة فيما يلى : لم يكن يمكن للثورة الصناعية أن توجد إذا لم يتـسن للأوروبيين أن يواجهوا الطلب المتزايد من خلال المستعمرات، وهذه الحقيقة أكثر من أى شىء آخر، هى التى دفعت بالثورة الصناعية للأمام.

نهضت الرأسمالية كعملية على نطاق عالمى وكنظام عالمى. وأصبحت متمركزة فى أوروبا بسبب القوة التى أعطاها الاستعمار للأوروبيين لتطوير مجتمعاتهم ومنعه من الحدوث فى أى مكان آخر. ديناميكية التطور والتخلف تلك هى التى تفسر العالم الحديث.

فى هذا الفصل والفصلين اللذين سبقاه حاولت أن أوضح باستخدام الأدلة الإمبيريقية أنه لم يكن هناك "معجزة أوروبية". وأن كلاً من أفريقيا وآسيا وأوروبا شاركت فى نهضة الرأسمالية قبل ١٤٩٢ . بعد هذا التاريخ تقدمت أوروبا. وقد حدث هذا كما حاولت أن أعرض فى هذا الفصل بسبب قرب موقع أوروبا من أمريكا، وبسبب الثروة الهائلة التى جناها الأوروبيون فى أمريكا ثم آسيا وأفريقيا، وليس بسبب أن الأوروبيين كانوا أكثر ذكاءً أو أكثر جرأة أو أفضل أو أكثر حداثة أو أكثر تقدمًا أو أكثر تطورًا أو أكثر رشدًا من غيرهم. تلك هى خرافات نظرية انتشار المركزية الأوروبية التى من الأفضل أن تُنسى.

هوامش

(١) لم "يكتشف" الأوروبيون أمريكا: كان يقطن هذا النصف من الكرة الأرضية ومنذ آلاف السنين أناس هاجروا إليه من سيبيريا والقطب الشمالي. لذا أفضل ألا ننظر إلى الوصول الأوروبي على أنه "اكتشاف" وبالمثل، فكرة أن نصف الكرة الأرضية الغربي هو "العالم الجديد" تعتبر خطأ حيث أنه لم يكن جديدًا لهؤلاء الذين عاشوا هناك واستقبلوا كولومبس بعد وصوله في ١٤٩٢ . وإنه من الصعوبة بمكان على الرغم من ذلك أن نتجنب استخدام عبارة "العالم الجديد" في سياقات معينة وسوف أقوم بذلك بين الحين والآخر.

(٢) انظر K. N. Chaudhuri, Trade and Civilization in the Indian Ocean (1985); Simkin, The Traditional Trade of Asia (1968); Sherif, Slaves, Spices and Ivory in Zanzibar (1987). من المحتمل أن الأفارقة الغربيين أبحروا إلى الأمريكيتين قبل ١٤٩٢ (انظر DeVisse and Labib, "Africa in Intercontinental Relations," 1984). على أية حال، لأنه لا يبدو إن كان هناك مدن موانئ بحرية تجارية كبيرة في غرب أفريقيا -على عكس شرقها - فليس من المحتمل أن رحلات عبر المحيط قبل ١٤٩٢ كان لها أثر مهم على أفريقيا أو أمريكا. قد يكون هذا ممكنًا لعدة أسباب:

أولاً : في ظل غياب مدن الموانئ الكبيرة وتجارة بحرية تخوض مسافات بعيدة فمن الممكن أن السفن على طول الساحل كانت صغيرة. قد يكون لديهم القدرة على رحلة باتجاه الغرب إلى أمريكا بسهولة مع تسليمنا بالرياح التجارية القوية والثابتة التي تهب باتجاه الغرب، ولكن رحلة العودة قد تتجه بعيدًا نحو الشمال أو الجنوب في نطاق الرياح الغربية، حتى خط عرض جنوب أوروبا أو حتى خط عرض ناميبيا. لذا فرحلة الذهاب والإياب قد تكون مشروعًا يصعب القيام به. من ناحية أخرى، قد نعلم من البحث الأكاديمي المستقبلي أن البحارة من غرب أفريقيا،أو البحارة المغاربة، والبحارة من غرب أوروبا كانوا كلهم يعملون بصيد السمك والحيتان من سواحل أمريكا (ربما على الضفاف العظمى) قبل ١٤٩٢؛ لو ظهر دليل قوي على ذلك، فمن المحتمل أن الأفارقة من غرب القارة كانوا على معرفة برحلة الذهاب والإياب وبأجزاء معينة من الساحل الأمريكي، ولكننا لا نمتلك هذا الدليل في الوقت الحالي ويجب أن نأخذ في اعتبارنا أنه من المحتمل أن تكون أي سفينة من غرب أفريقيا وصلت إلى أمريكا ثم جرفت بعيدًا عن الشاطئ وبالتالي فرحلة العودة تكون صعبة جدًا. قد يكونون أقدموا عليها بدون توفر معلومات مسبقة لديهم عن الطريق الطويل الدائري (إلا إذا عرف البحارة الأمريكيون الطريق وأمدوا البحارة الأفارقة بالمعلومات الملاحية، ولكننا ليس لدينا دليل مقنع في الوقت الحالي بأن الأمريكيين عبروا الأطلنطي قبل ١٤٩٢).

ثانيًا : الجزء من الساحل الأمريكي الأقرب إلى أفريقيا، تقريبًا الساحل البرازيلي جنوب مصب نهر الأمازون يبدو انه كان مأهولاً بالتكتلات السكانية الكبيرة ومليئًا بالمشغولات الفضية والذهبية التي تدعو إلى التجارة أو السلب. (بالتأكيد لو كان الأفارقة الغربيون وصلوا إلى جزر الأنديز الغربية لوجدوا تلك الغنائم مثلما وجدها كولومبس).

ثالثًا : إن مجمل الظروف التاريخية التي تحول رحلة واحدة إلى بداية لغزو كاسح أمر غير محتمل الحدوث في ساحل غرب أفريقيا . كانت هناك تجارة واسعة النطاق وطبقة من الرأسماليين التجار وقطاع البنوك ومؤسسات رأسمالية أخرى من المركز الحضرية الداخلية من غرب أفريقيا ، ولكن ليس - كما يبدو - في المراكز الحضرية على طول الشواطئ : فهذه لم تكن ذات أهمية بوصفها مراكز بحرية تجارية بالنسبة للمدن الداخلية اتجهت تجارة المسافات البعيدة الكبيرة باتجاه الشمال والشرق ومن غير المحتمل أنه قامت محاولات لتطوير السفر على نطاق كبير في المحيط من ميناء ساحلي .

بعض الباحثين يدافعون عن حقيقة فرضيتين عن الرحلات الأفريقية الغربية عبر المحيط التي لا أقبلها: الأولى تؤكد أن الأفارقة كان لهم تأثير مهم على الثقافات الأمريكية قبل ١٤٩٢ ، الثانية تؤكد أن الأفارقة الغربيين عبروا الأطلنطي بنفس الطريقة التي عبر بها كولومبس ولكن كانت لديهم قيم مختلفة عن الأوروبيين ولم يختاروا القتل والسلب والاستعباد وإثراء أنفسهم على حساب الأمريكيين مثل الأوروبيين ولذا فهم لم يحاولوا الغزو. معظم الأدلة المقدمة التي تدعم انتشارًا مهمًا فيما قبل كولومبس من أفريقيا لأمريكا مأخوذة من مجادلات الباحثين الأوروبيين في مدرسة "نظرية الانتشار المتطرفة" التي ناقشناها في الفصل الأول. ادعى أصحاب هذه النظرية أن المصريين القدماء أو الفينيقيين عبورا الأطلنطي وجلبوا الحضارة للأمريكيين. بعض الباحثين الجدد يعدلون هذا عن طريق التأكيد على أن مصر كانت حضارة أفريقية - أنا متأكد أن هذا صحيح - شعبها أفريقي وليس شعبًا أوروبيًا هو الذي جلب الحضارة للأمريكيين. مصدر ثان للأدلة هو ملامح الوجه الأفريقية لمنحوتات شعب الأولمك في جنوب المكسيك ولكن بعض الأمريكيين قبل فترة كولومبس كان يجب أن يكون لديهم هذه الملامح أيضًا. فهي ليست نادرة بين الأمريكيين اللاتينين الهنود الجدد. ولكن الاعتراض الجاد على هذه النظرية هو أن حضارة شعب الألولمك هي أقدم حضارة عرفت في الأمريكيتين. لو جاءت تلك الحضارة من أفريقيا ولم تكن قد طورها أمريكيون لأمكن أن نقول ببساطة إن الأمريكيين لم تكن لديهم القدرة على الوصول بأنفسهم لمستوى الحضارة، بل جاءت إليهم من مكان أخر عن طريق الانتشار. ينظر إلى هذا على إنه إهانة عميقة من قبل الأمريكيين اللاتينيين الذين يرون - وهم على حق في هذا - أن شعوب نصف الكرة الأرضية الغربي طوروا حضارة بأنفسهم. ربما يكونون قد اكتسبوا القليل من المعلومات من البحارة الذين وصلوا عبر الأطلنطي أو الهادي. ولكن التطور الثقافي الحقيقي كان اختراعًا مستقلاً وليس انتشارًا. مجددًا نلاحظ أن شكل المجادلة يأتي من نظرية الانتشار الكلاسيكية، بعض المجتمعات الإنسانية لديها القدرة على الاختراع والآخرون مقلدون. بناءً على الدليل الضعيف والمشكوك فيه الذي قدم إلى الآن بأن الأفارقة جلبوا تقدمًا ثقافيًا هائلاً لأمريكا، فتبقى تلك الأطروحة غير مقنعة.

بالنسبة لي الأكثر إشكالية هي المجادلة أنه عندما عبر الأفارقة الأطلنطي قبل أو في نفس وقت كولومبس لم يكن لديهم القيم الوحشية التي كانت لدى الأوروبيين ولذا فهم لم يحاولوا الغزو أو السلب أو الاستعباد. كي نقبل هذا، ينبغي علينا أن نصدق أن هناك شيئًا أساسيًا في الثقافة الأوروبية، شيء قديم جدًا ومغروس بعمق يجعل الأوروبيين مختلفين عن باقي البشر. يؤكد هذا على جزء جيد من زعم المركزية الأوروبية أن الأوروبيين متفردون بين سائر البشر. هي ببساطة تعكس المجادلة وتدعي أن تفردهم لا يكمن في نزعتهم للتطور ولكن في عدوانيتهم وضراوتهم وجشعهم. أجد نفسي مستريحًا مع مجادلة تبدأ بفكرة عقلية بشرية أساسية واحدة ("نفسية واحدة"). ثم تقوم بشرح تعطش الأوروبيين الغزاة للدماء كدليل على نوع الحضارة التي يمثلونها، وتطويرها لتركيب طبقي جائر في الإقطاعية ثم في بدايات الرأسمالية، نظام يحصل على الثروة بأي ثمن وبأي وسيلة مهما كلف الأمر. المجتمعات الرأسمالية المتعطشة للدماء جاهزة ومتلهفة لتغزو ولتنهب ولتستعبد ما دام جلب هذا الربح موجودًا في أجزاء عديدة من نصف الكرة الأرضية الشرقي في كل القارات الثلاث. مجادلتي في هذا الكتاب هي أن العامل الأساسي الذي فضل تحركات الأوروبيين لغزو أمريكا وليس تحركات الأفارقة الغربيين هو وجود مراكز تجارية بحرية كبيرة على سواحل أوروبا. وجدت مراكز رأسمالية من هذا النوع في داخل أفريقيا ولكن مع وجود تجارة المسافات الطويلة في المحيط. كان لسوفالا وكيلوا في شرق أفريقيا هذه الصفات ولكنهما كانتا - كما أوضحنا في هذا الفصل - أبعد عن أماكن السلب الأمريكية أكثر من الموانئ الأيبيرية وموانئ الكناري. (لم أستشهد بباحثين محددين ممن يحملون تلك الآراء التي أنتقدها وذلك لأن المراجعة الشاملة العادلة لهذه النظريات ليست في الإمكان من خلال ملاحظة واحدة هامشية طويلة. من الواضح أنني لا أتفق مع نظرية إيفان ڤان سيرتيما كما قدمت في عمله المهم أتوا قبل كولومبس (1976) والمتعلقة بالانتشار ما قبل كولومبس لصفات محفزة للحضارة مهمة من أفريقيا لأمريكا بالرغم من أنه قد يكون محقًا في أرائه بأن الأفارقة أتوا إلى أمريكا قبل كولومبس).

(٣) Filesi, China and Africa in the Middle Ages (1972); Ma Huan, The Overall Survey of the Ocean's Shores (1970); Panikkar, Asia and Western Influence (1959).

(٤) لم أعرف من الدليل الموثق أن الأفارقة الشماليين أو الغربيين أبحروا بانتظام حول سواحل رأس بوجادور (DeVisse and Labib, "Africa in Intercontinental Relations," 1984). من الواضح أن تقنيات الإبحار في العصور الوسطى - الأوربية وغير الأوروبية - كانت تجد صعوبة في المرور قبل الوقت الذي بدأ فيه البرتغاليون رحلاتهم في القرن الخامس عشر. على أي حال، لم يكن هناك سؤال عن "الاكتشاف". كان الطريق البحري معروفًا منذ القدم. وقد كانت هناك طرق برية موازية لطول الساحل من فز جنوبيًا إلى تاركور (بالقرب من داكار الحديثة) وما وراءها (Niane, "Mali and the Second Mandingo Expansion," 1984, and Levitzion, "The Early States of the Western Sudan to 1500," 1971). وقد كانت هناك مستوطنات في الحقبة الاستعمارية في جزر الكناري وبطول الساحل نفسه. كان السفر برًا أرخص وربما أسرع. ما "اكتشفه" البرتغاليون كان أسلوبًا للتفوق على

الأنشطة التجارية المنافسة لشمال أفريقيا وغربها عن طريق تطبيقها للتكنولوجيا البحرية المعروفة للأوروبيين والأفارقة الشرقيين التي لم تكن معروفة (أو مستخدمة أو عرف استخدامها على أى مستوى) عن طريق الأفارقة الغربيين في هذه الفترة. يجب ملاحظة أن استراتيجية الملاحة البرتغالية في المرور عبر بوجادور كانت هي نفسها المستخدمة في الرحلات إلى جزر الأطلنطي وربما كانت معروفة للبحارة المغاربة مثل الأوروبيين.

(٥) انظر . Blaut, "Diffusionism: A Uniformitarian Critique" (1987)

(٦) للمراجعات العامة ، انظر Crosby, The Columbian Exchange (1972) and McNeill, Plagues and Peoples (1976). See Borah and Cooke, "La Demograf?a Hist?rica de América Latina: Necesidades y Perspectivas" (1972); Whitmore, "A Simulation of Sixteenth-Century Population Collapse in the Basin of Mexico" (1991); Alchon, Native Society and Disease in Cownial Ecuador (1991); Lovell, " 'Heavy Shadows and Black Night': Disease and Depopulation in Colonical America" (1992) .

(٧) Denevan, The Native Population of the Americas in 1492 (1976) ، لمراجعة الاختلافات حول تعداد الأمريكيين في فترة الغزو.

(٨) Crosby, The Columbian Exchange (1972); Alchon, Native Society and Disease in Colonial Ecuador (1991).

(٩) مناقشة عن الحسابات المختلفة انظر Denevan, The Native Population of the Americas in 1492 (1976); Denevan, "The Pristine Myth: The Landscape of the Americas in 1492" (1992); Lovell, " 'Heavy Shadows and Black Night' " (1992); and Whitmore, "A Simulation of Sixteenth-Century Population Collapse in the Basin of Mexico" (1991).

(١٠) الفرضية هنا هى أن تعداد السكان استمر في الزيادة ما دامت هناك مصادر وفيرة للغذاء مثل الصيد وصيد الأسماك والجمع وصيد القواقع في وقت افتراضى محدد من المحتمل أن يكون الناس قد جربوا بالفعل زراعة المحاصيل ووجدوا فيها امداداً أفضل للغذاء (الألياف، إلخ) ولذا بدأ التحول. لاحظ أن هذه المجادلة لا علاقة لها بنظرية مالتوس.

(١١) انظر Fiedel, Prehistory of the Americas (1987)..

(١٢) انظر Crosby, The Columbian Exchange (1972), Lovell, " 'Heavy Shadows and Black Night,'" and Alchon, Native Society and Disease in Colonial Ecuador (1991).

(١٣) Miskimin, The Economy of Early Renaissance Europe, 1300-1460 (1969).

(١٤) Abel, Agricultural Fluctuations in Europe from the Thirteenth to the Twentieth Centuries (1980).

(١٥) de Vries, European Urbanization, 1500-1800 (1984).

(١٦) انظر Hodgett, A Social and Economic History of Medieval Europe (1972) ("المنتهى سنة بعد حوالى ١٣٢٠ يمكن أن تكون فترة الهبوط فى الاقتصاد الأوروبى ككل" p.22) Lopez and Miskimin, "The Economic Depression of the Renaissance," (1961-1962); C. T. Smith, An Historical Geography of Western Europe Before 1800 (1969).

(١٧) Lopez, "Hard Times and Investment in Culture" (1953); Thorndyke, "Renaissance or Prenaissance?" (1943).

(١٨) Braudel, "Prices in Europe from 1450 to 1750" (1967); de Vries, European Urbanization (1984). عن الأثر السريع لهذه التغيرات فى أسيا انظر على سبيل المثال Atwell, "International Bullion Flows and the Chinese Economy circa 1530-1650" (1982); Aziza Hasan, "The Silver Currency Output of the Mughal Empire and Prices in India during the 16th and 17th centuries" (1969).

(١٩) Céspedes, Latin America: The Early Years ((1974); McAlister, Spain and Portugal in the New World, 1492-1700 (1984).

(٢٠) فى الاقتصاد السياسى الكلاسيكى وبعض الاقتصاديات الماركسية الحديثة فكرة "التراكم البدائى" تستخدم كنوع من التجميع لطرق تراكم رأس المال ولم تتضمن - فى جوهرها - مغامرة رأسمالية. كنوز القراصنة وما شابه كانت "تراكمًا بدائيًا" وبشكل عام نوع الثروة الذى جلب من المستعمرات الأمريكية فى القرن السادس عشر كان يعتبر تراكمًا بدائيًا. (وفقًا لماركس، "الكنوز المستولى عليها خارج أوروبا عن طريق النهب الصريح والاستعباد والقتل عادت مرة أخرى إلى الدولة الأم وتحولت إلى رأس مال هناك": Marx, Capital, 1976, vol. 1, p. 918) ولكن "التراكم البدائى" لا يمكن أن يعرف بدقة. سنجادل هنا أن الثروة المتراكمة فى الأمريكتين كانت بدائية بالمعنى الذى يجعلها جزءًا من الاقتصاد الرأسمالى قبل الصناعى. أما فى نواحى أخرى مثل اشتراك العمالة وما أضاف ذلك من قيمة فكان تراكمًا عاديًا. إن الفرق أساسى كما سنرى لأن ما كان يحدث فى المستعمرات لم يكن تراكمًا "حقيقيًا" أو "عاديًا"، يمكن للباحثين الزعم بأن الاقتصاد الاستعمارى كان متأخرًا وإقطاعيًا أكثر من كونه نوعًا بدائيًا من الرأسمالية.

(٢١) E. J. Hamilton, American Treasure and the Price Revolution in Spain, 1501-1650 (1934); Brading and Cross, "Colonial Silver Mining: Mexico and Peru" (1972); H. and P. Chaunu, Seville et l'Atlantique (1504-1650), vol. 6, pt. 1 (1956); Cross, ."American Bullion Production and Export 1550-1750" (1983)

(٢٢) انظر ملاحظة ١٩ أعلاه.

(٢٣) .Vicens Vives, An Economic History of Spain (1969)

(٢٤) .Vilar, A History of Gold and Money, 1450-1920 (1976)

(٢٥) يبقى بالرغم من ذلك تجارة كبيرة لدى التجار غير الأوروبيين فى بحور الصين والمحيط الهندى.

(٢٦) E. J. Hamilton, "American Treasure and the Rise of Capitalism" (1929), and American Treasure and the Price Revolution in Spain (1934). أيضًا انظر الكتاب المهم Walter Prescott Webb, The Great Frontier (1951)، الذى يبنى جزئيا على نظرية هاميلتون ليجادل على الأهمية العظيمة للأمريكتين فى نهضة أوروبا خلال هذه الفترة وما بعدها.

(٢٧) Galloway, The Sugar Cane Industry: An Historical Geography from its Origins to .1914 (1989); Deerr, The History of Sugar (1949-1950)

(٢٨) انظر على سبيل المثال Galloway, The Sugar Cane Industry (1989); Deerr, The History of Sugar (1949-1950); Watson, Agricultural Innovation in the Early Islamic World: The Diffusion of Crops and Farming Techniques, 700-1100 (1983); N. S. Gupta, Industrial Structure of India During the Medieval Period (1970); Niane, ed., UNESCO General History of Africa, Vol. 4. (1984); Bray, Science and Civili-.zation in China, Vol. 6, Part 2, Agriculture (1984)

(٢٩) .Deerr, The History of Sugar (1949-1950)

(٣٠) Simonsen, Hist?ria Economica do Brasil, 1500-1820 (1944); Furtado, The Economic Growth of Brazil (1963); Minchinton, The Growth of English Overseas Trade (1969). أيضًا انظر الأعمال الأكثر عمومية ولكن فى غاية الأهمية ، works of 1. Wallerstein, A. G. Frank, and S. Amin, particularly Wallerstein's The Modem World System, 3 vols. (1974-1988), Frank's Capitalism and underdevelopment in Latin America (1968) and his World Accumulation, 1492-1789 (1978), and Amin's Accumulation on a World Scale (1974) as well as his Unequal Development (1976).

(٣١) Edel, "The Brazilian Sugar Cycle of the 17th Century and the Rise of West Indi- .an Competition"(1969)

(٣٢) .Furtado, Economic Growth of Brazil (1963)

(٣٣) انظر K. N. Chaudhuri, Trade and civilization in the Indian Ocean (1985); Satish Chandra, The Indian Ocean: Explorations in History, Commerce and Politics (1987); Magalh?es-Godinho, L'Economie de L'Empire Portugais aux XV et XVI .Siecles (1969)

(٣٤) ..de Vries, European Urbanization (1984)

(٣٥) William Denevan, "Introduction," in Denevan, ed., The Native Population of the Americas in 1492 (1976), and "The Pristine Myth: The Landscape of the Ameri- .cas in 1492" (1992; Lovell, "'Heavy Shadows and Black Night'" (1992)

(٣٦) انظر Borah and Cook, "La demograffa hist6rica de América Latina: necesidades y perspectivas" (1972); Whitmore, "A Simulation of Sixteenth-Century Popula- .tion Collapse in the Basin of Mexico" (1991)

(٣٧) .Semo, Historia del Capitalismo en Mexico: Los Orfgenes, 1521-1763 (1982)

(٣٨) Radell, "The Indian Slave Trade and Population of Nicaragua During the Six- .teenth Century" (1976)

(٣٩) .Bakewell, "Mining in Colonial Spanish America" (1984)

(٤٠) . Semo, Historia del CaPitalismo (1982)

(٤١) لحسابات مختلفة انظر Curtin, The Atlantic Slave Trade (1969); Furtado, Economic Growth of Brazil (1963); Deerr, History of Sugar (1949-1950); Florescano, "The Formation and Economic Structure of the Hacienda in New Spain"; Inikori, The African Slave Trade from the Fifteenth to the Nineteenth Century (1979), esp. . .pp. 57 and 248; McAlister, Spain and Portugal in the New World (1984)

(٤٢) . McAlister, Spain and Portugal in the New World (1984)

(٤٣) فى المناقشة الحالية أعطى اهتمام ضئيل لأفريقيا وبالأخص لآثار تجارة العبيد فى أفريقيا. انظر الفصل الثانى.

(٤٤) Fisher, "The Price Revolution: A Monetary Interpretation" (1989).

(٤٥) Dunn, Sugar and Slaves: The Rise of the Planter Class in the English West Indies, 1624-1713 (1972), pp., 10-11.

(٤٦) Tawney, Religion and the Rise of Capitalism (1952 edition).

(٤٧) Hannemann, The Diffusion of the Reformation in Southwestern Germany, 1518-1534 (1975).

(٤٨) هناك جدال عما إذا كان المركز قد انتقل من أيبيريا إلى مناطق الراين وجنوب إنجلترا. ربما تكون نفس القوى التى جعلت هذه الأقاليم الشمالية مراكز تجارية بحرية فى العصور الوسطى قد سمحت لها مجدداً أن تتحكم فى المشاريع وراء البحار. تعداد السكان المرتفع والأرض الخصبة القريبة وموارد الغابات وسهولة الاتصال بأسواق عديدة (الراين والبلطيق، إلخ) فى مواجهة إيطاليا كان له نفس المزايا بالإضافة إلى الموقع على الأطلنطى وامتلاك متطلبات النمو السريع للشحن المحيطى وأساطيل الصيد.

(٤٩) Deerr, The History of Sugar (1949-1950); Curtin, The Atlantic Slave Trade (1969); and Inikori, The African Slave Trade from the Fifteenth to the Nineteenth Century (1979). السؤال عما إذا كانت عمالة العبيد قوة عاملة أم لا، موضوع مهم فى مناقشات نظام المزارع القائم على العبيد (انظر Mintz, Sweetness and Power: The Place of Sugar in Modern History, 1985) سنقوم بمناقشته بعد ذلك فى هذا الفصل. على أى حال ليس هناك عدم اتفاق بخصوص إسهام العبيد (والعمالة بالإجبار) فى تراكم رأس المال وبالتالى لتوفير القيمة الفائضة. استخدام "القيمة الفائضة" يعتبر مناسباً لأساليب الإنتاج المختلفة عن الرأسمالية الصناعية.

(٥٠) على أية حال، انضم جزء كبير من طبقة الصفوة المالكة للأرض القديمة إلى المشروع الجديد ليس صحيحاً أن نفترض أن طبقة الصفوة فى الرأسمالية الأولى الجديدة كانت متعارضة مع طبقة الصفوة القديمة. هناك التباس فى هذا الشأن بعضه نتج بسبب القبول الحرفى لفكرة ماركس بأن التجار هم إلى حد ما ليسوا الطبقة التى تتبلور فى الرأسمالية الأولى صاحبة المشاريع والمراكمة للثروة. عن دور تجار العصور الوسطى فى بدايات الرأسمالية انظر Thrupp, The Merchant Class of Medieval London (1300-1500) (1948); Carus-Wilson, Medieval Merchant Venturers (1967).

(٥١) R. W. Bailey, "Africa, the Slave Trade, and the Rise of Industrial Capitalism in Europe and the United States: A Historiographic Review" (1986); W. Darity, Jr., "British Industry and the West Indies Plantations" (1990).

(٥٢) كانت هناك استثناءات بالطبع. يجادل بروكس أدامز فى عمله الصادر عام ١٨٩٥ قانون الحضارة والانهيار (PP. 259-260) أن النصر البريطانى فى بلاسى عام ١٧٥٧ الذى أعطى بريطانيا فى الحال سهولة الوصول إلى القطن الهندى (وغيرها من "الغنائم" الهندية) حرك التصنيع الذى تفجر فى صناعة المنسوجات القطنية فى إنجلترا مما أدى مباشرة وفى الحال إلى الاختراعات المهمة فى هذه الصناعة: ماكينة الغزل ١٧٦٤ والمغزل ١٧٧٦ والمحرك البخارى لوات ١٧٦٨ .

(٥٣) انظر Palme Dutt, The Problem of India (1943); Alavi et al., Capitalism and Colonial Production (1982).

(٥٤) C. L. R. James, The Black]acobins: Toussaint L'Ouverture and the San Domingo Revolution (1938) and A History of Negro Revolt (1938); Eric Williams, Capitalism and Slavery (1944). انظر كذلك العمل التالى James, "The Atlantic Slave Trade and Slavery: Some Interpretations of their Significance in the Development of the United States and the Western World" (1970); والعمل اللاحق Williams, British Historians and the West Indies (1966). وإسهامات مهمة حديثة: R. W. Bailey, "The Slave(ry) Trade and the Development of Capitalism in the United States: The Textile Industry of New England" (1990); W. Darity, "British Industry and the West Indian Plantations" (1990); J. Inikori, "Slavery and the Revolution in Cotton Textile Production in England" (1989). أيضًا انظر ملاحظة ٦٠ أدناه.

(٥٥) The Black]acobins (1938), pp. 47-48.

(٥٦) جادلت فى مكان آخر (Blaut, The National Question, 1987b, chap. 7) أن مستوى القهر والاستغلال المرتبط بعمالة العبيد كما كانت تستخدم فى المزارع لا يمكن أن تنطبق على أعضاء المجتمع الثقافى الأوروبى نفسه (لقد حاولت ولكنى سرعان ما عدت لتفضيل عمالة العبيد). بوجه عام، القوانين والممارسات الثقافية تحد مستوى استغلال المنتجين داخل المجتمع - أمر يتعلق بالحفاظ على السلام الاجتماعى فى المجتمع - ولكن لا تنطبق مثل هذه القوانين على العمالة الخارجية أو الأجنبية.

(٥٧) انظر المراجعة الممتازة C. Robinson, "Capitalism, Slavery and Bourgeois Historiography" (1987). وأيضًا عمل Bailey الممتاز، "The Slave(ry) Trade and the Development of Capitalism in the United States" (1990).

(٥٨) انظر Brenner's "The Origins of Capitalist Development: A Critique of Neo-Smithian Marxism" (1977); E. Laclau, Politics and Ideology in Marxist Theory (1977).

(٥٩) Wallerstein, The Modem World System (1974-1988) .

(٦٠) انظر Bailey, "The Slave(ry) Trade and the Development of Capitalism in the United States" (1990), Darity, "British Industry and the West Indian Plantations" (1990), Mintz, Sweetness and Power: The Place of Sugar in Modem History (1985), and Robinson, "Capitalism, Slavery and Bourgeois Historiography" (1987); also, see Beckles, "'The Williams Effect': Eric Williams' Capitalism and Slavery and the Growth of West Indian Political Economy" (1987); Sheridan, Sugar and Slavery (1973), and his "Eric Williams and Capitalism and Slavery: A Biographical and Historiographical Essay" (1987); Solow, "Capitalism and Slavery in the Exceedingly Long Run" (1987); Inikori, "Slavery and the Development of Industrial Capitalism" (1989); Rodney, How Europe Underdeveloped Africa (1972).

(٦١) يتعامل بعض الماركسيين بنفس الطريقة "الذى ميز التطور الصناعى الإنجليزى فى الفترة الحديثة الأولى كان شخصيتها المستمرة فى قدرتها على دعم نفسها وتوفير ديناميكيتها الدائمة. هنا ... وجد الأساس فى الهيكل الرأسمالى للزراعة [الإنجليزية" [(Brenner, "Agrarian Class Structure and Economic Development in Pre-Industrial Europe," 1985, p. 53).

الخاتمة

فى هذا الكتاب فكرتان أساسيتان أو مجادلتان. الأولى فى الفصل الأول وهى أنى أحاول شرح نظرية انتشار المركزية الأوروبية كمجموعة من الأفكار، وأوضح كيف أن هذه النظرية - أو النظرية المدهشة أو نموذج العالم - أصبحت تسيطر على الفكر البحثى الأكاديمى الأوروبى منذ قرن مضى، وما زالت إلى اليوم. ثانيًا فى الفصل الثانى والثالث والرابع أختبر بحذر الجزء الأهم من نظرية الانتشار وهو النظرية القائلة بتفوق أو تميز أوروبا التاريخى، نظرية "المعجزة الأوروبية" محاولاً تفنيدها.

تحتاج نظرية الانتشار أن تحلل بدرجة أكبر من التى قدمتها فى هذا الكتاب. عديدٌ من نظريات الانتشار والبرامج اليوم لها تأثير مهم بشكل مؤسف على كثير من مجالات الفكر والعمل مما لم تتم مناقشتة هنا. فى كتابات أخرى ناقشت تأثير نظرية الانتشار على المستوى النظرى والعملى الذى يتعلق بالسؤال القومى أو القومية،[١] وعلى المستوى النظرى والعملى فيما يتعلق بتطور الزراعة[٢] . قام كتاب آخرون بالطبع بدراسة جوانب عديدة من نظرية الانتشار والمشاكل التى تسببت فيها[٣] . ولكن بوجه عام فإن نقد تلك النظرية قد بدأ لتوه.

يجب على النقد أن يمتد عبر مجالات عديدة للدراسة الأكاديمية والعملية. هنا - لتوضيح تلك النقطة فقط - أقدم أربعة أمثلة:

١ - الازدواجية الفلسفية: مجموعة المبادئ المعرفية والوجودية التى تطورت فى الفكر الأوروبى منذ ديكارت إلى كانت ثم أتباع كانت الجدد يبدو أنها انعكاس جزئى لازدواجية الداخل والخارج. العقل بالداخل أما باقى الأشياء المحسوسة فتوجد فى الخارج أى العالم غير الأوروبى ونشاط قاطنيه الفكرى اللاعقلانى.

٢ – ما يسمى بنظرية الضربة المدوية Big bang theory وهى المنادية بأن كل شىء بدأ فى نقطة زمنية ومكانية واحدة وكانت تلك النقطة هنا ويمكن اعتبارها نظرية الانتشار. لا يوجد دعم قوى لتفسير نشأة الكون لدى هذه النظرية من خلال الأدلة العملية أكثر من كونها إحساسًا بأن الفكرة كلها تعد "معقولة"، إنه الحكم الأساسى (كما لاحظنا فى الفصل الأول) الذى تعكس فيه الثقافة انحيازاتها داخل العلم[٤] .

٣ – نظرية انتشار الإيدز فى أفريقيا تذكرنا بسلسلة تاريخية من النظريات كلها توضح أن وباء ينتشر بطريقة عكسية من المناطق غير الأوروبية لأوروبا. (لقد ناقشنا بعض جوانب هذا التساؤل فى الفصلين الأول والثانى). هناك كتاب جديد تحت عنوان الإيدز، أفريقيا والعنصرية يعطى أدلة مهمة على أن نظرية خروج الإيدز وانتشاره من أفريقيا هى ببساطة تجسيد جديد لوجهة نظر نظرية الانتشار فى المرض الإنسانى[٥] . وإذا كان هذا صحيحًا فإن سببية المرض الذى يسببه فيروس نقص المناعة المكتسب HIV يمكن أن يعاد النظر فيها. قد تكون الأشكال الموجودة خارج أفريقيا مناسبة أكثر للتفسير والشفاء من الموجودة داخلها.

٤ – يبدو أن نظريات عديدة عن التاريخ الاقتصادى من بداية الثورة الصناعية وعن التطور الاقتصادى اليوم تشبعت بنظرية الانتشار. لم تنتشر الثورة الصناعية خارجة من أوروبا إلى غيرها. فأصولها وجدت فى أوروبا وخارجها (ناقشنا هذه الأمر فى الفصل الرابع)، كما أن مفهوم التصنيع الذى انتشر فى العالم غير الأوروبى يعد فكرة غير صحيحة. إن انتشار فكرة مصنع التجميع على غرار ماكوالادورا Maquila-dora(*) فى العالم الثالث ليست فكرة تصنيعية أصلية وهو نوع من نظام التوكيل المسمى putting out(*) حيث يوفر الخارج العمالة الرخيصة ويوفر الداخل معظم المواد

(*) Maquiladora: مصنع للتجميع فى المكسيك يدار بواسطة شركات أمريكية يستورد مواد ومعدات ثم يقوم بتجميعها وإعادة تصديرها.

(*) putting out: يقوم وكيل متكفل بإنهاء عمل ما بتوزيع توكيلات هذا العمل على عملاء آخرين عادةً.

الخام ومعظم الاستهلاك ثم يدخر كل الأرباح وما يتعلق بالبنية الأساسية. بدأ التصنيع فى اليابان منذ زمن قديم ولم يكن أثراً للانتشار(٦) . لم يقم التصنيع فى كوريا وواحده أو اثنتين أخريين من الدول الصغيرة فى شرق آسيا فى العقود الأخيرة على التقليد(٧). انتشار التصنيع إذاً ليس عملية انتشار بسيطة ولكنه جدول أعمال سياسى. كما أنه جدول أعمال للبحث الأكاديمى.

لذا ليس لهذا الكتاب خاتمة حقيقية. إن الكتاب نفسه مقدمة: مقدمة لدراسة وتشخيص وعلاج مرض عقلى عضال.

الهوامش

(١) Blaut, The National Question (1987b); Blaut and Figueroa, Aspectos de la cues- tién nacional en Puerto Rico (1988) .

(٢) Blaut, "Two Views of Diffusion" (1977) and "Diffusionism: A Uniformitarian Critique" (1987a).

(٣) قدمت مراجع هذا العمل فى الفصول الثانى والثالث والرابع.

(٤) انظر Talkington, "But the Editor Looks at the Universe from a Different Frame of Reference" (1986); Frankel, "Marxism and Physics: A New Look" (1991).

(٥) Chirimuuta and Chirimuuta, AIDS, Africa and Racism (1989). يقدم شانون وبايل رأى لنظرية الانتشار عن الإيدز فى "The Origin and Diffusion of AIDS" (1989)؛ انظر نقد هذا الرأى فى Watts, "Medical Geography and AIDS" (1990).

(٦) أصبحت اليابان صناعية بالتحديد بسبب نقص الانتشار. كانت الدولة غير الأوروبية الوحيدة التى تمكنت من تجنب الهيمنة الأوروبية. وكان هذا نتيجة صعوبة الوصول إليها. كانت فيما بين المجتمعات الكبيرة الأبعد والأصعب وصولاً إليها من ناحية الأوروبيين، وفى الوقت الذى أخضعت فيه العسكرية الأوروبية الصين فى القرن التاسع عشر كانت اليابان قد أصبح لديها القدرة أن تبدأ التحديث العسكرى مما أهلها للانتصار على روسيا وبدايات التوسع الاستعمارى وبداية الثورة الصناعية فى ١٩٠٠ .

(٧) فى نهاية المقياس دول ضخمة مثل الهند والبرازيل لديها صناعة كبيرة ولكن بالمقارنة بحجمها – وتعداد السكان – فهى ليست أكثر صناعية من دول العالم الثالث الأصغر. انظر Amin, Delinking: Toward a Polycentric World (1990).

المؤلف فى سطور :

چي . إم . بلاوت

- أستاذ الجغرافيا بجامعة إلينوى - شيكاغو ، عمل فى عدد كبير من جامعات العالم من بينها "ييل" و"كورنيل" و"كونيكتكت" و"جامعة "پورتريكو" وجامعة الملايو بسنغافورة .

- له ثلاثة كتب وعدد كبير من المقالات حول الجغرافيا التاريخية والسياسية فى العالم الثالث .

المترجمة فى سطور :

هبه مرسى الشايب

- باحثة ومترجمة حاصلة على الماجستير فى العلوم الاجتماعية من الجامعة الأمريكية - القاهرة .

- هذا العمل هو باكورة أعمالها المترجمة المنشورة .

المراجع فى سطور :

فيصل عبد القادر يونس

- أستاذ علم النفس بجامعة القاهرة ، له مؤلفات بحثية عديدة منشورة فى دوريات علمية مصرية وأجنبية .

- ترجم وراجع العديد من الكتب المتخصصة .

التصحيح اللغـوى : **أحمد عبده**
الإشــراف الفنــى : **حسن كامل**